

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

مَدَارِجُ السَّالِكِينَ
بَيْنَ مَسَارِلِ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِلَّاكَ تَسْتَعِينُ
الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ

حَقْوُونَ الطَّبِيعِ كَفُوفَةً

الطَّبَعَةُ الْأُولَى

هـ١٤٣٩

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٤٤٤٠

ISBN: 978-977-430-224-4

القسطاوي

للطباعة والتجليد

٠٢٠١٣١٩٩٥٥٥

وقف الله تعالى
ولا يجوز بيعه

مَدَارِ السَّالِكِينَ

بَيْنَ مَنَازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

(طَبْعَةٌ مُحَفَّفَةٌ تَمَّ فِيهَا اسْتِدْرَاكُ قِرَاءَةِ سَبْعِينَ سَطْرًا مِنْ طَبْعَةِ الْفِقْهِ)

تَأَلَّفَ

شَرِّحَ الدِّينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ قِيَمٍ الْجُوزِيَّ

تَحْقِيقَ

عَبْدَ الْعِزِّ بْنِ نَاصِحِ الْجَلِيلِيِّ

المجلد الثالث

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



فصل [منزلة الصّدق]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ منزلة الصّدق.

وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكّان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع على شيء إلا قطعته، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تردّ صولته، ومن نطق به علت^(١) على الخصوم كلمته.

فهو روح الأعمال، ومحكّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدّين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوّة التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنّات^(٢) تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصّديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدّار مدد متّصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصّادقين، وخصّ المنعم عليهم بالنبيين والصّديقين والشّهداء والصّالحين، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشّٰهِدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ﴾ فهم الرّفيق الأعلى ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَٰكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. ولا يزال الله يمدّهم بأنعمه والطفه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً.

ولهم مرتبة المعية مع الله؛ فإن الله مع الصّادقين، ولهم منزلة القرب منه؛ إذ درجتهم منه ثاني^(٣) درجة النّبيين، وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له؛ فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

(١) كلمة (علت): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ»: (الجنان).

(٣) في «غ» والمنار: (بأدنى).

وأخبر تعالى عن أهل البرِّ، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق^(١) فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَلَتْكَ وَالْكِتَابِ وَالْتَبَتِ نَفْسَهُ إِلَىٰ الْمَالِ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا صريح في أنَّ الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأنَّ الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه النَّاسَ إلى صادقٍ ومنافقٍ، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسه الصدق، والتَّفَاقُ أساسه الكذب، فلا يجتمع كذبٌ وإيمانٌ إلاَّ وأحدهما محاربٌ للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلاَّ صدقه، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ [الزمر: ٣٣] فالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ: هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصِّدْقُ في هذه الثلاثة:

- فالصِّدْقُ في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السُّنْبُلَةِ على ساقها.
- والصِّدْقُ في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرَّأْسِ على الجسد.
- والصِّدْقُ في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطَّاقَةِ.

فبذلك يكون العبد من الَّذِينَ جَاءُوا بِالصَّدَقِ، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صِدْقِيَّتُهُ؛ ولذلك كان لأبي بكر الصِّدِّيقِ رضي الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصِّدْقِيَّةِ، سُمِّيَ الصِّدِّيقِ على الإطلاق، والصِّدِّيقُ أبلغ من الصِّدْقِ والصِّدْقُ أبلغ من الصَّادِقِ.

فأعلى مراتب الصِّدْقِ: مرتبة الصِّدْقِيَّةِ، وهي كمال الانقياد للرَّسُولِ ﷺ، مع كمال الإخلاص

للمرسِلِ.

(١) جملة: (بأنهم أهل الصدق) ساقطة من «غ» والمنار.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق؛ فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) [الإسراء: ٨٠].
وأخبر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين (١)، فقال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) [الشعراء: ٨٤].

وبشّر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].
وقال: ﴿إِنَّ الْتَائِبِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].
فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق، ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته [متصلاً] (٢) بالظفر بالبغيّة وحصول المطلوب، ضدّ مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه عليه السلام هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله عليه السلام المدينة: كان مدخل صدق بالله، والله، وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادّةً لله ورسوله (٣)، فلم يتصل به إلا الخذلان والبولار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله عليه السلام حصن بني قريظة؛ فإنه لما كان مدخل كذب أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل [معهم] (٤) ومخرج كان بالله والله؛ فصاحبه ضامنٌ على الله، فهو مدخل صدق،

(١) في «ع» والمنار: (في الناس).

(٢) هذه الزيادة في «ع» والمنار: وساقطة من طبعة (الفاقي)، وقد أثبتناها في الأصل لمناسبتها.

(٣) في «ع» والمنار: (بل مخالفة لله ورسوله).

(٤) كلمة (معهم) غير موجودة في «ع» والمنار، ولعل الصواب حذفها.

ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُخْرَجَ مَخْرَجًا لَا أَكُونُ فِيهِ ضَامِنًا عَلَيْكَ.

يريد: ألا يكون المخرج مخرج صدق؛ ولذلك فسّر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل، فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمدخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخرج صدق؛ إذ هي لله، وبالله، وبأمره، ولا بتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلًا آخر إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله لا يعدو الصدق والكذب، والله المستعان.

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناءً بالكذب، كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم: ٥٠]، والمراد باللسان هاهنا: الثناء الحسن؛ فلما كان الصدق باللسان، وهو محله، أطلق الله سبحانه السنة العباد بالثناء على الصادق، جزاءً وفاقًا، وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معانٍ: هذا.

- واللغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقوله: ﴿وَأَخْلَفْنَا لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْهِمْ﴾ [الروم: ٢٢].

وقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٣﴾ [النحل: ١٣].

- ويراد به الجارحة نفسها، كقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: ١٦].

وأما قدم الصدق: ففسّر بالجنة، وفسّر بمحمد ﷺ، وفسّر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة القدم ما قدموه، وما يُقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه، ومن فسره بالأعمال وبالنبى ﷺ فلائتهم قدموها، وقدموا الإيمان به بين أيديهم؛ فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الربّ تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته؛

فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضار، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه.

ومن علامات الكذب: حصول الريبة.

كما في الترمذي مرفوعاً من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»^(١).

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٢).

فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها، وهي غايته؛ فلا ينال درجتها كاذبٌ ألبتة، لا في قوله، ولا في عمله، ولا في حاله، ولا سيما كاذبٌ على الله في أسمائه وصفاته، ونفي ما أثبتته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صديقٌ أبداً.

وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه، بتحليل ما حرّمه، وتحريم ما لم يحرمه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبه، كل ذلك منافع للصديقية. وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدین المتوكلين، وليس (في الحقيقة)^(٣) منهم.

فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر ظاهرًا وباطنًا. حتى إن صدق المتبايعين يحلُّ البركة في بيعهما، وكذبهما يمحق بركة بيعهما، كما في «الصحيحين» عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما»^(٤).

(١) الترمذي في صفة القيامة باب (٦٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٤٥).

(٢) رواه البخاري في الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكُفُّوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١١٩) (٦٠٩٤)، ورواه مسلم في البر والصلة، باب: تحريم النميمة (٢٠٦).

(٣) جملة (في الحقيقة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) رواه بهذا اللفظ البخاري في «البيوع»، باب إذا بين البيع ولم يكتما ونصحا (٢٠٧٩)، ورواه مسلم في البيوع، باب: الصدق في البيع (١٥٣٢).

فصل في كلمات في حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد^(١): «الصدق: الوفاء لله بالعمل».

وقيل: موافقة السرّ النطق.

وقيل: «استواء السرّ والعلانية؛ يعني: أن الكاذب علانيته خير من سريرته، كالمُتأفّق الذي ظاهره خير من باطنه».

وقيل: الصدق: القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد^(٢): «الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرّة، والمُرّائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة».

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح: وقد يسبق إلى الذهن خلافه، وأن الكاذب متلون؛ لأن الكذب ألوان، فهو يتلون بتلونه، والصادق مستمر على حالة واحدة؛ فإن الصدق واحد في نفسه، وصاحبه لا يتلون ولا يتغير.

لكن مراد الشيخ^(٣) أبي القاسم صحيح غير هذا؛ فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرّائي، بل هو فارغ منها؛ فإنه^(٤) لا يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرّائين، ولا يعارضهم الشيطان كما يعارض الصادقين؛ فإنه لا أرب له في خربة لا شيء فيها.

وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها، فلا تراه إلا هارباً من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل، ومن حال إلى حال، ومن سبب إلى سبب؛ لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها، ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه، فهو لا يساكن حالة ولا شيئاً دون مطلوبه، فهو كالجوال في الآفاق في طلب الغنى الذي يفوق به الأغنياء، والأحوال والأسباب تتقلب به، وتقييمه

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) كلمة (الشيخ) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) كلمة (فإنه) غير موجودة في «غ» والمنار.

وتقعده، وتحركه وتسكنه، حتّى يجد فيها ما يعينه على مطلوبه، وهذا عزيزٌ فيها، فقلبه في تقلُّبٍ وحركةٍ شديدةٍ بحسب سعة^(١) مطلوبه، وعظمته وهمته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسمٍ أو حالٍ، أو يساكن شيئاً غيره، فهو كالمحبِّ الصادق، الَّذي همته التفتيش على محبوبه، وكذا^(٢) حال الصادق في طلب العلم، وحال الصادق في طلب الدنيا، فكلُّ صادقٍ في طلب شيءٍ لا يستقرُّ له قرارٌ، ولا يدوم على حالةٍ واحدةٍ.

وأيضاً: فإنَّ الصادق مطلوبه رضا ربِّه، وتنفيذ أوامره، وتتبُّع محابِّه، فهو متقلِّبٌ فيها يسير معها أين توجهت ركائبها، ويستقلُّ معها أين استقلت مضاربها؛ فبينما هو في صلاةٍ إذ رأته في ذكرٍ ثمَّ في غزوةٍ، ثمَّ في حجٍّ، ثمَّ في إحسانٍ للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثمَّ في أمرٍ بمعروفٍ، أو نهْيٍ عن منكرٍ، أو في قيامٍ بسببٍ في عمارة الدِّين والدُّنيا، ثمَّ في عيادة مريضٍ، أو تشييع جنازةٍ، أو نصر مظلومٍ - إن أمكن - إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

فهو في تفرُّقٍ دائمٍ لله، وجمعيَّةٍ^(٣) على الله، لا يملكه رسمٌ ولا عادةٌ ولا وضعٌ، ولا يتقيَّد بقيدٍ ولا إشارةٍ، ولا بمكانٍ معيَّنٍ يصلِّي فيه لا يصلِّي في غيره، وزِيٍّ معيَّنٍ لا يلبس سواه، وعبادةٍ معيَّنةٍ لا يلتفت إلى غيرها، مع فضل غيرها عليها، أو هي أعلى من غيرها في الدرّجة، وتُعدُّ ما بينهما كبعد ما بين السَّماء والأرض.

فإنَّ البلاء والآفات والرِّياء والتّصنُّع، وعبادة النَّفس، وإيثار مرادها، والإشارة إليها كلّها في هذه الأوضاع والرُّسوم والقيود، التي حبست أربابها عن السَّير إلى قلوبهم، فضلاً عن السَّير من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه وزِيَّه وقيده وإشارته - ولو إلى أفضل منه - استهجن ذلك، ورآه نقصاً، وسقوطاً من أعين النَّاس، وانحطاطاً لرتبته عندهم، وهو قد انحطَّ وسقط من عين الله.

وقد يحسُّ أحدهم ذلك من نفسه وحاله، ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزِيَّه وقيوده أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه، وهذا شأن الكذّاب المرائي الَّذي يبدي للنَّاس خلاف ما يعلمه الله في باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته، وهذا هو التَّفّاق بعينه، ولو كان عاملاً على مراد الله منه، وعلى الصّدق مع الله لأنثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرُّسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه، ولما بالى أيُّ ثوبٍ لبس، ولا أيُّ عملٍ عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.

(١) كلمة (سعة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (ولهذا)، في المنار: (وكهذا).

(٣) في «غ»: (وجمعيته).

فكلام أبي القاسم الجنيد^(١) حقٌّ، كلام راسخٍ في الصدق، عالمٍ بتفاصيله وآفاته، ومواقع اشتباهه بالكذب.

وأيضاً: فحمل الصدق كحمل الجبال الرّواسي، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلّبون تحته تقلّب الحامل بحمله الثّقيل، والرّياء والكذب خفيفٌ كالرّيشة لا يجد له صاحبه ثقلاً ألبتّة، فهو حاملٌ له في أيّ موضع اتّفق، بلا تعبٍ ولا مشقّةٍ ولا كلفةٍ؛ فهو لا يتقلّب تحت حملة ولا يجد ثقله. وقال بعضهم: لا يشتم رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسه أو غيره.

وقال بعضهم: الصادق الذي يتهياً له أن يموت ولا يستحيي من سرّه لو كشف، قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قلت: هذه الآية فيها للنّاس كلامٌ معروفٌ.

قالوا: إنّها معجزة النّبي ﷺ، أعجز بها اليهود، ودعاهم إلى تمني الموت، وأخبر أنّهم لا يتمنّونه أبداً، وهذا علّم من أعلام نبوته ﷺ؛ إذ لا يمكن الاطّلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب، ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنييه أبداً.

وقالت طائفة: لما ادّعت اليهود أنّ لهم الدّار الآخرة عند الله، خالصةً من دون النّاس، وأنّهم أبناؤه^(٢) وأحبّاءه وأهل كرامته، كذبهم الله في دعواهم، وقال: إن كنتم صادقين فتمنّوا الموت لتصلوا إلى الجنّة دار النّعيم، فإنّ الحبيب يتمنّى لقاء حبيبه، ثمّ أخبر سبحانه أنّهم لا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه، فقال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥].

وقالت طائفة - منهم محمّد بن إسحاق وغيره - : هذه من جنس آية المباهلة، وأنّهم لما عاندوا، ودفعوا الهدى عياناً، وكنمووا الحقّ دعاهم إلى أمرٍ يحكم بينهم وبينه، وهو أن يدعوا بالموت على الكاذب المفترى، والتّمني سؤالٌ ودعاءٌ، فتمنّوا الموت، وادعوا به على المبطل الكاذب المفترى.

وعلى هذا فليس المراد: تمنّوه لأنفسكم خاصّةً كما قاله أصحاب القولين الأوّلين، بل معناه^(٣): ادعوا بالموت وتمنّوه للمبطل، وهذا أبلغ في إقامة الحجّة وبرهان الصدق، وأسلم من أن يعارضوا رسول الله بقولهم: فتمنّوه أنتم أيضاً إن كنتم محقّين أنّكم أهل الجنّة، لتقدّموا على ثواب الله وكرامته، وكانوا أحرص شيءٍ على معارضته، فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) لفظة (أبناؤه) ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) لفظة (معناه) ساقطة من «غ» والمنار.

وأيضًا: فإننا نشاهد كثيرًا منهم يتمنى الموت لضربه وبلائه، وشدة حاله، ويدعو به، وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة، فإن هذا لا يكون أبدًا، ولا وقع من أحدٍ منهم في حياة النبي ﷺ البتة، وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه، وكفرهم به حسدًا وبغيًا، فلا يتمنوه أبدًا لعلمهم أنهم هم الكاذبون، وهذا القول هو الذي نختاره، والله أعلم بما أراد من كتابه.

وقال إبراهيم الخواص: «الصادقُ لا تراه إلا في فرضٍ يؤدِّيه، أو فضلٍ يعملُ فيه».

وقال الجعيد^(١): «حقيقةُ الصدقِ: أن تصدقَ في موطنٍ لا يُنجيك منه إلا الكذب».

وقيل: ثلاثٌ لا تخطئُ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة.

وفي أثرٍ إلهيٍّ: «من صدقني في سريريته صدقته في علانيته عند خلقي».

وقال سهل بن عبد الله^(٢): «أولُ خيانةِ الصديقين: حديثهم مع أنفسهم».

وقال يوسف بن أسباط^(٣): «لأنَّ أبيتَ كيلةَ أعمالِ الله بالصدقِ أحبُّ إليَّ من [أن] ^(٤) أضربَ

بسيئي في سبيلِ الله».

وقال الحارث المحاسب^(٥): «الصادقُ هو الذي لا يُبالي لو خرجَ كلُّ قدرٍ له في قلوبِ الخلقِ

من أجلِ صلاحِ قلبه، ولا يُحبُّ اطلاعَ الناسِ على مَثاقيلِ الذرِّ من حسنِ عمله، ولا يكرهُ أن يطَّلَعَ

الناسُ على السيِّئِ من عمله، فإنَّ كراهتهُ لذلكِ دليلٌ على أنه يُحبُّ الزيادةَ عندهم، وليسَ هذا من

علاماتِ الصديقين».

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ كراهته لا اطلاعَ الناسِ على مساوئِ عمله من جنسِ كراهته للضرِّب والمرض

وسائرِ الآلام، وهذا أمرٌ جبليٌّ طبيعيٌّ^(٦)، ولا يخرجُ صاحبه عن الصدق، لاسيما إذا كان قدوةً متبعا،

فإنَّ كراهته لذلكِ من علاماتِ صدقه؛ لأنَّ فيها مفسدتين:

- مفسدة ترك الاقتداء به. واتباعه على الخير وتنفيذه.

- ومفسدة اقتداء الجهال به فيها.

فكراهيته لا اطلاعهم على مساوئِ عمله لا تنافي^(٧) صدقه، بل قد تكون من علاماتِ صدقه.

(١) لفظه (رسول الله) ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) ما بين المعكوفين ساقط من طبعة (الفتي) وأثبتناه من نسخة «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٦) كلمة (طبيعي): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٧) في «غ» والمنار: (لا ينافي).

نعم: المنافى للصدق: ألا يكون له مرادٌ سوى عمارة حاله عندهم، وسكناه في قلوبهم تعظيمًا له، فلو كان مراده تنفيذًا لأمر الله، ونشرًا لدينه، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، ودعوةً إلى الله فهذا الصادق حقًا، والله يعلم سرائر القلوب ومقاصدها.

وأظنُّ أن هذا هو (١) مراد المحاسبي بقوله: «وَلَا يَكْرَهُ أَطْلَاعَ النَّاسِ عَلَى السَّيِّئِ مِنْ عَمَلِهِ» فَإِنَّهُمْ [يرون] (٢) ذلك فضولًا ودخولًا فيما لا يعني.

فرضي الله عن أبي بكر الصديق حيث قال: «لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا - أَوْ عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ» (٣). فهذا وأمثاله يعدُّونه ويرونه من سيئ الأعمال عند العوامِّ والجهال.

وقال بعضهم: من لم يؤدِّ الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت.

قيل: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق.

وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحقَّ والباطل.

وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك؛ فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك؛ فإنه يضرك.

وقيل: ما أملك (٤) تاجرٌ صدوق.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الصدق: اسمٌ لحقيقة الشيء بعينه حُصُولًا وُجُودًا».

الصدق: هو حصول الشيء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمةٌ صادقةٌ إذا كانت قويةً تامةً، وكذلك: محبةٌ صادقةٌ، وإرادةٌ صادقةٌ، وكذا قولهم: حلاوةٌ صادقةٌ إذا كانت قويةً تامةً ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيءٌ.

ومن هذا أيضًا: صدق الخبر؛ لأنه وجود المخبر بتمام حقيقته في ذهن السامع.

(١) كلمة (هو): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في طبعة الفقي، والمنار (يريدون) في «غ» (يرون)، وهو الصواب؛ ولذلك أثبتته هنا بين المعكوفتين.

(٣) رواه البخاري في «الزكاة»، باب: وجوب الزكاة (١٤٠٠) بلفظ آخر، ومسلم في «الإيمان»، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢٠).

(٤) أملك من الإملاق وهو الفقر. ومعناه: لا يفتقر التاجر الصدوق.

فالتّمَام والوجود نوعان: خارجيّ، وذهنّي؛ فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادقٍ حصلت له حقيقة المخبر عنه بكَماله وتَمامه في ذهنه.

ومن هذا: وصفهم الرّمح بأنّه صادق الكعوب، إذا كانت كعوبه صلبةً قويّةً ممتلئةً.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: صِدْقُ الْقَصْدِ، وَبِهِ يَصِحُّ الدُّخُولُ فِي هَذَا الشَّانِ، وَيُتَلَاَفِي بِهِ كُلُّ تَفْرِيطٍ، وَيَتَدَارَكُ بِهِ كُلُّ فَائِتٍ، وَيُعْمَرُ كُلُّ خَرَابٍ، وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّادِقِ: أَلَّا يَتَحَمَّلَ دَاعِيَةً تَدْعُو إِلَى نَقْضِ عَهْدِهِ، وَلَا يَصْبِرَ عَلَى صُحْبَةِ ضِدِّهِ، وَلَا يَقْعُدَ عَنِ الْجِدِّ بِحَالٍ».

يعني بصدق القصد: كمال العزم، وقوّة الإرادة، أن يكون في القلب داعيةً صادقةً إلى السُّلوك، وميلٌ شديدٌ يقهر السَّرَّ على صحّة التَّوجُّه، فهو طلبٌ لا يمازجه رياءٌ ولا فتورٌ، ولا يكون فيه قسمةٌ بحالٍ، ولا يصحُّ الدُّخول في شأن السَّفَر إلى الله، والاستعداد للقاءه إلّا به.

و«يُتَلَاَفِي بِهِ كُلُّ تَفْرِيطٍ» فإنّه حاملٌ على كلِّ سببٍ ينال به الوصول، وقطع كلِّ سببٍ يحول بينه وبينه، فلا يترك فرصةً تفوته، وما فاته من الفرص السَّابِقة تداركها بحسب الإمكان، فيصلح من قلبه ما مزّفته يد الغفلة والشَّهوة، ويعمّر منه ما خرّبه يد البطالة، ويوقد فيه^(١) ما أطفأته أهوية النّفس، ويلمّ منه ما شعّته يد التّفريط والإضاعة، ويستردُّ منه ما نهبته أكفُّ اللُّصوص والسُّراق، ويزرع منه ما وجده بوراً من أراضيه، ويقلع ما وجده شوگًا وشبرقًا في نواحيه، ويستفرغ منه ما ملأته موادُّ الأخلاط الرديئة الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب، ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عبرات الرّياء، ويغسل منه الأوساخ والحبوبات التي تراكمت^(٢) عليه على تقادم الأوقات، حتّى لو اطّلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغًا له، فيطهّره بالماء البارد من يبايع الصّدق الخالصة من جميع الكدورات، قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم، فإنّه لا يجاور الرّحمن قلبٌ دنسٌ بأوساخ الشّهوات والرّياء أبدًا، ولا بدّ من طهور، فاللّيب يؤثر أسهل الطّهورين وأنفعهما، والله المستعان.

وقوله: «وَعَلَامَةُ هَذَا الصَّادِقِ: أَلَّا يَتَحَمَّلَ دَاعِيَةً تَدْعُو إِلَى نَقْضِ عَهْدِهِ».

يعني: أن الصّدق حقيقةً: هو الذي قد انجذبت قوئ روحه كلّها إلى إرادة الله وطلبه، والسّير إليه، والاستعداد للقاءه، ومن تكون هذه حاله لا يحتمل سببًا يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجهٍ.

(١) في «غ» والمنار: (منه).

(٢) في والمنار: (تراكبت).

وقوله: «وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ صُحْبَةِ ضِدِّ». .

الضدُّ عند القوم: هم أهل الغفلة، وقطّاع طريق القلب إلى الله، وأضرُّ شيءٍ على الصّادق صحبتهم، بل لا تصبر نفسه على ذلك أبداً، إلّا جمع ضرورة، وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبّحه، دون قلبه وروحه؛ (فإنّ هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحکم الصّدق في الصّادق أحسّت روحه) (١) بالأجنبيّة التي بينه وبينهم بالمضادّة) (٢)، فاشتدّت النّفرة، وقوي الهرب، وبحسب هذه (٣) الأجنبيّة وإحساس الصّادق بها، تكون نفرتة وهربه عن الأضداد.

فإنّ هذا الضدّ إن نطق أحسّ قلب الصّادق أنّه نطق بلسان الغفلة، والرّياء والكبر، وطلب الجاه، ولو كان ذاكرًا أو قارئًا، أو مصلّيًا أو حاجًّا، أو غير ذلك، فنفر قلبه منه.

وإن صمت أحسّ قلبه أنّه صمت على غير حضورٍ وجمعيّة على الله، وإقبالٍ بالقلب عليه، وعكوف السّرّ عليه (٤)، فينفر منه أيضًا، فإنّ قلب الصّادق قويّ الإحساس، فيجد الغيريّة والأجنبيّة من الضدّ، ويَسْمُ القلبُ القلبَ كما يَسْمُ الرّائحةُ الخبيثة، فيزوي وجهه لذلك، ويعتريه عبوسٌ، فلا يأنس به إلّا تكلفًا، ولا يصاحبه إلّا ضرورةً، فيأخذ من صحبتته قدر الحاجة، كصحبة من يشتري منه، أو يحتاج إليه في مصالحه، كالزّوجة والخادم ونحوه.

قوله: «وَلَا يَقْعُدُ عَنِ الْجِدِّ بِحَالٍ»؛ يعني: أنّه لما كان صادقًا في طلبه مستجمع القوّة لم يقعد به عزمه عن الجدّ في جميع أحواله، فلا تراه إلّا جادًا، وأمره كلّ جدّ.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: أَلَّا يَتَمَتَّى الْحَيَاةَ إِلَّا لِلْحَقِّ، وَلَا يَشْهَدَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا أَثَرَ النَّقْصَانِ، وَلَا يَلْتَفِتَ إِلَى تَرْفِيهِ الرَّحْصِ».

أي: لا يحبُّ أن يعيش إلّا ليشبع من رضا محبوبه، ويقوم بعبوديّته، ويستكثر من الأسباب التي تقربّه إليه، وتدنيه منه، لا لعلّة من علل الدُّنيا، ولا لشهوةٍ من شهواتها.

(١) ما بين القوسين ساقط من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وبين صحبتهم والمصافة).

(٣) كلمة (هذه) ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) كلمة (عليه) غير موجودة في «غ» والمنار.

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لَوْ لَا ثَلَاثٌ لَمَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ: لَوْ لَا أَنْ أَحْمِلَ عَلَى جِيَادِ الْخَيْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمُكَابِدَةِ اللَّيْلِ، وَمُجَالَسَةِ أَقْوَامٍ يَنْتَقُونَ أَطْيَبَ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى أَطْيَبَ التَّمْرِ». يريد رضي الله عنه: الجهاد، والصلاة، والعلم النافع، وهذه درجات الفضائل، وأهلها هم أهل الزُّلفى، والدرجات العليا^(١).

وقال معاذ رضي الله عنه عند موته: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعَلَّمْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ الْبَقَاءَ لِجَرِي الْأَنْهَارِ، وَلَا لِعَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَلَا لِنِكَاحِ الْأَزْوَاجِ، وَلَكِنْ لِيُظْمَأَ الْهَوَاجِرِ، وَمُكَابِدَةِ اللَّيْلِ، وَمُزَاوَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ عِنْدَ حَلْقِ الذُّكْرِ».

وقوله: «وَلَا يَشْهَدُ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا أَثَرَ النُّقْصَانِ».

يعني: لا يرى نفسه إلا مقصراً، والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه، واستصغار نفسه، ومعرفته بعيوبها، وقلة زاده في عينه، فمن عرف الله وعرف نفسه لم ير نفسه إلا بعين النقصان.

وأما^(٢) قوله: «وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى تَرْفِيهِ الرَّخْصِ».

فلائته - لكمال صدقه، وقوة إرادته، وطلبه للتقدم - يحمل نفسه على العزائم، ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرخص.

وهذا لا بد فيه من التفصيل؛ فإن الصادق يعمل على رضا الحق تعالى ومحابه، فإذا كانت^(٣) الرخص أحب إليه تعالى من العزائم كان التفاته إلى ترفيها، وهو^(٤) عين صدقه، فإذا أضر في السفر، وقصر وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه، وخفف الصلاة عند الشغل، ونحو ذلك من الرخص التي يحب الله تعالى أن يؤخذ بها فهذا الالتفات إلى ترفيها لا ينافي الصدق.

بل هاهنا نكتة: وهي أنه فرق بين أن يكون التفاته إليها ترفهاً وراحةً، وأن يكون متابعةً وموافقةً، ومع هذا فالالتفات إليها ترفهاً وراحةً لا ينافي الصدق، فإن هذا هو المقصود منها، وفيه شهود نعمة الله على العبد، وتعبده باسمه البر، اللطيف، المحسن، الرفيق؛ فإنه رفيق^(٥) يحب الرفق، وفي الصحيح: «مَا خَيْرٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»^(٦)، لما فيه من روح التبعد باسم الرفيق، اللطيف، وإجمام القلب به لعبودية أخرى، فإن القلب لا يزال ينتقل في منازل العبودية، فإذا

(١) في «غ»: (العالية).

(٢) لفظ (وأما) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (كان).

(٤) في «غ» والمنار: (هو).

(٥) كلمة (رفيق) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٦) تقدم تخريجه (١٤٠/٢).

أخذ بترفيه رخصة محبوبه استعدَّ بها لعبوديةٍ أخرى، وقد تقطعه عزميتها عن عبوديةٍ هي أحبُّ إلى الله منها، كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه، والمفطر الذي يضرب الأخبية، ويسقي الرُّكَّاب، ويضمُّ المتاع؛ ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: «ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ»^(١).
أما الرُّخص التَّأويلية، المستندة إلى اختلاف المذاهب، والآراء التي تصيب وتخطئ فالأخذ بها عندهم عين البطالة منافٍ للصدق.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الصِّدْقُ فِي مَعْرِفَةِ الصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ لَا يَسْتَقِيمُ - فِي عِلْمِ أَهْلِ الْخُصُوصِ - إِلَّا عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ يَتَّفِقَ رِضَا الْحَقِّ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، أَوْ حَالِهِ، أَوْ وَقْتِهِ، وَإِيقَانِ الْعَبْدِ وَقَصْدِهِ بِكَوْنِ^(٢) الْعَبْدِ رَاضِيًا مَرْضِيًّا، فَأَعْمَالُهُ إِذَنْ مَرْضِيَّةٌ، وَأَحْوَالُهُ صَادِقَةٌ، وَقُصُودُهُ مُسْتَقِيمَةٌ، وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ كُيِّبَ ثَوْبًا مُعَارًا.

فَأَحْسَنَ أَعْمَالِهِ ذَنْبٌ، وَأَصْدَقُ أَحْوَالِهِ زُورٌ، وَأَصْفَى قُصُودِهِ قُغُودٌ».

يعني: أن الصِّدْقَ المتحقِّقَ إنما يحصل لمن صدق في معرفة الصِّدْقِ، فكأنه قال: لا يحصل حال الصِّدْقِ إلا بعد معرفة علم الصِّدْقِ.

ثمَّ عرَّفَ حقيقة الصِّدْقِ فقال: «لَا يَسْتَقِيمُ الصِّدْقُ - فِي عِلْمِ أَهْلِ الْخُصُوصِ - إِلَّا عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ يَتَّفِقَ رِضَا الْحَقِّ بِعَمَلِ الْعَبْدِ، أَوْ حَالِهِ، أَوْ وَقْتِهِ، وَإِيقَانِهِ، وَقَصْدِهِ». وهذا موجب الصِّدْقِ وفائدته وثمرته.

فالشَّيخ^(٣)؛ ذكر الغاية الدَّالَّةَ على الحقيقة التي يعرف انتفاء الحقيقة بانتفائها، وثبوتها بثبوتها. فإنَّ العبد إذا صدق الله: رضي الله بعمله، وحاله ويقينه، وقصده، لا أن رضا الله نفس الصِّدْقِ، وإنَّما يعلم الصِّدْقَ بموافقة رضاه سبحانه، ولكن من أين يعلم العبد رضاه؟!.

فمن هاهنا كان الصَّادِقُ مضطرًّا - أشدَّ الضَّرورة - إلى متابعة الأمر، والتَّسليم للرَّسول ﷺ، في

(١) رواه البخاري في الجهاد باب: الخدمة في الغزو (٢٨٩٠)، ومسلم في «الصيام»، باب: أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل (١١١٩).

(٢) في «غ» والمنار: (يكون).

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

ظاهره وباطنه، والافتداء به، والتّعبد بطاعته^(١) في كلّ حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله ﷻ، فإنّ الله تعالى لا يرضيه من عبده إلّا ذلك، وما عدا هذا فقوت النّفس، ومجرّد حظّها، واتباع^(٢) أهوائها، وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان، فإنّ الله ﷻ أبى أن يقبل من عبده عملاً، أو يرضى به، حتّى يكون على متابعة رسوله ﷺ، خالصاً لوجهه سبحانه.

ومن هاهنا يفارق الصّادق أكثر السّالكين، بل يستوحش في طريقه، وذلك لقلّة سالكيها؛ فإنّ أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم، وتجريد أنفاسهم لنفوسهم، ومتابعة رسوم شيوخهم، والصّادق في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ.

وقوله: «فَيَكُونُ الْعَبْدُ رَاضِيًا مَرْضِيًّا». لأنّه قد رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، فرضي الله به عبداً، وأعماله إذن مرضية لله، وأحواله صادقة مع الله، وقصوده مستقيمة على متابعة أوامر الله ﷻ.

وقوله: «وإن كان العبد كسيّ ثوباً معاراً، فأحسن أعماله ذنب، وأصدق أحواله زور، وأصغى قصوده قعود». هذا يراد به أمران:

- أحدهما: أن يكسى حلية الصّادقين، ويلبس ثيابهم على غير قلوبهم وأرواحهم، فثوب الصّدق عارية له، لا ملك له، فهو كالمتشعب بما لم يعط، فإنّه كلابس ثوبي زور، فهذا أحسن أعماله ذنب يعاقب عليه كما يعاقب المقتول في الجهاد، والقارئ القرآن المتنسك، والمتصدّق، ويكونون أوّل من تسعّر بهم النّار يوم القيامة، لمّا لبسوا ثياب الصّادقين على قلوب المرائين. هذا معنّى صحيح، ما أظنّ الشّيخ قصده.

وإنّما أظنّه قصد معنّى آخر: وهو أنّه متى تيقّن العبد أنّ وجوده ثوب معار، ليس منه، ولا له، وإنّما إيجاده وصفاته، وإرادته، وقدرته، وأعماله: عارية من الفعّال وحده، والعبد ليس له من ذاته إلّا العدم، فوجوده وحياته ثوب أعيره؛ فمتى نظر بعين الحقيقة إلى كسوته رأى أحسن أعماله ذنباً في هذا المقام، وأصدق أحواله زوراً، وأصغى قصوده قعوداً، فلا يرى لنفسه منه^(٣) عملاً، ولا حالاً ولا قصداً؛ فإنّه ليس له من نفسه إلّا الجهل والظلم، فكلّ ما من النّفس فهو ذنب وزور وقعود، وما كان مرضياً فهو بالله ومن الله والله، لا بالنّفس، ولا منها، ولا لها، فإنّ العبد إذا رأى أنّه قد فعل الطّاعة

(١) كلمة (بطاعته) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة (اتباع) غير موجودة في «غ».

(٣) كلمة (منه) غير موجودة في «غ» والمنار.

كانت^(١) رؤيته لذلك ذنبًا، فإنه قد نسب الفعل إليه، والله في الحقيقة هو المنفرد بالفعل. فعلى هذا لا يتخلص العبد من الذنب قط، فإنه إذا خلص فعله من الرياء ومن كل شيء يفسده اقترن به آخر لا يمكنه الخلاص منه، وهو اعتقاده أنه هو الفاعل. والصواب: أن هذا ليس بذنب، ولا هو مقدورٌ للعبد ولا مأمورٌ به، والكمال في حقه: أن يشهد الأمر كما هو عليه، وأنه فاعلٌ حقيقةً، كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله، والله هو الذي جعله فاعلاً، فإذا شهد نفسه فاعلاً حقيقةً، وشهد فاعليته بالله ومن الله، لا من نفسه، فلا ذنب في هذا الشهود، ولا زور بحمد الله.

وهو نظر بمجموع عينيه إلى السبب، والمسبب، والشرع، والقدر، والخلق، والأمر، [ثم لو صح ما ذكره لكان الكافر والعاصي والفاسق أيضًا لا ذنب له ولا معصية في حقيقة الأمر]^(٢)، وأنه متى شهد نفسه عاصيًا، مخالفاً، مذنبًا كان عاصيًا بهذا الشهود؛ لأنَّ الفاعل فيه غيره، وهذا منافٍ للعبودية أشدَّ منافاةً، وهو من سير القوم إلى شهود الحقيقة الكونية، واعتقادهم أنه غاية السالكين. فإن قيل: الشيخ هاهنا ما نطق بلسان الأبرار، وإنما نطق بلسان المقرِّين، ولا ريب أنَّ حسنات الأبرار سيئات المقرِّين، ولسنا نريد أنَّ شهود فعله ذنبٌ في الشرع، بل يكون حسنةً كما ذكرتم، لكن هو حسنةٌ للبرِّ، ذنبٌ للمقرَّب، فإنَّ نصيب البرِّ من السيئة ما جاء به العلم، ونصيب المقرَّب ما جاء به المعرفة التي هي أخصُّ من العلم. قيل: هذا أيضًا باطلٌ قطعاً؛ فإنَّ المعرفة الصحيحة مطابقةٌ للحقِّ^(٣) في نفسه شرعاً وقدرًا، وما خالف ذلك فمعرفةٌ فاسدةٌ.

والحقُّ في نفس الأمر: نسبة الأفعال إلى الفاعلين قيامًا ومباشرةً، وصدورًا منهم. وذلك محلُّ الأمر والنهي، والثواب والعقاب^(٤).

(١) في «ع» والمنار: (كان).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من جميع النسخ وأثبتناه من النسخة التي حققها بشير محمد عيون.

(٣) في «ع» والمنار: (الحق).

(٤) وجد في هامش «ع» والمنار ما نصه: «قيل: كتب الحسن البصري إلى الحسن بن علي: ما تقول في القضاء والقدر؟ فقال: من لم يؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على الله فقد فجر. إن الله لا يطاع استكراهًا ولا يعصى بغلبة؛ لأنه المالك لما ملكهم والقادر على ما أقدروهم. فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء لحال بينهم وبين ما فعلوا. فإذا لم يفعل فليس هو الذي جبرهم على ذلك، ولو جبر الله الخلف على الطاعات لأسقط عنهم الثواب، ولو جبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزًا في القدرة، ولكن له فيهم المشيئة التي غيبتها عنهم؛ فإن عملوا بالطاعات كانت له المنه عليهم، وإن عملوا بالمعاصي كانت لله الحجة عليهم والسلام». اهـ.

والقدح في ذلك مستلزمٌ لإبطال الشرع والجزاء؛ فإنَّ الشرع إنَّما أمر بأفعالنا ونهى عنها، والجزاء إنَّما ترتب عليها، فشهود أفعالنا كذلك من تمام الإيمان بالشرع والجزاء، ونسبتها إلى الرَّبِّ تعالَى، قضاءً وقدرًا، وخلقًا للأسباب التي منها إرادتنا وقدرتنا، فلم يجبرنا عليها ولم يكرهنا، بل خلقها بما أعطانا من القدرة والإرادة اللتين هما من أسباب الفعل.

فهذا المشهد يحقّق عبوديّة: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والمشهد الأوّل: يحقّق عبوديّة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهما يحقّقان مشهدي: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الإنسان: ٢٩، ٣٠] وقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨، ٢٩].

وما جاء به العلم لا يناقض ما جاءت به المعرفة، بل المعرفة روح العلم وليُّه وكمالُه، وحقيقتها: العلم الذي أثمر لصاحبه مقصوده، ولسان الأبرار لا يخالف لسان المقرّبين، إنَّما يخالف لسان الفجّار.

نعم، لسان المقرّبين أعلىٰ منه وأرفع، علىٰ مقتضى أعمالهم وأحوالهم، فنسبته إليه: كنسبة مقام التوكّل إلى الرضا، والرضا إلى الحمد والشكر.

فإن قيل: كلامكم هذا بلسان العلم، ولو تكلمتم بلسان الحال لعلمتم صحّة ما ذكرناه، فإنَّ صاحب الحال صاحب شهودٍ، وصاحب العلم صاحب غيبةٍ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، ونحن نشير إليكم إشارةً حاليّةً علميّةً، تنزّلًا من الحال إلى العلم.

فنقول: الحال تأثّر عن نورٍ من أنوار الأحديّة والفردانيّة، يستر (١) العبد عن نفسه، وييدي (٢) ظهور مشهوده، ولا ريب أنّ في هذا الحال قد يعتقد أنّ الشاهد هو المشهود.

حتّى قال أبو يزيد في مثل هذا الحال: «سُبْحَانِي سُبْحَانِي» (٣)، و«مَا فِي الْجَبَّةِ إِلَّا اللَّهُ». ولا شك أنّ هذا الاعتقاد زورٌ، وأنَّ سببه نورٌ من أنوار الأحديّة (٤)، وصاحبه معذورٌ، ما دام مستورًا عن نفسه بوارده، فإذا ردّ إلى رسمه وعقله وحسّه حال ذلك الحال وزال، وعلم صاحبه أنّه كان زورًا، حيث ظنَّ أنّ الشاهد هو المشهود.

فإن أنكرتم ذلك فلا كلام معكم، وإن اعترفتم به حصل المقصود.

فهذا معنى كون أصدق أحوال الصادق زورًا.

(١) في «غ» والمنار: (تستر).

(٢) في «غ» والمنار: (وتيدي).

(٣) في «غ» والمنار: (سبحاني) مرة واحدة غير مكررة.

(٤) هذا كلام القوم ينقله عنهم الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، وهو كما يرى كلام زندقه سببه ظلمة كثيفة شيطانية لا نور من أنوار الأحديّة.

وإذا عرف هذا في الحال، عرف مثله في كون أحسن أعماله ذنبًا؛ فإنه - لصدقه في الطلب، وبذله الجهد في العمل، واستفراغه الوسع فيه - يغيب بذلك عن شهود الحقيقة الكونية، وأن المحرك له سواه، وأنه آله ومجرى للمشيئة، وأن نفسه أعجز وأضعف من أن يكون لها، أو بها، أو منها فعل، أو إرادة، أو حركة؛ فإذا رجع إلى الحقيقة فشهد من الله عليه، وأنه هو المحرك له^(١)، وأن مشيئته هي التي أوجبت سعيه، رأى أحسن أعماله ذنبًا بهذا الاعتبار.

وأما رؤيته أصفى قُصوده قُعودًا: فلأن القاصد إلى الحقيقة متى شهد مقصوده قعد عن قصده؛ فإن المقصود المراد أقرب إلى اللسان من نطقه، وإلى القلب من قصده؛ فالقصد إليه هو عين القعود عن القصد؛ لأن القصد إنما يكون لبعيد عن القاصد، أما من هو أقرب إلى القاصد من ذاته فمتى شاهد القاصد الحقيقة علم أن قصده عين القعود عن قصده، والعبارة تزيد هذا المعنى جفوةً، والحوالة فيه على الحال والدوق.

فالجواب أن يقال: من أحالك على الحال فما أنصفك، فإنه أحالك على أمر مشترك بين الحق والباطل، فإن كل من اعتقد شيئًا وطلبه طلبًا صادقًا، واستفرغ وسعه في الوصول إليه كان له لا محالة فيه حال ليست لغيره، بحسب صدقه في طلبه، وجمع همته وقصده عليه، وهذا يكون للأبرار والفجار، بل لأولياء الله وأعدائه، فيكون^(٢) الرجل له شهودٌ بمشهوده، وحالٌ في طلبه، لا يوجب كونه حقًا ولا باطلاً، فإن كل من اعتقد عقيدةً، وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة، وجزم بما اعتقده تجلت له صورة معتقده في عالم نفسه، فيظن ذلك كشفًا صحيحًا، وإن كان صادقًا في طلبه وحبه لما اعتقده كان له فيه حالٌ وتأثيرٌ بحسبه، فالحوالة على الحال حوالة مفلسٍ من العلم على غير مليء به.

ومن هاهنا دخل الداخل على أكثر السالكين، وانعكس سيرهم، حيث أحالوا العلم على الحال، وحكموه عليه.

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا، وهو إحالة الحال على العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به وقبول حكمه، فإن وافقه العلم، وإلا كان حالًا فاسدًا، منحرفًا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم؛ فالعلم حاكمٌ والحال محكومٌ عليه، والعلم راعٍ والحال من رعيته، فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسدٌ، وغايته: الانسلاخ من العلم والدين، كما جرى ذلك لمن جرى له^(٣)، وبالله المستعان.

(١) كلمة (له) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعل الصواب (فكون) والله أعلم.

(٣) كمن قال: سبحاني سبحاني، وما في العجبة إلا الله. وما وحد الواحد من واحد. (الفقي).

ونحن لا ننكر ما ذكرتم من غيبة الشّاهد بمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، وبمحبوبه عن حبّه، لكن ننكر كون هذا أكمل حالاً من صاحب البقاء والتّمييز، وشهود الحقائق على ما هي عليه، فلا يحتاج أن يشهد حاله زوراً؛ لأنّه لم يحصل له ما حصل لصاحب الشّكر والاصطلام من الزُّور، فهو أكمل منه حقيقةً وشرعاً.

وأما الغائب عن الحقيقة الكونيّة بشهود فعله: فإنّه متى صحبه استصحاب عقد التّوحيد، وأنّ مصدر كلّ شيءٍ مشيئة الله وحده، وأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّه لا يتحرّك متحرّكاً في ظاهره أو باطنه إلّا به سبحانه فلا تضرّه الغيبة عن هذا المشهد، باستغراقه في القصد والطلب والفعل، إذ حكمه جارٍ عليه في هذه الحال، وليس ضيق قلبه عن استحضار ذلك وقت استجماع إرادته وفعله وطلبه ذنباً، لا للخاصّة ولا للعامة، ولا بالنّسبة إلى مقامه أيضاً، فإنّ الذّنب تعمّد مخالفة الأمر، وهذا ليس كذلك، ولا هو مطالبٌ بالغيبة عن شهود الحقيقة والفناء فيها عن شهود الفعل وقيامه به، مع اعتقاد أنّه بمشيئة الله وحوله وقوّته.

وأما ما ذكرتم من أنّ مشاهدة القرب تجعل القصد قعوداً فكلامٌ له خبيءٌ، وقد أفصح عنه بعض المغرورين المخدوعين بقوله (١):

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا يَقَرُّ قَرَارَهَا وَإِلَامٌ ظَلَمَ لَكَ لَا يَنْبِي مُتَنَقِّلاً
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ سَيْرَكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَيْكَ إِذَا بَلَغْتَ الْمَنْزِلَ

وكأنّ صاحبه يشير إلى أنّه وجود قلبه ولسانه، ووجوده أقرب إليه من إرادته ولطفه، هذا خبيءٌ هذا الكلام، وتعالى الله عن إلحاد هذا وأمثاله وإفكهم علواً كبيراً، بل هو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائنٌ من خلقه.

وأما ما ذكرتم من القرب: فإن أردتم عموم قربه إلى كلّ لسانٍ من نطقه وإلى كلّ قلبٍ من قصده، فهذا لو صحّ لكان قرب قدرةٍ وعلمٍ وإحاطةٍ، لا قرباً بالذّات والوجود، فإنّه سبحانه لا يمازج خلقه، ولا يخالطهم، ولا يتحد بهم، مع أنّ هذا المعنى لم يرد عن الله ورسوله، ولا عن أحدٍ من السّلف الأخيار تسميته قرباً، ولم يجع القرب في القرآن والسّنة قطُّ إلّا خاصّاً كما تقدّم.

وإن أردتم القرب الخاصّ إلى اللّسان والقلب: فهذا قرب المحبّة، وقرب الرّضا والأنس، كقرب العبد من ربّه وهو ساجدٌ، وهو نوعٌ آخر من القرب، لا مثال له ولا نظير، فإنّ الرّوح والقلب يقربان (٢) من الله وهو على عرشه، والرّوح والقلب في البدن، وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

(١) في هامش نسخة «غ» والمنار: هو: سليمان بن علي العفيف التلمساني الاتحادي الضال.

(٢) في «غ» والمنار: (بقرب).

وهذا القرب لا ينافي القصد والطلب، بل هو مشروطٌ بالقصد، فيستحيل وجوده بدونه، وكلَّمَا كان الطُّلب والقصد أتمَّ كان هذا القرب أقوى.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ نَوْسٍ بِهِ نَفْسُهُ، وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؟
 قيل: هذه الآية فيها قولان للنَّاس.

- أحدهما: أنَّه قربه بعلمه، ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان، وحبل الوريد حبل العنق، وهو عرقٌ بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه، وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيءٌ.

- والقول الثاني: أنَّه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا.

وسمعه يقول: «هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ لَهُ، إِنَّهُ كَرِيمٌ﴾ [القيامة: ١٨] فإنَّ جبريل عليه السلام هو الذي قصَّه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه؛ إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه. كما في «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: «فَإِذَا قَرَأَهُ رَسُولُنَا فَأَنْصِتْ لِقِرَاءَتِهِ حَتَّى يَفْضِيَهَا»^(١).

قلت: أوَّل الآية يأبى ذلك؛ فإنَّه قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ نَوْسٍ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] قال: وكذلك خلقه للإنسان إنَّما هو بالأسباب وتخليق الملائكة.

قلت: وفي «صحيح مسلم» من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في تخليق النُّطفة «فَيَقُولُ الْمَلَكُ الَّذِي يَخْلُقُهُ: يَا رَبِّ، ذَكَرْتُ أُمَّ أُمَّنِي؟ أَسَوِيُّ أُمَّ غَيْرِ سَوِيٍّ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ»^(٢). فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق؛ فإنَّ أفعالهم وتخليقهم خلقٌ له سبحانه، فما تمَّ خالقٌ على الحقيقة غيره.

والمقصود: أنَّ هذا موضعٌ ضلَّت فيه أفهامٌ، وزلَّت فيه أقدامٌ، واشتبهت فيه معيَّة العلم والقدرة والإحاطة بالقرب، واشتبهت فيه آثار قرب المحبَّة والرِّضا والموافقة، وغلبة ذكره ومراقبته بقرب ذاته، واشتبهت فيه ما في الدُّهن بما في الخارج، واشتبهت اضمحلال شهود الرِّسم وانمحاؤه من القلب بعدمه وفنائه، واشتبهت فيه آثار الصِّفات بحقيقتها، وأنوار المعرفة بأنوار الدَّات. وأصحابه - لتحكيمهم الحال والدُّوق - لا يلتفتون إلى لسان العلم، ولا يصغون إليه، وفي هذا كفايةٌ، والله المستعان.

(١) البخاري في كتاب «التفسير» سورة القيامة باب: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٤٩٢٨) بلفظ: «فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ»، ومسلم في الصلاة، باب: الاستماع للقراءة (٤٤٨).

(٢) مسلم في القدر، بابك كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٤).

فصل [منزلة الإيثار]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة الإيثار﴾ قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١﴾ [الحشر: ٩].
فالإيثار ضدُّ الشُّحِّ، فَإِنَّ المؤثر على نفسه تاركٌ لما هو محتاجٌ إليه، والشحُّ حريصٌ على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيءٌ شحَّ عليه، وبخل بإخراجه، فالبخل ثمره الشُّحُّ، والشُّحُّ يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالشُّحُّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرُهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمْرُهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطُّعُوا» (١).

فالبخيل: من أجاب داعي الشُّحِّ.

والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

كذلك السخاء عمَّا في أيدي النَّاسِ هو السَّخَاءُ، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: «سَخَاءُ النَّفْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَذْلِ».

وهذا المنزل هو منزل الجود والسَّخَاءِ والإحسان.

وسمِّي بمنزل الإيثار لأنه أعلى مراتبه، فَإِنَّ المراتب ثلاثة:

– إحداها: ألا يتقصه البذل، ولا يصعب عليه؛ فهو منزلة السَّخَاءِ.

– الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقى له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى؛ فهو الجود.

– الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة الإيثار.

وعكسها: الأثرة وهو: استئثاره عن أخيه بما هو محتاجٌ إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله

ﷺ: «لِلْأَنْصَارِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً؛ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» (٢) والأنصار: هم

الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى

مراتب السَّخَاءِ، وكان ذلك فيهم معروفًا.

(١) رواه أبو داود في الزكاة، باب: في الشح (١٦٩٨) بزيادة: «وأمرهم بالفجور ففجروا». صححه الألباني في «صحيح سنن

أبي داود» (١٤٨٧)، وصححه الحاكم (١/١١، ١١٥) وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي.

(٢) تقدم تخريجه (٢/٢٣٣).

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما من الأجواد المعروفين، حتَّى إنَّه مرض مرَّةً، فاستبطن إخوانه في العيادة؛ فسأل عنهم؟ فقالوا: إنَّهم كانوا يستحيون ممَّا لك عليهم من الدِّين، فقال: أخزى الله ما لَّا يمنع الإخوان من الزيارة، ثمَّ أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مالٌ فهو منه في حلٍّ، فما أمسى حتَّى كسرت عتبة بابه لكثرة من عاده.

وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأةٍ، فحضر زوجها، فقالت: إنَّه نزل بك ضيفان، فجاء بناقةٍ فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلمَّا كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلَّا اليسير، فقال: إنِّي لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسَّماء تمطر وهو يفعل ذلك، فلمَّا أردنا الرِّحيل وضعنا مائة دينارٍ في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضيئنا، فلمَّا طلع ^(١) النَّهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا أيُّها الرِّكب اللُّثام، أعطيتموني ثمن قراي؟ ثمَّ إنَّه لحقنا، وقال: لتأخذنَّه أو لأطاعننَّكم برمحي، فأخذناه وانصرف.

فتأمَّل سرَّ التَّقدير! حيث قدَّر الحكيم الخبير سبحانه استئثار النَّاس على الأنصار بالدُّنيا، وهم أهل الإيثار، ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم ^(٢) في الدُّنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنَّات عدنٍ على النَّاس، فتظهر ^(٣) حينئذٍ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدُّنيا أعظم غبطةٍ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت النَّاس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنَّه لخيرٍ يراد بك، والله سبحانه أعلم.

فصل

* والجود عشر مراتب:

كـ إحداها: الجود بالنَّفْس.

وهو أعلى مراتبه، كما قال الشَّاعر:

وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْبَخِيلُ بِهَا

(١) في «غ» والمنار: (منح).

(٢) كلمة (إخوانهم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (فيظهر).

﴿ الثانية: الجود بالرياسة.﴾

وهو ثاني مراتب الجود، فيحمل الجواد جوده على امتحان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

﴿ الثالثة: الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه.﴾

فيجود بها تعبًا وكدًا في مصلحة غيره، ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره، كما قيل:

مُتَمِّمٌ بِالنَّدَى لَوْ قَالَ سَأَلُهُ هَبْ لِي جَوِيْعَ كَرِيٍّ عَيْنَيْكَ لَمْ يَنْمِ

﴿ الرابعة: الجود بالعلم وبذله.﴾

وهو من أعلى مراتب الجود، والجود به أفضل من الجود بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال، والناس في الجود به على مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله وتقديره التأخذ: ألا ينفع به بخيالًا أبدًا.

- ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا (١).

- ومن الجود بالعلم (٢): أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم، أو: لا، مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه (٣) - في ذلك أمرًا عجيبيًا.

كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح، وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته؛ فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم أعظم من فرحه بمسألته.

وهذه فتاويه رحمته الله (٤) بين الناس؛ فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلقاتها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» (٥) فأجابهم عن سؤالهم وجاد عليهم بما لعلمهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

(١) في «غ» والمنار: (طرحانًا).

(٢) كلمة (بالعلم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) جملة (قدس الله روحه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) كلمة (رحمه الله) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) رواه أبو داود في كتاب «الطهار»، باب: الوضوء بماء البحر (٨٣)، وصححه الألباني (٧٦)، وفي «سنن الترمذي» (٦٩)

صححه الألباني (٥٩).

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أَيْنَقُصُ الرُّطْبُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نعم، قال: «فَلَا إِذْنَ»^(١) ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علّة الحكم.

وهذا كثيرٌ جدًّا في أجوبته ﷺ، مثل قوله: «إِنْ بَعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمْرَةً فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقِّ؟»^(٢). وفي لفظ: «أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمْرَةَ بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقِّ؟»^(٣) فصرّح بالعلّة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن، وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه -يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤)- يعيونه بذلك، ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر -مثلاً- فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند، وأيّ حاجة بالسائل إلى ذلك؟!

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب الجهل والكبر، وهذا موضع المثل المشهور:
لَقَبُوهُ بِحَايِضٍ وَهُوَ خَلٌّ^(٥) مِثْلَ مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى الْعُنُقُودِ

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه.

كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطانٍ ونحوه، وذلك زكاة الجاه المُطالِب بها العبد، كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه.

كما قال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(٦). متفق عليه.

(١) رواه أبو داود في كتاب «البيوع»، باب: في التمر بالتمر (٣٣٥٩)، وصححه الألباني (٢٨٧١)، وابن ماجه في كتاب التجارات (٢٢٦٤) بلفظ مقارب عندهما.

(٢) رواه ومسلم في كتاب «المساقاة»، باب: وضع الجوائح (١٥٥٤)، وأبو داود في كتاب الإجارة باب وضع الجائحة (٣٤٧٠).

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) جملة (يعني شيخ الإسلام ابن تيمية) غير موجودة في (غ) والمنار.

(٥) قال في هامش المنار: في نسختنا والحجازية (خل)، وفي البغدادية: (حلو)، وهو الصواب.

(٦) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب: استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر أول قدمه (٧٢٠)، وأبو داود في باب: صلاة الضحى (١٢٨٥، ١٢٨٦)، ولم أجده في البخاري.

السابعة: الجود بالعرض.

جود: أبي ضمضم من الصحابة رضي الله عنه، كان إذا أصبح قال: اللهم إنّه لا مال لي أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قدفني فهو في حل، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمُضِمٍ؟»^(١).

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلّص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء.

وهذه مرتبة شريفة من مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود، فإنّه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفتوة، قال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ نَصَّدَفَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

وفي هذا الجود قال تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤١].

فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل وأذن فيه، ومقام الفضل وندب إليه، ومقام الظلم وحرّمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة.

وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، قال النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَحَاكَ وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ»^(٢).

وفي هذا الجود من المنافع والمسارّ وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن [يسع الناس بماله ويمكنه أن]^(٣) يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم.

فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرّض له بحاله ولا لسانه.

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرجل يحل الرجل قد اغتابه (٤٨٨٧)، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» وقال عنه: ضعيف مرسل، (١٠٤٢). بلفظ مختصر، وذكر جميع طرقه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في «إرواء الغليل» (٢٣٦٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦)، ورواه أبو داود في «اللباس»، باب: ما جاء في إسبال اللباس (٤٠٨٤).

(٣) ما بين المعكوفتين سقط من ط. الفقي، وأثبتناه من نسخة «غ» والمنار.

وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك: «إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْبَدَلِ»^(١).
فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على النَّاسِ، فجدُّ عليهم
بزهديك في أموالهم، وما في أيديهم، تُفْضِلُ عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالرَّاحة.
ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الجود مزيدٌ وتأثيرٌ خاصٌّ في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمن
المزيد للجواد، والإتلاف للممسك، والله المستعان.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الإِيثَارُ: تَخْصِيصٌ وَاخْتِيَارٌ، وَالْأَثَرَةُ: تَحْسُنٌ طَوْعًا،
وَتَصِحُّ كَرَهًا».

فرَّق الشيخ بين الإيثار والأثرة، وجعل الإيثار اختيارًا، والأثرة منقسمةً إلى اختياريةٍ واضطراريةٍ،
وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه.

فإنَّ الإيثار هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختيارًا.
وأما الأثرة فهي استثثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك، فهذه لا يحمد عليها
المستأثر عليه، إلا إذا كانت طوعًا، مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبتة، فلا يفعل، ويدعه وأثرته
طوعًا؛ فهذا حسنٌ، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثره كرهًا.

ويعني بالصَّحَّة: الوجود؛ أي: توجد كرهًا، ولكن إنَّما تحسن إذا كانت طوعًا من المستأثر عليه.
فحقيقة الإيثار بذل صاحبه وإعطاؤه، والأثرة استبداله هو بالمؤثر به، فيتركه وما استبدل به إمَّا
طوعًا وإمَّا كرهًا، فكأنَّك^(٢) أثرته باستثثاره حيث خلَّيت بينه وبينه، ولم تنازعه.

قال عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي عُسْرِنَا، وَيُسْرِنَا،
وَمَنْشَطِنَا، وَمَكْرَهِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ»^(٣). فالسَّمْعُ والطَّاعَةُ في العسر واليسر،
والمنشط والمكره لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصةً؛
فإنَّه ﷺ لم يستأثر عليهم.

(١) في «غ» والمنار: (إنه أفضل من وجود البذل).

(٢) في «غ» والمنار: (وكأنك).

(٣) رواه البخاري في الأحكام، باب: يبايع الإمام الناس (٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير
معصية (١٧٠٩).

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: أَنْ تُؤَثِّرَ الْخُلُقَ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا لَا يَخْرِمُ عَلَيْكَ دِينًا، وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْكَ طَرِيقًا، وَلَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ وَقْتًا».

يعني: أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم، مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعري، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين، مثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كلاً مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك إيثارهم بكل ما يحرمه على المؤثر دينه، فإنه سفهٌ وعجزٌ، يذمُّ المؤثر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: «وَلَا يَقْطَعُ عَلَيْكَ طَرِيقًا» أي: لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك وتوجهك وجمعيتك على الله؛ فتكون قد آثرته على الله، وآثرت بنصيبك من الله ما لا يستحق الإيثار، فيكون مثلك كمثل مسافرٍ سائرٍ على الطريق لقيه رجلٌ فاستوقفه، وأخذ يحدثه ويلهيه حتى فاته الرفاق، وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى، فإيثارهم عليه عين الغبن، وما أكثر المؤثرين على الله تعالى غيره، وما أقل المؤثرين الله على غيره.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيحٌ أيضاً، مثل أن يؤثر بوقته ويفرق قلبه في طلب خلفه^(١)، أو يؤثر بامرٍ قد جمع قلبه وهمه على الله، ويفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره؛ فهذا أيضاً إيثارٌ غير محمودٍ، وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، على الفكر النافع، واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تحفى، بل ذلك حال الخلق، والغالب عليهم.

وكلُّ سببٍ يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحداً؛ فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم، وتأمل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم على الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم، وأيُّ جهالةٍ وسفهٍ فوق هذا؟!

(١) في «غ»: (خلقه).

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب، وقالوا: إنه مكروه أو حرام^(١)، كمن يؤثر بالصَّفِّ الأوَّل غيره ويتأخَّر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلمٍ يحرمه نفسه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه.

وتكلموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بدفنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرتها. وأجابوا عنه بأنَّ الميِّت ينقطع عمله بموته وبقرِّبه^(٢)، فلا يتصوَّر في حقِّه الإيثار بالقرب بعد الموت؛ إذ لا تقرب في حقِّ الميِّت، وإنما هذا إيثارٌ بمسكنٍ شريفٍ فاضلٍ لمن هو أولىُّ به منها، فالإيثار به قرينةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ للمؤثر، والله أعلم^(٣).

فصل

□ قال: «وَلَا يُسْتَطَاعُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِتَعْظِيمِ الْحُقُوقِ، وَمَقْتِ الشُّحِّ، وَالرَّغْبَةِ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ».

ذكر ما يعين على الإيثار فيبعث عليه، وهو ثلاثة أشياء:

- تعظيم الحقوق: فإنَّ من عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حقَّ رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدِّها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطاً لأدائها.
- الثَّاني: مقت الشُّحِّ: فإنَّه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار؛ فإنَّه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.
- الثَّالث: الرَّغبة في مكارم الأخلاق: وبحسب رغبته فيها: يكون إيثاره؛ لأنَّ الإيثار أفضل درجات مكارم الأخلاق.

(١) في «غ»: (محرم).

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولا يستقيم الكلام هكذا، ولعل الصواب: (ينقطع عمله وقربه بموته)، ولو حذف كلمة (وبقربه) لكان الكلام مستقيماً بدونها.

(٣) فصل ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المسألة في «زاد المعاد» (٣ / ٥٥٥)، وانتهى إلى عدم كراهة الإيثار بالقرب، وأن هذا من الكرم والسخاء وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفریحاً للمسلم، وأنه قد يكون ثواب هذا الإيثار راجحاً على ثواب تلك القرية.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: إِيثَارُ رِضَا اللَّهِ عَلَى رِضَا غَيْرِهِ، وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْمَحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ الْمُؤْنُ، وَضَعُفَ عَنْهُ الطَّوْلُ وَالْبَدَنُ».

إيثار رضا الله ﷻ على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق، وهي (١) درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم؛ فإنه قاوم العالم كله، وتجرّد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد (٢) والقريب في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همّه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتّى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجّته على العالمين، وتمّت نعمته على المؤمنين، فبلغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وعبد الله حتّى أتاها اليقين من ربّه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال (٣)، صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: «وَإِنْ عَظُمَتْ فِيهِ الْمَحَنُ، وَثَقُلَتْ فِيهِ الْمُؤْنُ».

فإنّ المحنة تعظم فيه أولاً، ليتأخّر من ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدّم انقلبت تلك المحن منحةً، وصارت تلك المؤن عوناً، وهذا معروفٌ بالتّجربة الخاصّة والعامّة، فإنّه ما آثر عبداً مرضاة الله ﷻ على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته؛ إلّا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمةً ومسرّةً ومعونةً بقدر ما تحمّل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً، ومظانّ عطفه نجاةً، وتعبه راحةً، ومؤنته معونةً، وبليةً نعمةً، ومحنته منحةً، وسخطه رضاً، فيا خيبة المتخلفين! ويا ذلّة المتهميين!

(١) في «غ» والمنار: (وهذه هي).

(٢) كلمة (البعيد) والواو بعدها: غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (ما ناله).

هذا؛ وقد جرت سنة الله - التي لا تبدل لها - أن من أثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يسخط عليه من أثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته على يديه، فيعود حامده ذامًا، ومن أثر مرضاته ساخطًا، فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربّه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضا الخلق لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور، فهو مستحيل، بل لا بدّ من سخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك وتفوزَ برضا الله عنك أحبُّ إليك وأنفع لك من أن يسخوا^(١) عليك والله عنك غير راضٍ، فإذا كان سخطهم لا بدّ منه - على التقديرين - فأثر سخطهم الذي ينال به رضا الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيء رضا من لا ينفك رضا، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم.

وخاصة العقل: احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما؛ فوازن بعقلك، ثم انظر أيّ الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعُد عنه^(٢)، فهذا برهان قطعي ضروري في إثبات رضا الله على رضا الخلق.

هذا؛ مع أنه إذا أثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا أثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: «لْمُصَانَعَةِ وَجْهٌ وَاحِدٌ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ مُصَانَعَةِ وَجْوهٍ كَثِيرَةٍ، إِنَّكَ إِذَا صَانَعْتَ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْوَاحِدَ كَفَاكَ الْوُجُوهَ كُلَّهَا».

وقال الشافعي رحمته الله^(٣): «رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ؛ فَعَلَيْكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ نَفْسِكَ فَالْزَمَهُ».

ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها على غيره.

ولقد أحسن أبو فراس في هذا المعنى - إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله، إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًا:

فَلَيْتَكَ تَحَلُّو وَالْحَيَاةَ مَرِيرَةً
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ
وَكَأَنَّكَ تَرَضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
وَكَأَنَّكَ تَرَضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَكَأَنَّكَ تَرَضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ

(١) في «غ» والمنار: (يسخطوا).

(٢) في «غ» والمنار: (منه).

(٣) جملة (رضي الله عنه) غير موجودة في «غ» والمنار.

□ ثم ذكر الشيخ رحمه الله ما يستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن، فقال: «وَيُسْتَطَاعُ هَذَا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: بِطَيْبِ الْعُودِ، وَحُسْنِ الْإِسْلَامِ، وَقُوَّةِ الصَّبْرِ».

من المعلوم أن المؤثر لرضا الله متصدد لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولا بد، هذه سنة الله في خلقه، وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل، والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الدائبين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن أثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وغرثاهم^(١) وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديته هديته، فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٢٧) أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً^(٢٨) [الفجر: ٢٧، ٢٨] ومن إسلامه صلب كامل لا تزعه الرجال، ولا تقلقه الجبال، ومن عقد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء، فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له، فإذا زهد في هذين الشئيين، تأخرت عنه العوارض كلها، وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشئيين بشيئين: صحة اليقين، وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضاً: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما. فالجأ هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم، والتوفيق بعد بيد من أزمته الأمور كلها بيده: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(٤) [الإنسان: ٣٠، ٣١].

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: إِيثَارُ إِيثَارِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْخَوْضَ فِي الْإِثَارِ دَعْوَى فِي الْمَلِكِ، ثُمَّ تَرَكُ شُهُودِ رُؤْيَتِكَ إِيثَارَ اللَّهِ، ثُمَّ غَيْبَتِكَ عَنِ التَّرَكِ».

يعني بإيثار^(٢) إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرّد بالإيثار، لا أنت، فكأنك سلّمت الإيثار إليه؛ فإذا أثرت غيرك بشيء فإن الذي أثره هو الحق، لا أنت، فهو

(١) في «غ» والمنار: (وغرثهم) وهم أهل الغفلة والذين لم يجربوا الأمور. انظر: تهذيب اللغة (١٦/٧١، ٧٢).

(٢) في «غ» والمنار: (إيثار).

المؤثر حقيقة؛ إذ هو المعطي حقيقة.

ثم بين الشيخ^(١) السبب الذي يصح به نسبة الإيثار إلى الله، وترك نسبته إلى نفسك، فقال: «فإنَّ الحَوْضَ فِي الإِيثَارِ: دَعْوَى فِي المَلِكِ».

فإذا ادعى العبد أنه مؤثر فقد ادعى ملك ما أثر به غيره والملك في الحقيقة إنما هو الله الذي له كل شيء، فإذا خرج العبد عن دعوى الملك فقد أثر إيثار الله - وهو إعطاؤه - على إيثار نفسه، وشهد أن الله وحده هو المؤثر بملكه، وأما من لا ملك له فأى إيثار له؟! وقوله: «ثُمَّ تَرَكَ شُهُودَ رُؤْيَتِكَ إِيثَارَ اللهِ».

يعني: أنك إذا أثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثار إليه، بقيت عليك من نفسك بقية أخرى لا بد من الخروج عنها، وهي أن تعرض عن شهودك رؤيتك أنك أثرت الحق بإيثارك، وأنت نسبت الإيثار إليه لا إليك، فإن في شهودك ذلك ورؤيتك له دعوى أخرى هي أعظم من دعوى الملك، وهي أنك ادعت أن لك شيئاً أثرت به الله، وقدمته على نفسك فيه، بعد أن كان لك، وهذه الدعوى أصعب من الأولى، فإنها تتضمن ما تضمنته الأولى من الملك، وتزيد عليها برؤية الإيثار به فالأول مدع للملك مؤثر به، وهذا مدع للملك ومدع للإيثار به؛ فإذا نجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار، فلا يعتقد أنه أثر الله بهذا الإيثار، بل الله هو الذي استأثر به دونك؛ فإن الأثرة واجبة له بإيجابه إيثاراً بنفسه، لا بإيجاب العبد إيثاراً له.

قوله: «ثُمَّ عَيَّبْتَكَ عَنِ التَّرْكِ».

يريد: أنك إذا نزلت هذا الشهود وهذه الرؤية بقيت عليك بقية أخرى، وهي رؤيتك لهذا الترك المتضمنة لدعوى ملكك للترك، وهي دعوى كاذبة، إذ ليس للعبد شيء من الأمر، ولا بيده فعل ولا ترك، وإنما الأمر كله لله.

وقد تبين في الكشف والشهود والعلم والمعرفة: أن العبد ليس له شيء أصلاً والعبد لا يملك حقيقة، إنما المالك بالحقيقة سيده، فالأثرة والإيثار والاستئثار كلها لله ومنه وإليه، سواء اختار العبد ذلك وعلمه، أو جهله، أم لم يختره، فالأثرة واقعة، كره العبد أم رضي، فإنها استئثار المالك الحق بملكه تعالى، وقد فهمت من هذا قوله: «فإنَّ الأثرة تحسُنُ طَوْعًا، وتصحُّ كرهاً» والله ﷻ أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

فصل [منزلة الخلق]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الخلق.
قال الله تعالى لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ: «لَعَلَىٰ دِينٍ عَظِيمٍ، لَا دِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا أَرْضَىٰ عِنْدِي مِنْهُ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ».

وقال الحسن بن عليٍّ: «هُوَ آدَابُ الْقُرْآنِ».
وقال قتادة: «هُوَ مَا كَانَ يَأْمُرُ^(١) بِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَيَنْهَى^(٢) عَنْهُ مِنْ نَهْيِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ لَعَلَىٰ الْخُلُقِ الَّذِي أَتَرَكَ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ».
وفي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنُ؛ فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلَا أَسْأَلَ شَيْئًا»^(٣).
وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال جعفر بن محمدٍ: «أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعُ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ».

وقد ذكر: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَجَبْرِئِيلَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّىٰ أَسْأَلَ، فَسَأَلَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مِنْ قِطْعِكَ، وَتَعْطِيَ مِنْ حَرْمِكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ^(٤).

(١) في «غ» والمنار: (ياتمر).

(٢) في «غ» والمنار: (نتهي).

(٣) رواه مسلم في «صلاة المسافرين»، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض مطولاً (٧٤٦)، وأبو داود في الصلاة، باب: في صلاة الليل (١٣٤٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٣٠/١٣) ت: شاعر الأثر (١٥٥٧) ولم يحكم عليه شاعر بشيء، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/٢٧٧)، وقال: «وهذا مرسل على كل حال، وقد روي له شواهد من وجوه أخر».

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

- أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

- الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه ممّا عليهم من الطّاعة.

- الثالث: أنّ النَّاس معه قسمان: موافقٌ له موالٍ، ومعادٍ له معارضٍ.

وعليه في كلّ واحدٍ من هذه واجبٌ:

- فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح

شأنهم، وينهاهم عن ضده.

- وواجبه فيما يبذلونه له (١) من الطّاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوّعت له به أنفسهم،

سماحةً واختيارًا، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

- وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم، وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم

لنفسه؛ فقد قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ [الأعراف: ١١٩].

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: «أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس».

وقال مجاهد: «يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس (٢)، مثل قبول

الأعداء، والعفو والمساهلة، وترك الإشتقاص في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «خذ ما عفا لك من أموالهم، وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله

تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ثم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وهو كل معروف، وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق

العبيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني: إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه؛

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وعلى هذا فليست بمنسوخة، بل

يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ.

قال أنس رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا» (٣).

(١) كلمة (له): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (تحسيس) وبالرجوع إلى تفسير الطبري تحقيق أحمد شاکر وجدناها: (تخسس). الطبري (٩/١٥٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الأدب برقم (٢١٥٠)، وأبو داود في الأدب في الحلم وأخلاق النبي ﷺ (٤٧٧٣).

وقال: «مَا مَسَسْتُ دِيْبَا جَا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا سَمَمْتُ رَائِحَةَ قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أَفٌ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا؟» (١). مَتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا.

وأخبر رسول الله ﷺ أَنَّ الْبِرَّ هُوَ حُسْنُ الْخُلُقِ (٢).

وفي «صحيح مسلم» عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» (٣).

فقابل البرَّ بالإثم، وأخبر أَنَّ الْبِرَّ حَسَنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ حَوَازُ الصُّدُورِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَسَنَ الْخُلُقِ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ، وَهُوَ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ، وَشَرَائِعُ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَابَلَهُ بِالْإِثْمِ.

وفي حديثٍ آخَرَ: «الْبِرُّ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصُّدْرِ» (٤).

وقد فسّر حسن الخلق بأنَّه البرُّ؛ فدَلَّ عَلَى أَنَّ حَسَنَ الْخُلُقِ طَمَئِينَةُ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ، وَالْإِثْمُ حَوَازُ الصُّدُورِ، وَمَا حَاكَ فِيهَا، وَاسْتَرَابَتْ بِهِ، وَهَذَا غَيْرُ حَسَنِ الْخُلُقِ وَسُوئُهُ فِي عَرَفٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ كَمَا سَيَأْتِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «خِيَارُكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا» (٥).

وفي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُبَغِّضُ الْفَاحِشَ الْبِدْيَاءَ» (٦) قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وفيه أيضًا -وصححه- عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ». وَسئل عن أكثر ما يدخل النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: «الْفَمُّ وَالْفَرْجُ» (٧).

(١) تقدم تخريجه (١/٢٠٢).

(٢) مسلم في البر والصلة، باب: تفسير البر والإثم (٢٥٥٣)، والتِّرْمِذِيُّ فِي الزَّهْدِ بَابِ مَا جَاءَ فِي الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) رواه أحمد (٤/٢٢٨)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «رواه الطبراني، ورجال أحد سندی الطبراني ثقات» (١٠/٢٩٤).

(٥) البخاري في الأدب، باب: لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا (٣٥٥٩)، ورواه مسلم في «الفضائل»، باب: كثرة حياته ﷺ (٢٣٢١).

(٦) رواه التِّرْمِذِيُّ فِي الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابِ: مَا جَاءَ فِي حَسَنِ الْخُلُقِ وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْأَدَبِ، بَابِ: حَسَنُ الْخُلُقِ (٤٧٩٩)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٦٢٨).

(٧) رواه التِّرْمِذِيُّ فِي الْبِرِّ، بَابِ: مَا جَاءَ فِي حَسَنِ الْخُلُقِ وَقَالَ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَحَسَنَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٦٣٠).

وفيه أيضاً [عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ] (١) - وصححه - : «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» (٢).

وفي الصحيح عن عائشة (٣) عنه ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ» رواه أبو داود.

(وعن ابن عمر رضي الله عنهما) (٥) عنه ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقُهُ» (٦). رواه الطبراني (٧)، وإسناده صحيح.

فجعل البيت العلويّ جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق، والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أنّ حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفي الترمذي (عن جابر رضي الله عنه) (٨) عنه ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ» (٩). قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفهبون؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُونَ» (٩).

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية.

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

(٢) رواه الترمذي في الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال: «حسن صحيح»، ورواه أبو داود في «السنة»، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢)، بدون قوله: «وخياركم خياركم لأهلهم». وقال الألباني في

«صحيح سنن الترمذي»: «حسن صحيح» برقم (٩٢٨).

(٣) جملة (عن عائشة) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) أبو داود في الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٧٩٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩٥).

(٥) في «غ» والمنار: (وفيه) بدلاً من (وعن ابن عمر رضي الله عنهما).

(٦) أبو داود في الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٨٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٤٨٨)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٣).

(٧) جملة (رواه الطبراني): ساقطة من «غ» والمنار.

(٨) جملة (عن جابر رضي الله عنه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٩) رواه الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، وقال: «حسن غريب من هذا الوجه» وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٩١).

والمتشدد: المتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعاضمًا وتطاولًا، وإظهارًا لفضله على غيره.
[والمتفهق] (١): وأصله من الفهق: وهو الامتلاء.

فصل

الدِّينُ كُلُّهُ خُلِقَ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدِّين، وكذلك التَّصَوُّفُ.
قال الكتَّانِي: «التَّصَوُّفُ هُوَ الخُلُقُ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الخُلُقِ فَقَدْ زَادَ عَلَيْكَ فِي التَّصَوُّفِ».
وقد قيل: إِنَّ حَسَنَ الخُلُقِ بَذَلَ النَّدَى، وكَفُّ الأذَى، واحتمال الأذى.
وقيل: حَسَنَ الخُلُقِ: بَذَلَ الجميل، وكَفُّ القبيح.
وقيل: التَّخَلِّي مِنَ الرَّذَائِلِ، والتَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ.
وحسن الخلق يقوم على أربعة أركانٍ لا يتصوَّر قيام ساقه إلا عليها: الصَّبْر، والعَفَّة، والشَّجَاعَةُ، والعدْل.

- فالصَّبْر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكفُّ الأذى، والحلم والأناة والرِّفق، وعدم الطَّيش والعجلة.

- والعَفَّة: تحمله على اجتناب الرَّذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كلِّ خيرٍ، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنَّميمة.

- والشَّجَاعَةُ: تحمله على عَزَّة النَّفْس، وإيثار معالي الأخلاق والشَّيم، وعلى البذل والندى، الَّذِي هو شجاعة النَّفْس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتها، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ وشجاعته يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النَّزغ والبطش.

كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصَّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ» (٢)، وهو حقيقة الشَّجَاعَةُ، وهي مَلَكَةٌ يقدَّر بها العبد (٣) على قهر خصمه.

والعدْل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسُّطه فيها بين طرفي الإفراط والتَّفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسَّخَاء الَّذِي هو توسُّطٌ [بين الإمساك والإسراف والتَّبذير، وعلى خلق الحياء الَّذِي هو

(١) لفظه (والمتفهق): ساقطة من جميع النسخ التي بأيدينا وأثبتناها هنا لمناسبتها.

(٢) رواه البخاري في الأدب، باب: ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله تعالى (٦١١٤)، ومسلم في البر والصلة، باب: فضل من ملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩).

(٣) كلمة (العبد): ساقطة من «غ» والمنار.

توسُّطُ بين الذُّلِّ والقحَّةِ، وعلى خلق الشَّجاعة، الَّذي هو توسُّطٌ^(١) بين الجبن والتَّهوُّر، وعلى خلق اللحم، الَّذي هو توسُّطٌ بين الغضب والمهانة وسقوط النَّفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السَّافلة وبنائها على أربعة أركانٍ: الجهل، والظُّلم، والشَّهوة، والغضب.

- فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً والنقص

كمالاً.

- والظُّلم: يحمله على وضع الشَّيء في غير موضعه؛ فيغضب في موضع الرِّضا، ويرضى في

موضع الغضب^(٢)، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويذل في موضع البخل،

ويُحجِّم في موضع الإقدام، ويُقدِّم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشَّدَّة، ويشتدُّ في موضع اللِّين،

ويتواضع في موضع العزَّة، ويتكبَّر في موضع التَّواضع.

- والشَّهوة: تحمله على الحرص والشُّحِّ والبخل، وعدم العفَّة والنَّهمة والجشع، والذُّلِّ

والذَّنْءات كلَّها.

- والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسَّفه.

ويتركَّب من بين كلِّ خلقين من هذه الأخلاق أخلاقٌ مذمومةٌ.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النَّفس في الضَّعف، وإفراطها في القوَّة.

- فيتولَّد من إفراطها في الضَّعف: المهانة والبخل، والخسَّة واللُّؤم، والذُّلِّ والحرص، والشُّحُّ

وسفساف الأمور والأخلاق.

- ويتولَّد من إفراطها في القوَّة: الظُّلم والغضب والحدَّة، والفحش والطَّيش.

ويتولَّد من تزوُّج أحد الخلقين بالآخر أولادٌ غيَّة^(٣) كثيرون؛ فإنَّ النَّفس قد تجمع قوَّةً وضعفًا؛

فيكون صاحبها أجبر النَّاس إذا قدر، وأذلَّهم إذا قُهر، ظالمٌ عنوفٌ جبَّار؛ فإذا قهر صار أذلَّ من امرأة،

جبانٌ عن القويِّ، جريءٌ على الضَّعيف.

فالأخلاق الذَّميمة يولَّد بعضها بعضًا، كما أنَّ الأخلاق الحميدة يولَّد بعضها بعضًا.

وكلُّ خلقٍ محمودٍ مكتنَّفٌ بخلقين ذميين، وهو وسطٌ بينهما، وطرفاه خلقان ذميَّان.

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. (الفقي) وقد أثبتناه من نسخة «ع» والمنار، وهو الصواب؛ لأن المعنى لا يستقيم إلا بهذه الزيادة.

(٢) جملة (ويرضى في موضع العضب): ساقطة من «ع» والمنار.

(٣) الغية: ضد الرشدة ويقال أولاد غية وأولاد زنية (من هامش المنار).

كالجود الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإنَّ النَّفس متى انحرفت عن التَّوسُّط، انحرفت إلى أحد الخلقين الذَّمِيمين ولا بدَّ. فإذا انحرفت عن خلق التَّواضع، انحرفت إمَّا إلى كبرٍ وعلوٍّ، وإمَّا إلى ذلٍّ ومهانةٍ وحقارةٍ. وإذا انحرفت عن خلق الحياء، انحرفت إمَّا إلى قِحَّةٍ وجرأةٍ^(١)، وإمَّا إلى عجزٍ وخورٍ ومهانةٍ، بحيث يُطمع في نفسه عدوُّه، ويفوته كثيرٌ من مصالحه، ويزعم أنَّ الحامل له على ذلك الحياء، وإنَّما هو المهانة والعجز، وموت النَّفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصَّبر المحمود، انحرفت إمَّا إلى جزعٍ وهلعٍ وجشعٍ وتسخطٍ، وإمَّا إلى غلظةٍ كبدٍ، وقسوةٍ قلبٍ، وتحجُّرٍ طبعٍ، كما قال بعضهم:

تَبْكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ فَتَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ

وإذا انحرفت عن خلق الحلم، انحرفت إمَّا إلى الطَّيش والتَّرف والحدَّة والخفَّة، وإمَّا إلى الذَّلِّ والمهانة والحقارة؛ ففرقٌ بين مَنْ حلمه حلم ذلٍّ ومهانةٍ وحقارةٍ وعجزٍ، وبين مَنْ حلمه حلم اقتدارٍ وعزَّةٍ وشرفٍ، كما قيل:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لِأَجْلِ إِيَّهَا اللَّئَامُ

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرِّفق، انحرفت إمَّا إلى عجلةٍ وطيشٍ وعنْفٍ، وإمَّا إلى تفریطٍ وإضاعةٍ، والرِّفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق العزَّة التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت إمَّا إلى كبرٍ، وإمَّا إلى ذلٍّ، والعزَّة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشَّجاعة، انحرفت إمَّا إلى تهوُّرٍ وإقدامٍ غيرٍ محمودٍ، وإمَّا إلى جبنٍ وتأخُّرٍ مذمومٍ، وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغلبة، انحرفت إمَّا إلى حسدٍ، وإمَّا إلى مهانةٍ، وعجزٍ وذلٍّ ورضا بالذُّون.

وإذا انحرفت عن القناعة، انحرفت إمَّا إلى حرصٍ وكلبٍ، وإمَّا إلى خسَّةٍ ومهانةٍ وإضاعةٍ.

وإذا انحرفت عن خلق الرِّحمة، انحرفت إمَّا إلى قسوةٍ، وإمَّا إلى ضعفٍ قلبٍ وجبنٍ نفسٍ، كمن لا يقدم على ذبح شاةٍ، ولا إقامة حدٍّ، وتأديبٍ ولدٍ، ويزعم أنَّ الرِّحمة تحمله على ذلك.

وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده في موضعٍ واحدٍ ثلاثًا وستين بدنةً، وقطع الأيدي من الرِّجال

(١) في «غ» والمنار: (وجراءة).

والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود؛ فإنه وسطٌ بين التعيس والتقطيب وتصعير الخدِّ، وطبيُّ البشر عن البسّر، وبين الاسترسال بذلك مع كلِّ أحدٍ، بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أنَّ الانحراف الأوَّل يوقع الوحشة والبغضة، والنَّفرة في قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط مهيبٌ محبوبٌ، عزيزٌ جانبه، حبيبٌ لقاؤه. وفي صفة نبينا ﷺ: «مَنْ رَأَى بَدِيهَةً هَابَةً، وَمَنْ خَالَطَهُ عَشْرَةَ أَحَبَّهُ» (١)، والله أعلم.

فصل

نافعٌ جدًّا عظيمُ النَّفعِ للسَّالك، يوصله عن قريب، ويسيره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها؛ فإنَّ أصعب ما على الطَّبيعة الإنسانيَّة تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها، وأصحاب الرِّياضات الصَّعبة والمجاهدات الشَّاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها، لكنَّ النفس اشتغلت بتلك الرِّياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرِّياضة وشتتها، واستولى على مملكة (٢) الطَّبع.

وهذا فصلٌ يصل به السَّالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوى وأجلَّ وأسرع من سير العامل على إزالتها.

ونقدّم قبل هذا مثلاً نضربه مطابقاً لما نريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صبيه ومنحدره، ومنتبه إلى تغريق أرضٍ وعمرانٍ ودورٍ، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرقٍ:

- فرقةٌ صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمرٍ؛ فإنه يوشك أن يجتمع ثمَّ يحمل على السُّكر؛ فيكون إفساده وتخريبه أعظم.
- وفرقةٌ رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئاً؛ فقالت: لا خلاص من محذوره إلاّ

(١) هو جزء من حديث صفة النبي ﷺ الذي رواه علي بن أبي طالب، وقد رواه الترمذي في «المناقب»، باب ما جاء في وصف علي بن أبي طالب للنبي ﷺ وقال: «هذا حديث حسن غريب ليس إسناده بمتصل»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٤٨).

(٢) في «غ»: (مملكته).

بقطعه من أصل ينبوع، فرامت قطعه من أصله؛ فتعدّر عليها ذلك غاية التعدّر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم^(١) ذلك أشدّ الإباء، فهم دائماً في قطع ينبوع، وكلّما سدّوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

- فجاءت فرقةً ثالثة، خالفت رأي الفرقتين، وعلموا أنّهم قد ضاع عليهم كثيرٌ من مصالحهم؛ فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع يتفعون بوصوله إليه، ولا يتضرّرون به، فصرفوه إلى أرضٍ قابلةٍ للنبات، وسقوها به، فأنبتت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر.

فإذا تبين هذا المثل، فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركب الإنسان - بل وسائر الحيوان - على طبيعةٍ محمولةٍ على قوتين: غضبيّةٍ وشهوانيّةٍ، وهي الإراديّة.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركزتان في جيلة كلّ حيوان؛ فبقوّة الشهوة والإرادة يجذب المنافع إلى نفسه، وبقوّة الغضب يدفع المضارّ عنها؛ فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج^(٢) إليه تولّد منها الحرص، وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولّد منه القوّة والغيرة، فإذا عجز عن ذلك الضارّ أورثه قوّة الحقد، وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبدّاً به أورثه الحسد، فإن ظفر به أورثته شدّة شهوته وإرادته خلق البخل والشحّ، وإن اشتدّ حرصه وشهوته على الشّيء، ولم يمكنه تحصيله إلّا بالقوّة الغضبيّة، فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم، ومنه يتولّد الكبر والفخر والخيلاء، فإنّها أخلاقٌ متولّدةٌ من بين قوتي الشهوة والغضب، وتزوّج أحدهما بصاحبه.

فإذا تبين هذا؛ فالنهر مثال هاتين القوتين، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومجراها إلى دور القلب وعمرانه وحواسله، يخربها ويتلفها ولا بدّ.

فالنفس الجاهلة الظالمة: تركته ومجراه، فخرّب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كلّ شجرة خبيثة، من حنظلٍ وضريعٍ وشوكٍ وزقومٍ؛ وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الركيّة الفاضلة: فإنّها رأت ما يثول إليه أمر هذا النهر، فافترقوا ثلاث فرقٍ:
- فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلوات والتّمرينات راموا قطعه من ينبوعه، فأبت

(١) كلمة (عليهم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (تحتاج).

عليهم^(١) ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة، فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمي الوطيس، وصارت الحرب دولاً وسجالاً، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

- وفرقةً أعرضوا عنها وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكّنوا نهرها من إفساد عمرانهم، بل اشتغلوا بتحسين العمران، وإحكام بنائه وأساسه ورأوا أنّ ذلك النهر لابدّ أن يصل إليه، فإذا وصل وصل إلى بناءٍ محكم فلم يهدمه، بل أخذ^(٢) عنه يميناً وشمالاً.

فهؤلاء صرفوا قوّة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادّة الفاسدة من أصلها، خوفاً من هدم البناء.

وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطّريق وتنظيفها؟

فقال لي جملة^(٣) كلامه: النَّفس مثل الباطوس - وهو جبُّ القدر - كلّما نبشته ظهر وخرج ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه؛ فإنّك لن تصل إلى قراره، وكلّما نبشت شيئاً ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ؛ فقال لي: مثال آفات النَّفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر؛ فإن أقبل على تفتيش الطّريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السّفَر قطُّ، ولكن لتكن همّتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها؛ فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثمّ امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدّاً، وأنشئ على قائله.

إذا تبيّن هذا؛ فهذه الفرقة الثالثة رأت أنّ هذه الصفات ما خلقت سدئ ولا عبثاً، وأنّها بمنزلة ماءٍ يسقى به الورد، والشوك، والثمار، والحطب، وأنّها صوانٌ وأصدافٌ لجواهر منطوية عليها، وأنّ ما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر، فرأوا أنّ الكبر نهرٌ يسقى به العلوّ والفخر، والبطر والظلم والعدوان، ويسقى به علوُّ الهمة، والأنفة، والحمية، والمراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلوّ

(١) كلمة (عليهم) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (ياخذ).

(٣) في «غ»: (في جملة).

عليهم، وهذه ذرّةٌ في صدفته، فصرفوا مجراه إلى هذا الغراس، واستخرجوا هذه الذرّة من صدفته، وأبقوه على حاله في نفوسهم، ولكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع.

وقد رأى النبي ﷺ أبا دجاجة يتبختر بين الصّفين، فقال: «إِنَّهَا لَمْشِيَةٌ يُبْعَضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ» (١).

فانظر كيف خلّى مجرى هذه الصّفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه.

وفي الحديث الآخر - وأظنه في «المُسْنَدِ» - «إِنَّ مِنَ الْخِيَلِ مَا يُحِبُّهَا اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهَا اللَّهُ، فَالْخِيَلُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ: اخْتِيَالُ الرَّجُلِ فِي الْحَرْبِ، وَعِنْدَ الصَّدَقَةِ» (٢).

فانظر كيف صارت الصّفة المذمومة عبودية؟! وكيف استحال القاطع موصلاً!؟

فصاحب الرياضات، والعامل (٣) [على قطع أصول هذه الصّفات مجتهدٌ على قطع مادّة الخيلاء والكبر، وهذا قد أقرّها في موضعها وأعدّها لأقرانها، وهو مصرّفٌ لها في مصرفٍ بعينه على مطلبه توصله إليه.

وكذلك خلق الحسد؛ فإنّه لا يذمّ وهو كالصدقة لذرة الغبطة والمنافسة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ» (٤).

فالحسد يوصل إلى المنافسة التي يحبّها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفَسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فلا تعمل على انهدام هذا الخلق من نفسك، بل اصرفه إلى الحسد المحمود الحامل على المنافسة في الرّتب العالية، وتزاحم أهلها بالرّكب، لا تتمنّ زوال نعمة الله عن عبدٍ فتزول عنك ويبقيها عليه.

وكذلك خلق الحرص؛ فإنّه من أنفع الأخلاق وأوصلها إلى كلّ خيرٍ، وشدّة الطّلب بحسب قوّة الحرص؛ فلا تعمل على قطعها، ولكن علّقها بما ينفع النّفس في معادها ويكملها ويزكيها، كما

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٦٥٠٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «وفيه من لم أعرفه» (١٠٩/٦).

(٢) رواه أبو داود في «الجهاد»، باب: في الخيلاء في الحرب (٢٦٥٩)، ورواه النسائي في «الزكاة»، باب: الاختيال في الصدقة فقال في النهاية: «أما الصدقة فأن تهزه أريحية السخاء فيعطي طيبة بها نفسه فلا يستكثر كثيراً ولا يعطي فيها شيئاً إلا وهو مستقل».

(٣) من هنا يبدأ سقط كبير في جميع النسخ يصل إلى أربع صفحات، وقد أثبتناه من الطبعة التي حققها بشير محمد عيون - مكتبة دار البيان، وقد وجدت هذا السقط أيضاً في هامش المنار بخط اليد على جانبي الصفحة، ويبدو أنه من المقتني للكتاب وليس من المحقق، والله أعلم.

(٤) البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) (٢٦٧)، والترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (٩/٢) (٣٦، ٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ﷺ: «أَحْرَضَ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِينِ بِاللَّهِ، وَلَا تَعَجِزْ»^(١). فقوة الحرص لا تُدْمُ، وإنما يُدْمُ صرفها إلى ما يضرُّ الحرص عليه، أو لا ينفع، وغيره أنفع للعبد منه.

وكذلك قوَّة الشهوة من أنفع القوى للعبد، وأوصلها له إلى كماله وسعادته، فإنَّها تثمر المحبَّة، وبحسب شهوة العبد للكمال يكون طلبه له، وبحسب قوَّة شهوته للذة العيش ووصال الأحبَّة، وقوَّة العين يكون طلبه لذلك في المحبَّة، إن كان مؤمناً بها موقفاً مصدقاً، فصدق الشهوة وقوتها يحمله على بيع مشتتهى دنياً خسيساً بمشتتهى أعلى منه وأجل وأرفع.

وكذلك قوَّة الشُّحِّ والبخل محمودٌ جدًّا نافعاً للعبد؛ فإنَّها تحمله على بخله وشحِّه بزمانه ووقته وأنفاسه أن يضيعها، ويسمح بها لمن لا يساوي، ويشحُّ أيضاً غاية الشُّحِّ على حفظه ونصيبه من الله أن يبيعه أو يهبه لأحدٍ من الخلق، ويشحُّ أيضاً بماله ويبخل به كلُّ البخل ألا يكون في ميزانه، وأن يتركه لغيره يتنعم به، ويفوته هو أجره وثوابه.

فالشُّحُّ بماله المحبُّ له هو الذي لا يسمح به لغيره، بل يأخذه بين يديه زاداً لمعاده، ومن لا يحبُّه، ولا له قدرٌ عنده يرى أن يضيِّعه ويدعه للوارث، أو الجائحة والتلف، ولا يستصحبه أمامه؛ فهذا هو الزَّاهد في المال، والأوَّل هو الرَّاغِب فيه المحبُّ له.

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيءٌ من ماله قدَّمه بين يديه.

وهذه قاعدةٌ مطَّردةٌ في جميع الصِّفات والأخلاق؛ فالرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بصرفها عن مجاريها المذمومة إلى مجارٍ محمودةٍ، وجاءوا بصرف قوَّة الشهوة إلى النِّكاح والتَّسريِّ؛ حتَّى كان لسليمان عليه السلام مائة امرأةٍ، ولداود عليه السلام تسعٌ وتسعون، وجمع رسول الله ﷺ بين تسعٍ، وأباح للأمة أربعمائة ما طاب لهم من النساء، ومن السَّراري بلا خصوصٍ.

فالقوَّة^(٢) بهذه الشهوة عن مجرى الحرام إلى مجرى الحلال الذي يحبُّه الله، وهو أحبُّ إليه من نفل العبادة عند أكثر الفقهاء.

وكذلك جاءوا بصرف قوَّة الغضبِيَّة إلى جهاد أعداء الله والغلظة عليهم والانتقام منهم. وكذلك جاءوا بصرف قوَّة اللُّهو والرُّكوب ونحوه إلى اللُّهو والرَّمي والمسابقة على الخيل وركوبها في سبيل الله واللُّهو في العرس.

(١) سبق تخريجه، قطعة من حديث تقدم تخريجه (٢/٤٤٨).

(٢) لعل الصواب: (فصرفوا القوة) والله أعلم.

وكذلك شهوة استماع الأصوات المطربة اللذيذة لا يذمُّ بل يحمده، وقد وقف النبي ﷺ على أبي موسى الأشعريّ ﷺ واستمع قراءته وقال: «لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِرْمَارًا مِنْ مِرْمِيرِ آلِ دَاوُدَ» (١).

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يأمره إذا حضر عنده مع الصحابة أن يسمعهم قراءته فيقرأ وهم يسمعون.

هذا كان سماع القوم، فمن حرّم هذا السّماع أو من كرهه؟!

وهل هذا إلاّ سماع خواصّ الأولياء؟!

أين هذا من سماع المكاء والتّصديّة وقرآن الشّيطان وآلات المعازف بنغمات الشاهد؟!

فلا بدّ للروح من سماع طيّب تتغذى به، ولكن لا يستوي من غذاؤه العسل والحلواء والطّيّبات، ومن غذاؤه الرّجيع (٢) والميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله!

ويا عجباً! إن كان أهل هذا الغذاء لا يرون آثاره على شفاههم ووجوههم أفلا يستحيون من معاينة أرباب البصائر ذلك عليهم.

والمقصود: أنّ رسوم الطّبيعة وقواها لا يمكن تعطيلها في دار الابتلاء، والامتحان، فالبصير العارف يستعملها في مواضعها النافعة له التي لا تحرم عليه ديناً ولا تقطع عليه طريقاً، ولا تفسد عليه حاله مع الله، ولا تسقطه من عينه.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب لمن هو معتنٍ بهذا الشّأن وعاملٌ على صلاح قلبه وتزكية نفسه.

وإنّما دخل الدّاخل حيث ظنّ أنّ تزكية النّفس وتهذيب الأخلاق بتيسير (٣) [طريق] (٤) الرّياضات والمجاهدات والخلوات؛ هيهات هيهات! إنّما يوقعه ذلك في الآفات، والشّبهات، والضّلالات؛ فإنّ تزكية النّفوس مسلّمٌ إلى الرّسل، وإنّما بعثهم الله لهذه التّزكية وولّاهم إيّاه، وجعلها على أيديهم دعوةً، وتعليماً وبيّناً، وإرشاداً، لا خلقاً ولا إلهاماً؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

(١) البخاري في (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣) (٢٣٦)، والترمذي (٣٨٥٤)، من حديث أبي موسى الأشعريّ ﷺ.

(٢) الرّجيع: الروث.

(٣) إلى هنا ينتهي ما سقط من جميع النسخ.

(٤) في جميع النسخ: (بطريق) ولكن المثبت ما بين المعكوفتين هو الأصوب إن شاء الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا لِي وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدُّ فمن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجرى بها الرُّسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع (١) رأيه من معرفة الطبيب؟! فالرُّسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًا، أو هو أمرٌ خارجٌ عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًا بالتخلُّق والتكلف، حتى يصير له سجيَّة ومَلَكَةٌ، وقد قال النبي ﷺ لأشجَّ عبد القيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ فِيكَ لِحُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحُلْمُ وَالْأَنَاةُ». فقال: أخلقتن تخلفتن بهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «بَلْ جَبَلَك اللهُ عَلَيْهِمَا». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله (٢).

فدلَّ على أن من الخلق ما هو طبيعةٌ وجبلةٌ، وما هو مكتسبٌ.

وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَأَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ» (٣) فذكر الكسب والقدر، والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» (٤): «الْخُلُقُ: مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْمُتَكَلِّفُ مِنْ [نَعْتِهِ]» (٥).

أي: خلق كلِّ متكلفٍ: فهو ما اشتملت عليه نعوته، فتكلفه يردُّه إلى خلقه، كما قيل:

إِنَّ التَّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

(١) كلمة (يقع) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) مسلم في «الإيمان»، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١٧) مختصرًا، ورواه أبو داود بطوله في الأدب، باب: في قبلة الرجل (٥٢٢٥).

(٣) قطعة من حديث الاستفتاح رواه مسلم (٧٧١)، أبو داود (٧٦٠).

(٤) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٥) في طبقة الفقيه: (من نعمته) والصواب ما أثبتناه بين المعكوفتين وهو الموجود في «غ» والمنار.

وقال الآخر:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْتِي الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فتمتلك ما ليس من نعته ولا شيمته يرجع إلى شيمته، ونعته، وسجيته؛ فذاك الذي يرجع إليه هو الخلق.

□ قال: «وَأَجْتَمَعَتْ كَلِمَةُ النَّاطِقِينَ فِي هَذَا الْعِلْمِ: أَنَّ التَّصَوُّفَ هُوَ الْخُلُقُ، وَجَمِيعُ

الْكَلَامِ فِيهِ يَدُورُ عَلَى قُطْبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ بَدَلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى».

قلت: من النَّاسِ من يجعلها ثلاثة: كفُّ الأذى، واحتمال الأذى، وإيجاد الرَّاحة.

ومنهم: مَنْ يجعلها اثنين - كما قال الشَّيْخُ -: بَدَلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى.

ومنهم مَنْ يردُّها إلى واحدٍ، وهو بَدَلُ الْمَعْرُوفِ، وَالْكَلُّ صَحِيحٌ.

□ قال: «وَإِنَّمَا يُدْرِكُ إِمْكَانُ ذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فِي الْعِلْمِ، وَالْجُودِ، وَالصَّبْرِ».

فالعلم: يرشده إلى مواقع بَدَلُ الْمَعْرُوفِ، والفرق بينه وبين المنكر، وترتيبه في وضعه مواضعه؛

فلا يضع الغضب موضع الحلم، ولا بالعكس، ولا الإمساك موضع البذل، ولا بالعكس؛ بل يعرف

مواقع الخير والشَّرِّ ومراتبها، وموضع كلِّ خلقٍ أين يضعه، وأين يحسن استعماله.

والجود: يعثه على المسامحة بحقوق نفسه، والاستقصاء منها بحقوق غيره؛ فالجود هو قائد

جيوش الخير.

والصَّبْر: يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكفُّ الأذى، وعدم

المقابلة، وعلى كلِّ خيرٍ، كما تقدَّم، وهو أكبر العون على نيل كلِّ مطلوبٍ من خير الدنيا والآخرة، قال

الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فهذه الثلاثة أشياء: بها يدرك التَّصَوُّفُ^(١)، والتَّصَوُّفُ: زاويةٌ من زوايا السُّلُوكِ الْحَقِيقِيِّ، وتركية

النَّفْسِ وتهذيبها؛ لتستعدَّ لسيرها إلى صحبة الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، ومعية مَنْ تحبُّه، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ.

كما قال سمنونٌ: «ذَهَبَ الْمُحِبُّونَ بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». والله أعلم.

(١) التصوف: كلمة محدثة لم تكن معروفة عند أصحاب النبي ﷺ، وإنما المعروف كثرة العبادة وتركية النفس، وقوة الصلة بالله ﷻ والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وهذا هو ما يقصده الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، وليس ما عرف عن المتصوفة من البدع والشطحات والزندقة.

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: أَنْ تَعْرِفَ مَقَامَ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُمْ بِأَقْدَارِهِمْ مَرْبُوطُونَ، وَفِي طَاقَتِهِمْ مَحْبُوسُونَ، وَعَلَى الْحُكْمِ مَوْقُوفُونَ، فَتَسْتَفِيدَ بِهِدِهِ الْمَعْرِفَةَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: أَمِنْ الْخَلْقِ مِنْكَ، حَتَّى الْكَلْبِ، وَمَحَبَّةَ الْخَلْقِ إِيَّاكَ، وَنَجَاةَ الْخَلْقِ بِكَ».

- فهذه الدرّجة: يكون تحسين الخلق مع الخلق في معاملتهم، وكيفية مصاحبتهم.
- وبالثانية: تحسين الخلق مع الله في معاملته.
- وبالثالثة: درجة الفناء على قاعدته وأصله.

يقول (١): إذا عرفت مقام الخلق، ومقاديرهم، وجريان الأحكام القدريّة عليهم، وأنهم مقيّدون بالقدر، لا خروج لهم عنه ألبتّة، ومحبوسون في قدرتهم وطاقاتهم، لا يمكنهم تجاوزها إلى غيرها، وأنهم موقوفون على الحكم الكونيّ القدريّ لا يتعدّونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:

أمن الخلق منك: وذلك أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة، لم يطالبهم بما لا يقدرّون عليه، وامثل فيهم أمر الله تعالى لنبية ﷺ بأخذ العفو منهم؛ فأمنوا من تكليفه إيّاهم، وإلزامه لهم (٢) ما ليس في قواهم وقدرهم.

وأيضاً: فإنّهم يأمنون لائمته؛ فإنّه في هذه الحال عاذرٌ لهم فيما يجري عليهم من الأحكام فيما لم يأمر الشّرع بإقامته فيهم؛ لأنّهم إذا كانوا محبوسين في طاقاتهم فينبغي مطالبتهم بما يطالب به المحبوس، وعذرهم بما يعذر به المحبوس، وإذا بدا منهم في حقك تقصيرٌ أو إساءةٌ، أو تفريطٌ، فلا تقابلهم به ولا تخاصمهم، بل اغفر لهم ذلك واعذرهم، نظرًا إلى جريان الأحكام عليهم، وأنّهم آله، وهاهنا ينفعل الفناء بشهود الحقيقة عن شهود جنائيتهم عليك، كما قال بعض العارفين لرجلٍ تعدّى عليه وظلمه، إن كنت ظالمًا فالذي سلّطك عليّ ليس بظالمٍ.

(١) في «غ» والمنار: (فقال).

(٢) لفظة (لهم) غير موجودة في «غ» والمنار.

* وها هنا للعبد أحد عشر مشهداً فيما يصيبه من أذى الخلق وجنابتهم عليه:

كـ أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمته الله، وهو مشهد القدر: وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه ^(١) كالتأذي بالحرّ والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار، فإن الكّل أوجبه مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده، وإذا شهد هذا استراح، وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحرّ والبرد والمرض والموت.

فصل

كـ المشهد الثاني: مشهد الصبر:

فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسُرور، ويخلصه ^(٢) من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قطُّ إلا أعقبه ذلك ندامةً، وعلم أنه إن لم يصبر اختياراً على هذا - وهو محمودٌ - صبر اضطراراً على أكبر ^(٣) منه، وهو مذمومٌ.

فصل

كـ المشهد الثالث: مشهد العفو والصّفح والحلم:

فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزّته: لم يعدل عنه إلا لعشوّ في بصيرته؛ فإنه: «مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» ^(٤) كما صحّ ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله، وعلم بالتّجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ.

هذا؛ وفي الصّفح والعفو والحلم من الحلاوة والطّمأنينة والسّكينة، وشرف النّفس، وعزّها

(١) في «غ» والمنار: (يراه).

(٢) في «غ» والمنار: (ويخلص).

(٣) في «غ» والمنار: (أكثر).

(٤) رواه مسلم في «البر»، باب: استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي في «البر»، باب ما جاء في التواضع وقال:

«حديث حسن صحيح».

ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

فصل

المشهد الرابع: مشهد الرضا:

وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان من أصيبت به سببه القيام لله؛ فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبتة رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

مِنْ أَجْلِكَ جَعَلْتُ خَدِّي أَرْضًا لِلشَّامِتِ وَالْحَسُودِ حَتَّى تَرْضَى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر، فليس من ذا

الشأن!

فصل

المشهد الخامس: مشهد الإحسان:

وهو أرفع ممّا قبله، وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، فيحسن إليه كلما أساء هو إليه، ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه، وأنه قد أهدى إليه حسناته، ومحاها من صحيفته، وأثبتها في صحيفته من أساء إليه؛ فينبغي لك أن تشكره، وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى ما أحسن به إليك.

وهاهنا ينفع استحضار مسألة اقتضاء الهبة الثواب، وهذا المسكين قد وهبك حسناته، فإن كنت

من أهل الكرم فأثبه عليها، لتثبت الهبة وتأمّن رجوع الواهب فيها.

وفي هذا حكايات معروفة عن أرباب المكارم وأهل العزائم.

ويهون عليك أيضًا: علمك بأنّ الجزاء من جنس العمل؛ فإن كان هذا عملك في إساءة

المخلوق إليك عفوت عنه، وأحسنت إليه، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلك؛ فهكذا يفعل المحسن

القادر العزيز الغني بك في إساءتك، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك؛ فهذا لا بد منه، وشاهده في

السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها.

فصل

المشهد السادس: مشهد السلامة وبرد القلب:

وهذا مشهدٌ شريفٌ جدًّا لمن عرفه وذاق حلاوته، وهو ألا يشتغل قلبه وسرُّه بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه، بل يفرِّغ قلبه من ذلك، ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وألذُّ وأطيب، وأعون على مصالحه؛ فإنَّ القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهمُّ عنده، وخيرٌ له منه؛ فيكون بذلك مغبوتًا، والرَّشيد لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرُّفات السَّفِيه، فأين سلامة القلب من امتلائه بالغلِّ والوساوس، وإعمال الفكر في إدراك الانتقام؟!

فصل

المشهد السابع: مشهد الأمن:

فإنَّه إذا ترك المقابلة والانتقام أمن ما هو شرُّ من ذلك، وإذا انتقم وأقعهُ الخوف ولا بدَّ؛ فإنَّ ذلك يزرع العداوة، والعاقل لا يأمن عدوّه ولو كان حقيرًا، فكم من حقيرٍ أردى عدوّه الكبير؟ فإذا غفر، ولم ينتقم، ولم يقابل أمن من تولَّد العداوة، أو زيادتها، ولا بدَّ أن عفوه وحلمه وصفحه يكسر عنه شوكة عدوّه، ويكفُّ من جزعه^(١)، بعكس الانتقام، والواقع شاهدٌ بذلك أيضًا.

فصل

المشهد الثامن: مشهد الجهاد:

وهو أن يشهد تولَّد أذى النَّاس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

(١) في «غ» والمنار: (عزمه).

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن؛ فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبائع؛ فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين من سكنى مكة - أعزها الله - ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمّنهم دية من قتلوه في سبيل الله..

ولمّا عزم الصديق رضي الله عنه على تضمين أهل الردّة ما أتلّفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطّاب بمشهد من الصحابة رضي الله عنهم: «تلك دماءٌ وأمّوالٌ ذهبَتْ في الله، وأجورُها على الله، ولا ديةٌ لشيءٍ» فأصفق ^(١) الصحابة على قول عمر، ووافقوه عليه الصديق، فمن قام الله حتى أودي في الله حرم الله عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فصل

المشهد التاسع: مشهد النعمة:

وذلك من وجوه:

- أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النّصر، ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ؛ فلو خير العاقل بين الحالتين - ولا بدّ من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً.
- ومنها: أن يشهد نعمة الله في التّكفير بذلك من خطاياها؛ فإنه ما أصاب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا أذىً إلا كفر الله به من خطاياها، فذلك في الحقيقة دواءٌ يُستخرج به منه داء الخطايا والدُّنوب، ومن رضي أن يلقي الله بأدوائه كلّها وأسقامه، ولم يداوه في الدُّنيا بدواءٍ يوجب له الشّفاء فهو مغبونٌ سفيهٌ، فأذى الخلق لك كالدّواء الكريه من الطّبيب المشفق عليك، فلا تنظر إلى مرارة الدّواء وكرهته ومن كان على يديه، وانظر إلى شفقة الطّبيب الذي ركّبه لك، وبعثه إليك على يدي من نفك بمضرتّه.

(١) قال في «اللسان»: «أصفقوا على كذا؛ أي: أطبقوا عليه» (٤/٢٤٦٤).

- ومنها: أن يشهد كون تلك البليّة أهون وأسهل من غيرها، فإنّه ما من محنةٍ إلّا وفوقها ما هو أقوى منها وأمرّ، فإن لم يكن فوقها محنةٌ في البدن والمال فليُنظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأنّ كلّ مصيبةٍ دون مصيبة الدّين فهيئةٌ (١)، وأنّها في الحقيقة نعمةٌ، والمصيبة الحقيقية مصيبة الدّين (٢).

- ومنها: توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة.

وفي بعض الآثار: أنّه يتمنّى أناسٌ يوم القيامة لو أنّ جلودهم كانت تُقرض بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء.

هذا؛ وإنّ العبد ليشتدُّ فرحه يوم القيامة بما له قبّل النَّاس من الحقوق في المال والنَّفْس والعرض؛ فالعاقِل يعدُّ هذا ذخراً ليوم الفقر والفاقة، ولا يبطله بالانتقام الذي لا يجدي عليه شيئاً.

فصل

المشهد العاشر: مشهد الأسوة:

وهو مشهدٌ شريفٌ لطيفٌ جدًّا؛ فإنّ العاقل اللَّبيب يرضى أن يكون له أسوةٌ برسُل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصّته من خلقه؛ فإنّهم أشدُّ الخلق امتحانًا بالنَّاس، وأذى النَّاس إليهم أسرع من السَّيل في الحدور، ويكفي تدبُّر قصص الأنبياء ﷺ مع أممهم وشأن نبيِّنا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤذ من قبله، وقد قال له ورقة بن نوفل: «لَتَكْذِبَنَّ وَلَتُخْرَجَنَّ وَلَتُؤْذَيْنَنَّ» (٣)، وقال له: «مَا جَاءَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي» (٤).

(١) في «غ» والمنار: (جلل).

(٢) قال في «حاشية المنار»: كتب في هامش الأصل هذه الحاشية: حبس السلطان رجلاً؛ فكتب إليه بعض إخوانه الصالحين: اشكر الله، ثم ضرب، فكتب إليه: اشكر الله، ثم قيد هو ومجوسي مبطون بقيد واحد، فكان المجوسي يقوم بالليل لقضاء الحاجة مرات، وكلما ذهب معه الرجل فيقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه صاحبه: اشكر الله، فقال: على ماذا أشكر الله؟ وأي بلاء فوق ما أنا فيه؟ فكتب إليه: لو جعل الزنار الذي في وسطه في وسطك كما جعل القيد في رجلك ما كنت تصنع؟ فاشكر الله على سلامة الدين.

وهذه الحاشية موجودة أيضًا في نسخة «غ» وأثبتها (الفتي) في هامشه بقوله: في هامش أحد الأصول ما نصه.

(٣) رواه ابن إسحاق وعنه ابن هشام (١/٢٣٨)، وروى نحوه البخاري في أول «صحيحه»، باب: كيف كان بدء الوحي إلى

رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في «الإيمان»، باب: بدء الوحي (١٦٠).

(٤) انظر الحاشية السابقة.

وهذا مستمرٌ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ.

أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوةٌ بخيار خلق الله، وخواصُّ عباده الأمثل فالأمثل؟! ومن أحبَّ معرفة ذلك فليقف على محن العلماء، وأذى الجهال لهم، وقد صنَّف في ذلك ابن عبد البرُّ كتابًا سمَّاه «مِحنَ العُلَمَاءِ».

فصلٌ

كلمة المشهد الحادي عشر: مشهد التَّوحيد:

وهو أجلُّ المشاهد وأرفعها، فإذا امتلأ قلبه بمحبَّة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتَّقرُّب إليه، وقرَّة العين به، والأنس به، واطمأنَّ إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتَّخذه وليًّا دون من سواه، بحيث فوَّض إليه أموره كلَّها، ورضي به وبأقضيته، وفني بحبِّه وخوفه ورجائه وذكره والتَّوكُّل عليه، عن كلِّ ما سواه؛ فإنه لا يبقى في قلبه متَّسعٌ لشهود أذى النَّاس له ألبتَّة، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسرُّه بتطلُّب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكون إلَّا من قلبٍ ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوِّضه منه، فهو قلبٌ جائعٌ غير شبعان؛ فإذا رأى أيَّ طعامٍ رآه هفَّت إليه نوازعه، وانبعثت إليه دواعيه، وأمَّا من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها، فإنه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصلٌ

□ وأما قوله: «أَنْ يَسْتَفِيدَ بِمَعْرِفَةِ أَقْدَارِ النَّاسِ، وَجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهِمْ: مَحَبَّتَهُمْ لَهُ، وَنَجَاتَهُمْ بِهِ».

فلا تَه إذا عاملهم بهذه المعاملة من إقامة أعدارهم، والعمو عنهم، وترك مقابلتهم، استوت كراحتهم ومحبتهم له، وكان ذلك سببًا لنجاتهم الأخرويَّة أيضًا؛ إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه، وتلقِّي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسن التَّلَقِّي، هذه طباع النَّاس.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: تَحْسِينُ خُلُقِكَ مَعَ الْحَقِّ، وَتَحْسِينُهُ مِنْكَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَأْتِي مِنْكَ يُوجِبُ عُذْرًا، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَأْتِي مِنَ الْحَقِّ يُوجِبُ شُكْرًا، وَأَلَّا تَرَى لَهُ مِنَ الْوَفَاءِ بُدًّا».

* هذه الدَّرَجَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ:

كـ إحداهما: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ نَاقِصٌ: وَكُلُّ مَا يَأْتِي مِنَ النَّاقِصِ نَاقِصٌ، فَهُوَ يُوجِبُ اعْتِذَارَهُ مِنْهُ لَا مُحَالَةَ، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَذَّرَ إِلَى رَبِّهِ مِنْ كُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، أَمَّا الشَّرُّ: فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْخَيْرُ: فَيَعْتَذِرُ مِنْ نَقْصَانِهِ، وَلَا يِرَاهُ صَالِحًا لِرَبِّهِ.

فهو - مع إحسانه - معتذرٌ في إحسانه، ولذلك مدح الله أوليائه بالوجل منه مع إحسانهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقال النبي ﷺ: «هُوَ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ إِلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١)؛ فإذا خاف فهو بالاعتذار أولى.

والحامل له على هذا الاعتذار أمران:

- أحدهما: شهود تقصيره ونقصانه.

- والثاني: صدق محبته.

فإنَّ المحبَّ الصَّادِقَ يَتَقَرَّبُ إِلَى مَحْبُوبِهِ بِغَايَةِ إِمْكَانِهِ، وَهُوَ مُعْتَذِرٌ إِلَيْهِ^(٢)، مُسْتَحْيِيٌّ مِنْهُ أَنْ يُوَاجِهَهُ بِمَا وَاجِهَهُ بِهِ، وَهُوَ^(٣) يَرَى أَنَّ قَدْرَهُ فَوْقَهُ وَأَجَلٌ مِنْهُ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي مُحَبَّةِ الْمَخْلُوقِينَ.

كـ القاعدة الثَّانِيَةُ: اسْتِعْظَامُ كُلِّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْكَ، وَالاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ يُوجِبُ الشُّكْرَ عَلَيْكَ، وَأَنَّكَ عَاجِزٌ عَنْ شُكْرِهِ، وَلَا يَتَبَيَّنُ هَذَا إِلَّا فِي الْمُحَبَّةِ الصَّادِقَةِ، فَإِنَّ الْمُحَبَّ يَسْتَكْثِرُ مِنْ مَحْبُوبِهِ

(١) تقدم تخريجه (١٧٦/٢).

(٢) في «غ» والمنار: (وهو معتذر إليه غاية الاعتذار).

(٣) (هو): ساقطة من «غ» والمنار.

كُلُّ ما يناله، فإذا ذكره بشيءٍ وأعطاه إيَّاه^(١) كان سروره بذكره له، وتأهيله لعطائه أعظم عنده من سروره بذلك العطاء، بل يغيب بسروره بذكره له عن سروره بالعطيَّة، وإن كان المحبُّ يسرُّه ذكر محبوبه له، وإن ناله بمسأةٍ، كما قال القائل:

لَسِئْنُ سَاءَ نَبِيٍّ أَنْ نَلْتَنِي بِمُسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَا

فكيف إذا ناله محبوبه بمسرةٍ - وإن دقت - فإنه لا يراها إلا جليلاً خطيرةً؛ فكيف هذا مع الرَّبِّ تعالى الَّذي لا يأتي أبداً إلا بالخير؟! ويستحيل خلاف ذلك في حقِّه، كما يستحيل عليه خلاف كماله، وقد أفصح أعراف الخلق بربه عن هذا بقوله: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٢) أي: لا يضاف إليك، ولا ينسب إليك، ولا يصدر منك، فإنَّ أسماءه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها كمالٌ، وأفعاله كلُّها فضلٌ وعدلٌ، وحكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ، فبأيِّ وجهٍ ينسب الشَّرُّ إليه ﷻ؟! فكلُّ ما يأتي منه فله عليه الحمد والشُّكر، وله فيه النِّعمة والفضل.

قوله: «وَأَلَّا يَرَى مِنَ الْوَفَاءِ بُدًّا».

يعني: أنَّ معاملتك للحقِّ سبحانه بمقتضى الاعتذار من كلِّ ما منك، والشُّكر على ما منه، عقدٌ مع الله تعالى لازمٌ لك أبداً، لا ترى من الوفاء به بدًّا، فليس ذلك بأمرٍ عارضٍ، وحالٍ يحوّل، بل عقدٌ لازمٌ عليك الوفاء به إلى يوم القيامة.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: التَّخَلُّقُ بِتَصْفِيَةِ الْخُلُقِ، ثُمَّ الصُّعُودُ عَنِ تَفْرِقَةِ التَّخَلُّقِ، ثُمَّ التَّخَلُّقُ بِمَجَاوِزَةِ الْأَخْلَاقِ».

هذه الدَّرَجَةُ ثلاثة أشياء:

- أحدها: تصفية الخلق بتكميل ما ذكر في الدَّرَجَتَيْنِ قبله، فيصفِّيه من كلِّ شائبةٍ وقدَّى ومشوشٍ، فإذا فعلت ذلك صعدت من تفرقة إلى جمعيتك على الله، فإنَّ التَّخَلُّقَ والتَّصَوُّفَ تهذيبٌ

(١) كلمة (إياه): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) تقدم تخريجه (٥٠/٣) وهو جزء من حديث الاستفتاح.

واستعداداً للجمعية، وإنما سمّاه تفرقةً لأنه اشتغالٌ بالغير، والسلوك يقتضي الإقبال بالكلية، والاشتغال بالرّبّ وحده عمّا سواه.

ثمّ يصعد إلى ما فوق ذلك، وهو مجاوزة الأخلاق كلّها بأن يغيب عن الخلق والتخلّق، وهذه الغيبة لها مرتبتان عندهم:

- إحداهما: الاشتغال بالله عَزَّوَجَلَّ عن كلّ ما سواه.
- والثانية: الفناء في الفردانية التي يسمونها «حَضْرَةَ الْجَمْعِ» وهي أعلى الغايات عندهم، وهي موهيئةٌ لا كسيئةٌ، لكنّ العبد إذا تعرّض وصدق في الطّلب رجي له الظفر بمطلوبه، والله أعلم.

فصل

ومدار حسن الخلق مع الحقّ ومع الخلق على حرفين ذكرهما عبد القادر الكيلانيّ فقال: «كُنْ مَعَ الْحَقِّ بِلا خَلْقٍ، وَمَعَ الْخَلْقِ بِلا نَفْسٍ».

فتأمل؛ ما أجّل هاتين الكلمتين، مع اختصارهما، وما أجمعهما لقواعد السلوك ولكلّ خلقٍ جميل؟ وفساد الخلق إنّما ينشأ من توسّط الخلق بينك وبين الله تعالى، وتوسّط النفس بينك وبين خلقه، فمتى عزلت الخلق حال كونك مع الله تعالى، وعزلت النفس حال كونك مع الخلق، فقد فزت بكلّ ما أشار إليه القوم، وشمّروا إليه، وحاموا حوله، والله المستعان.

فصل

[منزلة التواضع]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَبَدُّوْا يَاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ منزلة التواضع. قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَى الْاَرْضِ هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣] أي: سكينته ووقاراً متواضعين، غير أشريين، ولا مَرِحِينَ ولا متكبرين. قال الحسن: «عُلَمَاءُ حُلَمَاءُ».

وقال محمّد بن الحنفية: «أَصْحَابُ وَقَارٍ وَعِفَّةٍ لَا يَسْفَهُوْنَ، وَإِنْ سُفِهَ عَلَيْهِمْ حَلُمُوا».

والهون بالفتح في اللُّغَة: الرِّفْق واللين.

والهون بالضمّ: الهوان.

فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم: صفة أهل الكفران، وجزاؤهم من الله النيران.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَدَيْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجَاهِدُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ

أَعَزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لَمَّا كَانَ الذُّلُّ مِنْهُمْ ذُلًّا رَحِمَةً وَعَطْفًا وَشَفَقَةً وَإِخْبَاتٍ عَدَاهُ بِأَدَاةِ «عَلَى» تَضْمِينًا لِمَعَانِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِ ذُلُّ الْهَوَانِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلِيلٌ^(١)، وَإِنَّمَا هُوَ ذُلُّ اللَّيْنِ وَالانْقِيَادِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلُولٌ، فَالْمُؤْمِنُ ذَلُولٌ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الذَّلُولِ»، وَالْمَنَاقِقُ وَالْفَاسِقُ ذَلِيلٌ، وَأَرْبَعَةٌ يَعْشَقُهُمُ الذُّلُّ أَشَدَّ الْعَشَقِ: الْكَذَّابُ، وَالنَّمَّامُ، وَالْبَخِيلُ، وَالْجَبَّارُ.

وقوله: ﴿أَعَزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هُوَ مِنْ عَزَّةِ الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَالغَلْبَةِ.

قَالَ عَطَاءٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْوَالِدِ لِوَالِدِهِ، وَعَلَى الْكَافِرِينَ^(٢) كَالسَّبْعِ عَلَى فَرَسَيْتِهِ».

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا عكس حال من قيل فيهم:

كِبْرًا عَلَيْنَا وَجُبْنًا عَنْ عَدُوِّكُمْ لِسِتِّ الْخَلَّتَانِ الْكِبْرِ وَالْجُبْنِ

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى

إِلَيَّ: أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي

قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٤).

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد لفظ «... فإنما المؤمن كالجمال الأنف، حيشما قيد انقاد...». رواه أحمد (١٢٦/٤).

وابن ماجه (٤٣)، وصححه الألباني في «صحح سنن».

(٢) في «غ»: (الكافر).

(٣) روى نحوه مسلم في «صحيحه» في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل

النار (٢٨٦٥)، وأبو داود في «سننه» في الأدب باب: في التواضع (٤٨٩٥).

(٤) رواه مسلم في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه (٩١)، وأبو داود في اللباس، باب: ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٩١).

وفي «الصحيحين» مرفوعاً: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عْتُلٍّ جَوَاطِئٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(١).

وفي حديث احتجاج الجنة والنار: «أَنَّ النَّارَ قَالَتْ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ»^(٢). وهو في الصحيح.

وفي «صحيح مسلم» (عن أبي سعيد)^(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنها قال^(٤): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْعِرْزَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَارَ عَنِّي عَدَبْتُهُ»^(٥).

وفي «جامع الترمذي» مرفوعاً عن (سلمة بن الأكوع رضي الله عنه)^(٦): «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكْتَبَ فِي دِيْوَانِ الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ»^(٧).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمرُّ على الصبيان فيسلم عليهم^(٨).

وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنتطق به حيث شاءت^(٩).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل لعق أصابعه الثلاث^(١٠).

وكان صلى الله عليه وسلم يكون في بيته في خدمة أهله^(١١).

وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ قَطُّ^(١٢).

وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُرْقِعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْلُبُ الشَّاةَ لِأَهْلِهِ^(١٣)، وَيَعْلِفُ الْبَعِيرَ، وَيَأْكُلُ مَعَ

(١) البخاري في «التفسير» تفسير سورة (ن) برقم (٤٩١٨)، ومسلم في «صفة الجنة»، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٣).

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة (ق) باب: قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُهُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ برقم (٤٨٥٠)، ورواه مسلم في «صفة الجنة»، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

(٣) جملة (عن أبي سعيد) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: صلى الله عليه وسلم قال.

(٥) رواه مسلم في البر والصلة، باب: تحريم الكبر (٢٦٢٠)، وأبو داود في اللباس باب: ما جاء في الكبر (٤٠٩٠).

(٦) جملة (عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه): ساقطة من «غ» والمنار.

(٧) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في الكبر، وقال: هذا حديث حسن غريب وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٤٣).

(٨) البخاري في «الاستئذان»، باب: التسليم على الصبيان (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

(٩) البخاري في الأدب، باب: الكبر (٦٠٧٢)، وابن ماجه في «الزهد»، باب: البراءة من الكبر (٤١٧٧).

(١٠) رواه مسلم في «الأشربة»، باب: استحباب لعق الأصابع (٢٠٣٤)، وأبو داود في «الأطعمة» (٣٨٤٥).

(١١) البخاري في «الأذان»، باب: من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٧٦).

(١٢) تقدم تخريجه (٢/٢٩٩).

(١٣) رواه أحمد (١٠٦/٦)، وقال الحافظ العراقي: «رجاله رجال الصحيح». «تخريج الإحياء» (١٢٩/٣).

الْحَادِمِ، وَيَجَالِسُ الْمَسَاكِينَ، وَيَمْشِي مَعَ الْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ^(١) فِي حَاجَتَيْهِمَا، وَيَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ، وَلَوْ إِلَى أَيْسَرِ شَيْءٍ.

وكان ﷺ هيين المؤمنة، ليين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بسامًا، متواضعًا من غير ذلّة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب رحيمًا بكلّ مسلم خافض الجناح للمؤمنين، ليين الجانب لهم.

وقال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ - أَوْ: تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ - تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ»^(٢). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وقال: «لَوْ دُعِيَتْ إِلَيَّ ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كِرَاعٌ لَقَبِلْتُ»^(٣). رواه البخاري. وكان ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد^(٤). وكان يوم قريظة على حمارٍ مخطومٍ بحبلٍ من ليفٍ عليه إكاف^(٥) من ليفٍ.

فصل

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: «يَخْضَعُ لِلْحَقِّ، وَيَنْقَادُ لَهُ، وَيَقْبَلُهُ مِمَّنْ قَالَهُ». وقيل: التواضع ألا ترى لنفسك قيمة، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره. وقال الجنيد بن محمد^(٦): «هُوَ خَفْضُ الْجَنَاحِ وَلَيِّنُ الْجَانِبِ».

(١) رواه النسائي في «الجمع»، باب: ما يستحب من تقصير الخطبة (٣/ ١٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١٣٤١).

(٢) رواه الترمذي في «صفة القيامة»، باب (٤٥) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، ورواه أحمد (١/ ٤١٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٢٢).

(٣) رواه البخاري في «النكاح»، باب: من أجاب إلى كراع (٢٥٦٨)، والترمذي في «الأحكام»، باب: ما جاء في قبول الهدية وإجابة الدعوة.

(٤) رواه الترمذي في «الجنائز»، باب (٣٢)، وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس، ومسلم الأعمور يضعف، وهو مسلم بن كيسان تكلم فيه». ورواه ابن ماجه في «الزهد»، باب: البراءة من الكبر، والتواضع (٤١٧٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» برقم (٩١٥).

(٥) إكاف الحمار: بردغته.

(٦) في «ع» والمنار: (رحمه الله).

وقال أبو يزيد^(١) البسطامي: «هُوَ أَلَّا يَرَى لِنَفْسِهِ مَقَامًا وَلَا حَالًا، وَلَا يَرَى فِي الْخَلْقِ شَرًّا مِنْهُ».
وقال ابن عطاء^(٢): «هُوَ قَبُولُ الْحَقِّ مِمَّنْ كَانَ، وَالْعِزُّ فِي التَّوَاضُّعِ، فَمَنْ طَلَبَهُ فِي الْكِبَرِ فَهُوَ كَتَطَلَّبِ الْمَاءِ مِنَ النَّارِ».

وقال إبراهيم بن شيبان: «الشَّرْفُ فِي التَّوَاضُّعِ، وَالْعِزُّ فِي التَّقْوَى، وَالْحُرِّيَّةُ فِي الْقَنَاعَةِ».
ويذكر عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: «أَعَزُّ الْخَلْقِ خَمْسَةٌ أَنْفُسٍ: عَالِمٌ زَاهِدٌ، وَفَقِيهٌ صُوفِيٌّ، وَغَنِيٌّ مُتَوَاضِعٌ، وَفَقِيرٌ شَاكِرٌ، وَشَرِيفٌ سُنِّيٌّ».

وقال عروة بن الرُّبَيْرِ رضي الله عنه: «رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه عَلَى عَاتِقِهِ قِرْبَةَ مَاءٍ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يَنْبَغِي لَكَ هَذَا؛ فَقَالَ: لَمَّا أَتَانِي الْوُفُودُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، دَخَلَتْ نَفْسِي نَحْوَةً، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَهَا».

«وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارةً مرّةً، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، ويقول: طَرَفُوا لِأَمِيرٍ».

«وركب زيد بن ثابتٍ مرّةً، فدنا ابن عباسٍ ليأخذ بركابه، فقال: مه يا بن عمِّ رسول الله! فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا، فقال: أرني يدك، فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله».

«وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حلالاً، فبعث إلى معاذٍ حلّةً مثمّنةً، فباعها واشترى بثمنها ستّةً أعبيدٍ وأعتقهم، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بعد ذلك حلّةً دونها، فعاتبه معاذٌ، فقال عمر: لأنّك بعت الأولي، فقال معاذٌ: وما عليك؟ ادفع لي نصيبي، وقد حلفت لأضربنّ بها رأسك فقال عمر رضي الله عنه: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشابُّ بالشيخ».

«ومرَّ الحسن على صبيانٍ معهم كسر خبزٍ، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثمّ حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم؛ لأنّهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه».
«ويذكر أنّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه عيّرَ بلالاً رضي الله عنه بسواده، ثمّ ندم، فألقى بنفسه،^(٣) فحلف: لا رفعت رأسي حتّى يطأ بلالٌ خدّي بقدمه، فلم يرفع رأسه حتّى فعل بلالٌ».

(١) في «غ» والمنار: (وقال أبو يزيد رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) في «غ» والمنار: (نفسه).

وقال رجاء بن حيوة: «قَوِّمْتُ ثِيَابَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَخْطُبُ بِأَثْنِي عَشَرَ ذِرْهَمًا، وَكَانَتْ قِبَاءً وَعِمَامَةً وَقَمِيصًا وَسَرَاوِيلَ وَرِدَاءً وَخُفَّيْنِ وَقَلَنْسُوَّةً».

«ورأى محمد بن واسع ابنًا له يمشي مشيةً منكراً، فقال: تدري بكم شريت (١) أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك - لاكثر الله في المسلمين مثله - أنا، وأنت تمشي هذه المشية؟!».

وقال حمدون القصار: «التَوَاضَعُ أَلَّا تَرَى لِأَحَدٍ إِلَى نَفْسِكَ حَاجَةً، لَا فِي الدِّينِ وَلَا فِي الدُّنْيَا».

وقال إبراهيم بن أدهم: «مَا سُرِرْتُ فِي إِسْلَامِي إِلَّا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: كُنْتُ فِي سَفِينَةٍ، وَفِيهَا رَجُلٌ مِضْحَاكٌ، كَانَ يَقُولُ: كُنَّا فِي بِلَادِ التُّرْكِ فَأَخَذَ الْعِلْجُ هَكَذَا، وَكَانَ يَأْخُذُ بِشَعْرِ رَأْسِي وَيَهْزُنِي، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي تِلْكَ السَّفِينَةِ أَحَدٌ أَحَقَرُ مِنِّي».

وَالْأُخْرَى: كُنْتُ عَلِيًّا فِي مَسْجِدٍ، فَدَخَلَ الْمُؤَذِّنُ، وَقَالَ: اخْرُجْ، فَلَمْ أُطِقْ، فَأَخَذَ بِرِجْلِي وَجَرَّنِي إِلَى خَارِجٍ.

وَالْأُخْرَى: كُنْتُ بِالشَّامِ وَعَلَيَّ فَرُّو، فَتَنَظَرْتُ فِيهِ فَلَمْ أُمَيِّزْ بَيْنَ سَعْرِهِ وَبَيْنَ الْقَمَلِ لِكَثْرَتِهِ؛ فَسَرَّنِي ذَلِكَ» (٢).

وفي رواية: «كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَبَالَ عَلَيَّ» (٣).

وقال بعضهم: «رَأَيْتُ فِي الطَّوَافِ رَجُلًا بَيْنَ يَدَيْهِ شَاكِرِيَّةٌ يَمْنَعُونَ النَّاسَ لِأَجَلِهِ عَنِ الطَّوَافِ، ثُمَّ رَأَيْتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَدَّةِ عَلَى جِسْرِ بَغْدَادِ يَسْأَلُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: إِنِّي تَكَبَّرْتُ فِي مَوْضِعٍ يَتَوَاضَعُ النَّاسُ فِيهِ» (٤)، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه» (٥).

«وبلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ ابْنَ أُمَّ لِي اشْتَرَى خَاتَمًا بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ: بَلْغَنِي أَنَّكَ اشْتَرَيْتَ فِصًّا بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَبِعِ الْخَاتَمَ، وَأَشْبِعْ بِهِ أَلْفَ بَطْنٍ، وَاتَّخِذْ خَاتَمًا بِدَرَاهِمِينَ، وَاجْعَلْ فِيهِ حديدًا صِينِيًّا، وَكْتُبْ عَلَيْهِ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) في حاشية المنار: اشتريت.

(٢) رحم الله الإمام ابن القيم (لقد كان في غنى عن ذكر قصة القمل والبول، فليته اكتفى بما ذكره من قبل ومن بعد، فالسرور بكثرة القمل أو بول الغير ليس من التواضع في شيء، بل السرور بذلك مناف للطمع السليم والفترة السليمة والشريعة القويمة، وهذا على فرض ثبوت هذه الروايات على ابن أدهم رحمه الله تعالى، ولعلها لم تثبت.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) في «غ» والمنار: (إني تكبرت في موضع الناس فيه هناك).

(٥) في «غ»: (يرتفع فيه الناس)، والمنار: (يرتفع فيه الناس).

فصل

أول ذنب عصي الله به أبوا الثقلين: الكبر والحرص، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه، وذنّب آدم على نبينا وعليه السلام كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنّب إبليس حملة على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنّب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجّون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول: «التكبر شر من الشرك»^(١)؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمُشرك يعبد الله وغيره».

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال تعالى في سورة الزمر وفي سورة غافر:

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢، غافر: ٧٦].

وفي سورة النحل: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

وفي سورة تنزيل: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم؛ فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى

كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال رحمته الله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢). رواه مسلم.

وقال رحمته الله: «الكبر بطر الحقّ وعمص الناس»^(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] تنبيهاً على أنه لا يغفر الكبر الذي هو

أعظم من الشرك، وكما أن من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر عن الانقياد للحقّ أذله الله ووضعه،

(١) في «غ» والمنار: (المتكبر شر من المشرك).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٦٢).

(٣) هو جزء من إحدى روايات الحديث السابق.

وصغره وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق - ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفتة، ومنه وله؛ فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رده على الله، وتكبر عليه، والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق».

يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والدل، والانقياد، والدخول تحت رقه؛ بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه، فهذا^(١) يحصل للعبد خلق التواضع. ولهذا فسّر النبي ﷺ الكبر بضده؛ فقال: «الكبر بطر الحق وعمص الناس»^(٢). فبطر الحق: رده وجحده، والدفع في صدره؛ كدفع الصائل. وعمص الناس: احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم؛ دفع حقوقهم وجحدها، واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقالٌ وصولةٌ كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولا سيما النفوس المبطله، فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها، فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها.

□ قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التواضع للدين، وهو ألا يعارض بمعقولٍ منقولاً، ولا يتم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً».

التواضع للدين: هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان، وذلك بثلاثة

أشياء:

الاول: ألا يعارض شيئاً ممّا جاء به بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والدوق، والسياسة.

(١) في «غ»: (فلهذا).

(٢) هو جزء من حديث تقدم تخريجه (٦٢).

- فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الَّذِينَ عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قَدَمْنَا العقل وعزلنا النقل، إمَّا عزل تفويضٍ، وإمَّا عزل تأويلٍ.

- والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض (١) القياس والرأي والنصوص قَدَمْنَا القياس على النصِّ، ولم نلتفت إليه.

- والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قَدَمُوا الذوق والحال، ولم يعبثوا بالأمر.

- والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قَدَمُوا السَّيَاسَةَ، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة. فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر.

والتواضع: التخلُّص من ذلك كله.

والثاني: ألا يتَّهَم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنُّه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرهما، أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيءٌ من ذلك فليتَّهَم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبليَّة فيه، كما قيل:

وَكَم مِّنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَاحِحًا وَأَقْتَهُ مِّنَ الْفَهْمِ السَّاقِيمِ
وَلَكِن تَأْخُذُ الْأَذْهَانَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُحُومِ

وهكذا الواقع في الواقع (٢) حقيقة: أنه ما اتَّهَم أحدٌ دليلاً للدين إلا وكان المتهَم هو الفاسد الذهن (٣)، المأفون (٤) في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل.

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبؤ فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم، ولم تُؤت مفتاحه بعد، هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتَّهَم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردُّها أيسر شيءٍ عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيءٍ ولو... ولو... وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

(١) في «غ» والمنار: (عارض).

(٢) جملة (في الواقع) غير موجودة في «غ».

(٣) في «غ» والمنار: (إلا وكان هو المتهَم الفاسد الذهن).

(٤) في «غ» والمنار: (المؤوف)، والمؤوف: الذي أصابه آفة؛ «اللسان» (١/١٧١).

أما المأفون فقال في «اللسان»: «ورجل مأفون؛ أي: ضعيف العقل والرأي». «اللسان» (١/٩٨).

قال الشافعي قدس الله روحه: «أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيَّ أَنْ مَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمْ يَجَلُّ لَهُ أَنْ يَدْعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ».

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة، لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله، بل إذا أحس بشيء من الخلاف فهو كخلاف المقدم على الرنا، وشرب الخمر، وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص - لقول متبوعه وشيخه ومقلده، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته، إن كان عند الله معذوراً - ولا والله ما هو بمعذورٍ - فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعدر عند الله ورسوله، وملائكته، والمؤمنين من عباده.

فوا عجباً إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعدر من خالفها تقليداً، أو تأويلاً، أو لغير ذلك؛ فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص؟!

وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟! فرموا بدائهم وانسلوا منه ليواداً، وقذفوه بمصائبهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذاً لهم ومعاذاً! والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ النَّجَاةَ فِي الْبَصِيرَةِ، وَالْإِسْتِقَامَةَ بَعْدَ الثِّقَةِ، وَأَنَّ الْبَيِّنَةَ وَرَاءَ الْحُجَّةِ».

* يقول: إن ما ذكرناه من التواضع للدين بهذه الأمور الثلاثة:

﴿الأولى﴾^(١): علمه أن النجاة من الشقاء والضلال: إنما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له: فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة.

والبصيرة نورٌ يجعله الله في عين القلب، يفرق به العبد^(٢) بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب كنسبة ضوء العين إلى العين.

(١) كلمة (الأولى) ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (العبد): ساقطة من «غ» والمنار.

وهذه البصيرة وهبيّة وكسيّية، فمن أدار^(١) النَّظْرَ في أعلام الحقِّ وأدلّته، وتجرّد لله من^(٢) هواه استنارت بصيرته، ورزق فرقاناً يفرّق به بين الحقِّ والباطل.

﴿الثاني: أن يعلم أن الاستقامة إنّما تكون بعد الثقة؛ أي: لا يتصوّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال، إلّا بعد الثقة بصحّة ما معه من العلم، وأنّه مقتبسٌ من مشكاة النبوّة، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

﴿الثالث: أن يعلم أن البيّنة وراء الحجّة، والبيّنة مراده بها: استبانة الحقِّ وظهوره، وهذا إنّما يكون بعد الحجّة إذا قامت استبان الحقِّ وظهر واتّضح.

وفيه معنّى آخر وهو: أنّ العبد إذا قبل حجّة الله بمحض الإيمان والتّسليم والانقياد كان هذا القبول هو سبب تبيّنها وظهورها، وانكشافها لقلبه؛ فلا يصبر على بيّنة ربّه إلّا بعد قبول حجّته.

وفيه معنّى آخر أيضًا: أنّه^(٣) لا يتبيّن له عيب عمله من صحّته إلّا بعد العلم الذي هو حجّة الله على العبد؛ فإذا عرف الحجّة اتّضح له بها ما كان مشكلاً عليه من علومه، وما كان معيياً من أعماله.

وفيه معنّى آخر أيضًا: وهو أن يكون «وراء» بمعنّى أمام، والمعنى: أنّ الحجّة إنّما تحصل للعبد بعد تبيّنها، فإذا لم تتبيّن له لم تكن له حجّة؛ يعني: فلا يقنع من الحجّة بمجرد حصولها بلا تبيّن، فإنّ التبيّن أمام الحجّة، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ تَرْضَى بِمَا رَضِيَ الْحَقُّ بِهِ لِنَفْسِهِ عَبْدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَا، وَأَلَّا تَرُدَّ عَلَى عَدْوِكَ حَقًّا، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنَ الْمُعْتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ».

يقول: إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أحًا؟ فعدم رضاك به أحًا - وقد رضي سيّدك الذي أنت عبده عبدًا لنفسه - عين الكبر، وأيُّ قبيح أقبح من تكبّر العبد على عبد مثله، لا يرضى بأخوته، وسيّده راضٍ بعبوديّته؟!!

فيجيء من هذا: أنّ المتكبّر غير راضٍ بعبوديّة سيّده؛ إذ عبوديّته توجب رضا بأخوة عبده،

(١) في «غ»: (أراد).

(٢) في «غ» والمنار: (عن).

(٣) في «غ» والمنار: (وهو أنه).

وهذا شأن عبيد الملوك، فإنَّهم يرون بعضهم خشداشيَّة^(١) بعض، ومن ترفع منهم عن ذلك لم يكن من عبيد أستاذهم.

قوله: «وَأَلَّا تَرُدَّ عَلَيَّ عُدُوكَ حَقًّا».

أي: لا تصحَّ لك درجة التواضع حتَّى تقبل الحقَّ ممَّن تحبُّ وممَّن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، وإذا لم تردَّ عليه حقَّه فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟! بل حقيقة التواضع أنه إذا جاءك قبيلته منه، وإذا كان له عليك حقُّ أدبته إليه؛ فلا تمنعك عداوته من قبول حقِّه، ولا من إيتائه إيَّاه. وأما: قَبُولُكَ مِنَ الْمُعْتَذِرِ مَعَاذِرَهُ.

فمعناه: أن من أساء إليك، ثمَّ جاء يعتذر من إساءته، فإنَّ التواضع يوجب عليك قبول معذرتة، حقاً كانت أو باطلاً، وتكلَّ سريرته إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلمَّا قدم جاءوا يعتذرون إليه، فقبل أعتذارهم، ووكَّل سرائرهم إلى الله تعالى. وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجَّه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قضي شيء لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنْ تَتَّضِعَ لِلْحَقِّ، فَتَنْزِلَ عَنْ رَأْيِكَ وَعَوَائِدِكَ فِي الْخِدْمَةِ وَرُؤْيَةِ حَقِّكَ فِي الصُّحْبَةِ، وَعَنْ رَسْمِكَ فِي الْمَشَاهِدَةِ».

يقول: التواضع بأن تخدم الحقَّ سبحانه، وتعبد به بما أمرك به، على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث من لا بصيرة له، غير أنه اعتاد أمراً فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك.

وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي، وموافقة هوئى ومحبة وعادة، بل الباعث مجرد الأمر، والرأي والمحبة والهوى والعوائد منفذة تابعة، لا أنها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر.

(١) الخشداش: لفظ فارسي معناه: الزميل في الخدمة، والخشداشة: هم الأمراء الذين نشئوا مماليك عند سيد واحد فنبئت بينهم رابطة الزمالة.

انظر: «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي» (ص ٦٨) عن «مدارج السالكين» ت: بشير عيون.

وَأَمَّا نُزُولُهُ عَنِ رُؤْيَا حَقِّهِ فِي الصُّحْبَةِ.

فمعناه: ألا يرى لنفسه حقاً على الله لأجل عمله، فإن صحبته مع الله بالعبودية والفقر المحض، والذل والانكسار، فمتى رأى لنفسه عليه حقاً فسدت الصُّحْبَةُ، وصارت معلولة وخيف منها المقت، ولا ينافي هذا ما أحقَّه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم؛ فإن ذلك حقُّ أحقَّه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم. فعليك بالفرقان في هذا الموضوع الذي هو مفترق الطرق.

* والناس فيه ثلاث فرق:

فرقة: رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب على ربه حقاً؛ فقالت: لا يجب على الله شيء ألبتة، وأنكرت وجوب ما أوجب على نفسه. وفرقة: رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أموراً لعبده؛ فظنت أن العبد أوجبها عليه بأعماله، وأن أعماله كانت سبباً لهذا الإيجاب، والفرقتان غالطتان.

والفرقة الثالثة أهل الهدى والصواب قالت: لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاتاً ولا فلاحاً، ولا يدخل أحداً عمله الجنة أبداً، ولا ينجيه من النار، والله تعالى - بفضله وكرمه، ومحض جوده وإحسانه - أكد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقاً بمقتضى الوعد، فإن وعد الكريم إيجاب، ولو بعسى، ولعل.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عسى من الله واجب».

ووعده اللئيم خلف، ولو اقترن به العهد والحلف.

والمقصود: أن عدم رؤية العبد لنفسه حقاً على الله لا ينافي ما أوجه الله على نفسه، وجعله حقاً لعبده، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّهم أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، يا معاذ، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّهم عليه ألا يعذبهم بالنار» (١).

فالربُّ سبحانه ما لأحدٍ عليه حقٌّ، ولا يضيع لديه سعيٌّ، كما قيل:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
إِنْ عُذِّبُوا فِعْدَلِيهِ أَوْ نَعَّمُوا فَيَفْضَلِيهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

(١) رواه البخاري في «التوحيد»، باب: ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٣)، ورواه مسلم في «الإيمان»، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣٠).

وأما قوله: «وَتَنْزِلُ عَنْ رَسْمِكَ فِي الْمَشَاهِدَةِ».

أي: من جملة التواضع للحق: فناؤك عن نفسك، فإن رسمه هي نفسه، والنزول عنها: فناؤه عنها حين شهوده الحضرة، وهذا النزول يصح أن يقال كسبي باعتبار، وإن كان عند القوم غير كسبي؛ لأنه يحصل عند التجلي، والتجلي نور، والنور يقهر الظلمة ويبطلها، والرسم عند القوم ظلمة، فهي تنفر من النور بالذات، فصار النزول عن الرسم حين التجلي ذاتياً.

ووجه كونه كسبياً: أنه نتيجة المقامات الكسبية، ونتيجة الكسبي كسبي، وثمرته وإن حصلت ضرورة بالذات لم يمتنع أن يطلق عليها كونها كسبية باعتبار السبب، والله أعلم.

فصل

[منزلة الفتوة]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعُدُّ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الفتوة.

هذه المنزلة حقيقتها: هي منزلة الإحسان إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله.

والفرق بينها وبين المروءة: أن المروءة أعم منها، فالفتوة نوع من أنواع المروءة؛ فإن المروءة استعمال ما يجمل ويزين مما هو مختص بالعبد، أو متعد إلى غيره، وترك ما يدنس ويشين مما هو مختص أيضاً به، أو متعلق بغيره.

والفتوة: إنما هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

فهي ثلاثة منازل:

- منزلة التخلق وحسن الخلق.

- ومنزلة الفتوة.

- ومنزلة المروءة.

وقد تقدمت منزلة الخلق.

وهذه منزلة شريفة، لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتوة بل عبرت عنها باسم مكارم الأخلاق كما

في حديث يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي لِأَتَمِّمَ

مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ» (١).

وأصل الفتوة: من الفتى وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿إِنَّمَا فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقال عن قوم إبراهيم إنهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

وقال تعالى عن يوسف: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف: ٣٦].

﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [٦٢].

فاسم الفتى لا يُشعر بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولذلك لم يجرى اسم الفتوة في القرآن ولا في السنة ولا في لسان السلف، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق.

وأصلها عندهم: أن يكون العبد أبداً في أمر غيره.

وأقدم من علمته تكلم في الفتوة جعفر بن محمد، ثم الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وسهل

ابن عبد الله، والجنيد، ثم الطائفة.

فيذكر: «أن جعفر بن محمد سئل عن الفتوة؟ فقال للسائل: ما تقول أنت؟ فقال: إن أعطيت

شكرت، وإن منعت صبرت، فقال: الكلاب عندنا كذلك، فقال السائل: يا بن رسول الله؛ فما الفتوة

عندكم؟ فقال: إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا».

وقال الفضيل بن عياض: «الفتوة: الصَّفْحُ عَنْ عَثْرَاتِ الْإِخْوَانِ».

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه - في رواية ابنه عبد الله - عنه، وقد سئل عن الفتوة؟ فقال: «تَرَكَ مَا تَهْوَى

لِمَا تَخْشَى».

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه.

وسئل الجنيد عن الفتوة؟ فقال: «لَا تُنَافِرَ فَقِيرًا، وَلَا تُعَارِضَ غَنِيًّا».

وقال الحارث المحاسبى: «الفتوة: أَنْ تُنْصِفَ وَلَا تُنْصِفَ».

وقال عمر بن عثمان المكي: «الفتوة: حُسْنُ الْخُلُقِ».

(١) أوردته الهيثمي في «المجمع» (١٨٨/٨) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال

الصحيح ورواه بلفظ آخر: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال»، وقال: رواه الطبراني في

«الأوسط» وفيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٥) بلفظ «إنما

بعثت لأتمم مكارم - وفي رواية: صالح - الأخلاق». وعزاه إلى البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم

(٦١٣/٢)، وأحمد (٣١٨/٢).

وقال محمد بن علي الترمذي: «الفتوة: أن تكون خصمًا لربك على نفسك».

وقيل: «الفتوة: ألا ترى لنفسك فضلًا على غيرك».

وقال الدقاق: «هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ؛ فإن كل أحد يقول يوم القيامة:

نفسى نفسى، وهو يقول: أمي أمي».

وقيل: الفتوة: كسر الصنم الذي بينك وبين الله تعالى، وهو نفسك؛ فإن الله حكى عن خليله

إبراهيم عليه السلام: «أنته جعل الأصنام جذاذًا، فكسر الأصنام له، فالفتى من كسر صنمًا واحدًا في الله.

وقيل: الفتوة: ألا تكون خصمًا لأحد؛ يعني في حفظ (١) نفسك، وأمّا في حق الله، فالفتوة: أن

تكون خصمًا لكل أحد (٢)، ولو كان الحبيب المصافيا.

وقال الترمذي: «الفتوة: أن يستوي عندكم المقيم والطارئ».

وقال بعضهم: «الفتوة: ألا يميز بين أن يأكل عنده ولي أو كافر» (٣).

وقال الجنيد أيضًا: «الفتوة: كف الأذى وبذل الندى».

وقال سهل: «هي اتباع السنة».

وقيل: هي الوفاء والحفاظ.

وقيل: فضيلة تأتيها، ولا ترى نفسك فيها.

وقيل: ألا تحتجب ممن قصدك.

وقيل: ألا تهرب إذا أقبل العافي؛ يعني: طالب المعروف.

وقيل: إظهار النعمة وإسراز المحنة.

وقيل: ألا تدخر ولا تعتذر.

(١) في «غ»: (حظ) ولعلها هي الصواب.

(٢) في «غ» والمنار: (واحد).

(٣) لا يستوي أولياء الله ﷻ وأعداؤه، فولي الله له المحبة والنصرة والتكريم، والكافر له العداوة والبراءة منه، لكن كفره

لا يمنع من الإحسان إليه ما دام أنه لم يكن حربًا على المسلمين، فمعلوم أن من أخلاق الإسلام بذلك الإحسان

بالطعام والشراب لكل أحد بل لكل شيء كما قال ﷺ: «في كل كبد رطبة صدقة»، فيدخل في ذلك الإحسان إلى البر

والفاجر والمؤمن والكافر، وأما قوله ﷺ: «ولا يأكل طعامك إلا تقي» فهو ندب إلى الأفضل، ولا شك أن إطعام

المؤمن التقي الذي يستعين بطعامه على طاعة الله خير وأفضل من إطعام الكافر والفاجر الذي يستعين بطعامه على

معصية الله تعالى.

وَقِيلَ: «تَزَوَّجَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ رَأَىٰ بِهَا الْجُدْرِيَّ، فَقَالَ: اشْتَكَيْتُ عَيْنِي، ثُمَّ قَالَ: عَمِيْتُ، فَبَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً مَاتَتْ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ بَصِيرٌ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: كَرِهْتُ أَنْ يُحْزِنَهَا رُؤْيِي لِمَا بِهَا»^(١)، فَقِيلَ لَهُ: سَبَقَتْ الْفِتْيَانُ.

وقيل: ليس من الفتوة أن تريح على صديقك.

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال: ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال، فقال آخر منهم: أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلاً. وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل: يا غلام قدم السفرة، فلم يقدم؛ فقالها ثانياً وثالثاً فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا، فقال الرجل: لم أبطأت بالسفرة؟ فقال الغلام: كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل، فقالوا: يا غلام، مثلك يخدم الفتيان.

ومن الفتوة التي لا تلحق ما يُذكر: «أَنَّ رَجُلًا نَامَ مِنَ الْحَاجِّ فِي الْمَدِينَةِ، فَفَقَدَ هِمِّيَانًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ، فَقَامَ فَرَعًا، فَوَجَدَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَعَلِقَ بِهِ، وَقَالَ: أَخَذْتَ هِمِّيَانِي، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ: أَلْفُ دِينَارٍ، فَأَدْخَلَهُ دَارَهُ وَوَزَنَ لَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ وَجَدَ هِمِّيَانَهُ، فَجَاءَ إِلَى جَعْفَرٍ مُعْتَذِرًا بِالْمَالِ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، وَقَالَ: شَيْءٌ أَخْرَجْتَهُ مِنْ يَدِي لَا أَسْتَرِدُّهُ أَبَدًا؛ فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّاسِ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

فصل

قال صاحب «المنازل»: «نُكْتَةُ الْفُتُوَّةِ: أَلَّا تَشْهَدَ لَكَ فَضْلًا، وَلَا تَرَىٰ لَكَ حَقًّا».

يقول: قلب الفتوة، وإنسان عينها: أن تفتنى بشهادة نقصك، وعيبك عن فضلك، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والناس في هذا مراتب:

- فأشرفها: أهل هذه المرتبة.

(١) جملة (لما بها): ساقطة من «غ».

- وأخسُّها: عكسهم، وهم أهل الفناء في شهود فضائلهم عن عيوبهم، وشهود حقوقهم على النَّاس عن شهود حقوق النَّاس عليهم.
- وأوسطهم: من شهد هذا وهذا، فيشهد ما في العيب والكمال، ويشهد حقوق النَّاس عليه وحقوقه عليهم.

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَرْكُ الْخُصُومَةِ، وَالتَّعَاْفُلُ عَنِ الرَّئِةِ، وَنَسْيَانُ الْأَذِيَّةِ».

هذه الدرّجة من باب التّرك والتّخلّي، وهي ألاّ يخاصم أحداً، فلا ينصّب نفسه خصماً لأحدٍ غيرها، فهي خصمه.

وهذه المنزلة أيضاً ثلاث درجات:

- لا يخاصم بلسانه.

- ولا ينوي الخصومة بقلبه.

- ولا يخطر لها على باله.

هذا في حقّ نفسه.

وأما في حقّ ربّه: فالفتوة: أن يخاصم بالله وفي الله، ويحاكم إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ»^(١)، وهذه درجة فتوة العلماء الدّعاة إلى الله تعالى.
وأما «التّعافُلُ عَنِ الرَّئِةِ»: فهو أنّه إذا رأى من أحدٍ زلّةً يوجب عليه الشّرْع أخذها، أظهر أنّه لم يرها، لئلاّ يعرّض صاحبها للوحشة، ويريبه من تحمّل العذر.

وفتوة التّعافُل: أرفع من فتوة الكتمان مع الرّؤية.

قال أبو عليّ الدّقاق^(٢): «جَاءَتِ امْرَأَةٌ فَسَأَلَتْ حَاتِمًا عَنْ مَسْأَلَةٍ؟ فَاتَّفَقَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا صَوْتُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، فَخَجَلَتْ، فَقَالَ حَاتِمٌ: ارْزُقِي صَوْتِكَ، فَأَوْهَمَهَا أَنَّهُ أَصَمٌّ؛ فَسَرَّتِ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ، وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ الصَّوْتَ، فَلَقَّبَ بِحَاتِمِ الْأَصَمِّ، وَهَذَا التَّعَاْفُلُ هُوَ نِصْفُ الْفُتُوَّةِ».

وأما «نَسْيَانُ الْأَذِيَّةِ»: فهو بأن تنسى أذية من نالك بأذى، ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه.

(١) جزء من حديث استفتاح صلاة الليل تقدم تخريجه (٤٥/١).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

قلت: وهنا نسيانٌ آخر أيضًا، وهو من الفتوة، وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إليه، حتى كأنه لم يصدر منك، وهذا النسيان أكمل من الأول، وفيه قيل:

يَنْسَى صَنَائِعَهُ وَاللَّهُ يُظْهِرُهَا إِنَّ الْجَوِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَ

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ تُقَرِّبَ مَنْ يُقْصِيكَ، وَتُكْرِمَ مَنْ يُؤْذِيكَ، وَتَعْتَذِرَ إِلَى مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ: سَمَاحَةً لَا كَظْمًا، وَمَوَدَّةً لَا مُصَابِرَةً».

هذه الدرّجة أعلى ممّا قبلها وأصعب؛ فإنّ الأولى تتضمّن ترك المقابلة والتّغافل، وهذه تتضمّن الإحسان إلى من أساء إليك، ومعاملته بضدّ ما عاملك به؛ فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطّتين؛ فخطّتك الإحسان، وخطّته الإساءة، وفي مثلها قال القائل:

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذُنُونَ فَنَأْتِيَكُمْ وَنَعْتَذِرُ

ومن أراد فهم هذه الدرّجة كما ينبغي؛ فلينظر إلى سيرة النّبي ﷺ مع النّاس يجدها هذه بعينها، ولم يكن كمال هذه الدرّجة لأحدٍ سواه، ثمّ للورثة منها بحسب سهامهم من التّركة.

وما رأيت أحدًا قطّ أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه -.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: «وَدِدْتُ أَنِّي لِأَصْحَابِي مِثْلُهُ لِأَعْدَائِهِ وَخُصُومِهِ».

وما رأيت يدعو على أحدٍ منهم قطّ، وكان يدعو لهم.

وجئت يومًا مبشّرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوةً وأذىً له، فنهري وتنكّري واسترجع، ثمّ قام من فوره إلى بيت أهله فعزّاهم، وقال: إنّي لكم مكانه، ولا يكون لكم أمرٌ تحتاجون فيه إلى مساعدةٍ إلّا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له، وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه، وهذا مفهوم.

وأما «الإعتذارُ إلى من يجني عليك»: فإنّه غير مفهوم في بادي (١) الرّأي؛ إذ لم يصدر منك جنايةٌ

توجب اعتذارًا، وغايتك: أنّك لا تؤاخذه (٢)، فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذه.

ومعنى هذا: أنّك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجنيّ عليه، والجاني خليلٌ بالعدر.

(١) كلمة (بادي): ساقطة من «غ».

(٢) في المنار: (لم تؤاخذه).

وَالَّذِي يَشْهَدُكَ هَذَا الْمَشْهَدُ: أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا سَلَّطَ عَلَيْكَ بِذَنْبٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم بالله منك على يده؛ كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار. وَالَّذِي يَهْوَنُ عَلَيْكَ هَذَا كُلُّهُ: مشاهدة تلك المشاهد العشرة المتقدمة، فعليك بها، فإن فيها كنوز المعرفة والبرِّ.

وقوله: «سَمَاحَةٌ لَا كَظْمًا، وَمَوَدَّةٌ لَا مُصَابِرَةً».

يعني: اجعل هذه المعاملة منك صادرة عن سماحةٍ، وطيبة نفسٍ، وانسراح صدرٍ، لا عن كظمٍ وضيقٍ ومصابرةٍ؛ فإنَّ ذلك دليلٌ على أنَّ هذا ليس في خلقك، وإنَّما هو تكلُّفٌ يوشك أن يزول، ويظهر حكم الخلق صريحاً^(١) فتفتضح، وليس المقصود إلا إصلاح الباطن والسرِّ والقلب. وهذا الَّذِي قاله الشَّيْخ لا يمكن إلا بعد العبور على جسر المصابرة والكظم، فإذا تمكَّن^(٢) منه أفضى به إلى هذه المنزلة بعون الله، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ النَّالِيَةُ: أَلَّا تَتَعَلَّقَ فِي السَّيْرِ بِدَلِيلٍ، وَلَا تَشُوبَ إِجَابَتَكَ بِعَوْضٍ، وَلَا

تَقِفَ فِي شُهُودِكَ عَلَى رَسْمٍ».

هذه ثلاثة أمورٍ اشتملت عليها هذه الدرجة.

□ أما عدم تعلقه في السير بدليلٍ: فقد بين مراده به في آخر الباب، إذ يقول: «وَفِي

عِلْمِ الْخُصُوصِ: مَنْ طَلَبَ نُورَ الْحَقِيقَةِ عَلَى قَدَمِ الْإِسْتِدْلَالِ^(٣) لَمْ يَجَلَّ لَهُ

دَعْوَى الْفُتُوَّةِ أَبَدًا».

وهذا موضعٌ عظيمٌ يحتاج إلى تبينٍ وتقديرٍ.

والمراد: أنَّ السَّائِرَ إِلَى اللَّهِ يسير على قدم اليقين، وطريق البصيرة والمشاهدة، فوقوفه مع

الدَّليل دليلٌ على أَنَّهُ لم يَشْمَ رائحة اليقين، والمراد بهذا: أنَّ المعرفة عندهم ضروريةٌ لا استدلاليةٌ.

(١) كلمة (صريحاً): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: فد(حينئذ إذا تمكن).

(٣) في «غ»: (الاستدعاء).

وهذا هو الصواب.

ولهذا؛ لم تدع الرُّسل قطُّ الأمم إلى الإقرار بالصانع ﷻ، وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده، وخاطبهم خطاب مَنْ لا شبهة عنده قطُّ في الإقرار بالله تعالى، ولا هو محتاج إلى الاستدلال عليه؛ ولهذا: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وكيف يصحُّ الاستدلال على مدلولٍ هو أظهر من دليله؟!

حتى قال بعضهم: «كَيْفَ أَطْلُبُ الدَّلِيلَ عَلَى مَنْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؟!».

فتقيّد السائر بالدليل وتوقّفه عليه، دليلٌ على عدم يقينه، بل إنّما يتقيّد بالدليل الموصّل له إلى المطلوب بعد معرفته به؛ فإنّه يحتاج - بعد معرفته - إلى دليل يوصّله إليه، ويدلّه على طريق الوصول إليه، وهذا الدليل هو الرسول ﷺ، فهو موقفٌ عليه يتقيّد به، لا يخطو خطوةً إلاّ وراءه.

وأيضًا: فالقوم يشيرون إلى الكشف، ومشاهدة الحقيقة، وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلًا، ولا يقال: ما الدليل على حصول هذا؟ وإنّما يحصل بالسُّلوك في منازل السَّير، وقطعها منزلةً منزلةً، حتى يصل إلى المطلوب؛ فوصوله إليه بالسَّير لا بالاستدلال، بخلاف وصول المستدلِّ، فإنّه إنّما يصل إلى العلم، ومطلوب القوم وراءه، والعلم منزلةً من منازلهم - كما سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى - ولهذا يسمُّون أصحاب الاستدلال: أصحاب القال، وأصحاب الكشف: أصحاب الحال، والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل بنور العيان، لا على العلم الذي يُنال بالاستدلال والبرهان.

وهذا موضع غلطٍ واشتباهٍ؛ فإنَّ الدليل في هذا المقام شرطٌ، وكذلك العلم، وهو بابٌ لا بدَّ من دخوله إلى المطلوب، ولا يوصل إلى المطلوب إلاّ من بابه، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَهِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

ثمَّ إنّّه يخاف على مَنْ لا يقف مع الدليل ما هو أعظم الأمور وأشدّها خطرًا^(١)، وهو الانقطاع عن الطلِّب بالكلية، والوصول^(٢) إلى مجرد الخيال والمحال، فمن خرج عن الدليل: ضلَّ سواء السَّبيل.

فإن قيل: تعلقه في المسير^(٣) بالدليل: يفرِّق عليه عزمه وقلبه؛ فإنَّ الدليل يفرِّق والمدلول يجمِّع، فالسالك يقصد الجمعية على المدلول، فما له ولتفرقة الدليل؟!

(١) جملة (وأشدّها خطرًا): ساقطة من «ع» والمنار.

(٢) كلمة (والوصول): ساقطة من «ع».

(٣) في «ع» والمنار: (السير).

قيل: هذه هي البليّة التي لأجلها أعرض من أعرض من السالكين عن العلم ونهى عنه، وجعلت علّة في الطّريق، ووقع هذا من زمن الشيوخ القدماء العارفين فأذكروه غاية الإنكار، وتبرّءوا منه ومن قائله، وأوصوا بالعلم، وأخبروا أنّ طريقهم مقيدةٌ بالعلم، لا يفلح فيها من لم يتقيّد بالعلم، والجنيّد كان من أشدّ النَّاس مبالغةً في الوصيّة بالعلم، وحثّاً لأصحابه عليه.

والتّفرّق في الدّليل خيرٌ من الجمعيّة على الوهم والخيال؛ فإنّه لا يعرف كون الجمعيّة حقّاً إلّا بالدّليل والعلم، فالدّليل والعلم ضروريّان للصادق لا يستغني عنهما.

نعم، يقينه ونور بصيرته وكشفه يغنيه عن كثيرٍ من الأدلّة التي يتكلّفها المتكلّفون، وأرباب القول، فإنّه مشغولٌ عنها بما هو أهمُّ منها، وهو الغاية المطلوبة.

مثاله: أنّ المتكلّم يفني زمانه في تقرير حدوث العالم، وإثبات وجود^(١) الصّانع، وذلك أمرٌ مفروغٌ منه عند السّالك الصّادق صاحب اليقين، فالذي يطلبه هذا بالاستدلال -الذي هو عرضة الشّبه، والأسئلة، والإيرادات التي لا نهاية لها- هو كشفٌ وبقينٌ للسّالك، فتقيّده في سلوكه بحال هذا المتكلّم انقطاعٌ وخروجٌ عن الفتوة.

وهذا حقٌّ لا ينازع فيه عارفٌ، فترى المتكلّم يبحث في الزّمان والمكان، والجواهر والأعراض، والأكوان، وهمّته مقصورةٌ عليها لا يعدوها ليصل منها إلى المكوّن وعبوديته، والسّالك قد جاوزها إلى جمع القلب على المكوّن وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته، لا يلتفت إلى غيره، ولا يشتغل قلبه بسواه.

فالمتكلّم متفرّقٌ مشتغلٌ في معرفة حقيقة الزّمان والمكان، والعارف قد شحّ بالزّمان أن يذهب ضائعاً في غير السّير إلى ربّ الزّمان والمكان.

وبالجملة؛ فصاحب هذه الدّرجة لا يتعلّق في سيره بدليل، ولا يمكنه السّير إلّا خلف الدّليل، وكلاهما يجتمع في حقّه، فهو لا يفتقر إلى دليلٍ على وجود المطلوب، ولا يستغني طرفه عينٍ عن دليلٍ يوصله إلى المطلوب، فسير الصّادق على البصيرة واليقين والكشف، لا على النّظر والاستدلال.

وأما قوله: «وَلَا تَشُوبُ إِجَابَتَكَ بِعَوْضٍ».

أي: تكون إجابتك لداعي الحقّ خالصةً، إجابةً محبةً ورغبةً، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبةً بطلب غيره من الحظوظ والأعواض؛ فإنّه متى حصل لك حصل لك كلّ عوضٍ وكلّ حظٍّ به وكلّ قسم، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم، اطلبني تحديني، فإن وجدتني وجدت كلّ شيءٍ، وإن فُتّك فاتك كلّ شيءٍ، وأنا أحبُّ إليك من كلّ شيءٍ».

(١) كلمة (وجود) غير موجودة في «غ» والمنار.

فمن أعرض عن طلب ما سوى الله، ولم يشب طلبه له بعوضٍ، بل كان حبًّا له، وإرادةً خالصةً لوجهه، فهو في الحقيقة الذي يفوز بالأعراض والأقسام والحظوظ كلها، فإنه لما لم يجعلها غاية طلبه، توفرت عليه في حصولها، وهو محمودٌ مشكورٌ مقربٌ، ولو كانت هي مطلوبةً لنقصت عليه بحسب اشتغاله بطلبها وإرادتها عن طلب الربِّ تعالى لذاته وإرادته.

فهذا قلبه ممتلئٌ بها والحاصل له منها نزرٌ يسيرٌ، والعارف ليس قلبه متعلقًا بها، وقد حصلت له كلها، فالزهد فيها لا يُفِيئُكها، بل هو عين حصولها، والزهد في الله هو الذي يُفِيئُكها ويُفِيئُك الحظوظ، وإذا كان لك أربعة عبيدٍ، أحدهم: يريدك ولا يريد منك، بل إرادته مقصورةٌ عليك وعلى مرضاتك، والثاني: يريد منك ولا يريدك، بل إرادته مقصورةٌ على حظوظه منك، والثالث: يريدك ويريد منك، والرابع: لا يريدك ولا يريد منك، بل هو متعلق القلب ببعض عبيدك، فله يريد، ومنه يريد، فإن أثر العبيد عندك، وأحبهم إليك، وأقربهم منك منزلةً، والمخصوص من إكرامك وعطائك بما لا يناله العبيد الثلاثة - هو الأول؛ هكذا نحن عند الله سواءً.

وأما قوله: «وَلَا تَقِفْ فِي شُهُودِكَ عَلَى رَسْمٍ».

فيعني: ألا يكون منك نظرٌ إلى السَّوئِ عند الشُّهود، كما تقدَّم مرارًا.

وهذا عند القوم غير مكتسبٍ؛ فإنَّ الشُّهود إذا صحَّ محا الرُّسوم ضرورةً في نظر الشَّاهد، فلا حاجة إلى أن يشرط عليه عدم الوقوف عليها، والشُّهود الصَّحيح ماحٍ لها بالذَّات، لكنَّ أوَّلَه قد لا يستغني عن الكسب، ونهايته لا تقف على كسبٍ.

□ قال: «وَأَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَحْوَجَ عَدُوَّهُ إِلَى شَفَاعَةٍ، وَلَمْ يَخْجَلْ مِنَ الْمُعْذِرَةِ إِلَيْهِ لَمْ

يَسْمَ رَائِحَةَ الْفُتُوَّةِ».

يعني: أن العدو متى علم أنك متألِّمٌ من جهة ما نالك من الأذى منه احتاج إلى أن يعتذر إليك، ويشفعُ إليك شافعًا يزيل ما في قلبك منه؛ فالفتوة كلُّ الفتوة: ألا تحوجه إلى الشَّفاعة، بالألَّا يظهر له منك عتبٌ ولا تغيبَ عمَّا كان له منك قبل معاداته، ولا تطوي عنه بِشركٍ ولا بركٍ، وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيبٌ.

ولا تستعظم هذا الخلق؛ فإنَّ للفتيان ما هو أكبر منه، ولا تستصعبه، فإنه موجودٌ في كثيرٍ من الشُّطَّار والعشراء^(١) الذين ليس لهم في حال المعرفة ولا في لسانها نصيبٌ، فأنت أيُّها العارف أولى به.

(١) كلمة (العشراء): ساقطة من (غ).

والعشراء: جمع عاشر، وهو الذي يأخذ عشر أموال الناس بظلم. انظر: «اللسان» (٤/٢٩٥٣).

والشطَّار: جمع شاطر؛ وهو الذي تباعد عن الاستواء. انظر: «تهذيب اللغة» (١١/٢٠٨)، وفي «المعجم الوسيط»: جمع

قال: «وَفِي عِلْمِ الْخُصُوصِ: مَنْ طَلَبَ نُورَ الْحَقِيقَةِ عَلَى قَدَمِ الْإِسْتِدْلَالِ لَمْ يَحِلَّ لَهُ دَعْوَى الْفُتُوَّةِ أَبَدًا».

كأنه يقول: إذا لم تحوج عدوك إلى العذر والشفاعة، ولم تكلفه طلب الاستدلال على صحة عذره، فكيف تحوج وليك وحبيبك إلى أن يقيم لك الدليل على التوحيد والمعرفة، ولا تشير إليه حتى يقيم لك دليلاً على وجوده ووحدايته، وقدرته ومشيتته؟ فأين هذا من درجة الفتوة؟! وهل هذا إلا خلاف الفتوة من كل وجه؟

ولو أن رجلاً دعاك إلى داره، فقلت للرسول: لا آتي معك حتى تقيم لي الدليل على وجود من أرسلك، وأنه مطاع، وأنه أهل أن يغشى بابه، كنت في دعوى الفتوة زنيماً^(١)، فكيف بمن وجوده، ووحدايته، وقدرته، وربوبيته، وإلهيته أظهر من كل دليل تطلبه؟! فما من دليل يستدل به، إلا ووحدايته الله وكماله أظهر منه، فإقرار الفطر بالرب سبحانه خالق العالم لم يوقفها عليه موقف، ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فأبعد الناس من درجة الفتوة، طالب الدليل على ذلك.

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

فصل

[منزلة المروءة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٢٠﴾ منزلة المروءة.

المروءة: فعولة من لفظ المرء، كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان، ولهذا كان حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم، والشيطان الرجيم.

فإن في النفس ثلاثة دواع متجاذبة:

- داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان: من الكبر، والحسد، والعلو، والبغي، والشَّرِّ،

شاطر وهو الخبيث الفاجر وعند الصوفية: السابق المسرع إلى الله، والفهم المتصرف (١/٤٨٢).

(١) الزنيم: الزائد في القوم وليس منهم. انظر: «المفردات» (٢١٥).

والأذى، والفساد، والغش.

- وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان: وهو داعي الشهوة.
 - وداع يدعوها إلى أخلاق المَلَك: من الإحسان، والنصح، والبر، والعلم، والطاعة.
 فحقيقة المروءة: بغض ذينك الداعيين، وإجابة الداعي الثالث.
 وقلّة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتّوجّه لدعوتهما أين كانت.
 فالإنسانية، والمروءة، والفتوة كلّها في عصيان الداعيين، وإجابة الداعي الثالث.
 كما قال بعض السلف: «خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة، وخلق البهائم شهوةً بلا عقول،
 وخلق ابن آدم، وركّب فيه العقل والشهوة، فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة، ومن غلبت
 شهوته عقله التحق بالبهائم».

ولهذا قيل في حدّ المروءة: إنّها غلبة العقل للشهوة.
 وقال الفقهاء في حدّها: هي استعمال ما يجمل العبد ويزيّنه، وترك ما يدنّسه ويشينه.
 وقيل: المروءة استعمال كلّ خلقٍ حسنٍ، واجتناب كلّ خلقٍ قبيح.
 وحقيقة المروءة: تجنّب للدنيا والرذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.
 فمروءة اللسان^(١): حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسرٍ.
 ومروءة الخلق: سعته وبسطه للحيب والبغض.
 ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعته المحمودة عقلاً وعرفاً وشرعاً.
 ومروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.
 ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه؛
 فهذه مروءة البذل.

وأما مروءة التّرك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والممارسة، والإغضاء عن عيب ما
 يأخذه من حقك، وترك الاستقصاء في طلبه، والتّغافل عن عثرات النَّاس، وإشعارهم أنّك لا تعلم لأحدٍ
 منهم عثرةً، والتّوقير للكبير، وحفظ حرمة النّظير، ورعاية أدب الصّغير.
 * وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه: وهي أن يحملها قسراً على ما يجمل ويزيّن، وترك
 ما يدنّس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية، فمن أراد شيئاً في سرّه وخلوته: ملكه في جهره وعلانيته،

(١) في «غ» والمنار: (الإنسان).

فلا يكشف عورته في الخلوة، ولا يتجشأ بصوتٍ مزعجٍ ما وجد إلى خلافه سبيلاً، ولا يخرج الرِّيح بصوتٍ وهو يقدر على خلافه، ولا يجشع وينهم عند أكله وحده.

وبالجملة؛ فلا يفعل خالياً ما يستحيي من فعله في الملاء، إلا ما لا يحظره الشرع والعقل، ولا يكون إلا في الخلوة، كالجماع والتَّخْلِي ونحو ذلك.

﴿الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق: بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناس مرآةً لنفسه، فكلُّ ما كرهه ونفر عنه من قولٍ أو فعلٍ أو خلقٍ، فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله.

وصاحب هذه البصيرة يتفجع بكلِّ من خالطه وصاحبه من كاملٍ وناقصٍ، وسيئ الخلق وحسنه، وعديم المروءة وغزيرها.

وكثيرٌ من النَّاس يتعلَّم المروءة، ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها كما روي عن بعض الأكابر: «أَنَّهُ (١) كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ، فَظُّ غَلِيظٌ، لَا يُنَاسِبُهُ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَذْرُسُ عَلَيْهِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضدِّ أخلاقه، ويكون بتمرين النَّفس على مصاحبتة ومعاشرته، والصَّبْر عليه.

﴿الدرجة الثالثة: المروءة مع الحقِّ سبحانه: بالاستحياء من نظره إليك، وإطلاعه عليك في كلِّ لحظةٍ ونفسٍ، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان؛ فَإِنَّهُ قد اشتراها منك، وأنت ساعٍ في تسليم البيع، وتقاضي الثمن، وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملاً، أو رؤية منته في هذا الإصلاح، وأنه هو المتولِّي له، لا أنت؛ فيغنيك الحياء منه عن رسوم الطَّبيعة، والاشتغال بإصلاح عيوب نفسك عن التفاتك إلى عيب غيرك، وشهود الحقيقة عن رؤية فعلك وصلاحك.

وكلُّ ما تقدَّم في منزلة الخلق والفتوة فَإِنَّهُ بعينه في هذه المسألة؛ فلذلك اقتصرنا منها على هذا القدر، وصاحب «الْمَنَازِلِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استغنى بما ذكر في الفتوة، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (الواو) بدلاً من (أه).

فصل [منزلة البسط]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿مَنْزِلَةُ الْبَسْطِ، وَالتَّخْلِي عَنِ الْقَبْضِ. وهي منزلة شريفة لطيفة، وهي عنوانٌ على الحال (١)، وداعيةٌ لمحبة الخلق. وقد غلط صاحب «الْمَنَازِلِ» (٢) حيث صدرها بقوله تعالى، حاكياً عن كلمه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وكأنه فهم من هذا الخطاب انبساطاً بين موسى وبين الله تعالى، حملة على أن قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وسمعت بعض الصوفيّة يقول لآخر - وهما في الطواف - لما قال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِئْتَنُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] تدارك هذا الانبساط بالتذلل (٣) بقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أو نحو من هذا الكلام.

وكلٌ هذا وهمٌ وفهمٌ خلاف المقصود؛ فالفتنة هاهنا: هي الامتحان والاختبار؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقوله: ﴿وَالْوَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]. [وقوله: ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]] (٤).

والمعنى: أن هذه الفتنة اختبارٌ منك لعبدك، وامتحانٌ، تضلُّ بها من تشاء، وتهدي من تشاء؛ فأئى تعلق لهذا بالانبساط؟ وهل هذا إلا توحيدٌ، وشهودٌ للحكمة، وسؤالٌ للعصمة، والمغفرة؟ وليس للعارف في هذه المنزلة حظٌ مع الله، وإنما هي متعلقةٌ بالخلق.

وصاحب «الْمَنَازِلِ»: جعلها ثلاث درجات، الأولى: مع الناس، والثانية، والثالثة: مع الله، وسنبيّن ما في كلامه بحول الله وقوته وتوفيقه.

(١) في «غ»: (وهي صنوان كذا على الحال).
 (٢) جملة (صاحب المنازل): ساقطة من «غ».
 (٣) في «غ»: (بالتذلل والتملق).
 (٤) ما بين المعكوفتين ساقط من «غ» والمنار.

□ قال: «الْإِنْبِسَاطُ: إِرْسَالُ السَّجِيَّةِ، وَالتَّحَاشِي مِنْ وَحْشَةِ الْجِسْمَةِ».

السَّجِيَّة: الطَّيْع، وجمعها سجايا، يقال: سجيته، وخليقة، وطبيعة، وغريزة، وإرسالها: تركها في مجراها.

و«التَّحَاشِي مِنْ وَحْشَةِ الْجِسْمَةِ» التَّحَاشِي: هو تجنُّب الوحشة الواقعة بينك وبين من تحبُّه وتخدمه؛ فَإِنَّ مرتبته تقتضي احتشامه، والحياء منه، وإجلاله عن انبساطك إليه، وذلك نوع وحشة، فالانبساط: إزالة تلك الوحشة لا تسقطك من عينه، بل تزيدك (١) حبًّا إليه، ولاسيما إذا وقع في موقعه. قال: «وَهُوَ السَّيْرُ مَعَ الْجِلَّةِ»؛ أي: المشي مع ما جبل الله عليه العبد من الأخلاق من غير تكلف.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِنْبِسَاطُ مَعَ الْخَلْقِ، وَهُوَ أَلَّا تَعْتَزِلَهُمْ، ضَمًّا عَلَى نَفْسِكَ، أَوْ شُحًّا عَلَى حَظِّكَ، وَتَسْتَرْسِلَ لَهُمْ فِي فَضْلِكَ، وَتَسْعَهُمْ بِخَلْقِكَ، وَتَدَعَهُمْ يَطُؤُونَكَ، وَالْعِلْمُ قَائِمٌ، وَشُهُودُ الْمَعْنَى دَائِمٌ».

يريد: لا تبخل عليهم بنفسك، فيحملك ذلك البخل على اعتزالهم، وتشحَّ بحظِّك في الخلوة، وراحة العزلة: أن تذهب بمخالطتهم، بل تحملك السَّماحة والجود والبذل على أن تترك ذلك لراحة إخوانك بك، وانتفاعهم بمجالستك؛ فتتكرَّم عليهم بحظِّك في عزلتك وخلوتك، وتؤثرهم به على نفسك.

وهذا من الفتوة، والمروءة والتَّخَلُّقُ ضِدُّ من أضدادها.

قوله: «وَتَسْتَرْسِلَ لَهُمْ فِي فَضْلِكَ».

يعني: إذا استرسلت معهم، ولم تجذب عنهم عنانك: نالوا من فضلك، فيكون استرسالك سبباً لنيلهم لفضلك، وقبض العنان سبباً للحرمان.

و«تَسْعَهُمْ بِخَلْقِكَ» باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيّه أن يأخذه من أخلاق النَّاسِ، وهو العفو.

«وَتَدَعَهُمْ يَطُؤُونَكَ» أي: يدوسونك من لينك وتواضعك، وخفض جناحك، بحيث لا تترك لنفسك بينهم رتبةً تتقاضاهم أن يحترموك لأجلها، هذا معنى كلامه.

(١) في «غ»: (تزيد).

قوله: «وَالْعِلْمُ قَائِمٌ، وَشُهُودُ الْمَعْنَى دَائِمٌ».

أما قيام العلم: فهو أن يكون هذا الاسترسال موافقاً للشرع، غير مخرجٍ عن حدوده وآدابه، بحيث لا تحملهم على تعدي حدود الله، وتضييع حقه وحقوق عباده.

وأما دوام شهود المعنى: فهو حفظ حالك وقلبك مع الله، ودوام إقبالك عليه بقلبك كله، فأنت معهم مسترسلٌ بشبحك ورسمك وصورتك فقط، ومفارقتهم بقلبك وسرك، مشاهدًا للمعنى الذي به حياتك، فإذا فارقتك كنت كالحوث إذا فارق الماء، فإن هذا المعنى هو حياة القلب والروح، فإذا فات العبد علته الكتابة، وغمره الهمم والغم والأحزان، وتلون في أفعاله وأقواله، وتاه قلبه في الأودية والشعاب، وفقد نعيم الدنيا والآخرة، وهذا هو الذي أشار إليه يحيى الصرصري في قوله:

إِذَا صَارَ قَلْبُ الْعَبْدِ لِلسَّرِّ مَعْدِنًا تَلُوحُ عَلَيَّ أَعْطَافُهُ بِهَجَّةِ السَّنَا
وَإِنْ فَاتَهُ الْمَعْنَى عَلْتَهُ كَابَةٌ فَأَصْبَحَ فِي أَفْعَالِهِ مُتَلَوِّنًا

فمتى كان شهود هذا المعنى قائمًا في قلبك لا يضرك مخالطة من لا تسلبك إياه مخالطته والانبساط إليه.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الْإِنْبِسَاطُ مَعَ الْحَقِّ، وَهُوَ أَلَّا يَحْبِسَكَ خَوْفٌ، وَلَا يَحْجُبَكَ رَجَاءٌ، وَلَا يَحْوُلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ آدَمٌ وَلَا حَوَاءٌ».

يريد: ألا يمنعك عن الانبساط إليه خوف؛ فإن مقام الخوف لا يجامع مقام الانبساط، والخوف من أحكام اسم القابض والانبساط من أحكام اسم الباسط.

والبسط عندهم: من مشاهدة^(١) أوصاف الجمال والإحسان والتودد والرحمة.

والقبض من مشاهدة أوصاف الجلال والعظمة والكبرياء والعدل والانتقام.

وبعضهم يجعل الخوف من منازل العامة، والانبساط من منازل الخاصة؛ إذ الانبساط لا يكون إلا للعارفين أرباب التجليات، وليس في حق هؤلاء خوف.

وأما قوله: «وَلَا يَحْجُبَكَ رَجَاءٌ»؛ فلأن الرّاجي لطلبه حاجته تحتاج إلى التملق والتذلل؛

(١) كلمة (مشاهدة): ساقطة من «غ».

فيحجبه رجاؤه وطمعه فيما يناله من المعظم عن انبساطه، كالسائل للغني، فإن سؤاله وطمعه يمنعه من انبساطه^(١) إليه، فإذا غاب عن ذلك انبسط.

وقوله: «وَلَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ آدَمُ وَلَا حَوَاءُ». استعارة.

والمعنى: أنك تراه أقرب إليك من أبيك وأمك، وأرحم بك منهما، وأشفق عليك، فلا توسط^(٢) بينك وبينه أباً خرجت من صلبه، ولا أمّاً ركضت في رحمها.

وفيه معنى آخر: وهو الإشارة إلى أنك تشاهد خلقه لك بلا واسطة، كما خلق آدم وحواء، فتشاهد خلقه لك بيده، ونفخه فيك من روحه، وإسجاد ملائكته لك، وإبعاد إبليس حيث لم يسجد لك، وأنت في صلب أبيك آدم.

وهذا يوجب لك شهود الانطواء عن الانبساط، وهو ربح الهمة لانطواء انبساط العبد في بسط الحقّ جلّ جلاله.

ومعنى هذا: ألا يرى العبد لنفسه انبساطاً ولا انقباضاً، بل ينطوي انبساطه ويضمحل في صفة البسط التي للحقّ جلّ جلاله، وهذا شهود معنى اسم الباسط بِاسْطٍ. فهذا تقدير كلامه.

على أن فيه مقبولاً ومردوداً، ولا معنى لتعلق هذه الصفة بالربّ تعالى البتة، وأمّا تعلقها بالخلق فصحيح.

نعم؛ هاهنا مقام اشتباه وفرق، وهو أنّ المحبّ الصادق لا بدّ أن يقارنه أحياناً فرحاً بمحبوبه، ويشتدّ فرحه به، ويرى مواقع لطفه به، وبرّه به، وإحسانه إليه وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع والمساير والمبارّ إليه بكلّ طريق، ودفع المضارّ والمكاره عنه بكلّ طريق.

وكلّما فتش عن ذلك اطلع منه على أمور عجيبة؛ لا يقف وهمه ومقتبسه لها على غاية، بل ما خفي عنه منها أعظم، فيدخله من شهود هذه الحالة نوع إدلالٍ وانبساطٍ، وشهود نفسه في منزلة المراد المحبوب، ولا يسلم من آفات ذلك إلا خواصّ العارفين.

وصاحب هذا المقام نهايته: أن يكون معذوراً، وما يبدو منه من أحكامه بالشطحات أليق منه بأحكام العبوديّة.

ولم يكن لأحدٍ من البشر في منزلة القرب والكرامة والحظوة والجاه ما لرسول الله ﷺ من ربّه تبارك وتعالى، وكان أشدّ الخلق لله خشيةً وتعظيماً وإجلالاً، وحاله كلّها مع الله تشهد بتكميل العبوديّة، وأين درجة الانبساط من المخلوق من التراب، إلى الانبساط مع ربّ الأرباب؟!

(١) ما بين القوسين ساقط من «غ».

(٢) في «غ»: (يتوسط).

نعم؛ لا ينكر فرح القلب بالرَّبِّ تعالى وسروره به، وابتهاجه وقرّة عينه، ونعيمه بحبّه، والشّوق إلى لقائه^(١) إلاّ كثيف الحجاب، حجريّ الطّباع، فلا بهذا الميعة، ولا بذلك الجمود والقسوة. وهذا ومثله طرق المتأخرون من القوم السّبيل إليهم، وفتحوا للمقالة فيهم بابًا، فالعبد الخائف الوجل المشفق الدّليل بين يدي الله ﷻ، المنكس الرّأس بين يديه، الّذي لا يرضى لربّه شيئًا من عمله هو أحوج شيء إلى عفوه ورحمته، ولا يرى نفسه في نعمته إلاّ طفيلًا، ولا يرى نفسه محسنًا قطّ، وإن صدر منه إحسانٌ علم أنّه ليس من نفسه، ولا بها ولا فيها، وإنّما هو محض منّة الله عليه، وصدقته عليه، فما لهذا والانبساط؟!

نعم؛ انبساطه^(٢) انبساط فرح وسرور ورضا وابتهاج، فإن كان المراد بالانبساط هذا فلا ننكره، لكنّه غير الاسترسال المذكور، والاستشهاد عليه بالآية بيّن مراده، والله أعلم^(٣).

فصل

[منزلة العزم]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة العزم^(٤).
وقد ذكرنا في أوّل الكتاب أنّه نوعان:
أحدهما: عزم المريد على الدّخول في الطّريق، وهو بداية.
والثّاني: عزم السّالك، وهو مقام ذكره صاحب «المنازل» في وسط كتابه في قسم الأصول
فقال:

«هُوَ تَحْقِيقُ الْقَصْدِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا».
أمّا قوله: «تَحْقِيقُ الْقَصْدِ» فهو أن يكون قصده محققًا، لا يشوبه شيء من التّردّد.

(١) في «غ»: (والشوق إليه).

(٢) كلمة (انبساطه) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) لم يذكر الدرجة الثالثة بعد ذلك والذي يظهر أنها دخلت في الدرجة الثانية.

(٤) كتب في هامش جميع النسخ هذه العبارة: «قسم الأصول، وهو عشرة أبواب، وهي القصد، والعزم، والإرادة، والأدب، واليقين، والأنس، والذكر، والفقر، والغنى، ومقام المراد»، إلا أنه سقط من هامش طبعة الفقي كلمة (والذكر).

(٥) في «غ»: (وتقدم).

وأما تقسيمه هذا التحقيق إلى طوع وكره فصحيح؛ فإن المختار تحقيق قصده طوعاً، وأما المكره فتحقيق قصده كرهاً؛ فإنه إذا أكره على فعل وعزم عليه فقد حقق قصده كرهاً لا طوعاً.

واختلف الفقهاء والأصوليون في المكره: هل يسمّى مختاراً أم لا؟

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول: «التحقيق: أنه محمول على الاختيار، فله اختيار في الفعل، وبه صح وقوعه؛ فإنه لو لا إرادته واختياره لما وقع الفعل، ولكنه محمول على أن^(١) هذه الإرادة والاختيار ليست من قبله، فهو مختار باعتبار أن حقيقة الإرادة والاختيار منه، وغير مختار باعتبار أن غيره حمله على الاختيار، ولم يكن مختاراً من نفسه»، هذا معنى كلامه.

□ قال: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: إباء الحال على العلم، لشيم برق الكشف، واستدامة نور الأنس، والإجابة لإماتة الهوى».

يريد بـ «إباء الحال على العلم»: استعصاءه عليه، وأن صاحب الحال تأبى عليه حاله أن ينزل منه إلى درجة العلم، ويصعب عليه ذلك كل الصعوبة، وهو انحطاط في رتبته.

ولا يريد امتناع الحال عن طاعة العلم وتحكيمه؛ فإن هذا انحلال وانسلاخ من الطريق بالكلية، فكل حال لا يطيع العلم ولا يحكمه فهو حال فاسد، مبعّد عن الله، لكن من وصل إلى حال العلم يحجبه حاله أن ينزل إلى درجة العلم، وينحط إليها بلا حال.

فإن كان مراده هذا المعنى فهو صحيح.

وإن كان مراده: امتناع الحال عن طاعة العلم؛ لأن العلم يدعو إلى أحكام الغيبة والحجاب، والحال يدعو إلى أنس الكشف والحضور، فصاحب الحال لا يلتفت إلى العلم، فباطل؛ فإن العلم شرط في الحال تستحيل معرفة صحته بدونه.

نعم؛ لا ينكر حصوله بدون العلم، لكن صاحبه على غير بصيرة ولا وثوق به.

«وشيم برق الكشف»، هو النظر إليه على بعد، فإن صاحب الحال: عامل على شيم برق

الكشف؛ لأن شيم برق الكشف يوجب نوراً يأنس به القلب، فعزيمة صاحبه على استدامته وحفظه.

وأما الإجابة لإماتة الهوى.

فهو أن السالك إذا أشرف على الكشف أحس بحالة شبيهة بالموت، حتى أن منهم من يسقط إلى الأرض، ويظن ذلك موتاً، وهذه الحال من مبادئ الفناء فهوى نفسه العود إلى الحجاب، خوفاً من الانعدام، لما جبلت عليه النفس البشرية من كراهة الموت، فإذا حصل العزم أميت هذا الهوى،

(١) كلمة (أن): ساقطة «غ» والمنار.

ولم يلتفت إليه، رغبةً فيما يطلبه من الفناء في الفردانية؛ فإنَّ الحقيقة لا تبدأ إلا بعد فناء البشرية. وهذا الذي قاله حقُّ، لا ينكره إلا مَنْ لم يذقه، وإنما الكلام في مرتبته، وأنه غايةٌ أو توسُّطٌ أو لازمٌ، أو عارضٌ؟

فشيخنا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يرى أنه عارضٌ من عوارض الطريق لا يعرض للكَمَل. ومن السَّالِكين من لم يعرض له ألبتَّة.

ومن النَّاس من يراه لازماً للطريق لا بدَّ منه.

ومن النَّاس من يراه غايةً لا شيء فوقه.

ومنهم من يراه توسُّطاً، وفوقه ما هو أجلُّ منه وأرفع، وهو حالة البقاء، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِسْتِغْرَاقُ فِي لَوَائِحِ الْمَشَاهِدَةِ، وَاسْتِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ وَاسْتِجْمَاعُ قُوَى الْإِسْتِقَامَةِ».

هذه ثلاثة أشياء.

- أحدها: فقدان الإحساس بغيره^(١) لاستغراقه في مشاهدته.

- الثاني: «استِنَارَةُ ضِيَاءِ الطَّرِيقِ».

يعني ظهور الجادة له ووضوحها، واتصالها بمطلوبه، وهذا كمن هو سائرٌ إلى مدينة، فإذا شارفها ورآها رأى الطريق حينئذٍ واضحةً إليها، واستنار له ضياؤها واتصالها بالمدينة، وكان قبل مشاهدة المدينة على علم - أو ظنٍّ - يجوز معه أن يضيع عن باب المدينة، وأمَّا الآن فقد أمن من أن يضيع عن الباب، وكذلك هذا السَّالِك قد انقطعت عنه الموانع، واستبان له الطريق، وأيقن بالوصول، وصارت حاله حال معاين باب المدينة من حين يقع بصره عليه، وكحال معاين الشَّفَقِ الأحمر قرب طلوع الشَّمْسِ، حيث تيقن أن الشَّمْسَ بعده.

قوله: «وَاسْتِجْمَاعُ قُوَى الْإِسْتِقَامَةِ».

يعني: تستجمع له قوى الظَّاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه، لمشاهدته ما هو سائرٌ إليه، وهكذا عادة المسافر أنه إذا عاين القرية التي يريد دخولها أسرع السير، وبذل الجهد، وكذلك

(١) في «غ» والمنار: (بغير شهوده).

المسابق إذا عاين الغاية استفرغ قوى جريه وسوقه، وكذلك الصادق في آخر عمره أقوى عزماً وقصدًا من أوله، [لقربه] (١) من الغاية التي يجري إليها، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: مَعْرِفَةُ عِلَّةِ الْعَزْمِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْعَزْمِ، ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ تَكَالِيفِ تَرْكِ الْعَزْمِ؛ فَإِنَّ الْعَزَائِمَ لَمْ تُورَثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثًا أَكْرَمَ مِنْ وُقُوفِهِمْ عَلَى عِلَلِ الْعَزَائِمِ».

«مَعْرِفَةُ عِلَّةِ الْعَزْمِ» هي نسبه إلى نفسه، فإذا عرف أن العزم مجرد فضل الله وإيثاره وتوفيقه، وأنه ليس من العبد، فنسبته إياه بعد ذلك إلى نفسه علة قادمة فيه، فإذا لاح له لائح الكشف، وشهد توحيد الفضل، علم حينئذ علة عزمه، وهو نسبه إياه إلى نفسه، ورؤيته له؛ فإذا عرف هذه العلة عزم على التخلُّص منها بالعزم على التخلُّص من العزم.

وهذا قد يسبق منه إلى الذهن تناقض وتدافع، فكيف يتخلَّص من العزم بالعزم؟! ومراده: أن يعزم على التخلُّص من العزم المنسوب إليه بالعزم الذي هو مجرد فضل الله وموهبته، ولا تناقض حينئذٍ، فيتخلَّص من العزم بالعزم، كما ينازع القدر بالقدر. وأما «الْخَلَاصُ مِنْ تَرْكِ تَكَالِيفِ الْعَزْمِ» فهو أنه إذا تخلَّص من هذا العزم وتركه بقيت عليه بقیة، وهي رؤيته أنه قد ترك، فعليه التخلُّص من رؤية هذا التَّرك، فهو يطلب الآن الخلاص من رؤية ترك العزم، كما كان يطلب ترك العزم.

قوله: «فَإِنَّ الْعَزَائِمَ لَمْ تُورَثْ أَرْبَابَهَا مِيرَاثًا أَكْرَمَ مِنْ وُقُوفِهِمْ عَلَى عِلَلِ الْعَزَائِمِ».

مدار علل العزائم على ثلاثة أشياء:

- أحدها: فتورها وضعفها.
 - الثاني: عدم تجرُّدها من الأغراض وشوائب الحظوظ.
 - الثالث: رؤية العزائم وشهودها، ونسبتها إلى أنفسهم.
- فإذا عرف هذه الثلاثة؛ عرف علل العزائم، والله المستعان، وهو ﷺ أعلم.

(١) في طبعة الفقي (لقربه)، والصواب ما أثبتته بين المعكوفتين، وهو الموجود في «غ» والمنار.

فصل [منزلة الإرادة]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعَبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ منزلة الإرادة.
قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُقُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].
وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ مُجَزَّئٍ﴾ [١٩] ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾ [٢٠] ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [٢١] [الليل: ١٩ - ٢١].
وقال تعالى: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالْدَّارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وقد أشكل على المتكلمين تعلق الإرادة بالله، وكون وجهه تعالى مراداً.
قالوا: الإرادة لا تتعلق إلا بالحادث، وأما بالقديم: فلا؛ لأن القديم لا يراد.
وأولوا الإرادة المتعلقة به بإرادة التقرب إليه، ثم إنه لا يتصور عنهم التقرب إليه، فأولوا ذلك بإرادة طاعته الموجبة لجزائه، هذا حاصل ما عندهم.

وحجابهم في هذا الباب غليظٌ كثيفٌ من أغلظ الحُجُبِ وأكثفها، ولهذا تجدهم أهل قسوة، ولا تجد عليهم روح السُّلوك، ولا بهجة المحبة.

والطلب والإرادة عند أرباب السُّلوك هي التجرد عن الإرادة؛ فلا تصح عندهم الإرادة إلا لمن لا إرادة له، ولا تظن أن هذا تناقض، بل هو محض الحق، واتفاق كلمة القوم عليه.

وقد تنوعت عبارات القوم عنها، وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة.
ومعنى هذا: أن عادة الناس غالباً التعرّيج على أوطان الغفلة، وإجابة داعي الشهوة، والإخلاق إلى أرض الطبيعة، والمريد منسلخٌ عن ذلك، فصار خروجه عنه أمانةً ودلالةً على صحة الإرادة، فسمي انسلاخه وتركه إرادةً.

وقيل: نهوض القلب في طلب الحق.

ويقال: لوعة تهون كل روعة.

قال الدقاق^(١): «الإرادة: لوعة في الفؤاد، لدعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تأجج في القلوب».

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

وقيل: من صفات المريد: التَّحَبُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ، وَالْإِخْلَاصُ فِي نَصِيحَةِ الْأُمَّةِ، وَالْأُنْسُ بِالْخُلُوعِ، وَالصَّبْرُ عَلَى مِقَاسَةِ الْأَحْكَامِ، وَالْإِثَارَ لِأَمْرِهِ، وَالْحِيَاءَ مِنْ نَظَرِهِ، وَبِذَلِ الْمَجْهُودِ فِي مَحْبُوبِهِ، وَالتَّعَرُّضَ لِكُلِّ سَبَبٍ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ، وَالْقِنَاعَةَ بِالْخُمُولِ^(١)، وَعَدَمَ قَرَارِ الْقَلْبِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى وَلِيِّهِ وَمَعْبُودِهِ.

وقال حاتم الأصم: «إِذَا رَأَيْتَ الْمُرِيدَ يُرِيدُ غَيْرَ مُرَادِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ أَظْهَرَ نَدَاةً».

وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبةً، وأكله فاقةً، وكلامه ضرورةً.

وقال بعضهم: نهاية الإرادة: أن تشير إلى الله فتجده مع الإشارة.

ف قيل له: وأين تستوعبه الإشارة؟

فقال: أن تجد الله بلا إشارة.

وهذا كلامٌ متينٌ.

فإنَّ المراتب ثلاثةٌ:

- أعلاها: أن يكون واجداً لله في كلِّ وقتٍ، لا يتوقَّف وجوده له على الإشارة منه ولا من غيره.

- الثَّانِي: أن يكون له ملكةٌ وحالٌ وإرادةٌ تامَّةٌ، بحيث إنَّه متى أُشير له إلى الله وجده عند إشارة

المشير.

- الثَّالِث: ألا يكون كذلك، ويتكلَّف وجدانه عند الإشارة إليه.

فالمرتبة الأولى: للمقرَّبين السَّابِقِينَ، والوسطى: للأبرار المقتصدِينَ، والثالثة: للغافلين.

وقال أبو عثمان الحيري^(٢): «مَنْ لَمْ تَصَحَّ إِرَادَتُهُ ابْتِدَاءً، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ مُرُورُ الْأَيَّامِ عَلَيْهِ إِلَّا

إِدْبَارًا».

وقال: «الْمُرِيدُ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا مِنْ عُلُومِ الْقَوْمِ فَعَمِلَ بِهِ: صَارَ حِكْمَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ يَنْتَفِعُ

بِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ انْتَفَعَ بِهِ مَنْ سَمِعَهُ، وَمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ عُلُومِهِمْ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ كَانَ حِكَايَةً يَحْفَظُهَا أَيَّامًا ثُمَّ

يُنْسَاهَا».

وقال الواسطي^(٣): «أَوَّلُ مَقَامِ الْمُرِيدِ: إِرَادَةُ الْحَقِّ بِإِسْقَاطِ إِرَادَتِهِ».

وقال يحيى بن معاذ^(٤): «أَشَدُّ شَيْءٍ عَلَى الْمُرِيدِ: مُعَاشَرَةُ الْأُصْدَادِ».

(١) المقصود خمول الذكر وكرامية الشهرة، والله أعلم.

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

وسئل الجنيد^(١): «مَا لِلْمُرِيدِ حَظٌّ فِي مَجَازَاتِ الْحِكَايَاتِ؟ فَقَالَ: الْحِكَايَاتُ جُنْدٌ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ يُثَبِّتُ اللَّهُ بِهَا قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].»

وقد ذكر عن الجنيد كلمتان في الإرادة مجملتان، تحتاج كلُّ منهما^(٢) إلى تفسير: الكلمة الواحدة: قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: «سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَخْلَدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَعْفَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْجُنَيْدَ^(٣) يَقُولُ: الْمُرِيدُ الصَّادِقُ غَنِيٌّ مِنَ الْعُلَمَاءِ»^(٤). وقال أيضًا: «سَمِعْتُ الْجُنَيْدَ يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْمُرِيدِ خَيْرًا: أَوْفَعَهُ إِلَى الصُّوفِيَّةِ، وَمَنَعَهُ صُحْبَةَ الْقُرَاءِ».

قلت: إذا صدق المرید، وصحَّ عقد صدقه مع الله فتح الله على قلبه بركة الصِّدْقِ، وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم التي هي نتائج أفكار النَّاسِ وأرائهم، وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر، وعن كثيرٍ من إشارات الصُّوفِيَّةِ وعلومهم، التي أفنوا فيها أعمارهم من معرفة النَّفْسِ وآفاتِها وعيوبها، ومعرفة مفسدات الأعمال، وأحكام السُّلُوكِ؛ فإنَّ حال صدقه، وصحة طلبه يريه ذلك كلَّه بالفعل.

ومثال ذلك: رجلٌ قاعدٌ في البلد يدأب ليله ونهاره في علم منازل الطَّريقِ وعقباتها وأوديتها، ومواضع المتاهات فيها، والموارد والمفاوز.

وآخر: حملة الوجد وصدق الإرادة على أن ركب الطَّريقِ وسار فيها، فصدقه يغنيه عن علم^(٥) ذلك القاعد، ويريه إيَّاهَا في سلوكه عيَّانًا.

وأما أن يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها، وعن علم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه فقد أعاد الله من هو دون الجنيد من ذلك، فضلًا عن سيِّد الطَّائفة وإمامها، وإنَّما يقول ذلك قطع الطَّريقِ، وزنادقة الصُّوفِيَّةِ وملاحدتهم، الذين لا يرون أتباع الرِّسُولِ شرطًا في الطَّريقِ.

وأيضًا: فإنَّ المرید الصَّادِقَ يفتح الله على قلبه، وينورُه بنورٍ من عنده مضافٍ إلى ما معه من نور العلم، يعرف به كثيرًا من أمر دينه؛ فيستغني به عن كثيرٍ من علم النَّاسِ، فإنَّ العلم نورٌ، وقلب الصَّادِقِ

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) جملة (كل منهما) ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٤) في «غ»: (غني عن علم العلماء)، وفي المنار: (غني من علم العلماء)، ولعل الصواب ما جاء في نسخة «غ».

(٥) لفظة (علم): ساقطة من المنار.

ممتلئٌ بنور الصِّدق، ومعه نور الإيمان، والنُّور يهدي إلى النُّور، والجنيذ^(١) أخبر بهذا عن حاله، وهذا أمرٌ جزئيٌّ ليس علىٰ عمومته بل صدقه يغنيه عن كثيرٍ من العلم.

وأما عن جملة العلم: فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورة الصادق إلى العلم، وأنه لا يفلح من لم يكن له علمٌ، وأنَّ طريق القوم مقيدةٌ بالعلم، وأنه لا يحلُّ لأحدٍ أن يتكلَّم في الطَّريق إلَّا بالعلم، فمشهورٌ معروفٌ قد ذكرنا فيما مضى طرفاً منه.

كقوله: «مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَىٰ بِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ عِلْمَنَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وأيضاً: فإنَّ علم العلماء^(٢) الذين أشار إليهم هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسُّنة. والمريد الصادق: هو الذي قرأ القرآن وحفظ السُّنة، والله يرزقه بركة صدقه ونور قلبه فهماً في كتابه وسنة رسولهِ يغنيه عن تقليد فهم غيره.

وأما قوله -يعني الجنيذ-: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْمُرِيدِ خَيْرًا أَوْ قَعَهُ عَلَى الصُّوفِيَّةِ، وَمَنَعَهُ صُحْبَةَ الْقُرَّاءِ». فالقرَّاء في لسانهم: هم أهل التَّنسُّك والتَّعبُد، سواء كانوا يقرءون القرآن أم لا، فالقارئ عندهم هو الكثير التَّعبُد والتَّنسُّك، الذي قد قصر همته على ظاهر العبادة، دون أرواح المعارف، ودون حقائق الإيمان، وروح المحبَّة، وأعمال القلوب، فهمتهم^(٣) كلُّها إلى العبادة، ولا خبر عندهم ممَّا عند أهل التَّصوُّف، وأرباب القلوب وأهل المعارف. ولهذا قال من قال: «طَرِيقُنَا تَفَّتْ^(٤) لَا تَقَسَّرُ».

فسير هؤلاء بالقلوب والأرواح، وسير أولئك بمجرد القوالب والأشباح^(٥)، وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم نوع تناكُرٍ وتنافرٍ، ولا يقدر أحدهم على صحبة النوع الآخر إلَّا على نوع إغضاء، وتحميل للطبيعة ما تأباه، وهو من جنس ما بينهم وبين ظاهريَّة الفقهاء من التَّنافر، ويسمُّونهم: أصحاب الرُّسوم، ويسمُّون أولئك: القرَّاء، والطائفتان عندهم: أهل ظواهر، لا أرباب حقائق، هؤلاء مع رسوم العلم، وهؤلاء مع رسوم العبادة.

ثمَّ إنَّهم في أنفسهم فريقان: صوفيَّةٌ وفقراء، وهم متنازعون في ترجيح الصُّوفيَّة على الفقراء، أو بالعكس، أو هما سواءً، على ثلاثة أقوالٍ.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) كلمة (العلماء): ساقطة من المنار.

(٣) في «غ»: (فهمهم).

(٤) من الفتوة.

(٥) في «غ» والمنار: (بمجرد الأشباح والقوالب).

فطائفة: رَجَّحَت الصُّوفِيَّ، منهم كثيرٌ من أهل العراق، وعلى هذا صاحب، «العوارف»، وجعلوا نهاية الفقير بداية الصُّوفِيَّ.

وطائفة: رَجَّحَت الفقير، وجعلوا الفقر لبَّ التَّصَوُّفِ وثمرته، وهم كثيرٌ من أهل خراسان. وطائفة ثالثة قالوا: الفقر والتَّصَوُّفُ شيءٌ واحدٌ، وهؤلاء هم أهل الشَّام. ولا يستقيم الحكم بين هؤلاء وهؤلاء حتَّى تتبيَّن حقيقة الفقر والتَّصَوُّفِ، وحينئذٍ يعلم هل هما حقيقة واحدة، أو حقيقتان؟ ويعلم راجحهما من مرجوحهما. وسترى ذلك مبينًا إن شاء الله في منزلتي الفقر والتَّصَوُّفِ إذا انتهينا إليهما، إن ساعد الله ومنَّ بفضله وتوفيقه، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وبه المستعان، وعليه التُّكلان، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

والمقصود: أن المراتب عندهم ثلاثة:

- مرتبة التَّقْوَى: وهي مرتبة التَّعَبُّدِ والتَّنَسُّكِ.
- ومرتبة التَّصَوُّفِ: وهي مرتبة التَّنَفُّيِّ بِكُلِّ خَلْقٍ حَسَنٍ، والخروج من كُلِّ خَلْقٍ ذَمِيمٍ.
- ومرتبة الفقر: وهي مرتبة التَّجَرُّدِ، وقطع كُلِّ عِلَاقَةٍ تحول بين القلب وبين الله تعالى.
فهذه مراتب طَلَّابِ الآخِرَةِ، ومن عداهم فمع القاعدين المتخلِّفين.
فأشار أبو القاسم الجنيد^(١) إلى أن المريد لله بصدق، إذا أراد الله به خيرًا أوقعه على طائفة الصُّوفِيَّةِ، يهدُّبون أخلاقه، ويدلُّونه على تزكية نفسه، وإزالة أخلاقها الذميمة، والاستبدال بالأخلاق الحميدة، ويعرِّفونه منازل الطَّرِيقِ ومفازاتها، وقواطعها وآفاتها.
وأما القراء: فيدقُّونه بالعبادة من الصَّوْمِ والصَّلَاةِ دَقًّا، ولا يذيقونه شيئًا من حلاوة أعمال القلوب، وتهذيب النفوس؛ إذ ليس ذلك طريقهم^(٢)؛ ولهذا بينهم وبين أرباب التَّصَوُّفِ نوع تنافر^(٣)، كما تقدَّم.

والبصير الصَّادق: يضرب في كُلِّ غَنِيمَةٍ بسهمٍ، ويعاشر كُلَّ طَائِفَةٍ على أحسن ما معها، ولا يتحيز إلى طائفة، وينأى عن الأخرى بالكلية ألا يكون معها شيءٌ من الحق؛ فهذه طريقة الصَّادقين، ودعوى الجاهلية كامنة في النفوس.

وَلَا أَعْنِي بِبَدَلِكَ أَصْغَرِيهِمْ
وَلَكِنِّي أُرِيدُ بِهِ الدُّوِينَا

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (طريقتهم).

(٣) في «غ»: (تنافر).

سمع النَّبِيُّ ﷺ في بعض غزواته قائلاً يقول: يا للمهاجرين، وآخرُ يقول: يا للأَنْصار! فقال: «مَا بَأْسَ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟!» (١).

هذا؛ وهما اسمان شريفان، سمَّاهم الله بهما في كتابه، فنهاهم عن ذلك، وأرشدهم إلى أن يتداعوا بـ«المُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَعِبَادِ اللَّهِ» وهي الدَّعْوَى الجامعة، بخلاف المَفْرَقَةِ، كـ«الْفُلَانِيَّةِ وَالْفُلَانِيَّةِ» فالله المستعان.

وقال ﷺ لأبي ذرٍّ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ». فقال: على كبر السنِّ منِّي يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ» (٢).

فمن يأمن القراء بعدك يا شهر (٣)

ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان، وطعم الصدق واليقين، حتَّى تخرج الجاهليَّة كلُّها من قلبه، والله لو تحقَّق النَّاسُ في هذا الزَّمان ذلك من قلب رجل لَرَمَوْهُ عن قوسٍ واحدةٍ، وقالوا: هذا مبتدعٌ، ومن دعاة البدع، فإلى الله المشتكى، وهو المسئول الصَّبر والثبات؛ فلا بدَّ من لقائه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى﴾ (١١) ﴿طه: ٦١﴾. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١٢) [الشعراء: ٢٢٧].

فصل

□ قال صاحب «الْمَنَازِلِ» رَحِمَهُ اللهُ: «بَابُ الْإِرَادَةِ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]».

في تصديره الباب بهذه الآية دلالة على عظم قدره، وجلالة محلِّه من هذا العلم؛ فإنَّ معنى الآية:

(١) رواه البخاري في «المناقب»، باب: ما ينتهي عن دعوى الجاهلية (٣٥٨)، ورواه مسلم في البر والصلة، باب: نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤).

(٢) رواه البخاري في «الإيمان»، باب: المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ورواه مسلم في كتاب «الإيمان»، باب: إطعام المملوك مما يأكل واللباس مما يلبس (١٦٦١).

(٣) هو شهر بن حوشب، وكان قد ولي الخزانة في عهد يزيد بن المهلب، فاتهمه الخوارج بسرقة خريطة فيها دراهم فقال القطامي الكلبي:

لقد باع شهر دينه بخريطة فمن يأمن القراء بعد يا شهر
أخذت بها شيئاً طفيفاً وبعته من ابن جرير إن هذا هو الغدر

كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى^(١) كَلِّ مَا يَشَاكِلُهُ، وَيُنَاسِبُهُ، وَيَلِيقُ بِهِ؛ فَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ، وَمُرِيدُ الدُّنْيَا وَجِيْفَتُهَا عَامِلٌ عَلَى مَا يُنَاسِبُهُ، وَلَا يَلِيقُ بِهِ سِوَاهُ، وَمَحَبُّ الصُّورِ عَامِلٌ عَلَى مَا يُنَاسِبُهُ وَيَلِيقُ بِهِ.

فَكُلُّ امْرِئٍ يَهْفُو إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَكُلُّ امْرِئٍ يَضُوبُ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ

فالمريد الصادق المحبُّ لله يعمل ما هو اللائق به والمناسب له، فهو يعمل على شاكلة إرادته، وما هو الأليق به، والأنسب لها.

□ قال: «الإرادة من قوائن هذا العلم، وجوامع أبنيتيه، وهي الإجابة لدواعي الحقيقة، طوعاً أو كرهاً».

يريد: أن هذا العلم مبنئ على الإرادة، فهي أساسه، ومجمع بنائه، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة، وهي حركة القلب؛ ولهذا سمي علم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح؛ ولهذا سمّوه علم الظاهر. فهاتان حركتان اختياريّتان.

وللعبد حركةٌ طبيعيّةٌ اضطراريّةٌ، فالعلم المشتمل على تفاصيلها وأحكامها هو علم الطّب؛ فهذه العلوم الثلاثة هي الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب، وحركات اللسان والجوارح، وحركات الطّبيعة.

فالتّبيب: ينظر في تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحّة واعتلالاً، وفي لوازم ذلك ومتعلقاته.

والفقيه: ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشّرع، ونهيه وإذنه، وكرهاته، ومتعلقات ذلك.

والصّوفيُّ: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصّلة له إلى مراده، أو قاطعة عنه، ومفسدة لقلبه، أو مصحّحة له.

وأما قوله: «وهي الإجابة لداعي الحقيقة» فالإجابة: هي الانقياد والإذعان، والحقيقة عندهم: مشاهدة الرّبوبيّة، والشريعة: التزام العبوديّة، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، فالشريعة: قيامك بأمره، والحقيقة: شهودك لوصفه، وداعي الحقيقة: هو صحّة المعرفة؛ فإن من عرف الله أحبه ولا بدّ.

(١) في «غ»: (كل يعمل على شاكلته ما يشاكله).

ولا بد في هذه الإجابة من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة، لا تعوز إلا الداعي، ودعوة مستمعة، وتخليه الطريق من المانع.

فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث.

وقوله: «طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» يشير إلى المجذوب، المختطف من نفسه، والسالك إرادة واختيارًا ومجاهدة.

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: ذَهَابُ عَنِ الْعَادَاتِ [بِصُحْبَةِ] ^(١) الْعِلْمِ، وَالتَّعَلُّقُ بِأَنْفَاسِ السَّالِكِينَ، مَعَ صِدْقِ الْقَصْدِ، وَخَلْعِ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الْإِخْوَانِ، وَمُشْتَّتٍ مِنَ الْأَوْطَانِ».

هذا يوافق من حدَّ الإرادة بأنها مخالفة العادة، وهي ترك عوائد النفس وشهواتها، ورعوناتها وبطالاتها، ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء التي أشار إليها، وهي صحبة العلم ومعانقته؛ فإنه النور الذي يعرف العبد مواقع ما ينبغي إثارة طلبه، وما ينبغي إثارة تركه؛ فمن لم يصحبه العلم لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين، ولا عبرة بقطع الطريق.

وقال بعضهم: «مَتَى رَأَيْتُ الصُّوفِيَّ الْفَقِيرَ يَقْدَحُ فِي الْعِلْمِ؛ فَاتَّهَمُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ».

ومنها: التَّعَلُّقُ بِأَنْفَاسِ السَّالِكِينَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَعَلَّقَ بِأَنْفَاسِ قَوْمٍ انْخَرَطَ فِي مَسْلِكِهِمْ ^(٢)، ودخل في جماعتهم.

وقال أنفاس السالكين ولم يقل: أنفاس العابدين؛ فإنَّ العابدين (من شأنهم) ^(٣) القيام بالأعمال، وشأن السالكين مراعاة الأحوال.

وقوله: «مَعَ صِدْقِ الْقَصْدِ». يكون بأمرين:

أحدهما: توحيده.

والثاني: توحيد المقصود.

فلا يقع في قصدك قسمة، ولا في مقصودك.

وقوله: «وَخَلْعِ كُلِّ شَاغِلٍ مِنَ الْإِخْوَانِ، وَمُشْتَّتٍ مِنَ الْأَوْطَانِ».

يشير إلى ترك الموانع، والقواطع العائقة عن السلوك؛ من صحبة الأغيار، والتعلق بالأوطان

(١) في طبعة (الفتي): (بصحة) وأظنه خطأ مطبعياً، وجميع النسخ (بصحبة) وهو الذي أثبتناه في الأصل، وشرح ابن القيم الآتي يبين أنها (صحبة).

(٢) في «غ»: (سالكهم).

(٣) في «غ»: (فالعابدون شأنهم).

التي ألف فيها البطالة والنذالة، فليس على المرید الصادق أضرّ من عُشرائه ووطنه، القاطعين له عن سيره إلى الله تعالى، فليغترب عنهم بجهد، والله ﷻ أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ تُقَطَّعُ بِصُحْبَةِ الْحَالِ، وَتَرْوِيحِ الْأُنْسِ، وَالسَّيْرِ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ».

أي: ينقطع إلى صحبة الحال، وهو الوارد الذي يرد على القلب من تأثيره بالمعاملة، السَّالِب لوصف الكسل والفتور، الجالب له إلى مرافقة الرفيق الأعلى، الذين أنعم الله عليهم، فينتقل من مقام العلم إلى مقام الكشف، ومن مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها، ومواجيدها، وأحوالها، فيترقى من الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان.

وأما ترويح الأنس الذي أشار إليه: فإنَّ السَّالِك في أوَّل الأمر يجد تعب التَّكْلِيف^(١) ومشقَّة العمل؛ لعدم أنس قلبه بمعبوده، فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التَّكْلِيف والمشاقُّ، فصارت قرة عين له، وقوَّة ولدَّة.

فتصير الصَّلَاة قرة عينه بعد أن كانت عملاً عليه، ويستريح بها بعد أن كان يطلب الرَّاحَةَ منها؛ فله ميراثٌ من قوله ﷻ: «أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ يَا بِلَالُ»^(٢)، «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣) بحسب إرادته ومحَبَّته، وأنسه بالله ﷻ، ووحشته ممَّا سواه.

وأما «السَّيْرُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ»:

فـ«الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ»: حالتان تعرضان لكلِّ سالكٍ، يتولَّدان من الخوف تارة^(٤)، والرَّجَاء تارة، فيقبضه الخوف، ويسطه الرَّجَاء.

ويتولَّدان من الوفاء تارة^(٥)، والجفاء تارة، فوفاؤه: يورثه البسط، وجفائه^(٦) يورثه القبض.

(١) في «غ» والمنار: (التكلف).

(٢) تقدم تخريجه (١٨٣/٢).

(٣) تقدم تخريجه (١٨٣/٢).

(٤) لفظة (تارة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

(٦) في «غ»: (والمنار: وجفائه)، وهي الصواب وفي ط. الفقي: (ورجاؤه) لذا أثبتنا ما في «غ» والمنار لمناسبته.

ويتوَلَّدان من التَّفَرُّقة تارة^(١)، والجمعيَّة تارة، فتفرقته تورثه القبض، وجمعيَّته تورثه البسط.
ويتوَلَّدان من أحكام الوارد تارة، فواردٌ يورث قبضًا، وواردٌ يورث بسطًا.
وقد يهجم على قلب السَّالِك قبضٌ لا يدري ما سببه، وبسطٌ لا يدري ما سببه، وحكم صاحب
هذا القبض أمران:

- الأوَّل^(٢): التَّوْبَةُ والاستغفار؛ لأنَّ ذلك القبض نتيجة جنائية، أو جفوة، ولا يشعر بها.
- والثَّاني: الاستسلام حتَّى يمضي عنه ذلك الوقت، ولا يتكلَّف دفعه، ولا يستقبل وقته مغالبةً
وقهراً، ولا يطلب طلوع الفجر في^(٣) وسط اللَّيْلِ، وليرقد حتَّى يمضي عامَّة اللَّيْلِ، ويحين طلوع
الفجر، وانقشاع ظلمة اللَّيْلِ، بل يصبر حتَّى يهجم عليه الملك، فالله يقبض ويبسط.
وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط؛ فليحذر كلَّ الحذر من الحركة والاهتزاز، وليحرزه
بالسُّكُون والانكماش، فالعقل يقف على البساط، ويحذر من الانبساط، وهذا شأن عقلاء أهل الدُّنيا
ورؤسائهم إذا ما ورد عليهم ما يسرُّهم ويبسطهم ويهيِّج أفراسهم، قابلوه بالسُّكُون والثَّبات
والاستقرار، حتَّى كأنه لم يهجم عليهم، وقال كعب بن زهيرٍ في مدح المهاجرين:

لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: ذُهُولٌ مَعَ صُحْبَةِ الاسْتِقَامَةِ، وَمُلَازِمَةِ الرِّعَايَةِ عَلَى تَهْنِئِ
الأَدَبِ».

الدُّهُول هاهنا: الغيبة في المشاهدة بالحال الغالب، المذهل لصاحبه عن التفاته إلى غيره، وهذا
إنَّما ينفع إذا كان مصحوبًا بالاستقامة، وهي حفظ حدود العلم، والوقوف معها، وعدم إضاعتها، وإلَّا
فأحسن أحوال هذا الدَّاهل: أن يكون كالمجنون الَّذي رفع عنه القلم، فلا يقتدى به، ولا يعاقب على
تركه الاستقامة.

وأما إن كان سبب الدُّهُول المنخرج عن الاستقامة، باستدعائه وتكلُّفه وإرادته: فهو عاصٍ
مفترطٌ، مضيعٌ لأمر الله، له حكم أمثاله من المفترطين.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «مَتَى كَانَ السَّبَبُ مَحْظُورًا، لَمْ يَكُنِ
السُّكْرَانُ مَعْدُورًا».

(١) لفظة (تارة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (الأول) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة (في) غير موجودة في «غ».

وقوله: «وَمَلَّازِمَةُ الرَّعَايَةِ عَلَى تَهْذِيبِ الْأَدَبِ». يريد به: ملازمته رعاية حقوق الله مع التأدب بآدابه، فلا يخرج به ذهوُّ عن استقامته، ولا عن رعاية حقوق سيِّده، ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه، والله المستعان.

فصل

[منزلة الأدب]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الأدب. قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْماً أَنفُسَكُمُ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]. قال ابن عباس وغيره: «أَدَّبُوهُمْ وَعَلَّمُوهُمْ». وهذه اللَّفْظَةُ مؤذنةٌ بالاجتماع؛ فالأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهي الطَّعام الَّذِي يجتمع عليه النَّاسُ. وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللِّسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل، وهو شعبةٌ من الأدب العامِّ، والله أعلم.

فصل

والأدب ثلاثة أنواع:

- أدبٌ مع الله سبحانه.

- وأدبٌ مع رسوله ﷺ وشرعه.

- وأدبٌ مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

- أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

- الثَّاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

- الثَّالث: صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمتك عليه.

قال أبو عليِّ الدَّقَّاق: «الْعَبْدُ يَصِلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَصِلُ بِأَدْبِهِ فِي طَاعَتِهِ إِلَى اللَّهِ».

وقال: «رَأَيْتَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَمُدَّ يَدَهُ فِي الصَّلَاةِ إِلَى أَنْفِهِ فَقَبِضَ عَلَى يَدِهِ».

وقال ابن عطاء: «الأدب: الوقوف مع المستحسنات، فليل له: وما معناه؟ فقال: أن تعامله سبحانه بالأدب سرًا وعلنًا، ثم أنشد:

إِذَا نَطَقْتَ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَا حَةٍ وَإِنْ سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحٍ».

وقال أبو علي^(١): «مَنْ صَاحَبَ الْمُلُوكَ بِغَيْرِ آدَبٍ أَسْلَمَهُ الْجَهْلُ إِلَى الْقَتْلِ».

وقال يحيى ابن معاذ^(٢): «إِذَا تَرَكَ الْعَارِفُ آدَبَهُ مَعَ مَعْرُوفِهِ فَقَدْ هَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ».

وقال أبو علي: «تَرْكُ الْآدَبِ يُوجِبُ الطَّرْدَ؛ فَمَنْ أَسَاءَ الْآدَبَ عَلَى الْبَسَاطِ رُدَّ إِلَى الْبَابِ، وَمَنْ أَسَاءَ الْآدَبَ عَلَى الْبَابِ رُدَّ إِلَى سِيَاسَةِ الدَّوَابِّ».

وقال يحيى بن معاذ^(٣): «مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَبِ اللَّهِ صَارَ مِنْ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ».

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: «نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْآدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ».

وسئل الحسن البصري^{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ} عن أنفع الأدب؟ فقال: «التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، وَالزُّهُدُ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَا لِلَّهِ عَلَيْكَ».

وقال سهل^(٤): «الْقَوْمُ اسْتَعَانُوا بِاللَّهِ عَلَى مَرَادِ اللَّهِ، وَصَبَرُوا لِلَّهِ عَلَى آدَابِ اللَّهِ».

وقال ابن المبارك: «طَلَبْنَا الْآدَبَ حِينَ فَاتَنَا الْمُؤَدَّبُونَ».

وقال: «الْآدَبُ لِلْعَارِفِ كَالْتَّوْبَةِ لِلْمُسْتَأْنِفِ».

وقال أبو حفص^(٥) - لَمَّا قَالَ لَهُ الْجَنِيدُ: «لَقَدْ آدَبْتَ أَصْحَابَكَ آدَبَ السَّلَاطِينِ - فَقَالَ: حُسْنُ

الْآدَبِ فِي الظَّاهِرِ عُنْوَانُ حُسْنِ الْآدَبِ فِي الْبَاطِنِ؛ فَالْآدَبُ مَعَ اللَّهِ حُسْنُ الصُّحْبَةِ مَعَهُ، بِإِيقَاعِ الْحَرَكَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ عَلَى مُقْتَضَى التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْحَيَاءِ، كَحَالِ مَجَالِسِ الْمُلُوكِ وَمُصَاحِبِهِمْ».

وقال أبو نصر السَّراج: «النَّاسُ فِي الْآدَبِ عَلَى ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ:

أَمَّا أَهْلُ الدُّنْيَا: فَأَكْثَرُ آدَابِهِمْ: فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاعَةِ، وَحِفْظِ الْعُلُومِ، وَأَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَأَشْعَارِ

الْعَرَبِ.

وَأَمَّا أَهْلُ الدِّينِ: فَأَكْثَرُ آدَابِهِمْ فِي رِيَاضَةِ النُّفُوسِ، وَتَأْدِيبِ الْجَوَارِحِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ، وَتَرْكِ

السَّهَوَاتِ.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

وَأَمَّا أَهْلُ الْخُصُوصِيَّةِ: فَأَكْبَرُ آدَابِهِمْ: فِي طَهَارَةِ الْقُلُوبِ، وَمُرَاعَاةِ الْأَسْرَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَحِفْظِ الْوَقْتِ، وَقِلَّةِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى الْخَوَاطِرِ، وَحُسْنِ الْأَدَبِ فِي مَوَاقِفِ الطَّلَبِ، وَأَوْقَاتِ الْحُضُورِ، وَمَقَامَاتِ الْقُرْبِ».

وقال سهل: «مَنْ قَهَرَ نَفْسَهُ بِالْأَدَبِ فَهُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ».

وقال عبد الله بن المبارك: «قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ الْقَوْلَ فِي الْأَدَبِ وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ وَرُغُونَاتِهَا وَتَجَنُّبُ تِلْكَ الرُّغُونَاتِ».

وقال الشَّيْبَلِيُّ: «الْإِنْسِاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الْحَقِّ تَرْكُ الْأَدَبِ».

وقال بعضهم: الحقُّ سبحانه يقول: من أَلَزَمْتَهُ الْقِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلَزَمْتَهُ الْأَدَبَ، وَمَنْ كَشَفَتْ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِي (١) أَلَزَمْتَهُ الْعَطَبَ، فَاخْتَرِ الْأَدَبَ أَوْ الْعَطَبَ!.

ويشهد لهذا: أَنَّهُ سَبِحَانَهُ لَمَّا كَشَفَ لِلجَبَلِ عَنْ ذَاتِهِ سَاخَ الْجَبَلِ وَتَدَكَّدَكَ وَلَمْ يَثْبِتْ عَلَى عِظْمَةِ الذَّاتِ.

وقال أبو عثمان: «إِذَا صَحَّتِ الْمَحَبَّةُ تَأَكَّدَتْ عَلَى الْمُحِبِّ مُلَازِمَةَ الْأَدَبِ».

وقال النُّورِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ لِلْوَقْتِ فَوْقْتُهُ مَقْتُ».

وقال ذو النُّونِ (٢): «إِذَا خَرَجَ الْمُرِيدُ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ جَاءَ».

وتأمل أحوال الرُّسُلِ صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم، كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به؟

قال المسيح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ» ولم يقل: لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: «تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي» ثم برأ نفسه (٣) عن علمه بغيب ربِّه وما يختصُّ به سبحانه، فقال: «وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ»، ثم أثنى على ربِّه، ووصفه بتفردُه بعلم الغيوب كلها، فقال: «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْتَ الْغُيُوبَ» (٤)، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربُّه به - وهو محض التَّوْحِيدِ - فقال: «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ».

ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأنَّ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ

(١) وهل تنكشف حقيقة الذات العلية؟! سبحان ربنا وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً! (الفقي).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) جملة (ثم برأ نفسه): ساقطة من «غ».

أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ ﴿١١٧﴾ [المائدة: ١١٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾. وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام؛ أي: شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك؛ فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له لم تعذبهم (١)؛ لأنَّ قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدّم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْعُيُوبَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلايتهم، فإذا عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنُّه الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنُّه القدرية، وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ تَعَفَّرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو (٢) من أبلغ الأدب مع الله تعالى، بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأنَّ العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، لجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب.

وفي بعض الآثار: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»، ولهذا يقترن كلُّ من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]،

(١) في «غ» والمنار: (لم يعذبهم).

(٢) كلمة (هو): ساقطة من «غ» والمنار.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ٤٩].

وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [٧٩] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [٨٠] [الشعراء: ٧٨-٨٠] ولم يقل: وإذا أمرضني؛ حفظاً للأدب مع الله.

وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقل: فأراد ربك أن أعيبها، وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾، ولم يقولوا: أراده ربهم، ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل: أطعمني.

وقول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقل: رب قدرت عليّ وقضيت عليّ.

وقول أيوب عليه السلام: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. ولم يقل: فعافني واشفني.

وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: أخرجني من الجب، حفظاً للأدب مع إخوته، وتفصيلاً عليهم: ألا يخجلهم بما جرى في الجب.

وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة، أدباً معهم، وأضاف ما جرى إلى السبب، ولم يضيفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه، فقال: ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه؛ ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسول والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن هذا: أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الرجل أن يستر عورته^(١)، وإن كان خالياً لا يراه أحد، أدباً مع الله، على حسب القرب منه، وتعظيمه وإجلاله، وشدة الحياء منه، ومعرفة وقاره.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهراً، وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

(١) جزء من حديث أوله: «واحفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك...» الحديث. رواه أبو داود في «اللباس»، باب: ما جاء في التعري (٤٠١٧)، وابن ماجه في النكاح باب: التستر عند الجماع (١٩٢٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٩١).

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «مَنْ تَهَاوَنَ بِالْأَدَبِ» (١) عُوقِبَ بِحِرْمَانِ السُّنَنِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ، عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْفَرَائِضِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْفَرَائِضِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِ الْمَعْرِفَةِ».

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل؛ ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال

من القوة إلى الفعل.

فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد، التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد، فألهمه ومكّنه، وعرفه وأرشده، وأرسل إليه رسله، وأنزل إليه (٢) كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكمالها إلى الفعل، قال الله تعالى: ﴿وَنَقَّصِنَا مَا سَوَّيْنَاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠]. فعبّر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى، وأن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً، ثم خصّ بالفلاح من زكّاها فنمّاها وعلاها، ورفعها بأدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأوليائه، وهي التقوى، ثم حكم بالشقاء على من دسّاها فأخفاها وحقرها، وصغرها وقمعها بالفجور، والله سبحانه أعلم.

فصل

وجرت عادة القوم أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم، حين أراه ما أراه: ﴿مَا زَاغَ

الْبَصَرُ وَمَا طَعَنَ﴾ (١٧) [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيري صَدَّرَ باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه صلى الله عليه وسلم في ذلك المقام؛ إذ لم

يلتفت جانباً، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن

شماله، أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغٌ، والتطلع إلى ما أمام المنظور طغيانٌ ومجاوزةٌ، فكمال

إقبال الناظر على المنظور: ألا يصرف بصره عنه يمنةً ولا يسرةً، ولا يتجاوزه.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

(١) ما بين القوسين ساقط من «غ».

(٢) كلمة (إليه): ساقطة من «غ» والمنار.

وفي هذه الآية أسرارٌ عجيبةٌ، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حقٌّ مشهودٌ بالبصر؛ فتواطأ في حقِّه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا؛ قال ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ [النجم: ١١، ١٢]؛ أي: ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» - بتشديد الدال -؛ أي: لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه، لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًا، وقرأ الجمهور: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ بالتخفيف، وهو متعدٌ و﴿مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ مفعوله؛ أي: ما كذب قلبه ما رآه عيناه، بل واطأه ووافقه؛ فلمواطأة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حدَّه فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئي، ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عمَّا سواه؛ فإنه أقبل على الله بكلِّيته، وللقلب زيغٌ وطغيانٌ، وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره؛ فلم يزيغ قلبه التفاتًا عن الله إلى غيره، ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه. فإنَّ عادة النفوس إذا أقيمت في مقام (عالٍ رفيع أن تتطَّلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى أنَّ موسى ﷺ لَمَّا أقيم في مقام) (١) التَّكْلِيمِ والمناجاة طلبت نفسه الرؤية؟ ونبينا ﷺ لَمَّا أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه ألبتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائقٌ، ولا وقف به مرادٌ، حتَّى جاوز السَّمَوَاتِ السَّبْعَ حتَّى عاتب موسى ربه فيه، وقال: «يَقُولُ بَنُو إِسْرَائِيلَ: إِنِّي كَرِيمٌ الْخُلُقِ عَلَى اللَّهِ، وَهَذَا قَدْ جَاوَزَنِي وَخَلَفَنِي عَلَوًّا، فَلَوْ أَنَّهُ وَحْدَهُ؟ وَلَكِنْ مَعَهُ كُلُّ أُمَّتِهِ». وفي رواية البخاري: «فَلَمَّا جَاوَزْتُهُ بَكَيْ، قِيلَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي أَنَّ عَلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي» (٢). ثمَّ جاوزه علوًّا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همَّةً.

ولهذا؛ كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف؛ فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راحبه، ويُعدُّ شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محلِّ معرفته.

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة «غ».

(٢) تقدم في حديث الإسراء الطويل أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه^(١) هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون؛ فإذا كان في المعاد أقيم مقاماً من القرب ثانياً، يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراطٍ مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاع البصر عنه وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراطٍ من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)﴾ [يس: ١-٤]، فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

والأدب هو الدِّين كله؛ فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهراً؛ ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة؛ فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فعلق الأمر بأخذ الزينة، لا بستر العورة، إيداناً بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه، وأجملها في الصلاة».

وكان لبعض السلف حلّة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: «رَبِّي أَحَقُّ مَنْ تَجَمَّلْتُ لَهُ فِي صَلَاتِي».

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه؛ فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهراً وباطناً.

ومن الأدب: نهي النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصره إلى السماء^(٢).

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: «هَذَا مِنْ كَمَالِ أَدَبِ الصَّلَاةِ: أَنْ

(١) في «غ»: (له).

(٢) ورد ذلك في أكثر من حديث من ذلك قوله ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، ليتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم». رواه البخاري (٧٥٠)، وأبو داود (٩١٣).

يَقِفَ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ مُطِرِقًا، خَافِضًا طَرْفَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَى فَوْقَ». قال: «وَالْجَهْمِيَّةُ لَمَّا لَمْ يَقْفُوهَا هَذَا الْأَدَبَ، وَلَا عَرَفُوهُ؛ ظَنُّوا أَنَّ هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَاتَّفَقَتْ عَلَيْهِ رُسُلُهُ وَجَمِيعُ أَهْلِ السُّنَّةِ». قال: «وَهَذَا مِنْ جَهْلِهِمْ، بَلْ هَذَا دَلِيلٌ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى تَقْيِضِ قَوْلِهِمْ؛ إِذْ مِنْ الْأَدَبِ مَعَ الْمُلُوكِ أَنَّ الْوَاقِفَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَطْرُقُ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَرْفَعُ بَصَرَهُ إِلَيْهِمْ، فَمَا الظَّنُّ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ سُبْحَانَهُ؟!».

وسمعه يقول - في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (١) -: «إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ أَشْرَفُ الْكَلَامِ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ، وَحَالَتَا الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ حَالَتَا ذُلٍّ وَانْخِفَاضٍ مِنَ الْعَبْدِ، فَمِنَ الْأَدَبِ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ أَلَّا يُقْرَأَ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَيَكُونُ حَالُ الْقِيَامِ وَالِانْتِصَابِ أَوْلَى بِهِ». - ومن الأدب مع الله: ألا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة (٢) وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والصَّحِيح: أَنَّ هَذَا الْأَدَبَ يَعْمُ الْفَضَاءَ وَالْبَنِيَانَ؛ كَمَا ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

- ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصَّلَاة: وضع اليمين على اليسرى حال قيام القراءة، ففي «الموطأ» لمالك عن سهل بن سعد: أَنَّهُ مِنَ السُّنَّةِ (٣)، وَكَانَ النَّاسُ يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَدَبِ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ الْمُلُوكِ وَالْعِظَمَاءِ، فَعَظِيمُ الْعِظَمَاءِ أَحَقُّ بِهِ.

- ومنها: السُّكُونُ فِي الصَّلَاةِ، وَهُوَ الدَّوَامُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ: أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ أَخْبَرَهُ قَالَ: «سَأَلْنَا عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٣) أَهْمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ دَائِمًا؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُ إِذَا صَلَّى لَمْ يَلْتَفِتْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَا عَنْ شِمَالِهِ وَلَا خَلْفَهُ».

قلت: هما أمران، الدَّوَامُ عَلَيْهَا، وَالْمَدَاوِمَةُ عَلَيْهَا، فَهَذَا الدَّوَامُ، وَالْمَدَاوِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٤]، وَفَسَّرَ الدَّوَامُ بِسُكُونِ الْأَطْرَافِ وَالطَّمَأْنِينَةِ. - وأدبه في استماع القراءة: أَنْ يَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

(١) للحديث الذي رواه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نهاني رسول الله ﷺ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَأَنَا رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ...» الحديث. رواه مسلم برقم (٤٨٠)، وأبو داود (٤٠٤٤).

(٢) انظر هذه الأحاديث في «جامع الأصول» لابن الأثير (٧/١٢٠-١٢٦).

(٣) «الموطأ» في قصر الصلاة، باب: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في الصلاة (١/١٥٩)، والبخاري في «صفة الصلاة»، باب: وضع اليمين على اليسرى في الصلاة (٧٤٠).

- وأدبه في الرُّكوع: أن يستوي، ويعظم الله تعالى، حتّى لا يكون في قلبه شيءٌ أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتّى يكون أقلّ من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: وهو القيام بدينه، والتأدّب بأدابه ظاهراً وباطناً. ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفة بدينه وشرعه، وما يحبُّ وما يكره، ونفسٌ مستعدّةٌ قابلةٌ لئِنَّةٍ، متهيّئةٌ لقبول الحقِّ علماً وعملاً وحالاً، والله المستعان.

فصل

وأما الأدب مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوءٌ به.

- فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيالٍ باطل، يسمّيه معقولاً، أو يحمله شبهةً أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحّده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحّد المرسل ﷺ بالعبادة والخضوع والذلّ، والإنابة والتوكّل.

فهما توحيدان؛ لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره، وتصديق خبره، على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظّمه؛ فإن أذنوا له فنذّه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرّفه عن مواضعه، وسمّى تحريفه تأويلاً وحملًا؛ فقال: نوّؤله ونحمله؛ فلأنّ يلقي العبد ربّه بكلّ ذنبٍ على الإطلاق - ما خلا الشُّرك بالله - خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال.

ولقد خاطبت يوماً بعض أكابر هؤلاء؛ فقلت له: سألتك بالله، لو قدر أن الرسول ﷺ حيٌّ بين أظهرنا، وقد واجهنا بكلامه وبخطابه؛ أكان فرضاً علينا أن نتّبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه، أم لا نتّبعه حتّى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟

فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفاتٍ إلى سواه.

فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنّا؟ وبأيّ شيءٍ نُسخ؟

فوضع إصبعه على فيه، وبقي باهتاً متحيراً، وما نطق بكلمة!

هذا أدب الخواصّ معه؛ لا مخالفة أمره والشُّرك به، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء

بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة الله، أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة الله على العقول المنهوكة^(١) المتحيرة المتناقضة، وفي الأحكام على تقليد الرجال وأرائها، والقرآن والسنة إنما نقرأهما تبرُّكًا، لا أننا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه، ومن طلب ذلك ورامه عادينه وسعينا في قطع دابره، واستئصال شافته.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُونَ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ (١٣) ﴿حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (١٤) ﴿لَا يَجْتَرُوا يَوْمَ الْيَوْمِ أَنْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٥) ﴿فَكَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ﴾ (١٦) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعَمًا تَهْجُرُونَ﴾ (١٧) ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (١٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرَضُونَ﴾ (٢١) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢٣) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابِتُونَ﴾ (٢٤) ﴿المؤمنون: ٦٣ - ٧٤﴾.

والنَّاصح لنفسه، العامل على نجاتها يتدبر هذه الآيات حقَّ تدبرها، ويتأملها حقَّ تأملها، ويُنزلها على الواقع؛ فيرى العجب، ولا يظنُّها اختصَّت بقوم كانوا فبانوا؛ فالحديث لك واسمعي يا جارة! والله المستعان.

- ومن الأدب مع الرسول ﷺ: ألا يتقدَّم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف، حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدُّم بين يدي سنَّته بعد وفاته، كالتقدُّم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لَا تَقْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [بِشَيْءٍ حَتَّى يَقْضِيَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ]».

وقال الضَّحَّاك: «لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» [٤].

وقال أبو عبيدة: «تَقُولُ الْعَرَبُ: لَا تَقْدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ الْإِمَامِ وَبَيْنَ يَدَيْ الْأَبِ؛ أَي: لَا تُعَجِّلُوا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ».

وقال غيره: «لَا تَأْمُرُوا حَتَّى يَأْمُرَ، وَلَا تَنْهَوْا حَتَّى يَنْهَى».

- ومن الأدب معه: ألا ترفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سببٌ لحبوط الأعمال فما الظَّنُّ برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنَّته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجبٌ لحبوطها؟

(١) في «غ»: (المنهوكة).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. (الفاقي)، وأثبتناه هنا من نسخة المنار، ونسخة «غ».

- ومن الأدب معه: ألا يجعل دعاءه كدعاء غيره، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعون به باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلى هذا المصدر مضاف إلى المفعول؛ أي: دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى: لا تجعلوا دعاءكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا، إن شاء أجب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بدٌّ من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة؛ فعلى هذا المصدر مضاف إلى الفاعل؛ أي: دعاؤه إياكم.

- ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمرٍ جامع - من خطبة، أو جهاد، أو رباط - لم يذهب أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

فإذا كان هذا مذهبًا مقيّدًا بحاجةٍ عارضةٍ، لم يوسّع لهم فيه إلا بإذنه؛ فكيف بمذهبٍ مطلقٍ في تفاصيل الدين: أصوله، وفروعه، دقيقه، وجليله؟! هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]؟!!

- ومن الأدب معه: ألا يستشكل قوله: بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصّه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيالٍ يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهولٌ، وعن الصواب معزولٌ، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ، فكلُّ هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة.

فصل

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم؛ فلكلِّ مرتبةٍ أدبٌ، والمراتب فيها أدبٌ خاصٌّ، فمع الوالدين أدبٌ خاصٌّ، وللأب منهما أدبٌ هو أخصُّ به، ومع العالم أدبٌ آخر، ومع السلطان أدبٌ يليق به، وله مع الأقران أدبٌ يليق بهم، ومع الأجنبي أدبٌ غير أدبه مع أصحابه ذوي أنسه، ومع الضيف: أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته.

ولكلِّ حالٍ أدبٌ: فلأكلٍ أدبٌ، وللشربٍ أدبٌ، وللركوب والدُخول والخروج والسفر والإقامة والنوم أدبٌ، وللبلوغ أدبٌ، وللکلام أدبٌ، وللشكوت والاستماع أدبٌ.

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته ووباره.

فما استُجلب خير الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.
فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم
الصخرة^(١)؟ والإخلال به مع الأمّ - تأويلاً وإقبالاً على الصلّاة - كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته^(٢)
وضرب النَّاس له، ورميه بالفاحشة؟!

وتأمل أحوال كلِّ شقيٍّ ومغترٍّ ومدبرٍ كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟!
وانظر قلة أدب عوفٍ مع خالدٍ كيف حرّمه السلب بعد أن برّد يديه^(٣)؟!

وانظر أدب الصّديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في الصلّاة أن يتقدّم بين يديه؛ فقال: «ما كان ينبغي لابن
أبي قحافة أن يتقدّم بين يدي رسول الله ﷺ»^(٤)، كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمّة بعده؟ فكان ذلك
التأخر إلى خلفه - وقد أوماً إليه أن اثبت مكانك - جمزاً، وسعيّاً^(٥) إلى قدّام، بكلِّ خطوة إلى وراء
مراحل إلى قدّام تنقطع فيها أعناق المَطِيّ؟! والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الأدب: حفظ الحدّ بين الغلّو والجفّاء، بمعرفة ضرر
العدوان».

هذا من أحسن الحدود؛ فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلّو والجفّاء: هو قلة الأدب، والأدب:
الوقوف في الوسط بين الطرفين، فلا يقصّر بحدود الشّرع عن تمامها، ولا يتجاوز بها ما جعلت حدوداً

(١) البخاري في «الأنبياء»، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٢٢١٥)، ومسلم في «الذكر»، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة (٢٧٤٣).
(٢) هي قصة جريج الراهب أخرجها البخاري في «الأنبياء»، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٢٤٨٢)، ومسلم في البر والصلّة،
باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلّة وغيرها (٢٥٥٠).

(٣) عن عوف بن مالك قال: «قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه فمنعه خالد بن الوليد - وكان والياً عليهم -
فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك؛ فأخبره بذلك، فقال: ادفعه إليه؛ فمر خالد بعوف؛ فجر بردائه، ثم قال: هل
أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ؟ فسمعه رسول الله ﷺ، فاستغضب، فقال: «لا تعطه يا خالد، هل أنتم
تاركون لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً وغنماً، فرعاها، ثم تحين سقيها فأوردها حوضاً،
فشرعت فيه فشربت صفوه، وتركت كدره؛ فصفوه لكم وكدره لهم». رواه الإمام أحمد (٢٨/٦)، ومسلم في
«الجهاد»، باب: استحقات القتال سلب القتل (١٧٥٣).

(٤) رواه البخاري في «صلاة الجماعة»، باب: من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول فتأخر الأول... (٦٨٤)، ومسلم في
الصلّة، باب: تقديم الجماعة من يصلي بهم (٤٢١).

(٥) في المنار: (ولا سعيّاً).

له؛ فكلاهما عدوانٌ، والله لا يحبُّ المعتدين، والعدوان هو سوء الأدب.

وقال بعض السلف: «دينُ الله بينَ العَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ».

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء، ولم يوفِّ الصلَاة آدابها الَّتِي سَنَّها رسول الله ﷺ وفعَلها، وهي قريبٌ من مائة أدبٍ ما بين واجبٍ ومستحبٍ.

وإضاعته بالغلوُّ: كالسوسة في عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار والدعوات الَّتِي شرعت سرًّا، وتطويل ما السنَّة تخفيفه وحذفه، كالتشهُد الأوَّل والسلام الَّذِي حذفه سنَّة، وزيادة التَّطويل على ما فعله رسول الله ﷺ لا على ما يظنُّه سراق الصلَاة والنقارون لها ويشتهونهُ؛ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يكن ليأمر بأمرٍ ويخالفه، وقد صانه الله من ذلك، وكان يأمرهم بالتَّخفيف ويؤمُّهم بالصَّافَات، ويأمرهم بالتَّخفيف وتقام صلاة الظُّهر فيذهب الذَّاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضَّأ ويدرك رسول الله ﷺ في الرُّكعة الأولى؛ فهذا هو التَّخفيف الَّذِي أمر به، لا نقر الصلَاة وسرقها، فإنَّ ذلك اختصارٌ، بل اقتصارٌ على ما يقع عليه الاسم، ويسمَّى به مصلِيًا، وهو كأكل المضطرِّ في المخمصة ما يسدُّ به رمقه فليته شبع على القول الآخر، وهو كجائعٍ قدَّم إليه طعامٌ لذيذٌ جدًّا، فأكل منه لقمةً أو لقمتين؛ فماذا يغنيان عنه؟ ولكن لو أحسَّ بجوعه لما قام من الطَّعام حتَّى يشبع منه وهو يقدر على ذلك، لكنَّ القلب شبعان من شيءٍ آخر (١).

ومثال هذا التَّوسُّط في حقِّ الأنبياء ﷺ: ألا يغلو فيهم، كما غلت النَّصارى في المسيح، ولا يجفو عنهم، كما جفت اليهود؛ فالنَّصارى عبَدوهم، واليهود قتلوهم وكذبوهم، والأُمَّة الوسط آمنوا بهم، وعزَّروهم ونصروهم، وأتبعوا ما جاءوا به.

ومثال ذلك في حقوق الخلق: ألا يفرِّط في القيام بحقوقهم، ولا يستغرق فيها، بحيث يشتغل بها عن حقوق الله، أو عن تكميلها، أو عن مصلحة دينه وقلبه، وألا يجفو عنها حتَّى يعطلُّها بالكلِّية؛ فإنَّ الطَّرفين من العدوان الضَّارِّ، وعلى هذا الحدِّ فحقيقة الأدب هي العدل، والله أعلم.

(١) نعم. والله. فإن الصلاة غذاء الروح والقلب؛ فإنه بحاجة إلى غذائه مما يتنزل من رحمات الله، كما أن الجسم بحاجة إلى الغذاء مما يخرج، ولما كان كل منهما يهضم غذاءه، فيحتاج إلى غذاء جديد تفضل الله ربنا سبحانه، فجعل الصلوات خمسًا مقسمة على أجزاء اليوم هذا التقسيم الحكيم ليأخذ الروح والقلب الإنساني المعنوي الكريم - وجبة الغذاء بعد اضطرابه في شئون الحياة وفتنها التي هضمت غذاءه، كالجسم سواء بسواء، وهكذا العلم وبقية ما تفضل به علينا ربنا الكريم من العبادات، والأعمال الصالحات. (الفقهي).

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: مَنَعَ الْخَوْفِ: أَلَّا يَتَعَدَّى (١) إِلَى الْيَأْسِ، وَحَبَسُ الرَّجَاءِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْأَمْنِ، وَضَبَطُ السُّرُورِ أَنْ يُضَاهِيَ الْجُرْأَةَ».

يريد: أنه لا يدع الخوف يفضي به إلى حدٍّ يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله؛ فإنَّ هذا الخوف مذمومٌ.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يقول: «حَدُّ الْخَوْفِ: مَا حَجَزَكَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ؛ فَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ».

وهذا الخوف الموقوع في الإياس إساءة أدبٍ على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهلٌ به. وأما «حَبَسُ الرَّجَاءِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْأَمْنِ»: فهو ألا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبة، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وهذا إغراقٌ في الطرف الآخر.

بل حدُّ الرجاء: ما طيب لك العبادة، وحملك على السير، فهو بمنزلة الرياح التي تسيّر السفينة، فإذا انقطعت وفتت السفينة، وإذا زادت ألقته إلى المهالك؛ وإذا كانت بقدرٍ أوصلتها ^(٢) إلى البُغية. وأما ضَبَطُ السُّرُورِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مُشَابَهَةِ الْجُرْأَةِ: فلا يقدر عليه إلا الأقوياء أرباب العزائم، الذين لا تستفزهم السراء، فتغلب شكرهم، ولا تضعفهم الصِّراء، فتغلب صبرهم، كما قيل:

لَا تَغْلِبُ السَّرَّاءُ مِنْهُمْ شُكْرَهُمْ كَلَّا وَلَا الصِّرَّاءُ صَبْرَ الصَّابِرِ

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبه، وتشبهه في صفاته، ومواهب الربِّ تبارك وتعالى تنزل على القلب ^(٣) والروح؛ فالنفس تسترق السَّمع، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب وثبت لتأخذ قسطها منها، وتصيره من عدتها وحواصلها، فالمسترسل معها الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك، فيبينا هو في موهبة القلب والروح وعدة وقوة له؛ إذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها، فصالت به

(١) في «غ» والمنار: (أن يتعدى).

(٢) في «غ» والمنار: (أوصلت).

(٣) في «غ» والمنار: (للقلب).

وطغت؛ لأنّها رأت غناها به، والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال؛ فكيف بما هو أعظم خطراً، وأجلّ قدرًا من المال، بما لا نسبة بينهما من علم، أو حال، أو معرفة، أو كشفٍ؟ فإذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به ولا بدّ إلى طرفٍ مذمومٍ من جرأة، أو شطح، أو إدلال، ونحو ذلك.

فوالله كم هاهنا من قتيل، وسليب، وجريح يقول: من أين أُتيت؟ ومن أين دُهيت؟ ومن أين أُصبت؟ وأقلُّ ما يعاقب به من الحرمان بذلك: أن يغلق عنه باب المزيد.

ولهذا كان^(١) العارفون وأرباب البصائر إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذلِّ والانكسار، ومطالعة عيوب النَّفس، واستدعوا حارس الخوف، وحافظوا على الرِّباط بملازمة الثَّغر بين القلب وبين النَّفس، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله، وأكرمهم عليه، وأدناهم منه وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهاً، وقد دخل مكّة يوم الفتح ودقّنه تمسُّ قُربوس^(٢) سرجه انخفاضاً وانكساراً وتواضعاً لرَبِّه تعالى في مثل تلك الحال، التي عادة النَّفوس البشريّة فيها أن يملكها سرورها، وفرحها بالنَّصر، والظَّفَر، والتَّأييد، ويرفعها إلى عنان السَّماء.

فالرَّجل: من صان فتحه ونصيبه من الله، وواراه عن استراق نفسه، وبخل عليها به. والعاجز: من جاد لها به، فإله من جودٍ ما أقبحه، وسماحةٍ ما أسفه صاحبها! والله المستعان.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: الْخُرُوجُ عَنِ الْخَوْفِ إِلَى مَيْدَانِ الْقَبْضِ، وَالصُّعُودُ مِنَ الرَّجَاءِ إِلَى مَيْدَانِ الْبَسْطِ، ثُمَّ التَّرَقِّي مِنَ السُّرُورِ إِلَى مَيْدَانِ الْمَشَاهِدَةِ».

ذكر في الدَّرَجَةِ الْأُولَى كيف يحفظ الحدّ بين المقامات، حتّى لا يتعدّى إلى غلوٍّ أو جفاء، وذلك سوء أدب.

فذكر مع الخوف أن يخرج به إلى اليأس، ومع^(٣) الرَّجَاءِ أن يخرج به إلى الأمن، ومع^(٤) السُّرُورِ أن يخرج به إلى الجرأة.

ثمّ ذكر في هذه الدَّرَجَةِ أدب التَّرَقِّي من هذه الثلاثة إلى ما يحفظه عليها، ولا يضيّعها بالكليّة،

(١) لفظة (كان): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) القربوس: حنو السرج، وجمعه قرايبس «تهذيب اللغة» (٩/٣٥٩).

(٣) لفظة (مع): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) لفظة (مع): ساقطة من «غ» والمنار.

كما أنّ في الدَّرَجَة الأولى لا يبالغ به^(١)، بل يكون خروجه من الخوف إلى القبض، يعني: لا يزال الخوف بالكليّة؛ فإنّ قبضه لا يؤيِّسه ولا يقنّطه، ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان البسط، بل يكون بين القبض والبسط، وهذه حال الكمّل^(٢)، وهي السّير بين القبض والبسط.

وسروره لا يقعد به عن ترقّيه إلى ميدان مشاهدته، بل يرقى بسروره إلى المشاهدة، ويرجع من رجائه إلى البسط، ومن خوفه إلى القبض.

ومقصوده: أن ينتقل من أشباح هذه الأحوال إلى أرواحها؛ فإنّ الخوف شبح والقبض روحه، والرّجاء شبح والبسط روحه، والشّرور شبح والمشاهدة روحه؛ فيكون حظّه من هذه الثلاثة أرواحها وحقائقها، لا صورها ورسومها.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: مَعْرِفَةُ الْأَدَبِ، ثُمَّ الْفَنَاءُ عَنِ التَّأْدِبِ بِتَأْدِيبِ (٣) الْحَقِّ، ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ شُهُودِ أَعْبَاءِ الْأَدَبِ».

قوله: «مَعْرِفَةُ الْأَدَبِ».

يعني: لا بدّ من الاطلاع على حقيقته في كلّ درجة، وإنّما يكون ذلك في الدَّرَجَة الثالثة؛ فإنّه يشرف منها على الأدب في الدَّرَجَتَيْنِ الأولىين؛ فإذا عرفه وصار له حالاً؛ فإنّه ينبغي له أن يفنى عنه، بأن يغلب عليه شهود من أقامه فيه؛ فينسبه إليه تعالى دون نفسه، ويفنى عن رؤية نفسه، وقيامها بالأدب بشهود الفضل لمن أقامها فيه ومثته، فهذا هو الفناء عن التَّأْدِبِ بتأديب الحقّ.

قوله: «ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ شُهُودِ أَعْبَاءِ الْأَدَبِ».

يعني: أنّه يفنى عن مشاهدة الأدب بالكليّة، لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيّبت عن الأدب، ففناؤه عن الأدب فيها هو الأدب حقيقة؛ فيستريح حينئذٍ من كلفة حمل أعباء الأدب وأثقاله؛ لأنّ استغراقه في شهود الحقيقة لم يبق عليه شيئاً من أعباء الأدب، والله ﷻ أعلم.

(١) لفظة (به): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (الكمال).

(٣) في «غ» والمنار: (بتأديب).

فصل [منزلة اليقين]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعَبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ منزلة اليقين.

وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى، ويقوله يهتدي المهتدون: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ يَا مَرْغَبًا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٤٦].

وخصَّ سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين؛ فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَ هُوَ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبِقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانيين عن التيمي عن خيشمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا ترضين أحدا بسخط الله، ولا تحمدن أحدا على فضل الله، ولا تدمن أحدا على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط» (١).

واليقين: قرين التوكل؛ ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٨] فالحق هو اليقين.

وقالت رسل الله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [ابراهيم: ١٢].

(١) سبق تخريج بعض هذا الحديث في (٢/٤٠٧).

ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلاً نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط، وهم وغم؛ فامتلاً محبةً لله، وخوفاً منه ورضاً به، وشكراً له، وتوكلًا عليه، وإنابةً إليه؛ فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واختلف^(١) فيه: هل هو كسبي، أو موهبي؟

ف قيل: هو العلم المستودع في القلوب، يشير إلى أنه غير كسبي.

وقال سهل: «اليقين من زيادة الإيمان». ولا ريب أن الإيمان كسبي.

والتحقيق: أنه كسبي باعتبار أسبابه، موهبي باعتبار نفسه وذاته.

قال سهل: «ابتدأؤه المكاشفة»، كما قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ثم

المُعَايَنَةُ وَالْمُسَاهَدَةُ».

وقال ابن خفيف: «هو تحقق الأشرار بأحكام المعيبات».

وقال أبو بكر بن طاهر: «العلم تعارضه الشكوك، واليقين لا شك فيه».

وعند القوم: اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون إلى غير الله.

وقال ذو النون: «اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث

الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب».

قال: «وثلاثة من أعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح لهم في العطية،

والتنزه عن ذمهم عند المنع، وثلاثة من أعلامه أيضاً: النظر إلى الله في كل شيء، والرجوع إليه في كل

أمر، والاستعانة به في كل حال».

وقال الجنيد: «اليقين: هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول، ولا يتغير في القلب».

وقال ابن عطاء: «على قدر قربهم من التقوى أدرکوا من اليقين».

وأصل التقوى: مباينة النهي، وهو مباينة النفس، فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين.

وقيل: اليقين هو المكاشفة، وهو على ثلاثة أوجه:

- مكاشفة في الأخبار، ومكاشفة بإظهار القدرة.

- ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان.

ومراد القوم بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث يصير نسبتته إليه كنسبة المرئي إلى العين؛

فلا يبقى معك شك ولا ريب أصلاً، وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان.

وقد يريدون بها أمراً آخر: وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة عند أوائل تجرد

(١) في «غ»: (واختلفوا).

الرُّوح عن البدن.

ومن أشار منهم إلى غير هذين؛ فقد غلط ولَبَس عليه.

وقال السريُّ: «الْيَقِينُ: سُكُونُكَ عِنْدَ جَوْلَانِ الْمَوَارِدِ فِي صَدْرِكَ، لِتَيَقُّنِكَ أَنْ حَرَكَتَكَ فِيهَا لَا تَنْفَعُكَ، وَلَا تَرُدُّ عَنْكَ مَقْضِيًّا».

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: «الْيَقِينُ مَلَكَ الْقَلْبِ، وَبِهِ كَمَالُ الْإِيمَانِ، وَبِالْيَقِينِ عُرِفَ اللَّهُ، بِالْعَقْلِ عُقْلَ عَنِ اللَّهِ».

وقال الجنيد: «قَدْ مَسَى رِجَالُ الْيَقِينِ عَلَى الْمَاءِ، وَمَاتَ بِالْعَطَشِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ يَقِينًا».

وقد اختلف في تفضيل اليقين على الحضور والحضور على اليقين.

ف قيل: الحضور أفضل؛ لأنه وطناً، واليقين خطراً.

وبعضهم رجَّح اليقين، وقال: هو غاية الإيمان، والأوَّل رأى أَنَّ اليقين ابتداء الحضور، فكأنه

جعل اليقين ابتداءً، والحضور دوامًا.

وهذا الخلاف لا يتبين؛ فإنَّ اليقين لا ينفكُّ عن الحضور، ولا الحضور عن اليقين، بل في اليقين

من زيادة الإيمان، ومعرفة تفاصيله وشعبه، وتنزيلها منازلها ما ليس في الحضور؛ فهو أكمل منه من هذا

الوجه، وفي الحضور من الجمعِيَّة، وعدم التفرقة، والدُّخول في الفناء ما قد ينفكُّ عنه اليقين، فاليقين

أخصُّ بالمعرفة، والحضور أخصُّ بالإرادة، والله أعلم.

وقال النهرجوريُّ: «إِذَا اسْتَكْمَلَ الْعَبْدُ حَقَائِقَ الْيَقِينِ صَارَ الْبَلَاءُ عِنْدَهُ نِعْمَةً وَالرَّخَاءُ عِنْدَهُ

مُصِيبَةً».

وقال أبو بكرٍ الورَّاق: «الْيَقِينُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: يَقِينُ خَيْرٍ، وَيَقِينُ دَلَالَةٍ، وَيَقِينُ مُسَاهَدَةٍ».

يريد بيقين الخير: سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثقه به، وبيقين الدلالة: ما هو فوقه، وهو

أن يقيم له - مع وثوقه بصدقه - الأدلة الدالة على ما أخبر به.

وهذا كعامة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن، فإنه سبحانه - مع كونه أصدق الصادقين - يقيم

لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صدق أخباره؛ فيحصل لهم اليقين من الوجهين من جهة الخبر،

ومن جهة الدليل.

فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة: وهي يقين المكاشفة بحيث يصير المخبر به لقلوبهم

كالمرئيِّ لعيونهم؛ فنسبة الإيمان بالغيب حينئذٍ إلى القلب كنسبة المرئيِّ إلى العين، وهذا أعلى أنواع

المكاشفة، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيسٍ في قوله: «لَوْ كُشِفَ الْغَطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِينًا» وليس

هذا من كلام رسول الله ﷺ، ولا من قول عليٍّ - كما يظنُّه من لا علم له بالمنقولات.

وقال بعضهم: «رَأَيْتَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَقِيقَةً، قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: رَأَيْتُهُمَا بَعِينِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ».

ورؤيتي لهما بعينه أثر عندي من رؤيتي لهما بعيني؛ فإن بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ». واليقين يحمله على الأهوال، وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتقدم دائماً؛ فإن لم يقارنه العلم حمل على المعاطب، والعلم يأمر بالتأخر والإحجام؛ فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم، والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رَضِيَ اللهُ: «الْيَقِينُ: مَرْكَبُ الْأَخْذِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، وَهُوَ غَايَةُ دَرَجَاتِ الْعَامَّةِ، وَقِيلَ: أَوَّلُ خُطْوَةٍ لِلْخَاصَّةِ».

لَمَّا كَانَ الْيَقِينُ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ السَّائِرَ إِلَى اللَّهِ - كَمَا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخِرَازِيُّ: «الْعِلْمُ مَا اسْتَعْمَلَكُ، وَالْيَقِينُ مَا حَمَلَكَ» - سَمَّاهُ: مَرْكَبًا يَرْكَبُهُ السَّائِرُ إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَوْلَا الْيَقِينُ مَا سَارَ رَكْبٌ إِلَى اللَّهِ، وَلَا ثَبَتَ لِأَحَدٍ قَدَمٌ فِي السُّلُوكِ إِلَّا بِهِ.

وإنما جعله آخر درجات العامة؛ لأنهم إليه ينتهون.

ثم حكى قول من قال: إنه أول خطوة للخاصة.

يعني: أنه ليس بمقام لهم، وإنما هو مبدأ لسلوكهم، فمنه يتبدئون سلوكهم وسيرهم؛ وهذا لأن الخاصة عنده سائرون إلى عين الجمع والفناء في شهود الحقيقة، لا تقف بهم دونها هممة، ولا يعرجون دونها على رسم؛ فكل ما دونها فهو عندهم من مشاهد العامة ومنازلهم ومقاماتهم حتى المحبة. وحسبك بجعل اليقين نهاية للعامة وبداية لهم.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: عِلْمُ الْيَقِينِ، وَهُوَ قَبُولُ مَا ظَهَرَ مِنَ الْحَقِّ، وَقَبُولُ مَا غَابَ لِلْحَقِّ، وَالْوُقُوفُ عَلَى مَا قَامَ بِالْحَقِّ».

ذكر الشيخ^(١) في هذه الدرجة ثلاثة أشياء، هي متعلق اليقين وأركانها.

﴿الأولى﴾: قبول ما ظهر من الحق تعالى؛ والذي ظهر منه سبحانه وأمره ونواهيه وشرعه، ودينه الذي ظهر لنا منه على السنة رسله، فتلقاه بالقبول والانقياد، والإذعان والتسليم للربوبية، والدخول تحت رقب العبودية.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

﴿التَّائِي: «قَبُولُ مَا غَابَ لِلْحَقِّ»: وهو الإيمان بالغيب الَّذِي أخبر به الْحَقُّ سبحانه على لسان رسله من أمور المعاد وتفصيله، والجنَّة والنَّار، وما قبل ذلك من الصُّراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تشقُّق السَّماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وطَيِّ العالم، وما قبل ذلك من أمور البرزخ ونعيمه وعذابه.

فقبول هذا كَلِّه إيماناً وتصديقاً وإيقاناً هو اليقين؛ بحيث لا يخالغ القلب فيه شبهةً، ولا شكٌ (١) ولا تناسٍ، ولا غفلةً عنه؛ فإنَّه إن لم يهلك يقينه أفسده وأضعفه.

﴿الثَّالِث: الوقوف على ما قام بِالْحَقِّ: سبحانه من أسمائه وصفاته وأفعاله. وهو علم التَّوْحِيد، الَّذِي أساسه: إثبات الأسماء والصفات، وضدُّه: التَّعْطِيل والنَّفْي والتَّجْهِم، فهذا التَّوْحِيد يقابله التَّعْطِيل.

وأما التَّوْحِيد القصدِيُّ الإرادِيُّ، الَّذِي هو إخلاص العمل لله، وعبادته وحده فيقابله الشُّرْك، والتَّعْطِيل شرٌّ من الشُّرْك، فإنَّ المعطلَّ جاحدٌ للذَّات أو لكمالها، وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية؛ فإنَّ ذاتاً لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلَّم ولا ترضى، ولا تغضب، ولا تفعل شيئاً، وليست داخل العالم ولا خارجه، ولا متَّصلةً بالعالم ولا منفصلةً، ولا مجانبةً له، ولا مباينةً له، ولا مجاورةً ولا مجاوزةً، ولا فوق العرش، ولا تحت العرش، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن يمينه ولا عن يساره، سواءً هي (٢) والعدم. والمشرك مقررٌ بالله وصفاته، لكن عبد معه غيره، فهو خيرٌ من المعطلَّ للذَّات والصفات.

فاليقين: هو الوقوف على ما قام بِالْحَقِّ من أسمائه وصفاته، ونعوت كماله، وتوحيده، وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق: علم الأمر والنهي، وعلم الأسماء والصفات والتَّوْحِيد، وعلم المعاد واليوم الآخر، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: عَيْنُ الْيَقِينِ، وَهُوَ الْمُغْنِي بِالِاسْتِدْلَالِ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ، وَعَيْنُ الْخَبَرِ بِالْعِيَانِ، وَخَرَقُ الشُّهُودِ حِجَابَ الْعِلْمِ».

الفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان، وحقُّ اليقين فوق هذا. وقد مثلت المراتب الثلاثة: بمن أخبرك أنَّ عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صدقه، ثمَّ أراك إيَّاه

(١) في «غ» والمنار: (ولا شك ولا ريب).

(٢) كلمة (هي): ساقطة «غ» والمنار.

فازددت يقينًا، ثم ذقت منه.

فالأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

فعلنا الآن بالجنة والنار علم يقين؛ فإذا أزلت الجنة في الموقف للمتقين^(١) وشاهدها الخلائق، وبرزت الجحيم للغاوين^(٢) وعابنها الخلائق؛ فذلك عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار؛ فذلك حينئذ حق اليقين.

قوله: «هُوَ الْمُغْنِي بِالِاسْتِدْلَالِ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ».

يريد بالاستدلال: الإدراك والشهود؛ يعني: صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل؛ فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول؛ فإذا كان المدلول مشاهدًا له، وقد أدركه بكشفه؛ فأى حاجة به إلى الاستدلال؟

وهذا معنى: «الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْخَبَرِ بِالْعِيَانِ».

وأما قوله: «وَخَرَقَ الشُّهُودَ حِجَابَ الْعِلْمِ».

فيريد به: أن المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة هي من الشهود الخارق لحجاب العلم؛ فإن العلم حجاب عن الشهود، ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب، ويفضي إلى المعلوم، بحيث يكافح بصيرته وقلبه مكافحةً.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: حَقُّ الْيَقِينِ، وَهُوَ إِسْفَارُ صُبْحِ الْكَشْفِ، ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ

كُلْفَةِ الْيَقِينِ، ثُمَّ الْفَنَاءُ فِي حَقِّ الْيَقِينِ».

اعلم أن هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالم إلا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينه الجنة والنار، وموسى ﷺ سمع كلام الله منه إليه بلا واسطة، وكلمه تكليمًا، وتجلّى للجبل وموسى ينظر فجعله دكًا هشيماً.

نعم؛ يحصل لنا حق اليقين من مرتبة، وهي ذوق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان، المتعلقة بالقلوب وأعمالها؛ فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقه حق يقين، وأما في أمور

(١) كلمة (للمتقين) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة (للباغوين) غير موجودة في «غ» والمنار.

الآخرة والمعاد، ورؤية الله جهرَةً عياناً، وسماع كلامه حقيقةً بلا واسطةٍ؛ فحظُّ المؤمن منه في هذه الدار الإيمان وعلم اليقين، وحقُّ اليقين يتأخر إلى وقت اللقاء.

ولكن لما كان السالك عنده ينتهي إلى الفناء، ويتحقق شهود الحقيقة، ويصل إلى عين الجمع، قال: «حَقُّ اليقين: هُوَ إسْفَارُ صُبْحِ الكَشْفِ».

يعني: تحقُّقه وثبوته وغلبة نوره على ظلمة ليل الحجاب؛ فينتقل من طور العلم إلى الاستغراق في الشهود بالفناء عن الرِّسْم بالكلية.

وقوله: «ثُمَّ الْخَلَاصُ مِنْ كُلْفَةِ اليقين».

يعني: أنَّ اليقين له حقوقٌ يجب على صاحبه أن يؤديها ويقوم بها، ويتحمَّل كُلفها ومشاقها؛ فإذا فني في التوحيد حصل له أمورٌ أخرى رفيعةٌ عاليةٌ جداً، يصير فيها محمولاً بعد أن كان حاملاً، وطائراً بعد أن كان سائراً، فتزول^(١) عنه كلفة حمل تلك الحقوق، بل يبقى له كالتنفس، وكالماء للسمك، وهذا أمرٌ التَّحَاكُم فيه إلى الذوق والإحساس^(٢)؛ فلا تسرع إلى إنكاره.

وتأمَّل حال ذلك الصَّحابيِّ^(٣) الَّذِي أخذ تمراته، وقعد يأكلها على حاجةٍ وجوعٍ وفاقةٍ إليها؛ فلَمَّا عاين سوق الشَّهادة قامت ألقى قوته من يده، وقال: «إِنَّهَا لِحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، إِنْ بَقِيَتْ حَتَّى أَكُلَ هَذِهِ التَّمْرَاتِ». وألقاها من يده، وقاتل حَتَّى قتل، وكذلك أحوال الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كانت مطابقةً لما أشار إليه.

لكن بقيت نكتةٌ عظيمةٌ، وهي موضع السَّجدة: وهي أنَّ فناءهم لم يكن في توحيد الرُّبوبيَّة، وشهود الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء بل في توحيد الإلهية؛ فنفوا بحبه تعالى عن حبِّ ما سواه، وبمراده منهم عن مرادهم وحظوظهم؛ فلم يكونوا عاملين على فناءٍ ولا استغراقٍ في الشُّهود؛ بحيث يفنون به عن مراد محبوبهم منهم، بل قد فنوا بمراده عن مرادهم، فهم أهل بقاءٍ في فناءٍ، وفرقٍ في جمعٍ، وكثرةٍ في وحدةٍ، وحقيقةٍ كونيةٍ في حقيقةٍ دينيةٍ.

هُمُ الْقَوْمُ لَا قَوْمَ إِلَّا هُمْ وَلَوْلَاهُمْ مَا اهْتَدَيْنَا السَّبِيلَا

(١) في «غ» والمنار: (فيزول).

(٢) بشرط أن يكون خاضعاً كل الخضوع لهدي رسول الله ﷺ، وجارياً على هدي رسالته متحريراً الاقتداء به وبأصحابه على علم وبصيرة، وليس كل ذوق وإحساس، فما وقع من وقع في الهاوية إلا بتحكيم الذوق والإحساس. (الفقي).

(٣) هو عمير بن الحمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث أخرجه البخاري في المغازي، باب: غزوة أحد، ومسلم في «الإمارة»: باب ثبوت الجنة للشهيد (١٨٩٩).

فنسبة أحوال من بعدهم الصحيحة الكاملة إلى أحوالهم كنسبة ما يرشح من الظرف والقربة إلى ما في داخلها، وأما الطريق المنحرفة الفاسدة؛ فسيبيل غير سبيلهم، والفضل بيد الله يؤتبه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل

[منزلة الأنس بالله]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الأنس بالله.

□ قال صاحب «المنازل» رَحِمَهُ اللهُ: «وَهُوَ رُوحُ الْقُرْبِ».

ولهذا صدر منزلته بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف يوجب قربه من الرَّبِّ ﷻ، وقربه منه يوجب له الأنس، والأنس ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس، وكل عاصٍ مستوحش، كما قيل:

فَإِن كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الذُّنُوبُ
بُ فَادْعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسْ

والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة.

□ قال صاحب «المنازل» رَحِمَهُ اللهُ:

«وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْأُنْسُ بِالشَّوَاهِدِ: وَهُوَ اسْتِحْلَاءُ الذِّكْرِ، وَالتَّغْيِي بِالسَّمَاعِ،

وَالْوُقُوفُ عَلَى الْإِشَارَاتِ».

هذه اللفظة يجرونها في كلامهم - أعني لفظة: الشواهد - ومرادهم بها أمران:

- أحدهما: الحقيقة: وهي ما يقوم بقلب العبد، حتى كأنه يشاهده ويبصره لغلبته عليه؛ فكل ما

يستولي على قلب صاحبه ذكره فإنه شاهده؛ فمنهم من يكون (١) شاهده العمل، ومنهم من يكون (٢)

(١) كلمة (يكون) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

شاهده الذّكر، ومنهم من يكون شاهده المحبّة - ومنهم من يكون شاهده الخوف؛ فالمرید يأنس بشاهده، ويستوحش لفقده.

- والثّاني: شاهد الحال: وهو الأثر الذي يقوم به، ويظهر عليه من عمله وسلوكه وحاله، فإنّ شاهده لا بدّ أن يظهر عليه.

ومراد صاحب «المَنَازِل»: الشّاهد الأوّل الذي يأنس به المرید، وهو الحامل له على استحلاء الذّكر، طلباً لظفره بحصول المذكور؛ فهو يستأنس بالذّكر طلباً لاستثناسه بالمذكور، ويتغذّى بالسّماع كما يتغذّى الجسم بالطّعام والشّراب.

فإن كان محبّاً صادقاً، طالباً لله، عاملاً على مرضاته كان غذاؤه بالسّماع القرآنيّ، الذي كان غذاء سادات العارفين من هذه الأئمّة، وأبرّها قلوباً، وأصحّها أحوالاً، وهم الصّحابة رضي الله عنهم. وإن كان منحرفاً فاسد الحال، ملبوساً عليه، مغروراً مخدوعاً كان غذاؤه بالسّماع الشّيطانيّ، الذي هو قرآن الشّيطان، المشتتمل على محابّ النفوس، ولذّتها وحظوظها وأصحابه أبعده الخلق من الله، وأغلظهم عنه حجاباً وإن كثرت إشاراتهم إليه.

وهذا السّماع القرآنيّ سماع أهل المعرفة بالله، والاستقامة على صراطه المستقيم^(١)، ويحصل للأذهان الصّافية من معانٍ وإشاراتٍ، ومعارفٍ وعلومٍ، تتغذّى بها القلوب المشرقة بنور الأنس، فيجد بها ولها لذّة روحانيّة، يصل نعيمها إلى القلوب والأرواح، وربّما فاض حتّى وصل إلى الأجسام، فيجد من اللذّة ما لم يعهد مثله من اللذّات الحسيّة.

وللتغذّي بالسّماع سرٌّ لطيفٌ، نذكره لئلاّ يظنّ موضعه. وهو الذي أوقع كثيراً من السّالّكين في إيثار سماع الأبيات، لما رأى فيه من غذاء القلب وقوّته ونعيمه، فلو جتته بألف آية وألف خبر لما أعطاك شطراً من إصغائه، وكان ذلك عنده أعظم من الطّواهر التي يعارض بها الفلاسفة وأرباب الكلام.

اعلم أنّ الله تعالى جعل للقلوب نوعين من الغذاء:

- نوعاً من الطّعام والشّراب الحسيّ، وللقلب منه خلاصته وصفوه، ولكلّ عضوٍ منه بحسب استعداده وقبوله.

- والثّاني: غذاءٌ روحانيٌّ معنويٌّ، خارجٌ عن الطّعام والشّراب من السّرور والفرح، والابتهاج واللذّة، والعلوم والمعارف، وبهذا الغذاء كان سماوياً علويّاً، وبالغذاء المشترك كان أرضياً سفليّاً، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباطٌ بكلّ واحدةٍ من الحواسّ الخمس، وغذاءٌ يصل إليه منها.

(١) كلمة (على صراطه المستقيم) غير موجودة في «غ» والمنار.

فله ارتباطٌ بحاسة اللمس، ويصل إليه منها غذاءٌ، وكذلك حاسة الشمِّ، وكذلك حاسة الذوق، وكذلك ارتباطه بحاستي السَّمع والبصر أشدُّ من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل وأقوى من سائر الحواسِّ، وانفعاله عنهما أشدُّ من انفعاله عن غيرهما؛ ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يقرن إلا بهما، أو بإحدهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى في صفة الكفار: ﴿ ضُمُّ بَيْكُمُ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَقُولُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].
وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وهذا كثيرٌ جدًا في القرآن؛ لأنَّ تأثره بما يراه ويسمعه أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمُّه؛ ولأنَّ هذه الثلاثة هي طرق العلم، وهي السَّمع والبصر والعقل.

وتعلُّق القلب بالسَّمع وارتباطه به أشدُّ من تعلُّقه بالبصر وارتباطه به؛ ولهذا يتأثر بما يسمعه من الملهذوات أعظم ممَّا يتأثر بما يراه من المستحسنات، وكذلك في المكروهات سماعًا ورؤيةً؛ ولهذا كان الصَّحيح من القولين: أنَّ حاسة السَّمع أفضل من حاسة البصر لشدة تعلُّقها بالقلب، وعظم حاجته إليها، وتوقُّف كماله عليها، ووصول العلوم إليه بها، وتوقُّف الهدى على سلامتها.

ورجَّحت طائفةٌ حاسة البصر لكمال مدرَكها، وامتناع الكذب فيه، وزوال الرِّيب والشكِّ به؛ ولأنَّ عين اليقين، وغاية مدرَك حاسة السَّمع علم اليقين، وعين اليقين أفضل، وأكمل من علم اليقين؛ ولأنَّ متعلِّقها رؤية وجه الرَّبِّ ﷻ في دار النعيم، ولا شيء أعلى وأجلُّ من هذا التعلُّق.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بين الطائفتين حكمًا حسنًا؛ فقال: «المُدْرِكُ بِحَاسَةِ السَّمْعِ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ، وَالْمُدْرِكُ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ، فَلِلْسَّمْعِ الْعُمُومُ وَالشُّمُولُ، وَالْإِحَاطَةُ بِالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ، وَالْحَاضِرِ وَالْغَائِبِ، وَالْحِسِّيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، وَلِلْبَصَرِ التَّمَامُ وَالْكَمَالُ».

وإذا عرف هذا؛ فهذه الحواسُّ الخمس لها أشباحٌ وأرواحٌ، وأرواحها حظُّ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس: من ليس لقلبه منها نصيبٌ إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها، وبينه وبينها أول درجة الإنسانيّة؛ ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل جعلهم أضلّ؛ فقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول؛ إمّا لعدم انتفاعهم بها، فنزلت منزلة المعدوم، وإمّا لأنّ النفي توجه إلى أسمع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنّهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة، ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالخاصة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: أنّ الضمير عائد على الأصنام، ثمّ فيه قولان:

- أحدهما: أنّه على التشبيه؛ أي: كأنّهم ينظرون إليك، ولا أبحار لهم يرونك بها.

- والثاني: المراد به المقابلة، تقول العرب: داري تنظر دارك؛ أي: تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم، وبه قامت الحجّة عليهم، ومنتفٍ عنهم، وهو سمع القلب، فإنّهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسيّ المشترك، كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاءً ونداءً، ولم يسمعه بالروح الحقيقيّ، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشؤها من السمع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقيّ مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم؛ فإنّ بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتمّ قوته وحياته، وسروره ونعيمه، وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاءٍ قبيحٍ خبيث، وإذا فسد غذاؤه خبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

فلمّا كان تعلق السمع الظاهر الحسيّ بالقلب أشدّ، والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه؛ ولذلك يؤدّي آثار ما يتعلّق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع ممّا يؤدّي إليه آثار البصر الظاهر؛ ولهذا ربّما غشي على الإنسان إذا سمع كلامًا يسره أو يسوءه، أو صوتًا لذيذًا طيبًا مطربًا مناسبًا، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر.

وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب، ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت؛ فإذا حصل له نوع تجرّد ورياضة ظهرت قوّة ذلك التأثير والتأثر.

فكلّمًا تجرّدت الروح والقلب، وانقطعتا عن علائق البدن، كان حظّهما من ذلك السمع أوفى،

وتأثرهما به أقوى.

فإن كان المسموع معني شريفاً بصوتٍ لذيذٍ حصل للقلب حظُّه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتمَّ ابتهاجٍ على حسب إدراكه له، وللرُوح حظُّها ونصيبها من لذة الصَّوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به، فتضاعف اللذة، ويتمُّ الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتَّى ربَّما فاض على البدن والجوارح، وعلى الجليس.

وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم، ولا يحصل إلاَّ عند سماع كلام الله، فإذا تجرَّدت الرُّوح وكانت مستعدَّة، وباشر القلب رُوح المعنى، وأقبل بكلِّيته على المسموع، فألقى السَّمع وهو شهيدٌ، وساعده طيب صوت القارئ كاد القلب يفارق هذا العالم، ويلج عالمًا آخر، ويجد له لذةً وحالةً لا يعهدها في شيءٍ غيره ألبتَّة، وذلك رقيقةٌ من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاءٍ ما أصلحه وما أنفعه!

وحرامٌ على قلبٍ قد تربَّى على غذاء السَّماع الشَّيطانيِّ أن يجد شيئاً من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة، فهو من قِبَل الصَّوت المشترك، لا من قبل المعنى الخاصِّ.

وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم (١) ﷺ عياناً، وسماع كلامه منه. وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في «كِتَابِ السُّنَّةِ» أثرًا - لا يحضرني الآن هل هو موقوفٌ أو مرفوعٌ: «إِذَا سَمِعَ النَّاسُ الْقُرْآنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﷻ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ» (٢).

وإذا امتلأ القلب بشيءٍ، وارتفعت المباينة الشديدة بين الظاهر والباطن أدَّت الأذن إلى القلب من المسموع ما يناسبه، وإن لم يدلَّ عليه ذلك المسموع، ولا قصده المتكلِّم، ولا يختصُّ ذلك بالكلام الدالُّ على معني، بل قد يقع في الأصوات المجرَّدة.

قال القشيريُّ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ السُّلَمِيَّ يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَثْمَانَ الْمَغْرِبِيِّ وَرَجُلٌ يَسْتَقِي الْمَاءَ مِنَ الْبَيْرِ عَلَى بَكَرَةٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَتَدْرِي إِيشُ تَقُولُ هَذِهِ الْبَكَرَةُ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ تَقُولُ: اللَّهُ اللَّهُ».

ومثل ذلك كثيرٌ، كما سمع أبو سليمان الدمشقيُّ من المنادي: «يَا سَعْتَرُ بَرِّي: اسْعَ تَرِ بَرِّي» (٣).

(١) في «ع» والمنار: (وجه محبوبهم).

(٢) هو موقوف على محمد بن كعب القرظي كتاب «السنة» (ص ٢٨).

(٣) هذا خيال يتخيله الأطفال، وبسطاء العقول، أما المؤمنون الفقهاء الحكماء الراشدون فإنهم يسمعون كل مسموع على طبيعته وخلقته الذي خلقه الله الذي ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ ويؤمنون بأنه بحرته وصوته يسبح الله الذي خلقه حقًا لا باطلاً. (الفتي).

تعليق: ما قاله الشيخ (الفتي) رحمه الله تعالى معترضًا يثول إلى ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض

وهذا السَّماعُ الرُّوحانيُّ تبعُ لحقيقة القلب وما دَّته منه، فالإِتِّحادُ به يظنُّ به السَّماعُ أنَّه أدرك ذلك المعنى لا محالة من الصَّوت الخارجيّ، وسبب ذلك اتِّحاد السَّمع بالقلب.

وأكمل السَّماع: سماع من يسمع بالله ما هو مسموعٌ من الله وهو كلامه، وهو سماع المحبِّين المحبوبين، كما في الحديث الَّذي في «صحيح البخاريِّ» عن رسول الله ﷺ - فيما يروي عن ربِّه تبارك وتعالى - أنَّه قال: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا؛ فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي» (١).

والقلب يتأثر بالسَّماع بحسب ما فيه من المحبَّة، فإذا امتلأ من محبَّة الله وسمع كلام محبوبه؛ أي: بمصاحبته وحضوره في قلبه، فله من سماعه هذا شأنٌ، ولغيره شأنٌ آخر، والله أعلم.

فصل

والثاني على ثلاثة أقسام:

- أحدها: من اتَّصف قلبه بصفات نفسه؛ بحيث صار قلبه نفسًا محضةً، فغلبت عليه آفات الشَّهوات، ودعوات الهوى، فهذا حظُّه من السَّماع كحظِّ البهائم، لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، والفرق الَّذي (٢) بينها وبينه غير طائل.

- القسم الثاني: من اتَّصفت نفسه بصفات قلبه، فصارت نفسه قلبًا محضًا؛ فغلبت عليه المعرفة والمحبَّة، والعقل واللُّبُّ، وعشقت صفات الكمال، فاستنارت نفسه بنور القلب، واطمأنت إلى ربِّها، وقرَّت عينها بعبوديته، وصار نعيمها في حبِّه وقربه، فهذا حظُّه من السَّماع مثل أو قريبٌ من حظِّ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرَّة عينه ونعيمه من الدُّنيا، ورياضه الَّتِي يسرح فيها، وحياته الَّتِي بها قوامه، وإلى هذا المعنى قصد أرباب سماع القصائد والأبيات، ولكن أخطئوا الطَّرِيق وأخذوا

الصالحين المتفكرين فيما يرون ويسمعون فيدركون بأبصارهم وأسماعهم ما يدركه غيرهم مما يرى ويسمع، ويدركون بإيمانهم وتفكيرهم ما في ذلك من الدلالات على تعظيم الله وتسيحته؛ فيذكرون الله عند مشهوداتهم ومسموعاتهم.

(١) سبق تخريجه (٣٦/٢).

(٢) كلمة (الذي): ساقطة من «غ».

عن الدرب شمالاً ووراء.

- القسم الثالث: من له منزلة بين منزلتين^(١)، وقلبه باقٍ على فطرته الأولى، ولكن ما تصرف في نفسه تصرفاً أحالها إليه، وأزال به رسومها، وجألاً عنه ظلمتها، ولا قويت النفس على القلب بإحالتة إليها، وتصرفت فيه تصرفاً أزال عنه نوره وصحته وفطرته.

فبين القلب والنفس مُنازلاتٌ ووقائعٌ، والحرب بينهما دُولٌ وسجالٌ، تَدالُّ النفس عليه تارةً، ويدالُّ عليها تارةً.

فهذا حظُّه من السَّماعِ حظٌّ بين الحظَّين، ونصيبه منه بين النَّصيبين، فإن صادفه وقت دولة القلب كان حظُّه منه قويًّا، وإن صادفه وقت دولة النفس كان ضعيفًا.

ومن هاهنا يقع التَّفاوت في الفقه عن الله، والفهم عنه، والابتهاج والتَّعظيم بسماع كلامه. وصاحب هذه الحال - في حال سماعه - يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة، ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه حتَّى تضع الحرب أوزارها، وربَّما صادفه في حال السَّماعِ واردٌ حقٌّ، أو الظَّفَرُ بمعنَى بديع لا يقدر فكره على صيده كلَّ وقتٍ؛ فيغيب به ويستغرق فيه عمَّا يأتي بعده؛ فيعجز عن صيد تلك المعاني، ويدهشه ازدحامها، فيبقى قلبه باهتًا.

كما يحكى أن بعض العرب: أرسل صائدًا له على صيِّدٍ، فخرج الصَّيِّد عليه من أمامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، فوقف باهتًا ينظر يمينًا وشمالًا، ولم يصطد شيئًا؛ فقال:

تَكَاتَرَتْ^(٢) الظُّبَاءُ عَلَيَّ خِرَاشٍ فَمَا يَدْرِي خِرَاشٌ مَّا يَصِيدُ

فوظيفته في مثل هذا الحال أن يفنى عن وارده، ويعلِّق قلبه بالمتكلِّم، وكأنَّه يسمع كلامه منه، ويجعل قلبه نهرًا لجريان معانيه، ويفرغه من سوى فهم المراد، وينصبُّ إليه انصبابًا، يتلقَّى فيه معانيه^(٣) كتلقِّي المحبِّ للأحباب القادمين عليه، لا يشغله حبيبٌ منهم عن حبيبٍ، بل يعطي كلَّ قادمٍ حقَّه، وكتلقِّي الصُّيُوفِ والزُّوَارِ، وهذا إنَّما يكون مع سعة القلب، وقوَّة الاستعداد، وكمال الحضور.

فإذا سمع خطاب التَّريغيب والتَّشويق، واللُّطف والإحسان لا يفنى به عمَّا يجيء بعده من خطاب التَّخويف والتَّرهيب والعدل، بل يسمع الخطاب الثَّاني مستصحبًا لحكم الخطاب الأوَّل، ويمزج هذا بهذا، ويسير بهما ومعهما جميعًا، عاكفًا بقلبه على المتكلِّم وصفاته سبحانه.

(١) والمنار: (من له منزلتين).

(٢) في «غ»: (تفرقت).

(٣) كلمة (معانيته) غير موجودة في «غ».

وهذا سيرٌ في الله، وهو نوعٌ آخر أعلى وأرفع من مجرد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه، بل يدرج سيره، فإنَّ سير القلب في معاني أسمائه وصفاته وتوحيده ومعرفته.
ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكةٌ، واشتدَّ تعلقه به لم تحجبه معاني المسموع، وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك، وفي التوسُّط يهون عليه، ولا انتهاء هاهنا ألبتة، والله المستعان.

فهذه كلماتٌ تشير إلى معاني سماع أهل المعرفة والإيمان، والأحوال المستقيمة.
وأما السَّماع الشَّيطانيُّ: فبالضدِّ من ذلك، وهو مشتملٌ على أكثر من مائة مفسدةٍ، ولولا خوف الإطالة لسقناها مفصلةً.

وسنفرد لها مصنفاً^(١) مستقلاً إن شاء الله.

فهذا ما يتعلَّق بقوله: «إِنَّ مِنَ الْأَنْسِ بِالشَّوَاهِدِ التَّغْدِيَّ بِالسَّمَاعِ».
وقوله: «وَالْوُقُوفُ عَلَى الْإِشَارَاتِ».

الإشارات: هي المعاني التي تشير إلى الحقيقة من بُعدٍ، ومن وراء حجابٍ، وهي تارة تكون من مسموعٍ، وتارة تكون من مرئيٍّ، وتارة تكون من معقولٍ، وقد تكون من الحواسِّ كلها.
فالإشارات من جنس الأدلَّة والأعلام، وسببها: صفاءٌ يحصل بالجمعية، فيلطف به الحسُّ والذهن؛ فيستيقظ لإدراك أمورٍ لطيفةٍ، لا^(٢) يكشف حسُّ غيره وفهمه عن إدراكها.
وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «الصَّحِيحُ مِنْهَا: مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ بِإِشَارَتِهِ مِنْ بَابِ قِيَاسِ الْأُولَى».

قلت: مثاله قوله تعالى: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الواقعة: ٧٩].

قال: «وَالصَّحِيحُ فِي الْآيَةِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الصُّحْفُ النَّبِيُّ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ؛ لَوْجُوهُ عَدِيدَةٍ».
- منها: أنه وصفه بأنه مكنونٌ والمكنون: المستور عن العيون، وهذا إنما هو في الصُّحْفِ النَّبِيِّ بأيدي الملائكة.

- ومنها: أنه قال: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الواقعة: ٧٩] وهم الملائكة، ولو أراد المتوضئين

لقال: لا يمسُّه إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].
فالملائكة مطهرون، والمؤمنون متطهرون.

(١) في «غ»: (مفصلاً).

(٢) (لا) النافية ساقطة من «غ» والمنار.

- ومنها: أن هذا إخبارٌ، ولو كان نهيًا لقال: لا يمسسه^(١) بالجزم، والأصل في الخبر: أن يكون خبراً صورةً ومعنى.

- ومنها: أن هذا ردُّ على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالى أنه في كتابٍ مكنونٍ لا تناله الشياطين، ولا وصول لها إليه، كما قال تعالى في آية الشعراء: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾^(١٦) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٦﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وإنما تناله الأرواح المطهَّرة، وهم الملائكة.

- ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾^(١٧) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٧﴾ مَرْفُوعَةً مُّطَهَّرَةً ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس: ١٢ - ١٦].

قال مالك في «موطئه»: «أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(١٨) [الواقعة: ٧٩] أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس».

- ومنها: أن الآية مكِّيَّة من سورة مكِّيَّة، تتضمن تقرير التوحيد والثبوت والمعاد، وإثبات الصانع، والردُّ على الكفار، وهذا المعنى أليق بالمقصود^(٢) من فرع عملي، وهو حكم مس المحدث المصحف.

- ومنها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي النَّاس لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة؛ إذ من المعلوم^(٣) أن كل كلامٍ فهو قابلٌ لأن يكون في كتابٍ حقاً أو باطلاً، بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتابٍ مصونٍ، مستورٍ عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطانٌ، ولا ينال منه، ولا يمسُّه إلا الأرواح الطاهرة الزكيَّة، فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «لكن تدلُّ الآية بإشارتها على أنه لا يمسُّ المصحف إلا طاهرٌ؛ لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسُّها إلا المطهَّرون، لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى^(٤) ألا يمسها إلا طاهرٌ».

وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة»^(٥): «إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله ﷻ، ومحبتة وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلبٍ ممتليءٍ بكلاب الشهوات وصورها؟!». فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

(١) في «غ» والمنار: (يمسه).

(٢) في «غ» والمنار: (إلى المقصود).

(٣) في «غ» والمنار: (ومن المعلوم).

(٤) في «غ» والمنار: (ينبغي).

(٥) رواه البخاري في «اللباس»، باب: التصاوير (٥٩٤٩)، ومسلم في «اللباس»، باب: تحريم صورة الحيوان (٢١٠٦).

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطاً في صحّة الصلّاة والاعتداد بها، فإذا أخلّ بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجسًا، ولم يطهره صاحبه؟ فكيف يعتدُّ له بصلاته، وإن أسقطت القضاء؟ وهل طهارة الظاهر إلّا تكميلٌ لطهارة الباطن؟! ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلّاة شرطٌ لصحّتها، وهي بيت الرّب، فتوجّه المصلّي إليها ببدنه وقالبه شرطٌ، فكيف تصحّ صلاة من لم يتوجّه بقلبه إلى ربّ القبلة والبدن؟! بل وجّه بدنه إلى البيت، ووجّه قلبه إلى غير ربّ البيت! وأمثال ذلك من الإشارات الصّحيحة التي لا تُنال إلّا بصفاء الباطن، وصحّة البصيرة، وحسن التأمل، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الْأُنْسُ بِنُورِ الْكُشْفِ، وَهُوَ أَنْسٌ شَاخِصٌ عَنِ الْأُنْسِ الْأَوَّلِ، تَشْوِبُهُ صَوْلَةُ الْهَيْمَانَ وَيَضْرِبُهُ مَوْجُ الْفَنَاءِ، وَهُوَ الَّذِي غَلَبَ قَوْمًا عَلَى عُقُولِهِمْ وَسَلَبَ قَوْمًا طَاقَةَ الْإِصْطِبَارِ، وَحَلَّ عَنْهُمْ قَيْدَ الْعِلْمِ، وَفِي هَذَا وَرَدَ الْخَبْرُ بِهَذَا الدُّعَاءِ: «أَسْأَلُكَ شَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١).

يجوز أن تكون الباء في قوله: «بِنُورِ الْكُشْفِ» باء السببية، أو باء الإلصاق.

فإن كانت باء السببية كان المعنى: الأنس الحاصل بسبب نور الكشف.

وإن كانت باء الإلصاق كان المعنى: الأنس المتلبس بنور الكشف.

فإن قلت: ما الفرق بين الأنس، ونور الكشف، حتّى يكون أحدهما سببًا للآخر، أو متلبسًا به؟ قلت: الفرق بينهما: أن نور الكشف من باب المعارف وانكشاف الحقيقة للقلب، وأمّا الأنس فمن باب القرب والدنو، والسكون إلى من يأنس به، والطمأنينة إليه، فضدّه الوحشة، وضدّ نور الكشف ظلمة الحجاب.

وقوله: «شَاخِصٌ عَنِ الْأُنْسِ الْأَوَّلِ». أي: مرتفعٌ عنه وأعلى منه.

قوله: «تَشْوِبُهُ صَوْلَةُ الْهَيْمَانَ». وذلك لأنّ هذا الأنس المذكور يكون مبدؤه الكشف عن أسماء الصفات التي يحصل عنها الأنس ويتعلّق بها، كاسم الجميل، والبرّ، واللّطيف، والودود، والحليم، والرّحيم

(١) سبق تخريجه (٢/٤٩٢).

ونحوها، ثم يقوى التعلُّقُ بها إلى أن يستغرق العقل، فيمازجه نوعٌ من الأسماء، فيقهر العقل بصولته. والهيمنان: هو الحركة إلى كلِّ جهةٍ بسبب الحيرة والدَّهْشَة، وذلك إنَّما يكون مع نوع عدم تمييز، وقوَّة إرادةٍ قاهرةٍ، لا يملك صاحبها ضبطها.

وقوله: «وَيَضْرِبُهُ مَوْجُ الْفَنَاءِ».

أي: إنَّ صاحب هذا الأنس يطالع مبادئ الفناء محيطةً به، فهي تقلِّبه كما يقلب الموج الغريق، وهذا قبل استيلاء سلطان الفناء على وجوده.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي عَلَبَ قَوْمًا عَلَىٰ عُقُولِهِمْ».

أي: سلبهم إيَّها؛ لأنَّهم شاهدوا شيئاً فوق مدارك العقول^(١)، وفوق كلِّ مدركٍ بالحواسِّ الظَّاهرة والباطنة، ولا إلف لهم به، فأوجبت قوَّة المشاهدة والوارد، وضعف المحلِّ والحامل غلبته على العقل، والكامل من القوم يثبت لذلك ولا يتحرَّك، بل يبقى كأنَّه جبلٌ.

وتلا الجنيد^(٢) في مثل هذه الحال - وقد قيل له: «أَمَا يُعَيِّرُكَ مَا تَسْمَعُ؟ فَتَلَا: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]».

وبعضهم تلا في مثل ذلك: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنُفُكَاتًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾

[الكهف: ١٨].

وقومٌ أقوى تمكيناً من هؤلاء لم يغلبهم على عقولهم، بل سلبهم طاقة صبرهم، فبدا منهم ما ينافي الصَّبْرَ.

وأما قوله: «وَحَلَّ عَنْهُمْ قِيُودَ الْعِلْمِ».

فكلامٌ لا بدَّ من تأويله، وتكلف وجهٍ يصحَّحه.

وأحسن ما يحمل عليه: أنَّ العلم يقيّد صاحبه، والمعرفة تطلقه، وتوسِّع بطانه وتريه حقائق الأشياء، فتزول عنه التقيُّدات التي كانت حاصلةً بسبب خفاء نور المعرفة وكشفها عليه.

فإنَّ العارف صاحب ضياء الكشف أوسع بطاناً وقلباً، وأعظم إطلاقاً بلا شكٍّ من صاحب العلم، ونسبته إليه كنسبة صاحب العلم إلى الجاهل، فكما أنَّ العالم أوسع بطاناً من الجاهل، وله إطلاقٌ بحسب علمه، فالعارف بما معه من روح العلم، وضياء الكشف ونوره هو أكثر إطلاقاً، وأوسع بطاناً من صاحب العلم، فيتقيّد العالم بظواهر العلم وأحكامه، والعارف لا يراها قيوداً.

ومن هاهنا تزندق من تزندق، وظنَّ أنَّه إذا لاحت له حقائقها، وبواطنها خلع قيود ظواهرها

(١) وهل يشاهد ما كان فوق مدارك العقول؟!

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

ورسومها، اشتغالا بالمقصود عن الوسيلة، وبالْحَقِيقَةُ عن الرَّسْمِ، فهؤلاء هم المقطوعون عن الله، القطَّاع لطريق الله، وهم معاطب الطَّريق وآفاتِها.

وأتفق أن العارفين تكلموا في الحقائق، وأمروا بالانتقال من الرسوم والظواهر إليها، وألا يقف عندها، فظن هؤلاء الزنادقة أنهم جاوزوا خلعتها والانحلال منها.

ولا ريب أن من جاوز ذلك فهو مثل هؤلاء، والله يرُكِّم الخبيث بعضه على بعض، فيجعله في جهنم، أولئك هم الخاسرون.

فصاحب «المنازل»^(١) أشار إلى المعنى الحقَّ الصحيح، كما أشار إليه شيوخ القوم. وأما استدلاله بقول النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ الشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ» فليس مطابقا لما ذكره في هذه الدرجة.

فأين طلب الشوق إلى لقائه، الباعث على كمال الاستعداد، وعلى خفة أعباء السير، والمزِيل لكل فتور، والحامل على كل صدق وإخلاص وإنابة، وصحة معاملة، إلى أمر مشوب بصولة الهيمان، تضربه أمواج الفناء، بحيث غلب قوما على عقولهم، وسلب قوما صبرهم بحيث صبرهم في عالم الفناء؟! ورسول الله ﷺ لم يكن ليسأل حالة الفناء قط، وإنما سأل شوقا موجبا للبقاء، مصاحبا له، موجبا له طيب الحياة، وقرّة العين، ولذة القلب، وبهجة الروح.

وصاحب «المنازل»^(٢) كأنه فهم منه اشتياقه إلى المشاهدة من غير غلبة على عقل، ولا فقد لاصطبار؛ ولهذا قال: «مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ»، وهي الغلبة على العقل^(٣)، «وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»، وهي مفارقة أحكام العلم.

وهذا غايته: أن يؤخذ من إشارة الحديث على عادة القوم، وأما أن يكون هو نفس المراد فلا. وإنما المسئول: أن يهب له شوقا إلى لقائه، مصاحبا للعافية والهداية، فلا تصحبه فتنة ولا محنة، وهذا من أجل العطايا والمواهب؛ فإن كثيرا ممن يحصل له هذا لا يناله إلا بعد امتحان واختبار هل يصلح أم لا؟ ومن لم يمتحن ولم يُختَبَر فأكثرهم لم يؤهل لهذا. فتضمن هذا الدعاء حصول ذلك، والتأهيل له، مع كمال العافية بلا محنة، والهداية بلا فتنة، وبالله التوفيق، والله أعلم.

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) جملة (وهي الغلبة على العقل): ساقطة من «غ».

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: أُنْسُ اضْمِحْلَالٍ فِي شُهُودِ الْحَضْرَةِ، لَا يُعْبَرُ عَنْ غَيْبِهِ، وَلَا يُشَارُ إِلَى حَدِّهِ، وَلَا يُوقَفُ عَلَى كُنْهِهِ».

الاضمحلال: الانعدام، و«شُهُودُ الْحَضْرَةِ» هو مشاهدة الحقيقة، والفناء في ذلك الشُّهود. قوله: «وَلَا يُعْبَرُ عَنْ غَيْبِهِ...» إلى آخره.

حاصله: أن هذا أمرٌ وراء العبارة، لا تناله العبارة، ولا يحاط به عينًا، ولا حدًا، ولا كنهًا، ولا حقيقةً، فإن حقيقة تستغرق العبارة والإشارة والدلالة، وفي وصفه يقول قائلهم:

فَأَلْقَوْا حَبَالَ مَرَاْسِيهِمْ فَعَطَّاهُمْ الْبُحْرُ ثُمَّ انْطَبَقُوا

وها هنا إنما حوالة القوم على الذوق، وإشارتهم إلى الفناء الذي يصطلم المشير وإشارته، والمعبرٌ وعبارته، مع ظهور سلطان الحقيقة التي هي فوق الإشارة والعبارة والدلالة، والله سُبْحَانَهُ أعلم.

فصل

[منزلة الذكر]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعُدُّ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الذكر.

وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزوّدون، وفيها يتجرون، وإليها دائماً يتردّدون. والذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزّل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ودواء أسقامهم الذي متى فارقه انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إِذَا مَرَضْنَا نَدَاوِينَا بِذِكْرِكُمْ فَتَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَتَنْتَكِسُ

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفرعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقبّلون، ورءوس

أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذكر إلى المذكور، بل يدع الذّكر مذكورًا.

وفي كلّ جارحة من الجوارح عبوديّة مؤقتة، والذكر عبوديّة القلب واللّسان وهي غير مؤقتة، بل هم يأمرُونَ^(١) بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلّ حال؛ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فكما أنّ الجنّة قيعانٌ وهو غراسها، فكذلك القلوب بورٌ وخرابٌ وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلّما ازداد الذّكر في ذكره استغراقًا ازداد المذكور محبةً إلى لقاءه واشتياقًا، وإذا وطأ في ذكره قلبه لسانه نسي في جنب ذكره كلّ شيء وحفظ الله عليه كلّ شيء وكان له عوضًا من كلّ شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقش الظلمة عن الأبصار، زين الله به السنة الذّكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصّماء، واليد الشّلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.
قال الحسن البصري رحمه الله: «تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فِي الصَّلَاةِ، وَفِي الذِّكْرِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْبَابَ مُغْلَقٌ».

وبالذّكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.
قال بعض السلف: «إِذَا تَمَكَّنَ الذِّكْرُ مِنَ الْقَلْبِ فَإِنَّ دَنَا مِنْهُ الشَّيْطَانُ صَرَعَهُ كَمَا يُصْرَعُ الْإِنْسَانُ إِذَا دَنَا مِنْهُ الشَّيْطَانُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُونَ: مَا لِهَذَا؟ فَيَقَالُ: قَدْ مَسَّهُ الْإِنْسِي».

وهو روح الأعمال الصّالحة، فإذا خلا العمل عن الذّكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم.

فصل

* وهو في القرآن على عشرة أوجه:

- الأوّل: الأمر به مطلقًا ومقيّدًا.
- الثّاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

(١) هكذا في جميع النسخ ولعلها: (يؤمرُونَ) أو (مأمورُونَ) والله أعلم.

(٢) لفظة (في) غير موجودة في «غ» والمنار.

- الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.
- الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.
- الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.
- السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكورهم له.
- السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.
- الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.
- التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الأبواب دون غيرهم.
- العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل

في تفصيل ذلك

﴿أَمَّا الْأَوَّلُ: فكَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١﴾ وَسَيَحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْتَبَكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان:

- أحدهما: في سرِّك وقلبك.
- والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك.
- وَأَمَّا النَّهْيُ عَنِ ضِدِّهِ: فكَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰغِلِينَ ۝٢٥﴾ [الأعراف: ٢٥].
- وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].
- وَأَمَّا تَعْلِيْقُ الْفَلَاحِ بِالْإِكْتَارِ مِنْهُ: فكَقَوْلُهُ: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].
- وَأَمَّا الثَّنَاءُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَحَسَنَ جَزَائِهِمْ: فكَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِكْرِيْنَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِكْرِيْنَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].
- وَأَمَّا خَسْرَانُ مَنْ لَهَا عَنْهُ: فكَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ ءَأْمُولَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وَأَمَّا جَعَلَ ذِكْرَهُ لَهُمْ جَزَاءً لَذِكْرِهِمْ لَه: فَكَقَوْلِهِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرْتُكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وَأَمَّا الْإِخْبَارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأُ الصَّلَاةَ ۖ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وَفِيهَا أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ:

- أَحَدُهَا: أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ؛ (لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالطَّاعَاتِ) (١)

- الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى: أَنْتُمْ إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ ذَكَرْتُمْ، فَكَانَ ذِكْرُهُ لَكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ لَهُ، فَعَلِيَ هَذَا: الْمَصْدَرُ مِضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مِضَافٌ إِلَى الْمَذْكُورِ.

- الثَّلَاثُ: أَنَّ الْمَعْنَى: وَلِذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ فَاحِشَةٌ وَمُنْكَرٌ، بَلْ إِذَا تَمَّ الذِّكْرُ مَحَقَّ كُلَّ خَطِيئَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢) يَقُولُ: «مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ فِي الصَّلَاةِ فَائِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: نَهْيُهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ». وَالثَّانِيَةُ: اشْتِمَالُهَا عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَتَضَمُّنِهَا لَهُ، وَلَمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ نَهْيِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وَأَمَّا خْتَمَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بِهِ: فَكَمَا خْتَمَ بِهِ عَمَلُ الصِّيَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلْيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلْيُكْرِئُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْكُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وَخْتَمَ بِهِ الْحَجَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وَخْتَمَ بِهِ الصَّلَاةَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وَخْتَمَ بِهِ الْجُمُعَةَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وَلِهَذَا كَانَ خَاتِمَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِذَا كَانَ آخِرَ كَلَامِ الْعَبْدِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ سَاقِطٌ مِنْ «غ».

(٢) فِي «غ»: (قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ).

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته وهم أولو الألباب والعقول: فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٦) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقِعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿آل عمران: ١٩٠، ١٩١﴾.

وأما مصاحبته لجميع الأعمال واقتترانه بها وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٤) ﴿طه: ١٤﴾.

وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبه ومقصوده، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ» (١).
 وقرنه بالجهد، وأمر بذكره عند ملاقة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا الْفَيْتُمُ فَتَةً فَاتَّبِعُوا أَوْذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) ﴿الأنفال: ٤٥﴾.
 وفي أثرٍ إلهيٍّ يقول الله تعالى: «إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُلَاقٍ قِرْنَهُ».
 سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به.

وسمعه يقول: «الْمُحِبُّونَ يَفْتَخِرُونَ بِذِكْرِ مَنْ يُحِبُّونَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، كَمَا قَالَ عَتْرَةٌ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَّاحُ كَانَهَا
 أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لُبَانِ الْأَذْهَمِ
 وَقَالَ الْآخَرُ:

ذَكَرْتُكَ وَالخَطَّيِّي يَخْطُرُ بَيْنَنَا
 وَقَدْ نَهَلْتُ مِنَّا الْمُتَّقَفَةَ السُّمْرُ
 وَقَالَ آخَرُ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَّاحُ شَوَاجِرُ
 نَحْوِي وَبَيْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنِّي دَمِي

وهذا كثيرٌ في أشعارهم، وهو مما يدل على قوة المحبة؛ فإن ذكر المحب محبوبه في تلك الحال التي لا يهيم المرء فيها غير نفسه يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه أو أعز منها، وهذا دليلٌ على صدق المحبة، والله أعلم.

(١) رواه أبو داود في «المناسك»، باب: الرمل (١٨٨٨)، والترمذي في «الحج»، باب: ما جاء في كيف يرمي الجمار، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٤١٠).

فصل

وَالذَّاكِرُونَ هُمْ أَهْلُ السَّبْقِ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ!». قَالُوا: وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»^(١).

والمفردون: إمّا الموحدون، وإمّا الأحاد الفرادى.

وَفِي «الْمُسْنَدِ» مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَزْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَعْرَجَ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَعَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فَيَمَنْ عِنْدَهُ»^(٣) وَهُوَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

وَيَكْفِي فِي شَرَفِ الذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ يَبَاهِي مَلَائِكَتَهُ بِأَهْلِهِ كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ: خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «اللَّهُ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَلِكَ، قَالَ: «أَمَّا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفِكُمْ تَهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنْ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ يَبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٤).

وَسَأَلَ أَعْرَابِيٌّ رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلَسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٥).

(١) رواه مسلم في «الذكر والدعاء»، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٦)، والترمذي في «الدعوات»، باب: سبق المفردون.

(٢) الترمذي في «الدعوات»، باب (٦)، وابن ماجه في الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٥٧).

(٣) رواه مسلم في «الذكر والدعاء»، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٧٠٠)، والترمذي في «الدعوات»، باب: القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل وقال: «حسن صحيح».

(٤) رواه مسلم في «الذكر والدعاء»، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٧٠١)، والترمذي في «الدعوات»، باب: القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل.

(٥) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٧/١٠)، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٠٦/٢٠)، وقال المحقق حمدي السلفي:

وقال له رجل: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فمرني بأمرٍ أتشبّث به، فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»^(١).

وفي «المُسْنَدِ» وغيره من حديث جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «أيّها النّاس، ازرعوا في رياض الجنّة». قلنا: يا رسول الله وما رياض الجنّة؟ فقال: «مجالس الذكر»^(٢).
وقال: «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلة عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده؛ فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»^(٣).

وروى النبي صلى الله عليه وآله عن أبيه إبراهيم رضي الله عنه (ليلة الإسراء)^(٤) أنه قال له: «أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأنّ غراسها: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(٥). رواه الترمذي وأحمد وغيرهما.

وفي «الصّحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحيّ والميت»^(٦).

ولفظ مسلم: «مثل البیت الذي يُذكر الله فيه والبیت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحيّ والميت»^(٧).
فجعل بيت الذّاکر بمنزلة بيت الحيّ، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت وهو القبر.
وفي اللفظ الأوّل: جعل الذّاکر بمنزلة الحيّ والغافل بمنزلة الميت.

فتضمّن اللفظان: أنّ القلب الذّاکر كالحيّ في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات، ولا ريب أنّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:
فَسَيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ

ورواه البزار من غير طريقة وإسناده حسن.

(١) تقدم تخريجه (٢٥٨/١).

(٢) رواه الترمذي في «الدعوات»، باب (٨٣) عن أنس رضي الله عنه وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، أما حديث جابر رضي الله عنه فقد عزاه الهيثمي في «المجمع» (٧٧/١٠) إلى أبي يعلى والبزار والطبراني في «الأوسط»، وقال: «فيه عمر بن عبد الله مولى عفرة وقد وثقه غير واحد، وضعفه جماعة وبقية رجالهم رجال الصحيح».

(٣) هو جزء من الحديث المتقدم في «مجمع الزوائد» (٧٧/١٠).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «غ» والمنار.

(٥) في حديث الإسراء تقدم تخريجه وقد حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥).

(٦) البخاري في «الدعوات»، باب: فضل ذكر الله صلى الله عليه وآله (٦٤٠٧)، ومسلم في «صلاة المسافرين»، باب: استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩).

(٧) انظر الحاشية السابقة.

وَأَزْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورٌ
وكما قيل:

فَنَسِيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ وَأَجْسَامُهُمْ فَهِيَ الْقُبُورُ الدَّوَارِسُ
وَأَزْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ حَيِّبِهِمْ وَلَكِنَّهَا عِنْدَ الْخَيْثِ أَوَانِسُ

وفي أثرٍ إلهيٍّ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِذَا كَانَ الْعَالِبُ عَلَى عَبْدِي ذِكْرِي: أَحَبَّنِي وَأَحَبَّبْتُهُ».

وفي آخر: «فِي فَا فَرِحُوا وَبِذِكْرِي فَتَنَعَمُوا».

وفي آخر: «ابْنَ آدَمَ، مَا أَنْصَفْتَنِي! أَذْكَرُكَ وَتَنْسَانِي وَأَدْعُوكَ وَتَهْرُبُ إِلَيَّ غَيْرِي، وَأَذْهَبُ عَنْكَ

الْبَلَايَا وَأَنْتَ مُعْتَكِفٌ عَلَى الْخَطَايَا، يَا بْنَ آدَمَ، مَا تَقُولُ غَدًا إِذَا جِئْتَنِي؟».

وفي آخر: «ابْنَ آدَمَ، أَذْكَرْنِي حِينَ تَغْضَبُ أَذْكَرُكَ حِينَ أَغْضَبُ، وَارْضَ بِنُصْرَتِي لَكَ فَإِنَّ نُصْرَتِي

لَكَ خَيْرٌ مِنْ نُصْرَتِكَ لِنَفْسِكَ».

وفي «الصَّحِيحِ» في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ

ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١).

وقد ذكرنا في الذكر نحو مائة فائدة في كتابنا «الْوَابِلُ الصَّيِّبُ وَرَافِعُ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ».

وذكرنا هناك أسرار الذكر وعظم نفعه وطيب ثمرته، وذكرنا فيه أن الذكر ثلاثة أنواع:

- ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والشأن على الله بها، وتوحيد الله بها.

- وذكر الأمر والنهي والحلال والحرام.

- وذكر الآلاء والنعماء والإحسان والأيادي.

وأنه ثلاثة أنواعٍ أيضاً:

- ذكرٌ يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها.

- وذكرٌ بالقلب وحده وهو في الدرجة الثانية.

- وذكرٌ باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] يَعْني: إِذَا نَسِيتَ غَيْرَهُ وَنَسِيتَ نَفْسَكَ فِي ذِكْرِكَ ثُمَّ نَسِيتَ ذِكْرَهُ، ثُمَّ نَسِيتَ فِي ذِكْرِ الْحَقِّ إِيَّاكَ كُلَّ ذِكْرٍ».

ليته - قدس الله روحه - لم يقل .

فلا والله ما عنى الله هذا المعنى، ولا هو مراد الآية، ولا تفسيرها عند أحد من السلف، ولا من (١) الخلف.

وتفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء: أفعل كذا وكذا، حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي، الذي جوزه ابن عباس رضي الله عنهما وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

فغلط عليه من لم يفهم كلامه ونقل عنه أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق ثلاثاً، أو قال: نسائي الأربع طوالق، ثم بعد سنة يقول: إلا واحدة، أو: إلا زينب - أن هذا الاستثناء ينفعه.

وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير، فضلاً عن البحر حبر الأمة وعالمها الذي فقهه الله في الدين وعلمه التأويل.

وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطلال جدًا، وإن ساعد الله أفردنا له كتابًا.

والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: «أخبركم عداً» ولم يقل: إن شاء الله؛ فتلبث الوحي أيامًا، ثم نزلت هذه الآية (٢).

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: «مَعْنَاهُ: إِذَا نَسِيتَ الْإِسْتِثْنَاءَ ثُمَّ ذَكَرْتَ فَاسْتَنْ».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وَيَجُوزُ الْإِسْتِثْنَاءُ إِلَى سَنَةٍ».

وقال عكرمة رضي الله عنه: «وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا غَضِبْتَ».

(١) لفظة (من) غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) ذكره ابن كثير في أول سورة الكهف في سبب نزولها، وذكره ابن إسحاق وابن هشام عنه في «السيرة النبوية» (١/٣٠١).

وقال الضَّحَّاك والسُّدِّيُّ: «هَذَا فِي الصَّلَاةِ؛ أَيُّ: إِذَا نَسِيَتِ الصَّلَاةَ فَصَلَّاهَا مَتَى ذَكَرْتَهَا».

وأما كلام صاحب «الْمَنَازِلِ» فيحمل على الإشارة لا على التفسير.

فذكر أربع مراتب:

- إحداها: أن ينسى غير الله ولا ينسى نفسه لأنه ناسٍ لغيره، ولا يكون ناسياً إلا ونفسه باقية

يعلم أنه ناسٍ بها لما سوى المذكور.

- الثانية: نسيان نفسه في ذكره، وهي التي عبر عنها بقوله: «وَنَسِيَتِ نَفْسَكَ فِي ذِكْرِكَ». وفي هذه

المرتبة: ذكره معه لم ينسه.

- فقال في المرتبة الثالثة: «ثُمَّ نَسِيَتِ ذِكْرَكَ فِي ذِكْرِهِ» وهي مرتبة الفناء.

- ثم قال في المرتبة الرابعة: «ثُمَّ نَسِيَتِ فِي ذِكْرِ الْحَقِّ إِيَّاكَ كُلَّ ذِكْرٍ»، وهذا الفناء بذكر الحق

عنده عن ذكر العبد ربّه.

فأما المرتبة الأولى: فهي أول درجات الذكر، وهي أن تنسى غير المذكور، ولا تنسى

نفسك في الذكر، وفي هذه المرتبة لم يذكره بتمام الذكر، إذ لتمامه مرتبتان فوقه:

- إحداهما: نسيان نفسه، وهي المرتبة الثانية؛ فيغيب بذكره عن نفسه فيعدم إدراكها بوجودان

المذكور.

- الثانية: نسيان ذكره في ذكره.

كما سئل ذو النون^(١) عن الذكر فقال: «غيبية الدّآكر عن الدّآكر، ثمّ أنشد:

لَا لِأَنِّي أَنَسَاكَ أَكْثَرَ ذِكْرًا
وَلَكِنْ بِذَلِكَ يَجْرِي لِسَانِي».

- وهذه هي المرتبة الثالثة.

ففي الأولى: فني عمّا سوى المذكور ولم يفن عن نفسه.

وفي الثانية: فني عن نفسه دون ذكره.

وفي الثالثة: فني عن نفسه وذكره.

- وبقي بعد هذا مرتبة رابعة وهي: أن يفنى بذكر الحق سبحانه له عن كلِّ ذكرٍ، فإنه ما ذكر الله

إلا بعد ذكر الله له، فذكر الله للعبد سابق على ذكر العبد للرّبّ ففي هذه المرتبة الرابعة يشهد صفات

المذكور سبحانه، وذكره لعبد، فيفنى بذلك عن شهود ما من العبد، وهذا الذي يسمونه وجدان

المذكور في الذكر والدّآكر، فإنّ الدّآكر وذكره والمذكور ثلاثة أشياء، فالدّآكر وذكره قد اضمحلّا وفتيا،

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

ولم يبق غير المذكور وحده، ولا شيء معه سواه، فهو الذَّاكِر لنفسه بنفسه من غير حلولٍ ولا اتِّحادٍ، بل الذُّكْر منه بدأ وإليه يعود.

وذكر العبد لربِّه محفوفٌ بذكرين من ربِّه له: ذكرٍ قبله به صار العبد ذاكراً له، وذكرٍ بعده به صار العبد مذكوراً، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال فيما يروي عنه نبيُّه ﷺ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» (١).

والذُّكْر الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِهِ بَعْدَ ذَكَرِهِ لَهُ نَوْعٌ غَيْرُ الذُّكْرِ الَّذِي ذَكَرَهُ بِهِ قَبْلَ ذَكَرِهِ لَهُ، وَمِنْ كَثْفِ فَهْمِهِ عَنِ هَذَا فَلِيَجَاوِزَهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَقَدْ قِيلَ:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُوهُ وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يَوْمًا فَقُلْتُ لَهُ: «إِذَا كَانَ الرَّبُّ سَبْحَانَهُ يَرْضَى بِطَاعَةِ الْعَبْدِ وَيَفْرَحُ بِتَوْبَتِهِ وَيَغْضَبُ مِنْ مَخَالَفَتِهِ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُؤَثِّرَ الْمَحْدَثُ فِي الْقَدِيمِ حُبًّا وَبَغْضًا وَفَرْحًا وَغَيْرَ ذَلِكَ؟

فَقَالَ لِي: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ أَسْبَابَ الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالْفَرْحِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ بِمَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ التَّأَثُّرُ مِنْ غَيْرِهِ، بَلْ مِنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَالْمُمْتَنِعُ أَنْ يُؤَثِّرَ غَيْرُهُ فِيهِ فَهَذَا مُحَالٌ، وَأَمَّا أَنْ يَخْلُقَ هُوَ أَسْبَابًا وَيَشَاءُهَا وَيُقَدِّرُهَا تَقْتَضِي رِضَاهُ وَمَحَبَّتَهُ وَفَرَحَهُ وَغَضَبَهُ فَهَذَا لَيْسَ بِمُحَالٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ».

فصل

□ قال: «وَالذِّكْرُ: هُوَ [التَّخْلُصُ]» (٢) مِنْ الْعَقْلَةِ وَالنِّسْيَانِ».

والفرق بين الغفلة والنسيان: أنَّ الغفلة تركٌ باختيار الغافل، والنسيان تركٌ بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ولم يقل: ولا تكن من الناسين، فإنَّ النسيان

(١) تقدم تخريجه (ص ١٤٨).

(٢) ما بين المعكوفتين هو المثبت «غ» والمنار وهو الصواب، أما طبعة (الفاقي) ففيها: (التخلص)، وقد يكون خطأً مطبعياً.

لا يدخل تحت التكليف فلا ينهي عنه.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الذِّكْرُ الظَّاهِرُ ثَنَاءً أَوْ دُعَاءً أَوْ رِعَايَةً».

يريد بالظاهر^(١): الجاري على اللسان المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللساني، فإن القوم لا يعتدّون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾

[الأعراف: ٢٣].

و: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»... ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي والله ناظرٌ إليّ، الله شاهدي، ونحو ذلك ممّا يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب ولحفظ الأدب مع الله والتحرّز من الغفلة والاعتصام من الشيطان والنفس.

والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة؛ فإنها متضمنة للثناء على الله والتعرض للدعاء والسؤال والتصريح به، كما في الحديث: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ»^(٢).

قيل لسفيان بن عيينة: «كَيْفَ جَعَلَهَا دُعَاءً؟ قَالَ: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أُمِّيَّةَ بِنِ الصَّلْتِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ يَرْجُو نَائِلَهُ:

أَأَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَّانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيَمَتَكَ الْحِيَاءُ
إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَّاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

فَهَذَا مَخْلُوقٌ وَاکْتَفَى مِنْ مَخْلُوقٍ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ سُؤَالِهِ، فَكَيْفَ بَرَّبَ الْعَالَمِينَ؟!».

والأذكار النبوية^(٣) متضمنة أيضًا لكمال الرعاية ومصلحة القلب والتحرّز من الغفلات، والاعتصام من الوسوس والشيطان، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (الظاهر).

(٢) رواه الترمذي في «الدعوات»، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم». ورواه ابن ماجه في الأدب، باب: فضل الحامدين (٣٨٠٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٩٤).

(٣) كلمة (والأذكار النبوية): ساقطة من «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الذِّكْرُ الخَفِيُّ، وَهُوَ الخَلَاصُ مِنَ القَيْودِ، وَالبَقَاءُ مَعَ الشُّهُودِ، وَلِزُومِ المُسَامَرَةِ».

يريد بالخفي هاهنا: الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات، وهذا ثمرة الذكر الأول. ويريد بالخلاص من القيود: التخلُّص من الغفلة والنسيان والحُجُب الحائلة بين القلب وبين الرَّبِّ سبحانه.

والبقاء مع الشُّهود: ملازمة الحضور مع المذكور، ومشاهدة القلب له حتَّى كأنه يراه. ولزوم المسامرة: هي لزوم مناجاة القلب لربه؛ تملُّقًا تارةً، وتضرُّعًا تارةً، وثناءً تارةً، واستعظامًا تارةً، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسِّرِّ والقلب، وهذا شأن كلِّ محبِّ وحبَّيه، كما قيل:

إِذَا مَا خَلَوْنَا وَالرَّقِيبُ بِمَجْلِسٍ فَنَحْنُ سُكُوتٌ وَالْهَوَى يَتَكَلَّمُ

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الذِّكْرُ الحَقِيقِيُّ، وَهُوَ شُهُودُ ذِكْرِ الحَقِّ إِيَّاكَ، وَالتَّخْلُصُ مِنْ شُهُودِ ذِكْرِكَ، وَمَعْرِفَةُ افْتِرَاءِ الذَّاكِرِ فِي بَقَائِهِ مَعَ الذِّكْرِ».

إنَّما سُمِّيَ هذا الذِّكْرُ في هذه الدَّرَجَةِ حَقِيقِيًّا؛ لِأَنَّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى، وَأَمَّا نِسْبَةُ الذِّكْرِ للعبد فليست حَقِيقِيَّةً، فَذَكَرَ اللهُ لِعَبْدِهِ هُوَ الذِّكْرُ الحَقِيقِيُّ، وَهُوَ شُهُودُ ذِكْرِ الحَقِّ عِنْدِهِ، وَأَنَّهُ ذَكَرَهُ فِيمَنْ اخْتَصَّهُ وَأَهْلَهُ لِلقُرْبِ مِنْهُ وَلِذَكَرِهِ، فَجَعَلَهُ ذَاكِرًا لَهُ، فِي الحَقِيقَةِ هُوَ الذَّاكِرُ لِنَفْسِهِ بِأَنْ جَعَلَ عِنْدَهُ ذَاكِرًا لَهُ وَأَهْلَهُ لَذَكَرِهِ، وَهَذَا المَعْنَى هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ:

تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لِاحِدٌ

أي: هو الَّذي وَحَّدَ نَفْسَهُ فِي الحَقِيقَةِ فَتَوْحِيدُ العَبْدِ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ حَقِيقَةً، وَنَسَبَتُهُ إِلَى العَبْدِ غَيْرِ حَقِيقِيَّةً، إِذْ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَلَا مِنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْعُولٌ فِيهِ، فَإِنْ سُمِّيَ مَوْحِدًا ذَاكِرًا، فَلِكونِهِ مَجْرِيٍّ وَمَحَلًّا لِمَا أَجْرِي فِيهِ، كَمَا يَسْمَى أبيضٌ وَأَسْوَدٌ وَطَوِيلًا وَقَصِيرًا؛ لِكونِهِ مَحَلًّا لِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَا صَنَعَ لَهُ

فيها، ولم توجهها مشيئته ولا حوله ولا قوته، هذا مع ما يتصل بذلك من استيلاء القرب والفناء عن الرّسم والغيبية بالمشهود عن الشّهود وقوة الوارد، فيتركّب من ذلك ذوقٌ خاصٌّ أنّه ما وحّد الله إلّا الله، وما ذكر الله إلّا الله، وما أحبّ الله إلّا الله.

فهذا حقيقة ما عند القوم.

فالعارفون منهم أرباب البصائر أعطوا مع ذلك العبوديّة حقّها والعلم حقّه، وعرفوا أنّ العبد عبدٌ حقيقةً من كلّ وجه، والرّبّ ربٌّ حقيقةً من كلّ وجه، وقاموا بحقّ العبوديّة بالله لا بأنفسهم، والله لا لحظوظهم، وفنوا بمشاهدة معاني أسمائه وصفاته عمّا سواه، وبما له محبّة ورضاً عمّا به كوناً ومشيةً؛ فإنّ الكون كلّ به والذي له هو محبوبه ومرضيّه، فهو له وبه.

والمنحرفون فنوا بما به عمّا له، فوالوا أعداءه وعطلوا دينه وسوّوا بين محابّه ومساخطه، ومواقع رضاه وغضبه، والله المستعان.

قوله: «التخلّص من شهود ذكرك».

يعني: بفناء شهود ذكره لك عن شهود ذكرك له، وهذا الشّهود يريح العبد من رؤية النّفس وملاحظة العمل، ويميته ويحييه؛ يميته عن نفسه، ويحييه برّبّه ويفنيه ويقطعه من نفسه ويوصله برّبّه، وهذا هو الظّفر بالنّفس.

قال بعض العارفين: «انتهى سفر الطّالبيين إلى الظّفر بنفوسهم».

قوله: «ومعرفة افتراء الذّاكر في بقائه مع الذّكر».

يعني: أنّ الباقي مع الذّكر يشهد على نفسه أنّه ذاكّر، وذلك افتراءً منه؛ فإنّه لا فعل له، ولا يزول عنه هذا الافتراء إلّا إذا فني عن ذكره فإنّ شهود ذكره وبقاءه معه افتراءً يتضمّن نسبة الذّكر إليه، وهي في الحقيقة ليست له.

فيقال: سبحان الله! أيّ افتراء في هذا؟ وهل هذا إلّا شهود الحقائق على ما هي عليه؟ فإنّه إذا شهد نفسه ذاكراً بجعل الله له ذاكراً وتأهيله له، وتقدّم ذكره للعبد على ذكر العبد له، فاجتمع في شهوده الأمران فأيّ افتراء هاهنا؟! وهل هذا إلّا عين الحقّ وشهود الحقائق على ما هي عليه؟!

نعم؛ الافتراء أن يشهد ذلك به وبحوله وقوته لا بالله وحده.

لكنّ الشّيخ لا تأخذه في الفناء لومة لائم، ولا يصغي فيه إلى عادلٍ.

والذي لا ريب فيه: أنّ البقاء في الذّكر أكمل من الفناء فيه والغيبية به؛ لما في البقاء من التّفصيل والمعارف، وشهود الحقائق على ما هي عليه، والتّمييز بين الرّبّ والعبد وما قام بالعبد وما قام بالرّبّ تعالى وشهود العبوديّة والمعبود.

وليس في الفناء شيءٌ من ذلك، والفناء كاسمه الفناء، والبقاء: بقاءٌ كاسمه، والفناء مطلوبٌ لغيره والبقاء مطلوبٌ لنفسه، والفناء وصف العبد والبقاء وصف الربِّ، والفناء عدمٌ والبقاء وجودٌ، والفناء نفْيٌ والبقاء إثباتٌ، والسُّلوك علىٰ درب الفناء مخطرٌ، وكم به من مفازةٍ ومهلكةٍ، والسُّلوك علىٰ درب البقاء آمنٌ؛ فإنَّه دربٌ عليه الأعلام والهداة [والأدلة] (١) والخُفراء، ولكنَّ أصحاب الفناء يزعمون أنَّه طويلٌ ولا يشكُّون في سلامته وإيصاله إلىٰ المطلوب، ولكنَّهم (٢) يزعمون أنَّ درب الفناء أقرب وراكبه طائرٌ، وراكب درب البقاء سائرٌ.

والكُمَّل من السَّائرين يرون الفناء منزلةً من منازل الطَّريق، وليس نزولها عامًّا لكُلِّ سائرٍ، بل منهم من لا يراها ولا يمرُّ بها، وإنَّما (٣) الدَّرب الأعظم والطَّريق الأقوم هو درب البقاء، ويحتجُّون علىٰ صاحب الفناء بالانتقال إليه من الفناء، وإلَّا فهو عندهم علىٰ خطرٍ، والله المستعان، وهو سبحانه أعلم (٤).

فصل

[منزلة الفقر]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعَبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ منزلة الفقر. هذه المنزلة أشرف (٥) منازل الطَّريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل (٦) هي روح كلِّ منزلةٍ وسرُّها ولبُّها وغايتها.

وهذا إنَّما يعرف بمعرفة حقيقة الفقر، والذي تريد به هذه الطائفة أخصُّ من معناه الأصليِّ؛ فإنَّ لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع:

﴿أحدها: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية؛ أي: الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة (الفاقي)، وأثبتناه من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (لكنهم): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (وإن).

(٤) في «غ»: (والله سبحانه وتعالى أعلم)، وفي المنار: (والله هو سبحانه أعلم).

(٥) في «غ» والمنار: (من أشرف).

(٦) كلمة (بل): ساقطة من المنار.

أنفسهم على الجهاد في سبيل الله؛ فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ، وهم أهل الصفة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حسبهم أنفسهم في طاعة الله.

وقيل: حسبهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله.

وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب

المعاش؛ فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم -لفقرهم وعجزهم وضعفهم- لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال

عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

﴿والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠].

﴿والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] (١).

- فالصنف الأول: خواص الفقراء.

- والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم.

- والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم، مؤمنهم وكافرهم.

فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى يقابلهم أصحاب الجدة، ومن ليس محصرًا في سبيل الله،

ومن لا يكتف فقره تعففًا، فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني.

والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل

الله وغيره.

والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه.

ومراد القوم بالفقر شيء أحص من هذا كله، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل

حالة، وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقراء، بل هو حقيقة العبودية وليها، وعزل النفس عن مزاحمة

الربوبية.

وسئل عنه يحيى بن معاذ فقال: «حقيقته: ألا يستغني إلا بالله، ورسمه: عدم الأسباب كلها».

(١) ذكر الفقري غير هذه المواضع ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ [البقرة: ٢٦٨]، ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي﴾ [النور: ٣٢]، ﴿وآتواها الفقراء﴾ [البقرة: ٢٧١]، ﴿لقد سجع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف﴾ [النساء: ٦]، ﴿إن يكن غنيًا أو فقيرًا فالله أولي بهما﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ [الحج: ٢٨]، ﴿إن يكونوا فقراء فقرًا يغنيهم الله من فضله﴾ [النور: ٣٢]، ﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿للفقراء المهجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم﴾ [الحشر: ٨].

يقول: عدم الوثوق بها والوقوف معها.

وهو كما قال بعض المشايخ: «شَيْءٌ لَا يَضَعُهُ اللَّهُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يُحِبُّهُ، وَيَسْأَلُهُ إِلَى مَنْ يُرِيدُهُ».

وسئل رويّم عن الفقر فقال: «إِزْسَأَلُ النَّفْسِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ».

وهذا إنّما يُحَمَدُ فِي إِرسَالِهَا فِي الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ وَالْقَدْرِيَّةِ الَّتِي لَا يُؤْمَرُ بِمَدَافَعَتِهَا وَالتَّحَرُّزِ مِنْهَا.

وسئل أبو حفص: «بِمَ يَقْدَمُ الْفَقِيرُ عَلَى رَبِّهِ؟ فَقَالَ: مَا لِلْفَقِيرِ شَيْءٌ يَقْدَمُ بِهِ عَلَى رَبِّهِ سِوَى فَقْرِهِ».

وحقيقة الفقر وكماله كما قال بعضهم، وقد سئل: متى يستحقُّ الفقير اسم الفقر؟ فقال: «إِذَا لَمْ

يَبْقَ عَلَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْهُ؛ فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ فَقَالَ: إِذَا كَانَ لَهُ فَلَيسَ لَهُ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فَهُوَ لَهُ».

وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كُلهُ الله عَزَّ وَجَلَّ،

لا يبقى عليه بَقِيَّةٌ من نفسه وحظّه وهواه، فمتى بقي عليه شيءٌ من أحكام نفسه فققره مدخولٌ.

ثم فسّر ذلك بقوله: «إِذَا كَانَ لَهُ فَلَيسَ لَهُ»؛ أي: إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه

فهو لله.

فحقيقة الفقر: ألا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيءٌ، بحيث تكون كُلكَ لله، وإذا كنت

لنفسك فثمَّ مِلْكٌ واستغناءٌ منافعٍ للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَّةُ ولا الأملاك؛ فقد كان رسل الله وأنبياءه في ذروته

مع جِدَّتِهِمْ، وملكهم، كإبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أبا الضَّيْفَانِ، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك

كان سليمان وداود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكذلك كان نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨)

[الضحى: ٨]، فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

فالفقر الحقيقيُّ: دوام الافتقار إلى الله في كلِّ حالٍ، وأن يشهد العبد في كلِّ ذرّةٍ من ذرّاته الظّاهرة

والباطنة فاقّة تامّةً إلى الله تعالى من كلِّ وجهٍ.

فالفقر ذاتيٌّ للعبد، وإنّما يتجدّد له لشهوده ووجوده حالًا، وإلّا فهو حقيقةٌ، كما قال شيخ

الإسلام ابن تيميّة قدّس الله روحه:

وَالْفَقْرُ لِي وَصَفٌ ذَاتٍ لَا زِمَّ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى أَبَدًا وَصَفٌ لَهُ ذَاتِي

وله آثارٌ وعلاماتٌ وموجباتٌ وأسبابٌ أكثرُ إشاراتِ القومِ إليها:

كقول بعضهم: الفقير لا تسبق همّته خطوته.

يريد: أنّه ابن حاله ووقته، فهّمته مقصورةٌ على وقته لا تتعدّاه.

وقيل: أركان الفقر أربعةٌ: علمٌ يسوسه، وورعٌ يحجزه، ويقينٌ يحمله، وذكرٌ يؤنسه.

وقال الشُّبَلِيُّ: «حَقِيقَةُ الْفَقْرِ: أَلَّا يَسْتَغْنِي بِشَيْءٍ دُونَ اللَّهِ».

وسئل سهل بن عبد الله: «متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه». وقال أبو حفص: «أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال». وقيل: من حكم الفقر: ألا تكون له رغبة، فإذا كان ولا بد فلا تجاوز رغبته كفايته. وقيل: الفقير من لا يملك ولا يملك، وأتم من هذا: من يملك ولا يملكه مالك. وقيل: من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيراً، ومن أراد له لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنياً. والفقر له بداية ونهاية، وظاهر وباطن، فبدايته: الدُّل، ونهايته: العز، وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى.

كما قال رجلٌ لآخر: «فقرٌ وذُلٌّ؟ فقال: لا، بل فقرٌ وعزٌّ، فقال: فقرٌ وثراء؟ قال: لا بل فقرٌ وعرشٌ»، وكلاهما مصيبٌ. واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله - مع التخليط - خيرٌ من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب، مع أنه لا صفاء معهما. وإذا عرفت معنى الفقر علمت أنه عين الغنى بالله، فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحالين أكمل؟ الافتقار إلى الله، أم الاستغناء به؟ فهذه مسألة غير صحيحة؛ فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه.

وسئل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغاني^(١) فقال: «إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى فقد صحَّ الاستغناء بالله، وإذا صحَّ الاستغناء بالله كملَّ الغنى به، فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء؟ لأنَّهما حالتان لا يتم إحداهما إلا بالأخرى».

وأما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما على صاحبه. فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة أيضاً فاسدة في نفسها؛ فإن التفضيل عند الله تعالى بالتقوى، وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -: «وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿[الفجر: ١٥-١٧]﴾ أَي: لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَسَّعَتْ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُ أَكُونَ قَدْ أَكْرَمْتُهُ، وَلَا كُلُّ مَنْ

(١) في «غ»: (رحمه الله).

صَيِّفْتُ عَلَيْهِ وَقَتَّرْتُ أَكُونُ قَدْ أَهْتُهُ، فَالْإِكْرَامُ أَنْ يُكْرِمَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِطَاعَتِهِ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ، وَمَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْإِهَانَةُ: أَنْ يَسْلُبَهُ ذَلِكَ.

قَالَ -يَعْنِي: ابْنُ تَيْمِيَّةَ-: «وَلَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ بِالْغِنَى وَالْفَقْرَ، بَلْ بِالتَّقْوَى، فَإِنْ اسْتَوَى فِي التَّقْوَى اسْتَوَى فِي الدَّرَجَةِ». سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ، فقال: «لَا يُوزَنُ عَدَا الْفَقْرَ وَلَا الْغِنَى، وَإِنَّمَا يُوزَنُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ».

وقال غيره: هذه المسألة محالٌ من وجهٍ آخر: وهو أن كلاً من الغني والفقير لأبد له من صبرٍ وشكرٍ؛ فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، بل قد يكون نصيب الغني وقسطه من الصبر أوفر؛ لأنه يصبر عن قدرة، فصبره أتم من صبر من يصبر عن عجز، ويكون شكر الفقير أتم؛ لأن الشكر هو استفراغ الوسع في طاعة الله، والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغني، فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقِي الصبر والشكر.

نعم؛ الذي يحكي النَّاسُ من هذه المسألة: فرعاً من الشكر، وفرعاً من الصبر، وأخذوا في التَّرجيح بينهما؛ فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوه القرب، شاكراً لله عليه، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله، ولأوراد العبادات من الطاعات، صابراً على فقره، فهل هو أكمل من ذلك الغني، أم الغني أكمل منه؟

فالصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما؛ فإن تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما، والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الْفَقْرُ اسْمٌ لِلْبِرَاءَةِ مِنَ الْمَلِكَةِ».

عدل الشيخ عن لفظ عدم الملكة إلى قوله: «الْبِرَاءَةُ مِنَ الْمَلِكَةِ»؛ لأن عدم الملكة ثابتٌ في نفس الأمر لكلِّ أحدٍ سوى الله تعالى، فالله سبحانه هو المالك حقيقة؛ فعدم الملكة أمرٌ ثابتٌ لكلِّ ما سواه لذاته، والكلام في الفقر الذي يمدح به صاحبه هو فقر الاختيار، وهو أخصُّ من مطلق الفقر، وهو براءة العبد من دعوى الملك بحيث لا ينازع مالكة الحق.

ولمَّا كانت نفس الإنسان ليست له، وإنما هي ملكٌ لله، فما لم يخرج عنها ويسلمها لمالكها

الحقُّ لم يثبت له في الفقر قدماً، فلذلك كان أوَّل قدم الفقر الخروج عن النَّفس وتسليمها لمالكها ومولاها؛ فلا يخاصم لها ولا يتوكَّل لها ولا يحاجج عنها ولا ينتصر لها، بل يفوِّض ذلك لمالكها وسيِّدها.

قال بندار بن الحسين: «لَا تُخَاصِمَ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَكَ، دَعَهَا لِمَالِكِهَا يَفْعَلُ بِهَا مَا يُرِيدُ». وقد أجمعت هذه الطائفة على أنه لا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر، ولا دخول عليه إلا من بابه، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: فَقْرُ الزُّهَادِ، وَهُوَ قَبْضُ الْيَدِ عَنِ الدُّنْيَا ضَبْطًا أَوْ طَلَبًا، وَإِسْكَاتُ اللِّسَانِ عَنْهَا مَدْحًا أَوْ ذَمًّا، وَالسَّلَامَةُ مِنْهَا طَلَبًا أَوْ تَرْكًا، وَهَذَا هُوَ الْفَقْرُ الَّذِي تَكَلَّمُوا فِي شَرَفِهِ».

الدُّنْيَا عِنْدَ الْقَوْمِ: مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَالِ، وَالْجَاهِ، وَالصُّورِ، وَالْمَرَاتِبِ، وَاخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِيهَا عَلَى قَوْلَيْنِ، حَكَاهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ فِي مَقَالَاتِهِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا اسْمٌ لِمَدَّةِ بَقَاءِ هَذَا الْعَالَمِ. وَالثَّانِي: أَنَّهَا اسْمٌ لِمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَمَا فَوْقَ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ لَيْسَ مِنْهَا.

فَعَلَى الْأَوَّلِ: تَكُونُ الدُّنْيَا زَمَانًا، وَعَلَى الثَّانِي: تَكُونُ مَكَانًا. وَلَمَّا كَانَ لَهَا تَعَلُّقٌ بِالْجَوَارِحِ وَالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، كَانَ حَقِيقَةُ الْفَقْرِ تَعْطِيلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ عَنِ تَعَلُّقِهَا بِهَا وَسَلْبُهَا مِنْهَا، فَلِذَلِكَ (١) قَالَ: «قَبْضُ الْيَدِ عَنِ الدُّنْيَا ضَبْطًا أَوْ طَلَبًا». يَعْنِي: يَقْبِضُ يَدَهُ عَنِ إِمْسَاكِهَا إِذَا حَصَلَتْ لَهُ، فَإِذَا قَبِضَ يَدَهُ عَنِ الْإِمْسَاكِ جَادَ بِهَا، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ حَاصِلَةٍ لَهُ كَفَّ يَدَهُ عَنِ طَلَبِهَا، فَلَا يَطْلُبُ مَعْدُومَهَا، وَلَا يَبْخُلُ بِمَوْجُودِهَا.

وَأَمَّا تَعْطِيلُهَا عَنِ اللِّسَانِ: فَهُوَ أَلَّا يَمْدَحُهَا وَلَا يذُمَّهَا، فَإِنَّ اشْتِغَالَه بِمَدْحِهَا أَوْ ذَمِّهَا دَلِيلٌ عَلَى

(١) فِي «ع»: (فلهذا).

محبّتها ورغبته فيها؛ فإنّ من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره، وإنّما اشتغل بدمّها حيث فاتته، كمن طلب العنقود فلم يصل إليه، فقال: هو حامض، ولا يتصدّى لذمّ الدنيا إلا راعبٌ محبٌّ مفارقٌ، فالواصل مادحٌ، والمفارق ذامٌّ.

وأما «تَعْطِيلُ الْقَلْبِ مِنْهَا» فالسّلامة من آفات طلبها وتركها؛ فإنّ لتركها آفاتٌ، ولطلبها آفاتٌ، والفقر سلامة القلب من آفات الطلّب والتّرك، بحيث لا يحجبه عن ربّه بوجه من الوجوه الظّاهرة والباطنة، لا في طلبها وأخذها، ولا في تركها والرّغبة عنها.

فإن قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها؛ فما وجه الآفة في تركها والرّغبة عنها؟
قلت: من وجوه شتى:

- أحدها: أنّه إذا تركها - وهو بشرٌ لا ملكٌ - تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه، وما (١) هو محتاجٌ إليه، فيبقى في مجاهدةٍ شديدةٍ مع نفسه لترك معلومها وحظّها من الدّنيا، وهذه قلّة فقهِ في الطّريق، بل الفقيه العارف يرُدّها عنه بلقمةٍ، كما يرُدُّ الكلب إذا نبج عليه بكسرةٍ، ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطها (٢) حظّها، وطالبها بما عليها من الحقّ.

هذه طريقة الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم، وهي طريقة العارفين من أرباب السّلوكة، كما قال النّبى ﷺ: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرِزْوَانِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرِضَايِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» (٣).

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوةٍ مباحةٍ مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجنّ، وقطّاع الطّريق على القلوب، كأهل البدع من بني العلم وبني الإرادة، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم، ويتقوى على حربهم بإعطاء النّفس حقّها من المباح، ولا يشتغل بها. - ومن آفات التّرك: تطلّعه إلى ما في أيدي النّاس إذا مسّته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا التّرك.

- ومن آفات تركها وعدم أخذها: ما يداخله من الكبر والعجب والرّهو، وهذا يقابل الرّهد فيها وتركها، كما أنّ كسرة الآخذ وذلّته وتواضعه يقابل الآخذ التّارك، ففي الآخذ آفاتٌ، وفي التّرك آفاتٌ. فالفقر الصّحيح: السّلامة من آفات الآخذ والتّرك، وهذا لا يحصل إلاّ بفقيه في الفقر.

(١) لفظة (ما): ساقطة من المنار.

(٢) في المنار (أعطها): ولعها هي الصواب.

(٣) رواه البخاري في «الصوم»، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع (١٩٦٨)، وروى ومسلم نحوه في «الصوم»، باب: النهي عن صيام الدهر (١١٥٩).

قوله ﷺ: «فَهَذَا هُوَ الْفَقْرُ الَّذِي تَكَلَّمُوا فِي شَرَفِهِ». يعني: تكلم في أرباب السلوك، وفضلوه ومدحوه.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الرَّجُوعُ إِلَى السَّبْقِ بِمُطَالَعَةِ الْفَضْلِ، وَهُوَ يُورِثُ الْخَلَاصَ مِنْ رُؤْيَةِ الْأَعْمَالِ، وَيَقْطَعُ شُهُودَ الْأَحْوَالِ، وَيَمَحِّصُ مِنْ أَذْنَابِ مُطَالَعَةِ الْمَقَامَاتِ».

يريد بالرجوع إلى السبق: الالتفات إلى ما سبقت به (١) السابقة من الله بمطالعة فضله ومنتته وجوده، وأنَّ العبد وكلُّ ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه، وليس للعبد من ذاته سوى العدم، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها فمن فضل الله عليه (٢)؛ فإذا شهد هذا وأحضره قلبه وتحقَّق به، خلَّصه من رؤية أعماله؛ فإنَّه لا يراها إلا من الله وبالله، وليست منه هو ولا به، واتَّفقت كلمة الطائفة على أنَّ رؤية الأعمال حجابٌ بين العبد وبين الله، ويخلصه منها: شهود السبق، ومطالعة الفضل.

وقوله: «وَيَقْطَعُ شُهُودَ الْأَحْوَالِ».

لأنَّه إذا طالع سبق فضل الله علم أنَّ كلَّ ما حصل له من حالٍ أو غيره، فهو محض جوده، فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً، كما لم يشهد له عملاً، فقد جعل عدته للقاء ربِّه فقره من أعماله وأحواله، فهو لا يقدم عليه إلا بالفقر المحض؛ فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربِّه، والنسبة التي ينتسب بها إليه، والباب الذي يدخل منه عليه.

وكذلك قوله: «يَمَحِّصُ مِنْ أَذْنَابِ مُطَالَعَةِ الْمَقَامَاتِ».

هو من جنس التخلُّص من رؤية الأعمال، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال، ومطالعة المقامات دنسٌ عند هذه الطائفة، فمطالعة الفضل يمحص من هذا الدنس.

والفرق بين الحال والمقام: أنَّ الحال معنًى يرد على القلب من غير اجتلابٍ له، ولا اكتسابٍ، ولا تعمُّدٍ، والمقام يتوصَّل إليه بنوع كسبٍ وطلبٍ، فالأحوال عندهم مواهب، والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأمَّا الحال فمن عين الجود.

(١) لفظة (به): ساقطة من المنار.

(٢) في «ع» والمنار: (به).

ولمَّا دخل الواسطيُّ نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: «بِمَاذَا كَانَ يَأْمُرُكُمْ شَيْخُكُمْ؟ فَقَالُوا: كَانَ يَأْمُرُ بِالتَّزَامِ الطَّاعَاتِ، وَرُؤْيِيَةِ التَّقْصِيرِ فِيهَا، فَقَالَ: أَمَرَكُمْ بِالمَجُوسِيَّةِ المَحْضَةِ، هَلَّا أَمَرَكُمْ بِالعَيْبَةِ عَنْهَا بِرُؤْيِيَةِ مُنْشِئِهَا وَمُجْرِيهَا؟!».

قلت: لم يأمرهم أبو عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَّا بِالحَنِيفِيَّةِ المَحْضَةِ، وَهِيَ القِيَامُ بِالأَمْرِ وَمطالعة التَّقْصِيرِ فِيهِ، وَليس فِي هَذَا مِنْ رَائِحَةِ المَجُوسِيَّةِ شَيْءٌ؛ فَإِنَّهُ إِذَا بَذَلَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ صَانَهُ ذَلِكَ عَنِ الاتِّحَادِ وَالشُّرْكِ، وَإِذَا شَهِدَ تَقْصِيرَهُ فِيهَا صَانَهُ عَنِ الإِعْجَابِ؛ فَيَكُونُ قَائِمًا بِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وَأَمَّا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الوَاسِطِيُّ^(١): فَمَشْهَدُ الفَنَاءِ؛ وَلا رَيْبَ أَنَّ مَشْهَدَ البَقَاءِ أَكْمَلُ^(٢)؛ فَإِنَّ مَنْ غَابَ عَنِ طَاعَاتِهِ لَمْ يَشْهَدْ تَقْصِيرَهُ فِيهَا، وَمِنْ تَمَامِ العِبُودِيَّةِ شَهِودُ التَّقْصِيرِ؛ فَمَشْهَدُ أَبِي عُثْمَانَ أَتَمُّ مِنْ مَشْهَدِ الوَاسِطِيِّ.

وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن إسماعيل النيسابوريُّ من جِلَّةِ^(٣) شيوخ القوم وعارفيهم، وكان يقال: فِي الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ، لا رَابِعَ لَهُمْ: أَبُو عُثْمَانَ النِّيسَابُورِيُّ بِنِيسَابُورِ^(٤)، وَالجَنِيدُ بِبَغْدَادِ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الجَلَّا بِالسَّامِ، وَهوَ كَلَامٌ رَفِيعٌ عَالٍ فِي التَّصَوُّفِ وَالمَعْرِفَةِ، وَكَانَ شَدِيدَ الوَصِيَّةِ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَتَحْكِيمِهَا وَلِزُومِهَا، وَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ مَرَّقَ ابْنَهُ قَمِيصًا عَلَى نَفْسِهِ؛ فَفَتَحَ أَبُو عُثْمَانَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ فِي السِّيَاقِ فَقَالَ: «يَا بَنِيَّ خَلَّافُ السُّنَّةِ فِي الظَّاهِرِ، عَلامَةُ رِيَاءٍ فِي البَاطِنِ».

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الإِضْطِرَارُ، وَالْوُقُوعُ فِي يَدِ^(٥) التَّقَطُّعِ الوَجْدَانِيِّ، أَوْ الإِخْتِيَّاسِ فِي بَيْدَاءِ قَبْدِ التَّجْرِيدِ، وَهَذَا فَقرُ الصُّوفِيَّةِ».

الاضطرار: شهود كمال الصَّرورة، والفاقة علمًا وحالًا. ويريد بالوقوع في يد التقطع وجداني: حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار، فهي منقطعة عن الأغيار، وحدانيَّة في نفسها، والوقوع في يدها الاستسلام والإذعان لها، والدُّخُولُ فِي رَقِّهَا.

(١) فِي «غ» وَالمَنَارِ: (رَحِمَهُ اللهُ).

(٢) فِي «غ» وَالمَنَارِ: (أَكْمَلُ مِنْهُ).

(٣) فِي «غ»: (أَجَلَةٌ).

(٤) جَمَلَةٌ (بِنِيسَابُورِ): غَيْرُ مَوْجُودَةٍ «غ» وَالمَنَارِ.

(٥) كَلِمَةٌ (يَدِ): سَاقِطَةٌ مِنْ «غ».

وقد تقدّم أنّ حضرة الجمع عندهم هي (١) شهود الحقيقة الكونية، ورؤيتها بنور الكشف، حيث يشهدها منشأ جميع الكائنات، والكائنات عدمٌ بالنسبة إليها.

«وأما (٢) الاحتباس في بیداء قيد التجريد».

فهو تجريد الفردانية أن يشهد معها غيرها، وهو الفناء عن شهود السوى.

وسمّي ذلك احتباساً لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار، وجعل للتجريد قيماً، وهو التقيّد بشهود الحقيقة.

وجعل القيد بیداء لوجهين:

- أحدهما: أنّ الأغيار تبيد فيه وتنعدم، ولا يكون معه سواه.
 - والثاني: لسعته وفضائه؛ فصاحب مشهده: في بیداء واسعة، وإن احتبس في قيد شهوده.
- وقوله: وهذا فقر الصوفيّة.
- قد يفهم منه: أنّ التّصوّف أعلى عنده من الفقر؛ فإنّ هذه الدرّجة الثالثة - التي هي أعلى درجات الفقر عنده - هي من بعض مقامات الصوفيّة.
- وطائفة تنازعه في ذلك، وتقول: التّصوّف دون هذا المقام بكثير، والتّصوّف وسيلة إلى هذا الفقر؛ فإنّ التّصوّف خلق، وهذا الفقر حقيقةٌ وغايةٌ لا غاية وراءها.
- وقد تقدّم ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة، وحكينا فيها ثلاثة أقوال، هذين.
- والثالث: أنّه لا يفضّل أحدهما على الآخر؛ فإنّ كلّ واحدٍ منهم لا تتمّ حقيقته إلا بالآخر، وهذا قول الشاميين، والله أعلم.

فصل

[منزلة الغنى العالی]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿منزلة الغنى العالی﴾.

وهو نوعان: غنى بالله، وغنى عن غير الله، وهما حقيقة الفقر، ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة.

(١) كلمة (هي): ساقطة من المنار.

(٢) كلمة (أما): ساقطة من المنار.

□ قال صاحب «المنازل» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بَابُ الْغِنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فَأَغْنَى ﴿٨﴾ [الضحى: ٨]».

وفي الآية ثلاثة أقوال:

- أحدها: أنه أغناه من المال بعد فقره، وهذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه قابله بقوله: ﴿عَائِلًا﴾، والعائل: هو المحتاج، ليس ذا العيلة، فأغناه من المال.

- والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه، وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

- والثالث: - وهو الصحيح - أنه يعمُّ النوعين: نوعي الغنى؛ فأغنى قلبه به، وأغناه من المال. ثم قال: «الغنى اسمٌ للملك التام».

يعني: أنه من كان مالكا من وجهٍ دون وجهٍ فليس بغني؛ وعلى هذا فلا يستحقُّ اسم الغني بالحقيقة إلا الله، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه بالذات.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: غِنَى الْقَلْبِ، وَهُوَ سَلَامَتُهُ مِنَ السَّبَبِ، وَمُسَالَمَتُهُ لِلْحُكْمِ، وَخِلَاصُهُ مِنَ الْخُصُومَةِ».

حقيقة غنى القلب: تعلقه بالله وحده، وحقيقة فقره المذموم تعلقه بغيره؛ فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاثة التي ذكرها.

«سَلَامَتُهُ مِنَ السَّبَبِ». أي: من التعلق به، لا من القيام به، والغنى عند أهل الغفلة بالسبب؛ ولذلك قلوبهم معلقة به، وعند العارفين بالمسبب، وكذلك الصناعة والقوة، فهذه الثلاثة: هي جهات الغنى عند الناس، وهي التي أشار إليها النبي ﷺ في قوله: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِغَنِيِّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»^(١) وفي رواية: «وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ» وهو غنى بالشئ؛ فصاحبها غني بها إذا سكنت نفسه إليها، وإن كان سكونه إلى ربِّه فهو غني به، وكلُّ ما سكنت النفس إليه فهي فقيرةٌ إليه. أشرف رجب

وَأَمَّا مُسَالَمَةُ الْحُكْمِ فَعَلَى نَوْعَيْنِ:

- أحدهما: مسالمة الحكم الدينيِّ الأمرِّي، وهي معانقته وموافقته، ضدَّ محاربتة.

(١) رواه الترمذي في «الزكاة»، باب: ما جاء من لا تحل له الصدقة، وقال: «حسن». ورواه أبو داود في «الزكاة»، باب: من لا يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٤٣٩).

- والثاني: مسالمة^(١) الحكم الكوني القدري، الذي يجري عليه بغير اختياره، ولا قدرة له على دفعه، وهو غير مأمور بدفعه.

وفي مسالمة الحكم نكتة لا بد منها: وهي تجريد إضافته ونسبته إلى من صدر عنه، بحيث لا ينسبه إلى غيره.

وهذا يتضمّن توحيد الربوبية في مسالمة الحكم الكوني، وتوحيد الإلهية في مسالمة الحكم الديني، وهما حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأما الخلاص من الخصومة فإنما يحمد منه: الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه، وأما إذا خاصم بالله والله فهذا من كمال العبودية، وكان النبي ﷺ يقول في استفتاحه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ»^(٢).

فصل

□ قال^(٣): «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: غِنَى النَّفْسِ، وَهُوَ اسْتِقَامَتُهَا عَلَى الْمَرْغُوبِ، وَسَلَامَتُهَا مِنَ الْحُظُوظِ، وَبِرَاءَتُهَا مِنَ الْمُرَاءَةِ».

جعل الشيخ^(٤) غنى النفس فوق غنى القلب.

ومعلوم، أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس، لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة، وهي أن النفس من جند القلب ورعيته، وهي من أشد جنده خلافاً عليه، وشقاً له، ومن قبلها تشوش عليه المملكة، ويدخل عليه الداخل، فإذا حصل له كمال بالغنى لم يتم له إلا بغناها أيضاً، فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه، وتشوش عليه غناه، فكان غناها تماماً لغناه وكمالاً له، وغناه أصلاً بغناها، فمنه يصل الغنى إليها، ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه.

إذا عرف هذا، فالشيخ^(٥) جعل غناها بثلاثة أشياء:

«اسْتِقَامَتُهَا عَلَى الْمَرْغُوبِ» وهو الحق تعالى، واستقامتها عليه: استدامة طلبه، وقطع المنازل

بالسير إليه.

(١) لفظ (مسالمة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) جزء من حديث تقدم تخريجه (١/٤٥).

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

- الثاني: «سَلَامَتُهَا مِنَ الْحُظُوظِ» وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله.
 - الثالث: «بَرَاءَتُهَا مِنَ الْمُرَاءَاةِ» وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها، فمراءاتها دليل على شدة فقرها وتعلقها بالخطوط من فقرها أيضًا.
 وعدم استقامتها على مطلوبها الحق: أيضًا من فقرها، وذلك يدل على أنها غير واجدة لله، إذ لو وجدته لاستقامت على السير إليه، ولقطعت تعلقاتها وخطوطها من غيره^(١)، ولما أرادت بعملها غيره. فلا تستقيم هذه الثلاثة إلا لمن قد ظفر بنفسه، ووجد مطلوبه، وما لم يجدر به تعالى فلا استقامة له، ولا سلامة لها من الخطوط، ولا براءة لها من الرياء.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الْغِنَى بِالْحَقِّ، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ: الْمُرْتَبَةُ الْأُولَى: شُهُودُ ذِكْرِهِ إِيَّاكَ. وَالثَّانِيَةُ: دَوَامُ مَطَالَعَةِ أَوْلِيَّتِهِ. وَالثَّلَاثَةُ: الْفَوْزُ بِوُجُودِهِ». أمَّا «شُهُودُ ذِكْرِهِ إِيَّاكَ» فقد تقدم قريبًا.
 وأمَّا «مَطَالَعَةُ أَوْلِيَّتِهِ» فهو سبقه للأشياء جميعًا؛ فهو الأول الذي ليس قبله شيء.
 قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا وقد رأيت الله قبله.
 فإن قلت: وأي غنى يحصل للقلب من مطالعة أولية الربّ وسبقه لكل شيء، ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد، من غني أو فقير؟! فما وجه الغنى الحاصل به؟
 قلت: إذا شهد القلب سبقه للأسباب، وأنها كانت في حيز العدم، وهو الذي كساها حلة الوجود، فهي معدومة بالذات، فقيرة إليه بالذات، وهو الموجود بذاته، والغنى بذاته لا بغيره، فليس الغنى في الحقيقة إلا به، كما أنه ليس في الحقيقة إلا له، فالغنى بغيره عين الفقر؛ فإنه غنى بمعدوم فقير، وفقير كيف يستغني بفقير مثله؟
 وأمَّا «الْفَوْزُ بِوُجُودِهِ» فإشارة القوم كلهم إلى هذا المعنى، وهو نهاية سفرهم.
 وفي الأثر الإلهي: «ابْنُ آدَمَ، أَطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِنْ وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِنْ فَتُكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».
 ومن لم يعلم معنى وجوده الله ﷻ والفوز به فليحُثْ على رأسه الرّماذ؛ وليبك على نفسه، والله أعلم.

(١) جملة (من غيره): ساقطة من «ع» والمنار.

فصل [منزلة المراد]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ منزلة المراد. أفردتها القوم بالذكر، وفي الحقيقة: فكلُّ مریدٍ مرادٌ، بل لم يصر مریداً إلا بعد أن كان مراداً، لكن القوم خصّوا المرید بالمتدئ، والمراد بالمتتهي. قال أبو عليّ الدقاق^(١): «المُرِيدُ مُتَحَمِّلٌ، وَالْمُرَادُ مَحْمُولٌ، وَقَدْ كَانَ مُوسَى ﷺ مُرِيداً، إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] وَنَبِيْنَا ﷺ مُرَادًا؛ إِذْ قِيلَ لَهُ: ﴿الَّذِينَ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]». وسئل الجنيد^(٢) عن المرید والمراد؟ فقال: «المُرِيدُ: يَتَوَلَّى سِيَاسَتَهُ الْعِلْمُ، وَالْمُرَادُ: يَتَوَلَّى رِعَايَتَهُ الْحَقُّ؛ لِأَنَّ الْمُرِيدَ يَسِيرُ، وَالْمُرَادَ يَطِيرُ؛ فَمَتَى يَلْحَقُ السَّائِرُ الطَّائِرَ؟!».

فصل

□ قال صاحب «المنازل»^(٣): «بَابُ الْمُرَادِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا الْعِلْمِ جَعَلُوا الْمُرِيدَ وَالْمُرَادَ اثْنَيْنِ، وَجَعَلُوا مَقَامَ الْمُرَادِ فَوْقَ مَقَامِ الْمُرِيدِ، وَإِنَّمَا أَشَارُوا بِاسْمِ الْمُرَادِ إِلَى الضَّانَيْنِ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِمُ الْخَبْرُ».

قلت: وجه استشهاده بالآية: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَلْقَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ كِتَابَهُ، وَخَصَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَأَهْلَهُ لِرِسَالَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَىٰ رَجَاءٍ، أَوْ نَالَهُ بِكَسْبٍ، أَوْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِعَمَلٍ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ أَرِيدُ بِهِ، فَهُوَ الْمُرَادُ حَقِيقَةً.

وقوله: «إِنَّ أَكْثَرَهُمْ جَعَلُوا الْمُرِيدَ وَالْمُرَادَ اثْنَيْنِ» فهو تعرُّضٌ إِلَىٰ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ اِكْتَفَىٰ عَنْ ذِكْرِ

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

مقام المراد بمنزلة الإرادة لأنَّ صاحبها مریدٌ مرادٌ.

وَأَمَّا إِشَارَتُهُمْ إِلَى الضَّانِّينِ: فالمراد به: حديثٌ يروى مرفوعاً إلى النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ ضَانِّينَ مِنْ خَلْقِهِ، يُحْيِيهِمْ فِي عَافِيَةٍ، وَيُمِيتُهُمْ فِي عَافِيَةٍ» (١).

والضَّانِّينَ: الخصائص، يقال: هو ضُنِّي من بين النَّاسِ - بكسر الضَّادِ -؛ أي: الَّذي أختصَّ به وأضنَّ بجودته؛ أي: أبخل بها أن أضيّعها.

وقد مثَّل للمريد والمراد بقومٍ بعث إليهم سلطانهم يستدعيهم إلى حضرته من بلادٍ نائيةٍ، وأرسل إليهم بالأدلة والأموال، والمراكب وأنواع الزَّاد، وأمرهم بأن يتجشَّموا إليه قطع السُّبُل والمفاوز، وأن (٢) يجتهدوا في المسير حتَّى يلحقوا به، وبعث خيلاً له ومماليك إلى طائفةٍ منهم، فقال: احملوهم على هذه الخيل الَّتِي تسبق الرُّكاب، واخدموهم في طريقهم، ولا تدعوهم يعانون مؤنة الشَّدِّ والرَّبط، بل إذا نزلوا فأريحوهم، ثمَّ احملوهم حتَّى تقدِّموهم عليّ.

فلم يجد هؤلاء من مجاهدة السَّير، ومكابدته، ووعثاء السَّفَر ما وجده غيرهم.

ومن النَّاسِ من يقول: المريد يتنقل من منزلة الإرادة إلى أن يصير مراداً فكان محبباً، فصار محبوباً، فكلُّ مریدٍ صادقٍ نهاية أمره أن يكون مراداً، وأكثرهم على هذا.

وصاحب «الْمَنَازِلِ» كأنَّ عنده المراد هو المجذوب، والمريد هو (٣) السَّالِكِ على طريق الجادة.

فصل

□ قال: «وَالْمُرَادِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: الْأُولَى: أَنْ يَعْصِمَ الْعَبْدَ وَهُوَ مُسْتَشْرِفٌ لِلْجَفَاءِ اضْطِرَّارًا بِتَنْغِيصِ الشَّهَوَاتِ، وَتَعْوِيقِ الْمَلَادِّ، وَسَدِّ مَسَالِكِ الْمَعَاطِبِ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا».

يعني: أنَّ العبد إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين سيِّده - بموافقة شهواته - عصمه سيِّده

(١) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٦٥)، وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه مسلم بن عبد الله الحمصي ولم أعرفه وجهله الذهبي، وبقية رجاله وثقوا».

(٢) كلمة (أن): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة (هو): غير موجودة في «غ» والمنار.

اضطراراً، بأن ينغص عليه الشّهوات، فلا تصفو له ألبتة، بل لا ينال ما ينال منها إلا مشوباً بأنواع التّنغيص، الذي ربّما أربى على لذتها واستهلكها، بحيث تكون اللذّة في جنب التّنغيص كالخلصة والغفوة، وكذلك يعوق الملاذّ عليه بأن يحول بينه وبينها، حتّى لا يركن إليها، ولا^(١) يطمئنّ إليها ويساكنها، فيحول بينه وبين أسبابها.

فإن هيئت له قيّض له مدافعٌ يحول بينه وبين استيفائها، فيقول: من أين ذهيت؟ وإنّما هي عين العناية والحميّة والصّيانة.

وكذلك يسدّ عنه طرق المعاصي؛ فإنّها طرق المعاطب، وإن كان كارهاً، عنايةً به، وصيانةً له.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَضَعَ عَنِ الْعَبْدِ عَوَارِضَ النَّقْصِ وَيُعَافِيَهُ مِنْ سِمَةِ اللَّائِمَةِ، وَيَمْلِكُهُ عَوَاقِبَ الْهَفَوَاتِ، كَمَا فَعَلَ بِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَتَلَ الْخَيْلَ^(٢) فَحَمَلَهُ عَلَى الرَّيْحِ الرَّخَاءِ، فَأَغْنَاهُ عَنِ الْخَيْلِ، وَفَعَلَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ، وَلَمْ يَعْتَبْ عَلَيْهِ كَمَا عَتَبَ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنُوحٍ^(٣) وَدَاوُدَ وَيُونُسَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

والفرق بين هذه الدرّجة والتي قبلها: أنّ في التي قبلها منعاً من مُواقعة أسباب الجفاء اضطراراً، وفي هذه: إذا عرضت له أسباب التّقيسة، التي يستحقّ عليها اللّائمة، لم يعتبه عليها ولم يلمه، وهذا نوعٌ من الدّلال، وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه؛ فإنّ الحبيب يُسامح بما لا يُسامح به سواه؛ لأنّ المحبّة أكبر شفعاؤه، وإذا هفا هفوةً ملّكه عاقبتها، بأن جعلها سبباً لرفعته، وعلوّ درجته، فيجعل تلك الهفوة سبباً لتوبةٍ نصوحٍ وذلٍّ خاصٍّ، وانكسارٍ بين يديه، وأعمالٍ صالحَةٍ تزيد في قربه منه أضعاف

(١) كلمة (لا): غير موجودة في «ع» والمنار.

(٢) روي عن الزهري وقتادة - وهو ظاهر رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما - أن مسح سليمان لسوق الخيل وأعناقها: كان بيده. لا بالسيف، ويؤيده سياق الآيات وحال ومنزلة سليمان رسول الله عليه الصلاة والسلام من الرسالة والحكمة المنافية لما قيل من قتله الخيل، وإتلافها، وفي نواصيها الخير، كما قال رسول الله، ثم إنه لم يثبت هذا الخبر بنقل صحيح. (الفتي بتصرف يسير).

(٣) لفظة (نوح): غير موجودة في «ع» والمنار.

ما كان عليه قبل الهفوة، فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسنات كثيرة، وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد، وكونه من أحبابه وحزبه.

وقد استشهد الشيخ^(١) بقصة سليمان عليه السلام حين ألهمته الخيل عن صلاة العصر، فأخذته الغضبّة الله والحميّة، فحملته على أن مسح عراقبها وأعناقها بالسيف، وأتلف مالا شغله عن الله في الله؛ فعوضه الله منه أن حمله على متن الرّيح، فملكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة، وجعلها سبباً لنيل تلك المنزلة الرّفيعة.

واستشهد بقصة موسى عليه السلام، حين ألقى الألواح - وفيها كلام الله - عن رأسه، وكسرها^(٢)، وجرّ بلحية أخيه، وهو نبيّ مثله، ولم يعاتبه^(٣) الله على ذلك كما عتب على آدم عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة، وعلى نوح في ابنه حين سأل ربّه أن ينجيه، وعلى داود في شأن امرأة أوريا^(٤). وعلى يونس في شأن المغاضبة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «وَكَذَلِكَ لَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ فَفَقَّأَهَا وَلَمْ يَعْتَبْ عَلَيْهِ رَبُّهُ، وَفِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ عَاتَبَ رَبُّهُ فِي النَّبِيِّ عليه السلام إِذْ رَفَعَهُ فَوْقَهُ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَبْهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: لِأَنَّ مُوسَى عليه السلام قَامَ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا الدَّلَالَ؛ فَإِنَّهُ قَاوَمَ فِرْعَوْنَ أَكْبَرَ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى^(٥)، وَتَصَدَّقَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ، وَعَالَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَ اللَّهِ أَشَدَّ الْجِهَادِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْعُزْبِ لِرَبِّهِ، فَاحْتَمَلَ لَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ لغيره».

وذو النون لما لم يكن في هذا المقام سجنه في بطن الحوت من غضبه، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) الذي في القرآن أنه ألقى الألواح فحسب، فمن أين أنه ألغها على رأسه فكسرها؛ وليس في إلقاءه الألواح وأخذه بلحية أخيه ورأسه ما يوجب العتب عليه؛ لأنه فعل ذلك غضباً لله تعالى لما رجع وشاهد بني إسرائيل على عبادة العجل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى﴾ [الأعراف: ١٥٤]... الآية.

(٣) في «غ» والمنار: (يعتبه).

(٤) قصة امرأة أوريا باطلة، من وضع اليهود، أعداء الله ورسوله، والخصمان والنعاج على الحقيقة، واستغفار داود لأنه انقطع في محرابه عن الناس والحكم بينهم، وفصل خصوماتهم، ووظيفته في الخلافة للفصل بين المتخاصمين عبادة في حقه. (الفقي).

(٥) في «غ» والمنار: (فإنه قاوم أكبر أعداء الله تعالى وهو فرعون).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: اجْتِبَاءُ الْحَقِّ عَبْدَهُ، وَاسْتِخْلَاصُهُ إِيَّاهُ بِخَالِصَتِهِ، كَمَا ابْتَدَأَ

مُوسَى، وَقَدْ خَرَجَ يَفْتَبِسُ نَارًا، فَاصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَبْقَى مِنْهُ رَسْمًا مُعَارًا».

قلت: الاجتباء: الاصطفاء، والإيثار، والتخصيص، وهو افتعال من جبيت الشيء: إذا حُزته (١)

وأحزته إليك؛ كجباية المال وغيره.

والاصطناع أيضًا: الاصطفاء والاختيار؛ يعني: أنه اصطفى موسى واستخلصه لنفسه، وجعله

خالصًا له من غير سبب كان من موسى، ولا وسيلة، فإنه خرج ليقتبس النار، فرجع وهو كليم الواحد القهار، وأكرم الخلق عليه، ابتداءً منه سبحانه، من غير سابقة استحقاق، ولا تقدّم وسيلة، وفي مثل هذا

قيل:

أَيُّهَا الْعَبْدُ كُنْ لِمَا لَسْتَ تَرْجُو مِنْ صَلَاحِ أَرْجَى لِمَا أَنْتَ رَاجِي
إِنَّ مُوسَى أَتَى لِيَقْتَبِسَ نَارًا مِنْ ضِيَاءِ رَأَى وَاللَّيْلُ دَاجِي
فَأَنْشَى رَاجِعًا وَقَدْ كَلَّمَهُ اللَّهُ لَهُ، وَنَاجَاهُ وَهُوَ خَيْرُ مُنَاجِي

وقوله: «وَأَبْقَى مِنْهُ رَسْمًا مُعَارًا».

يحتمل أن يريد بالرسم: البقية التي تقدّم (٢) بها عليه محمدٌ ﷺ، ورفع فوقه بدرجاتٍ لأجل

بقائها منه.

ويحتمل - وهو الأظهر -: أنه أخذه من نفسه، واصطنعه لنفسه، واختاره من بين العالمين،

وخصّه بكلامه، ولم يبق له من نفسه إلا رسمًا مجردًا يصحب به الخلق، وتجري عليه فيه أحكام البشرية، إتمامًا لحكمته، وإظهارًا لقدرته، فهو عاريةٌ معه، فإذا قضى ما عليه استردّ ذلك الرسم، وجعله من ماله، فتكمّلت إذ ذاك مرتبة الاجتباء ظاهرًا وباطنًا، حقيقةً ورسمًا، ورجعت العارية إلى مالكها الحقّ، الذي يرجع إليه الأمر كلّهُ، فكما ابتدأت منه عادت إليه.

وموسى ﷺ: كان في مظهر الجلال؛ ولهذا كانت شريعته شريعة جلالٍ وقهرٍ، أمروا بقتل

نفوسهم، وحرّمت عليهم الشُّحوم، وذوات الظفر وغيرها من الطّيّبات، وحرّمت عليهم الغنائم،

(١) كلمة (حزته) والواو بعدها ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (تقدمه).

وعَجَّلَ لهم من العقوبات ما عَجَّلَ، وحَمَلُوا من الأصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.
وكان موسى ﷺ من أعظم خلق الله هيبَةً ووقارًا، وأشدَّهم بأسًا وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله،
وكان لا يُسْتَطَاع النَّظَرُ إليه.

وعيسى ﷺ: كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل، ولا يحارب، وليس في شريعته قتالُ ألبتة، والنصاري يحرم عليهم دينهم القتال، وهم به عصاةً لشرعه؛ فإنَّ الإنجيل يأمرهم فيه أن من لطمك على خدِّك الأيمن فأدِّرْ له خدِّك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخَّرَكَ ميلاً فامش معه ميلين^(١)، ونحو هذا...، وليس في شريعتهم مشقَّةٌ، ولا آصارٌ، ولا أغلالٌ، وإنَّما النصاري ابتدعوا تلك الرهبانية من قِبَل أنفسهم، ولم تُكْتَبْ عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوَّة والعدل، والشدَّة في الله، وهذا اللين والرأفة والرَّحمة؛ وشريعته أكمل الشرائع، فهو نبيُّ الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأُمَّتُهُ أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات؛ ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا، وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا، وبالشدَّة في موضع الشدَّة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه؛ فيذكر الظلم ويحرِّمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَحَزْرًا وَسَيِّئَةً سَأَيْتُهَا﴾ فهذا عدلٌ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فهذا فضلٌ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريمٌ للظلم.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فهذا إيجابٌ للعدل وتحريمٌ للظلم: ﴿وَلَيْنَ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] نذب إلى الفضل.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَبَتُّمُ فَآلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [٢٧٦] تحريمٌ للظلم. ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ عدلٌ. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩، ٢٨٠] فضلٌ، وكذلك تحريم ما حرَّم على أُمَّتِهِ صيانةً وحمايةً.

حرَّم عليهم كلَّ خبيثٍ وضارٍّ، وأباح لهم كلَّ طيبٍ ونافعٍ، فتحريمه عليهم رحمةٌ، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلَّت عنه الأمم قبلهم، وهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمةٍ أخرجت للناس، وكَمَّل لهم من المحاسن ما فرَّقه في الأمم قبلهم، كما كَمَّل نبيهم ﷺ من المحاسن بما فرَّقه في الأنبياء قبله، وكَمَّل في كتابه من المحاسن بما فرَّقه في الكتب قبله، وكذلك في شريعته.

(١) ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى عن شريعة المسيح ﷺ موجودة في بعض الأناجيل التي في أيدي النصاري، وهي لا يوثق بها؛ فغاية ما ذكر أن يكون من أخبار بني إسرائيل التي قال فيها ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، وقال: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

فهؤلاء الصَّانِن وهم المَجْتَبُونَ الأخيار، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلهم شهداء على النَّاس؛ فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشَّاهدين على أممهم. وتفصيل تفضيل هذه الأُمَّة وخصائصها يستدعي سَفْرًا بل أسفَارًا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فصل [منزلة الإحسان]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ منزلة الإحسان. وهي لبُ الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكلُّ ما قيل من أوَّل الكتاب إلى هاهنا فهو من الإحسان.

□ قال صاحب «المنازل» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وقد استشهد على هذه المنزلة بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. «فَالْإِحْسَانُ: جَامِعٌ لِجَمِيعِ أَبْوَابِ الْحَقَائِقِ، وَهُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

أما الآية: فقال ابن عباسٍ والمفسِّرون: «هَلْ جَزَاءُ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا الْجَنَّةُ؟!».

وقد رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ قَرَأَ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [٦٠] ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يَقُولُ: هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ؟» (١).

وأما الحديث: فإشارةٌ إلى كمال الحضور مع الله ﷻ، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحَبَّته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

(١) عزاه السيوطي في «الدر الثمور» (٧١٤/٧) للحكيم الترمذي في «نوادير الأصول»، والدلمي في «مسند الفردوس»، وابن النجار في «تاريخه»، وفيه بشر بن الحسين الأصهباني قال ابن حبان في «المجروحين والضعفاء» (١٩٠/١)، يروي عن الزبير بن عدي بنسخة موضوعة ما لكثير حديث منها أصل... انظر: «تفسير البغوي» (٤٥٦/٧) ط: (طبعة دار طيبة).

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: الْإِحْسَانُ فِي الْقَصْدِ بِتَهْدِيهِ عِلْمًا، وَإِبْرَامِهِ عَزْمًا، وَتَصْنِيفِيَّتِهِ حَالًا».

يعني: إحسان القصد يكون (١) بثلاثة أشياء:

﴿أحدها: تهذيبه علمًا، بأن يجعله تابعًا للعلم على مقتضاه مهذبًا به، منقًى من شوائب الحظوظ، فلا يقصد إلا ما يجوز في العلم، والعلم هو اتباع الأمر والشرع.

﴿والثاني: إبرامه عزمًا، والإبرام: الإحكام والقوة؛ أي: يقارنه عزمٌ يمضيه، ولا يصحبه فتورٌ وتوانٍ يضعفه ويوهنه.

﴿الثالث: تصفيته حالًا؛ أي: يكون حال صاحبه صافيًا من الأكدار والشوائب، التي تدلُّ على كدر قصده؛ فإنَّ الحال مظهر القصد وثمرته، وهو أيضًا مادته وباعثه؛ فكلُّ منهما ينفعل عن الآخر؛ فصفاؤه وتخليصه من تمام صفاء الآخر وتخليصه.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِحْسَانُ فِي الْأَحْوَالِ، وَهُوَ أَنْ تُرَاعِيَهَا (٢) غَيْرَةً، وَتَسْتُرَهَا (٣) تَطْرَفًا، وَتُصَحِّحَهَا (٤) تَحْقِيقًا».

- يريد بمراعاتها: حفظها وصونها غيرَةً عليها أن تحول، فإنَّها تمرُّ مرَّ السَّحاب؛ فإن لم يرع حقوقها حالت، ومراعاتها بدوام الوفاء وتجنب الجفاء.

- ويراعئها أيضًا: بإكرام نزلها؛ فإنَّها ضيفٌ، والضَّيف إن لم تكرم نزله ارتحل.

- ويراعئها أيضًا: بضبطها ملكةً، وشدَّ يده عليها، وألَّا يسمح بها لقاطع طريق (٥) ولا ناهبٍ.

- ويراعئها أيضًا: بالانقياد إلى حكمها، والإذعان لسلطانها إذا وافق الأمر.

(١) كلمة (يكون): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (يراعئها).

(٣) في «غ» والمنار: (يسترها).

(٤) في «غ» والمنار: (يصححها).

(٥) كلمة (طريق): ساقطة من «غ» والمنار.

ويراعونها أيضًا: بسترها تظرفًا، وهو أن يسترها عن الناس ما أمكنه؛ لئلا يعلموا بها، ولا يظهرها إلا لحاجة، أو حاجة، أو مصلحة راجحة؛ فإن في إظهارها بدون ذلك آفات عديدة، مع تعريضها للصوص والسراق والمغيرين.

وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمقٌ وعجزٌ، وهو من حظوظ النفس والشيطان، وأهل الصدق والعزم لها أستر وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم، حتى إن منهم من يظهر أضعافها نفيًا وجحدًا، وهم أصحاب الملامية^(١)، ولهم طريقة معروفة، وكان شيخ هذه الطائفة عبد الله بن منازل. واتفقت الطائفة على أن من أطلع الناس على حاله مع الله فقد دس طريقته، إلا لحاجة أو حاجة أو ضرورة.

وقوله: «وَتَصْحِيحُهَا تَحْقِيقًا»؛ أي: يجتهد في تحقيق أحواله، وتصحيحها وتخليصها؛ فإن الحال قد يمتزج بحق وباطل، ولا يميزه إلا أولو البصائر والعلم.

وأهل هذه الطريق يقولون: إن الوارد الذي يتدنى العبد من جانبه الأيمن والهواتف والخطاب يكون في الغالب حقًا، والذي يتدنى من الجانب الأيسر يكون في الغالب باطلاً وكذبًا؛ فإن أهل اليمين هم أهل الحق، وبأيمانهم يأخذون كتبهم، ونورهم الظاهر على الصراط بأيمانهم، وكان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في تغلته وترجله، وظهره وشأنه كله^(٢)، والله وملائكته يصلون على ميامن الصنفوف^(٣)؛ وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله^(٤)، وحظه من ابن آدم جهة الشمال؛ ولهذا تكون اليد الشمال للاستجمار، وإزالة النجاسة والأذى، ويبدأ بالرجل الشمال^(٥) عند دخول الخلاء.

(١) في «غ» والمنار: (الملامية).

الملامية هم الذين لم يُظهروا مما في بواطنهم على ظواهرهم، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص... انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص ٢٩٥)، وسمو ملامية لأنهم يبالغون في إخفاء أحوالهم الباطنة حتى يفعلوا ما يلامون عليه ويوجب سوء الظن بهم، مثل أن يفعلوا بعض الحماقات ومما يقدر في المروءة حتى يظهروا للناس بمظهر الحمق البله، وهم بذلك في زعمهم يحققون الإخلاص.

(٢) رواه البخاري في «الوضوء»، باب: التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨)، ومسلم في «الطهارة»، باب: التيمن في الطهور وغيره (٢٦٨).

(٣) رواه أبو داود في «الصلاة بين السواري» (٦٧٦)، ورواه ابن ماجه في «إقامة الصلاة»، باب: إقامة الصنفوف (١٣٥) وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٦٢٨).

(٤) رواه مسلم في «الأشربة»، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامها (٢٠٢٠)، والترمذي في «الأطعمة»، باب: ما جاء في النهي عن الأكل والشرب بالشمال.

(٥) في «غ» والمنار: (ويبدأ بها).

- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ يبقى الإنسان بعد انفصاله نشيطًا مسرورًا نشوانًا، فإنه واردٌ ملكيٌّ، وكلُّ واردٍ يبقى الإنسان بعد انفصاله خبيث النَّفس كسلان، ثقیل الأعضاء والرُّوح، يجنح إلى فتورٍ فهو واردٌ شيطانيٌّ.
- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ أعقب في القلب معرفةً بالله، ومحبةً له، وأنسا به، وطمأنينةً بذكره، وسكونًا إليه؛ فهو ملكيٌّ إلهيٌّ، وخلافه بخلافه.
- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ أعقب صاحبه تقدمًا إلى الله تعالى والدار الآخرة، وحضورًا فيها، حتَّى كأنه يشاهد الجنة قد أزلفت، والجحيم قد سعرت؛ فهو إلهيٌّ ملكيٌّ، وخلافه شيطانيٌّ نفسانيٌّ.
- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ كان سببه النَّصيحة في امتثال الأمر، والإخلاص والصدق فيه؛ فهو إلهيٌّ ملكيٌّ، وإلا فهو شيطانيٌّ.
- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ استنار به القلب، وانشرح له الصدر، وقوي به القلب؛ إلهيٌّ ملكيٌّ، وإلا فهو شيطانيٌّ.
- ومن الفرقان أيضًا: أن كلَّ واردٍ جمعك على الله فهو منه، وكلَّ واردٍ فرَّقك عنه وأخذك عنه: فمن الشيطان.
- ومن الفرقان أيضًا: أن الوارد الإلهي لا يصرف إلا في قربة وطاعة، ولا يكون سببه إلا قربةً وطاعةً، فمستخرجه الأمر، ومصرفه (١) الأمر، والشيطاني بخلافه.
- ومن الفرقان أيضًا: أن الوارد الرَّحمان لا يتناقض، ولا يتفاوت ولا يختلف، بل يصدق بعضه بعضًا، والشيطاني بخلافه يكذب بعضه بعضًا، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: الإِحْسَانُ فِي الْوَقْتِ، وَهُوَ أَلَّا تُزَايِلَ الْمُشَاهَدَةَ أَبَدًا، وَلَا تَخْلِطَ بِهَيْمَتِكَ أَحَدًا، وَتَجْعَلَ هِجْرَتَكَ إِلَى الْحَقِّ سَرْمَدًا».

أي: لا تفارق حال الشُّهود، وهذا إنَّما يقدر عليه أهل التَّمَكُّن (٢) الَّذِينَ ظَفَرُوا بِنَفْسِهِمْ، وقطعوا المسافات التي بين النَّفس وبين القلب، والمسافات التي بين القلب وبين الله، بمجاهدة القطاع

(١) في «غ» والمنار: (ومصروفه).

(٢) في «غ» والمنار: (التمكين).

الَّتِي عَلَى تِلْكَ الْمَسَافَاتِ .

قوله: «وَلَا تَخْلُطَ بِهَمَّتِكَ أَحَدًا» يعني: أن تعلق همتك بالحق وحده، ولا تعلق همتك (١) بأحدٍ غيره؛ فإن ذلك شركٌ في طريق الصادقين.

قوله: «وَأَنْ تَجْعَلَ هِجْرَتَكَ إِلَى الْحَقِّ سَرْمَدًا» يعني: أن كل متوجهٍ إلى الله بالصدق والإخلاص، فإنه من المهاجرين إليه؛ فلا ينبغي أن يتخلف عن هذه الهجرة، بل ينبغي أن (٢) يصحبها سرمدًا، حتى يلحق بالله بِعَبْرَتِكَ.

فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي وَيَحْمَدُ غِبَّ السَّيْرِ مَنْ هُوَ سَائِرٌ

ولله على كل قلب هجرتان، وهما فرضٌ لازمٌ له على الأنفاس:

- هجرة إلى الله سبحانه: بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية.

- وهجرة إلى رسوله ﷺ: بالتحكيم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام

الظاهر والباطن من مشكاته؛ فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر في ظلم الليل ومتاهات الطريق (٣).

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحُثْ على رأسه الرماد، وليراجع الإيمان من أصله، فيرجع

وراءه ليقبَس (٤) نورًا، قبل أن يحال بينه وبينه، ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور، والله المستعان.

فصل

[منزلة العلم]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة العلم.

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه

فسلوكة على غير طريق، وهو مقطوعٌ عليه طريق الوصول، مسدودٌ عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقةٌ

(١) كلمة (همتك): غير موجودة في «غ».

(٢) جملة (ينبغي أن): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (الطرق).

(٤) في «غ» والمنار: (يقبَس).

عنه أباها، وهذا إجماعٌ من الشيوخ العارفين، ولم ينه عن العلم إلا قطع الطريق منهم، ونواب إبليس وشرطه.

قال سيّد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: «الطُّرُقُ كُلُّهَا مُسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا عَلَى مَنْ اقْتَفَى آثَارَ الرَّسُولِ صلّى الله عليه وآله».

وقال: «مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ، لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، لِأَنَّ عَلْمَنَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وقال: «مَذْهَبُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِأُصُولِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وقال أبو حفص رحمه الله: «مَنْ لَمْ يَزِنْ أَعْمَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَتَّبِعْ حَوَاطِرَهُ، فَلَا يُعَدُّ فِي دِيْوَانِ الرَّجَالِ».

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «رُبَّمَا يَقَعُ فِي قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نِكْتِ الْقَوْمِ أَيَّامًا، فَلَا أَقْبَلُ مِنْهُ إِلَّا بِسَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ: الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ».

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله^(١): «كُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ بَعِيرٍ اقْتِدَاءً طَاعَةً كَانَ أَوْ مَعْصِيَةً، فَهَوَّ عَيْشُ النَّفْسِ، وَكُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ بِالْإِقْتِدَاءِ فَهَوَّ عَذَابُ عَلَى النَّفْسِ»^(٢).

وقال السري: «التَّصَوُّفُ اسْمٌ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ: لَا يُطْفِئُ نُورَ مَعْرِفَتِهِ نُورَ وَرَعِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِبَاطِنٍ فِي عِلْمٍ يَنْقُضُهُ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكِتَابِ، وَلَا تَحْمِلُهُ الْكِرَامَاتُ عَلَى هَتِكِ أَسْتَارِ مَحَارِمِ اللَّهِ».

وقال أبو يزيد^(٣): «عَمِلْتُ فِي الْمُجَاهَدَةِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَا وَجَدْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنَ الْعِلْمِ وَمُتَابَعَتِهِ، وَلَوْ لَا اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ لَبَقِيْتُ، وَاخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةٌ، إِلَّا فِي تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ».

وقال مرةٌ لخدمته: «قُمْ بِنَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ شَهَرَ نَفْسَهُ بِالصَّلَاحِ لِنُزُورِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَسْجِدَ تَنَخَّعَ، ثُمَّ رَمَى بِهَا نَحْوَ الْقِبْلَةِ، فَجَعَلَ وَكَمْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: هَذَا غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَى أَدَبٍ مِنْ آدَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله، فَكَيْفَ يَكُونُ مَأْمُونًا عَلَيَّ مَا يَدْعِيهِ؟!».

وقال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِينِي مُؤَنَةَ النِّسَاءِ، ثُمَّ قُلْتُ: كَيْفَ يَجُوزُ لِي أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ هَذَا، وَلَمْ يَسْأَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله؟! وَلَمْ أَسْأَلْهُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ كَفَانِي مُؤَنَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى لَا أَبَالِي اسْتَقْبَلْتَنِي امْرَأَةٌ أَوْ حَائِطٌ».

(١) في «غ» والمنار: (رضي الله عنه).

(٢) لعله يقصد هنا أن المتابعة والاقْتِدَاءَ فيهما مجاهدة للنفس ومشقة لأن الشيطان يثقلها على النفس.

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

وقال: «لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَيَّ رَجُلٌ أُعْطِيَ مِنَ الْكِرَامَاتِ إِلَيَّ أَنْ يَرْتَفَعَ^(١) فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَعْتَرُوا بِهِ، حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ، وَأَدَاءِ الشَّرِيعَةِ».

وقال أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه: «مِنْ عَمَلٍ عَمَلًا بِلَا اتِّبَاعِ سُنَّةِ قَبَائِلٍ عَمَلُهُ». وقال أبو عثمان النيسابوري رضي الله عنه: «الصُّحْبَةُ مَعَ اللَّهِ بِحُسْنِ الْأَدَبِ، وَدَوَامِ الْهَيْبَةِ وَالْمُرَاقِبَةِ، وَالصُّحْبَةُ مَعَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَلِزُومِ ظَاهِرِ الْعِلْمِ، وَمَعَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِالْإِحْتِرَامِ وَالْخِدْمَةِ، وَمَعَ الْأَهْلِ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَمَعَ الْإِخْوَانِ بِدَوَامِ الْبِشْرِ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، وَمَعَ الْجُهَالِ بِالِدُّعَاءِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ». زاد غيره: «وَمَعَ الْحَافِظِينَ بِإِكْرَامِهِمَا وَاحْتِرَامِهِمَا، وَإِمْلَائِهِمَا مَا يَحْمَدَانِكَ عَلَيْهِ، وَمَعَ النَّفْسِ بِالْمُخَالَفَةِ، وَمَعَ الشَّيْطَانِ بِالْعِدَاوَةِ».

وقال أبو عثمان أيضًا: «مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]». وقال أبو الحسين الثوري: «مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَدْعِي مَعَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَالَةً تُخْرِجُهُ عَنْ حَدِّ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَلَا تَقْرَبُوا مِنْهُ».

وقال محمد بن الفضل البامجبي من مشايخ القوم الكبار^(٢): «ذَهَابُ الْإِسْلَامِ مِنْ أَرْبَعَةٍ: لَا يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا يَتَعَلَّمُونَ مَا يَعْمَلُونَ، وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ».

وقال عمرو بن عثمان المكي: «الْعِلْمُ قَائِدٌ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ، وَالنَّفْسُ حُرُونٌ بَيْنَ ذَلِكَ، جَمُوحٌ خَدَاعَةٌ رَوَّاعَةٌ، فَاحْذَرَهَا وَرَاعِهَا بِسِيَاسَةِ الْعِلْمِ، وَسُقْمَهَا بِتَهْدِيدِ الْخَوْفِ يَتِمُّ لَكَ مَا تُرِيدُ». وقال أبو سعيد الخزاز: «كُلُّ بَاطِنٍ يُخَالِفُهُ الظَّاهِرُ فَهُوَ بَاطِلٌ». وقال ابن عطاء: «مَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ آدَابَ السُّنَّةِ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِنُورِ الْمَعْرِفَةِ، وَلَا مَقَامَ أَشْرَفَ مِنْ مَقَامِ مُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ فِي أَوَامِرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ».

وقال: «كُلُّ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ فَاطَلَبْتَهُ فِي مَفَازَةِ الْعِلْمِ؛ فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي مَيْدَانِ الْحِكْمَةِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فَرِنُهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ فَاصْرَبْ بِهِ وَجْهَ الشَّيْطَانِ».

«وَأَلْقِي بَنَانُ الْحَمَالِ بَيْنَ يَدَيْ السَّبْعِ، فَجَعَلَ السَّبْعُ يَسْمُهُ وَلَا يَصُرُّهُ فَلَمَّا أُخْرِجَ^(٣) قِيلَ لَهُ: مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ حِينَ سَمَّكَ السَّبْعُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَنْفَكِرُ فِي اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي سُورِ السَّبْعِ».

(١) في «غ» والمنار: (يرفع).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) في «غ» والمنار: (خرج).

وقال أبو حمزة البغدادي - من أكابر الشيوخ، وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل: ما تقول يا صوفي؟ - «مَنْ عَلِمَ طَرِيقَ الْحَقِّ سَهَّلَ عَلَيْهِ سُلُوكَهُ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ إِلَّا مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ».

«وَمَرَّ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الْوَاسِطِيُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجَامِعِ؛ فَانْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِهِ، فَأَصْلَحَهُ لَهُ رَجُلٌ صَيْدَلَانِيٌّ، فَقَالَ: تَدْرِي لِمَ انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِي؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: لِأَنِّي مَا اغْتَسَلْتُ لِلْجُمُعَةِ، فَقَالَ: هَاهُنَا حَمَامٌ تَدْخُلُهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَدَخَلَ وَاغْتَسَلَ».

وقال أبو إسحاق الرقي - من أقران الجنيد: - «عَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ: إِثَارُ طَاعَتِهِ، وَمُتَابَعَةُ رَسُولِهِ (١) ﷺ».

وقال أبو يعقوب النهرجوري: «أَفْضَلُ الْأَحْوَالِ مَا قَارَنَ الْعِلْمَ».

وقال أبو القاسم النصرآبادي شيخ خراسان في وقته: «أَصْلُ التَّصَوُّفِ مُلَازِمَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ، وَتَعْظِيمُ كَرَامَاتِ الْمَشَايِخِ، وَرُؤْيَةُ أَعْدَارِ الْخَلْقِ، وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَوْرَادِ، وَتَرْكُ اِرْتِكَابِ الرُّخْصِ وَالتَّأْوِيلَاتِ».

وقال أبو بكر الطمستاني - من كبار شيوخ الطائفة: - «الطَّرِيقُ وَاضِحٌ، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قَائِمٌ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَفَضْلُ الصَّحَابَةِ مَعْلُومٌ، لِسَبْقِهِمْ إِلَى الْهَجْرَةِ وَلِصُحْبَتِهِمْ، فَمَنْ صَحِبَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَتَعَرَّبَ عَن نَفْسِهِ وَعَنِ الْخَلْقِ، وَهَاجَرَ بَقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ الصَّادِقُ الْمُصِيبُ».

وقال أبو عمرو بن نجيد: «كُلُّ حَالٍ لَا يَكُونُ عَن نَتِيجَةِ عِلْمٍ فَإِنَّ صَرَرَهُ عَلَى صَاحِبِهِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهِ».

وقال: «التَّصَوُّفُ: الصَّبْرُ تَحْتَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي».

وكان بعض أكابر الشيوخ المتقدمين يقول «يَا مَعْشَرَ الصُّوفِيَّةِ، لَا تُفَارِقُوا السَّوَادَ فِي الْبَيَاضِ تَهْلِكُوا» (٢).

وأما الكلمات التي تروى عن بعضهم من التزهيد في العلم، والاستغناء عنه.

كقول من قال: «نَحْنُ نَأْخُذُ عِلْمَنَا مِنَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَأَنْتُمْ تَأْخُذُونَهُ مِنْ حَيِّ يَمُوتُ».

وقول الآخر وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق، فقال: «مَا يَصْنَعُ بِالسَّمَاعِ مِنْ عَبْدِ الرَّزَاقِ مَنْ يَسْمَعُ مِنَ الْخَلْقِ!؟».

وقول الآخر: «الْعِلْمُ حِجَابٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ».

(١) في «غ» والمنار: (نبية).

(٢) لعله يقصد العلم المكتوب بالسواد على بياض الصفحات، والله أعلم.

وقول الآخر: «إِذَا رَأَيْتَ الصُّوفِيَّ يَشْتَعِلُ بِـ«أَخْبَرْنَا» وَ«حَدَّثْنَا» فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ».

وقول الآخر: «لَنَا عِلْمُ الْحَرْفِ، وَلَكُمْ عِلْمُ الْوَرَقِ».

ونحو هذا من الكلمات التي أحسن أحوال قائلها: أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، أو شاطحاً معترفاً بشطحه، وإلاً فلولا عبد الرزاق وأمثاله، ولولا «أخبرنا» و«حدَّثنا» لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدَّثنا» فقد أحالك إمّا على خيال صوفيٍّ، أو قياس فلسفيٍّ، أو رأي نفسيٍّ، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدَّثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوّفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضلّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنّة سوى الكتاب والسنة، وكلّ طريقٍ لم يصحبه دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم.

والعلم: ما قام عليه الدليل، والنافع منه: ما جاء به الرسول ﷺ، والعلم خيرٌ من الحال والعلم حاكمٌ، والحال محكومٌ عليه، والعلم هادٍ والحال تابعٌ، والعلم أمرٌ ناهٍ والحال منقذٌ قابلٌ، والحال سيفٌ إن لم يصحبه العلم فهو مخراقٌ في يد لاعبٍ، الحال مركبٌ لا يجارى فإن لم يصحبه علمٌ ألقى صاحبه في [المهالك] ^(١) والمتالف، والحال كالمال يؤتاه البرُّ والفاجر، فإن لم يصحبه نور العلم كان وبلاً على صاحبه.

الحال بلا علم كالسلطان الذي لا يزعجه عن سطوته وازعج.

الحال بلا علم كالنار التي لا سائس لها.

نفع الحال لا يتعدى صاحبه، ونفع العلم كالغيث يقع على الظراب والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه، وربّما ضاقت عنه. العلم هادٍ والحال الصحيح مهتدٍ به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثتهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال.

به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويؤخّد، ويحمد ويمجّد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

(١) في طبعة الفقي: (الممالك) والصواب ما أثبتته بين المعكوفتين، وهو الموجود في «غ» والمنار.

به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام وبه تعرف مرضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمامٌ والعمل مأمومٌ، وهو قائدٌ والعمل تابعٌ، وهو الصَّاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، والغني الذي لا فقر على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لا ضيعة على من آوى إلى حرزه.

مذكراته تسيخُ، والبحث عنه جهادٌ، وطلبه قرينةٌ، وبذله صدقةٌ، ومدارسته تعدل بالصَّيام والقيام؛ والحاجة إليه أعظم منها إلى الشَّراب والطَّعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «النَّاسُ إِلَى الْعِلْمِ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْتَاجُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ (١) فِي الْيَوْمِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الْعِلْمِ بَعْدَ أَنْفَاسِهِ». وروينا عن الشَّافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «طَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ». ونصَّ على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: «كُنْتُ بَيْنَ يَدَي مَالِكِ رضي الله عنه، فَوَضَعْتُ أَلْوَاحِي وَفُتُّتُ أَصْلِي، فَقَالَ: مَا الَّذِي فُتُّتَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلٍ مِمَّا فُتُّتَ عَنْهُ». ذكره ابن عبد البر وغيره. واستشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به، وهو التَّوْحِيدُ وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنه سبحانه لا يستشهد بمجروح.

ومن هاهنا - والله أعلم - يؤخذ الحديث المعروف: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْعَالِينَ، وَتَأْوِيلَ الْمُبْطِلِينَ» (٢).

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عبادِهِ، وقائدهم ودليلهم إلى جنَّته، ومُذْنِبِهِمْ مِنْ كَرَامَتِهِ. ويكفي في شرفه: أن فضل أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن الملائكة لتضع لهم أجنتها، وتظلمهم بها، وأنَّ العالم يستغفر له مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّى النَّمْلُ فِي جَحْرِهَا، وَأَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى مَعْلَمِي النَّاسِ الْخَيْرِ (٣).

(١) كلمة (والشراب): ساقطة من «غ».

(٢) ذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١٤٥)، وقد عزاه إلى البزار وقال: فيه عمرو بن خالد القرشي كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، ونسبه إلى الوضع والحديث له طرق أخرى كلها ضعيفة، ولكن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى قد ذكر بأن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قد صححه «عن هامش البد» لابن وضاح (ص ١، ٢). انظر: «مدارج السالكين» ت: البغدادي (٢/٤٤١).

(٣) سبق تخريجه (١/١٥٥).

ولقد رحل كلِّيم الرَّحمن موسى بن عمران - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - في طلب العلم هو وفتاه، حتَّى مسَّهما النَّصَب في سفرهما في طلب العلم، حتَّى ظفر بثلاث مسائل، وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].
 وحرَّم الله صيد الجوارح الجاهلة، وإنَّما أباح للأُمَّة صيد الجوارح العالمة^(١)، فهكذا جوارح الإنسان الجاهل لا يجدي عليه صيدها من الأعمال شينًا، والله ﷻ أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رَحِمَهُ اللهُ: «الْعِلْمُ مَا قَامَ بِدَلِيلٍ، وَرَفَعَ الْجَهْلُ».

يريد: أن للعلم علامة قبله، وعلامة بعده، فعلامته قبله: ما قام به الدليل، وعلامته بعده رفع الجهل.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: عِلْمٌ جَلِيٌّ، بِهِ يَقَعُ الْعِيَانُ، وَاسْتِفَاضَةُ صَحِيحَةٍ، أَوْ صِحَّةُ تَجْرِبَةٍ قَدِيمَةٍ».

يريد بالجلِّي: الظَّاهر، الَّذِي لَا خَفَاءَ بِهِ، وَجَعَلَهُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

- أحدها: ما وقع عن عيان، وهو البصر.
 - والثَّاني: ما استند إلى السَّمع، وهو علم الاستفاضة.
 - والثَّالث: ما استند إلى العقل، وهو علم التَّجربة.
- فهذه الطُّرق الثلاثة - وهي السَّمع، والبصر، والعقل - هي طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيما ذكره؛ فإنَّ سائر الحواسِّ توجب العلم.
 وكذا ما يدرك بالباطن، وهي الوجدانيَّات.
 وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصَّادق، وإن كان واحدًا.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُجِلَّ لَهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَكُمْ أَطْيَبْتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤] فصيد الكلب المعلم مباح وغير المعلم حرام.

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

فالعلم لا يتوقف على هذه الثلاثة التي ذكرها فقط.

والفرق بينه وبين المعرفة من وجوه ثلاثة.

- أحدها: أن المعرفة لب العلم، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلى الإحسان، وهي علم

خاص، متعلقها أخفى من متعلق العلم وأدق.

- والثاني: أن المعرفة هي العلم الذي يراعيه صاحبه بموجبه ومقتضاه، فهي (١) علم تتصل به

الرعاية.

- والثالث: أن المعرفة شاهد لنفسها، وهي بمنزلة الأمور الوجدانية، التي لا يمكن صاحبها أن

يشك فيها، ولا ينتقل عنها.

وكشف المعرفة أتم من كشف العلم، والله ﷻ أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: عِلْمٌ خَفِيٌّ، يَنْبُتُ فِي الْأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ مِنَ الْأَبْدَانِ الزَّائِكِيَةِ،

بِمَاءِ الرِّيَاضَةِ الْخَالِصَةِ، وَيُظْهِرُ فِي الْأَنْفَاسِ الصَّادِقَةِ، لِأَهْلِ الْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ، فِي

الْأَحْيَانِ الْخَالِيَةِ، وَالْأَسْمَاعِ الصَّاحِيَةِ، وَهُوَ عِلْمٌ يُظْهِرُ الْغَائِبَ، وَيُغَيِّبُ الشَّاهِدَ،

وَيُشِيرُ إِلَى الْجَمْعِ».

يعني: أن هذا العلم خفي على أهل الدرجة الأولى، وهو المسمى بالمعرفة عند هذه الطائفة.

قوله: «يَنْبُتُ فِي الْأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ».

لفظ السر يطلق في لسانهم ويراد به أمور:

- أحدها: اللطيفة المودعة في هذا القلب، التي حصل بها (٢) الإدراك والمحبة والإرادة

والعلم، وذلك هو الروح.

- الثاني: معنى قائم بالروح، نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، وغالبًا ما يريدون به هذا

المعنى.

(١) في «غ» والمنار: (فهو).

(٢) في «غ» والمنار: (له).

وعندهم: أن القلب أشرف ما في البدن، والرُّوح أشرف من القلب، والسِّرُّ أَلطف من الرُّوح. وعندهم: للسِّرُّ سرٌّ آخر لا يَطَّلَعُ عليه غير الحقِّ سبحانه، وصاحبه لا يَطَّلَعُ عليه، وإن أطلَّع على سرِّه، فيقولون: السِّرُّ ما لك عليه إشرافٌ، وسرُّ السِّرِّ ما لا أطلَّاع عليه لغير الحقِّ سبحانه.

- والمعنى الثالث: يراد به ما يكون مصونًا مكتومًا بين العبد وبين ربِّه، من الأحوال والمقامات.

كما قال بعضهم: «أَسْرَارُنَا بِكُرِّ لَمْ يَفْتَضَّهَا وَهُمْ وَاهِمٌ».

ويقول قائلهم: «لَوْ عَرَفَ زِرِّي سِرِّي لَطَرَحْتُهُ».

والمقصود بقوله: «يَنْبُتُ فِي الْأَسْرَارِ الطَّاهِرَةِ» يعني: الطَّاهِرة من كدر الدُّنيا والاشتغال بها، وعلائقها الَّتِي تعوق الأرواح عن ديار الأفرح؛ فإنَّ هذه أكَدارٌ، وتنفُساتٌ في وجه مرآة القلب والرُّوح، فلا تنجلي فيها صور الحقائق كما ينبغي، والنفس تنفَس فيها دائمًا بالرَّغبة في الدُّنيا والرَّهبة من فوتها؛ فإذا جلَّبت المرآة بإذهاب هذه الأكَدار صفت، وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

وَأَمَّا الْأَبْدَانُ الزَّكِيَّةُ.

فهي الَّتِي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال، فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشريَّة الَّتِي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وظهرت الأنفس من علائق الدُّنيا، زكت أرض القلب، فقبلت بذر العلوم والمعارف، فإنَّ سُقيت بعد ذلك بماء الرِّياضة الشَّرعية النَّبويَّة المحمَّديَّة وهي الَّتِي لا تخرج عن علمٍ، ولا تبعد عن واجبٍ ولا تعطِّل سنَّةً أنبتت من كلِّ زوج كريمٍ، من علمٍ وحكمةٍ وفائدةٍ وتعريفٍ، فاجتنى منها صاحبها ومن جالسها أنواع الطُّرف والفوائد، والثَّمار المختلفة الألوان والأذواق، كما قال بعض السَّلف: إذا عقدت القلوب على ترك المعاصي: جالت في الملكوت، ثمَّ رجعت إلى أصحابها بأنواع التُّحف والفوائد.

قوله: «وَتَظْهَرُ فِي الْأَنْفَاسِ الصَّادِقَةِ» يريد بالأنفاس أمرين:

- أحدهما: أنفاس الذِّكر والمعرفة.

- والثَّاني: أنفاس المحبَّة والإرادة، وما يتعلَّق^(١) بالمعروف المذكور، وبالمحجوب المراد من

الذَّاكر والمحبِّ.

وصدقها: خلوصها من شوائب الأغيار والحظوظ.

وقوله: «لِأَهْلِ الْهَيْمَمِ الْعَالِيَةِ» فهي الَّتِي لا تقف دون الله ﷻ، ولا تعرِّج في سفرها على شيءٍ

سواه، وأعلى الهيمم: ما تعلَّق بالعلِّيِّ الأعلى، وأوسعها: ما تعلَّق بصلاح العباد، وهي همم الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم وورثتهم.

(١) في «غ» والمنار: (وهي ما).

وقوله: «فِي الْأَحْيَانِ الْخَالِيَةِ».

يريد بها: ساعات الصّفاء مع الله تعالى، وأوقات النّفحات الإلهية، التي من تعرّض لها يوشك ألا يحرّمها، ومن أعرّض عنها فهي عنه أشدّ إعراضاً.

وقوله: «فِي الْأَسْمَاعِ الصّٰخِيَةِ» فهي التي صحت من تعلّقها بالباطل واللّغو، وأصاحت لدعوة الحقّ، ومنادي الإيمان؛ فإنّ الباطل واللّغو خمر الأسماع والعقول، فصحوها بتجنّبها والإصغاء إلى دعوة الحقّ.

قوله: «وَهُوَ عِلْمٌ يُظْهِرُ الْعَائِبَ»؛ أي: يكشف ما كان غائباً عن العارف.

قوله: «وَيُغَيِّبُ الشّٰهَدَ»؛ أي: يغيبه عن شهود ما سوى مشهوده الحقّ.

«وَيُشِيرُ إِلَى الْجَمْعِ» وهو مقام الفردانية، وضمحلل الرّسوم، حتّى رسم الشّاهد نفسه، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال الدرّجة الثالثة: «عِلْمٌ لَدُنِّي، إِسْنَادُهُ وَجُودُهُ، وَإِدْرَاكُهُ عِيَانُهُ، وَنَعْتُهُ حُكْمُهُ،

لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَيْبِ حِجَابٌ».

يشير القوم بالعلم اللدني إلى ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام وغير واسطة موسى^(١)، قال الله تعالى: ﴿ءَايَاتِنَا رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [الكهف: ٦٥].

وفرق بين الرّحمة والعلم، وجعلهما من عنده ومن لدنه؛ إذ لم ينلها على يد بشر، وكان من لدنه أخصّ وأقرب من عنده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِن لَّدُنكَ سُلْطٰنًا نّٰصِرًا﴾ ﴿٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠]، فالسلطان النّصير الذي من لدنه سبحانه أخصّ وأقرب ممّا عنده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِن لَّدُنكَ سُلْطٰنًا نّٰصِرًا﴾ ﴿٨٠﴾. وهو^(٢) الذي أيّده به، والذي من عنده: نصره

(١) الصحيح أن الخضر عليه السلام كان عبداً نبياً يوحى إليه كما يوحى إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو على شريعة غير شريعة موسى عليه السلام؛ ولهذا قال لموسى عليه السلام في الحديث الطويل «يا موسى إني على علم من الله علمته لا تعلمه أنت...».

البخاري (١٢٢)، وأخرجه مسلم (٢٣٨٠).

(٢) في «ع» والمنار: (وهو نفسه).

بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

والعلم اللدني: ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمرٍ يخضه به، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام - وقد سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وآله بشيءٍ دون الناس؟ - فقال: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِلَّا فَهُمَا يُؤْتِيهِ اللهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ»^(١). فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني لكن من لدن مَنْ؟! وإنما يعرف كون العلم لدنيًا رحمانيًا بموافقته لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله عن ربّه عز وجل، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحمانيّ، ولدني شيطاني بطنائوي، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأما قصة موسى مع الخضر عليه السلام: فالتعلّق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الحادّ وكفرٍ مخرجٍ عن الإسلام، موجب لإراقة الدّم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته، ولو كان مأمورًا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه^(٢)؛ ولهذا قال له: «أَنْتَ مُوسَى نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ»^(٣).

ومحمّد صلى الله عليه وآله مبعوثٌ إلى جميع الثقلين، فرسالته عامّةٌ للجنّ والإنس، في كلّ زمانٍ، ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيّين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فإنّما يحكم بشريعة محمّد صلى الله عليه وآله.

فمن ادّعى أنّه مع محمّد صلى الله عليه وآله كالخضر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحدٍ من الأئمّة فليجدد إسلامه، وليتشهد شهادة الحقّ؛ فإنّه بذلك^(٤) مفارقٌ لدين الإسلام بالكلية، فضلًا عن أن يكون من خاصّة أولياء الله، وإنّما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه.

وهذا الموضع مقطّعٌ ومفرّقٌ بين زنادقة القوم، وبين أهل الاستقامة منهم، فحرّك تره^(٥).

(١) تقدم تخريجه (٦٢/١).

(٢) قد حقق العلماء المحققون - كالحافظ ابن حجر، وغيره من علماء السلف - أن الخضر كان رسولاً كموسى عليه السلام، والقرآن يشير إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٨٢]. (الفتي).

(٣) هو جزء من قصة الخضر مع موسى عليه السلام وقد رواها البخاري في «العلم»، باب: ما ذكر ذهاب موسى في البحر (٧٤) ورواها مسلم في «الفضائل»، باب: فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

(٤) كلمة (بذلك): ساقطة من «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (تري).

قوله: «إِسْنَادُهُ وَجُودُهُ».

يعني: أنَّ طريق هذا العلم: وجدانه، كما أنَّ طريق غيره هو الإسناد. و«إِدْرَاكُهُ عِيَانَهُ». أي: أنَّ هذا العلم لا يؤخذ بالفكر والاستنباط، وإنَّما يؤخذ عياناً وشهوداً. و«نَعْتُهُ حُكْمُهُ». يعني: أنَّ نعوته لا يوصل إليها إلاَّ به، فهي قاصرة عنه، يعني: أنَّ شاهده منه، ودليله وجوده، وإيَّته لَمِيَّتُهُ، فبرهان الإنَّ فيه، هو برهان اللَّمِّ (١)؛ فهو الدَّلِيل وهو المدلول، ولذلك لم يكن بينه وبين الغيوب حجابٌ، بخلاف ما دونه من العلوم؛ فإنَّ بينه وبين العلوم حجاباً. والذي يشير إليه القوم هو نورٌ من جناب المشهود، يمحو قوى الحواسِّ وأحكامها، ويقوم لصاحبها مقامها، فهو (٢) المشهود بنوره، ويفنى ما سواه بظهوره، وهذا عندهم معنى الأثر الإلهي: «فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ» (٣).

والعلم اللَّدْنِيُّ الرَّحْمَانِيُّ: هو ثمرة هذه الموافقة والمحبة التي أوجبها التَّقَرُّبُ بالتَّوَّافُلِ بعد الفرائض.

وَاللَّدْنِيُّ الشَّيْطَانِيُّ: ثمرة الإعراض عن الوحي، وتحكيم الهوى والشَّيْطَانِ، والله المستعان.

فصل

[منزلة الحكمة]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَبَدُّوْا يَاكَ نَسْتَعِيْثُ﴾ منزلة الحكمة.

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عن المسيح ﷺ: ﴿وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

(١) المراد بالإيَّية، والبرهان الإيَّي: الاستدلال بالمعلوم على العلة، وهو منسوب إلى «إنَّ» التوكيدية، وبالبرهان «اللمي» الاستدلال بالعلة على المعلوم، هو منسوب إلى «لم؟» الاستفهامية، والمراد أن العلة والمعلوم متساويان في هذا العلم، أحدهما عين الآخر. (الفتي).

(٢) في «غ» والمنار: (فيري).

(٣) تقدم تخريجه (٣٦/٢).

الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقرنة بالكتاب؛ فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله».

وقال الضحاك: «هي القرآن والفهم فيه».

وقال مجاهد: «هي القرآن والعلم والفقه».

وفي رواية أخرى عنه: «هي الإصابتة في القول والفعل».

وقال النخعي: «هي معاني الأشياء وفهمها».

وقال الحسن: «الورع في دين الله» كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب: فهي السنة^(١)، كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وقيل: هي القضاء بالوحي، وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: «إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابتة في

القول والعمل».

وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية.

فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمراً، قدرًا

وشرعاً.

□ والعملية: كما قال صاحب «المنازل»: «وهي وضع الشيء في موضعه».

□ قال: «وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن تُعطي^(٢) كل شيء حقه ولا تعديه^(٣) حده، ولا تعجله^(٤) عن

وقته، ولا تؤخره^(٥) عنه».

لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعاً وقدرًا، ولها حدود ونهايات تصل إليها

ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن

(١) يعني: الهدى وسنن الأعمال والأخلاق والأحوال. (الفقي).

(٢) في «غ» والمنار: (يعطي).

(٣) في «غ» والمنار: (يعديه).

(٤) في «غ» والمنار: (يعجله).

(٥) في «غ» والمنار: (يؤخره).

تعطي (١) كلُّ مرتبةٍ حقَّها الَّذي أحقَّه الله بشرعه وقدره، ولا تتعدَّى (٢) بها حدَّها فتكون (٣) متعدِّياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب (٤) تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخِّرها (٥) عنه فتفوِّتها (٦). وهذا حكمٌ عامٌّ لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدرًا، فإضاعته تعطيُّ للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض.

وتعدُّي الحقُّ: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزَّرع ويفسد.

وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله.

وكذلك ترك الغذاء والشَّراب واللبَّاس: إخلالٌ بالحكمة، وتعدُّي الحدِّ المحتاج إليه، خروجٌ

عنها أيضًا، وتعجيل ذلك قبل وقته إخلالٌ بها، وتأخيرها عن وقته إخلالٌ بها.

فالحكمة إذن: فعل ما ينبغي، على الوجه الَّذي ينبغي، في الوقت الَّذي ينبغي.

والله تعالى أورث الحكمة آدمَ وبنيه، فالرَّجل الكامل من له إرثٌ كاملٌ من أبيه، ونصف الرَّجل

كالمرأة له نصف ميراثٍ، والتَّفاوت في ذلك لا يحصيه إلَّا الله تعالى.

وأكمل الخلق في هذا الرُّسل (٧) صلوات الله وسلامه عليهم، وأكملهم أولو العزم، وأكملهم

محمدٌ ﷺ؛ ولهذا امتنَّ الله ﷻ عليه، وعلى أمته بما آتاهم من الحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) [البقرة: ١٥١].

فكلُّ نظام الوجود مرتبطٌ بهذه الصِّفة، وكلُّ خلل في الوجود وفي العبد فسببه الإخلال بها،

فأكمل النَّاس أوفرهم منها نصيبًا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال أقلُّهم منها ميراثًا.

ولها ثلاثة أركانٍ: العلم، والحلم، والأناة.

وأفاتها وأضدادها: الجهل، والطَّيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهلٍ، ولا طائشٍ، ولا عجولٍ، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (يعطي).

(٢) في «غ» والمنار: (ولا يتعدى).

(٣) في «غ» والمنار: (فيكون).

(٤) في «غ» والمنار: (ولا يطلب).

(٥) في «غ» والمنار: (ولا يؤخرها).

(٦) في «غ» والمنار: (يفوتها).

(٧) في «غ» والمنار: (هم الرسل).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ تَشْهَدَ^(١) نَظَرَ اللَّهِ فِي وَعْدِهِ، وَتَعْرِفَ^(٢) عَدْلَهُ فِي حُكْمِهِ، وَتَلْحَظَ^(٣) بِرَّهُ فِي مَنْعِهِ».

أي: تعرف^(٤) الحكمة في الوعد والوعيد، وتشهد^(٥) حكمه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فتشهد^(٦) عدله في وعيده، وإحسانه في وعده، وكلُّ قائمٌ بحكمته.

وكذلك تعرف^(٧) عدله في أحكامه الشرعيَّة والكونيَّة الجارية على الخلاق، فإنه لا ظلم فيها، ولا حيف ولا جور، وإن أجراها على أيدي الظلمة، فهو أعدل العادلين، ومن جرت على يديه هو الظالم.

وكذلك «تَعْرِفُ^(٨) بِرَّهُ فِي مَنْعِهِ».

فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه، فما منع من منعه فضله إلا لحكمة كاملة في ذلك؛ فإنه الجواد الحكيم، وحكمته لا تناقض جوده، فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته، بقدر ما تقتضيه حكمته، ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدوا وهلكوا، ولو علم في الكفار خيرًا وقبولًا لنعمة الإيمان، وشكرًا له عليها، ومحبة له واعترافًا بها، لهداهم إلى الإيمان؛ ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿أَهْتُوا لِمَنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أجابهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «هم^(٩) الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قَدْرَ نِعْمَةِ

(١) في «غ» كل الأفعال تبدأ (بالياء) بدل (التاء).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر الحاشية السابقة.

(٦) انظر الحاشية السابقة.

(٧) انظر الحاشية السابقة.

(٨) في «غ» والمنار: (يعرف).

(٩) كلمة (هم): غير موجودة «غ» والمنار.

الإيمان، وَيَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَيْهَا».

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.
وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص رآه عين الحكمة، وما عمرت الدنيا والآخرة
والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس:

- أحدها: أنها مطابقة علمه لمعلومه، وإرادته ومشئته لمراده، هذا تفسير الجبرية، وهو في الحقيقة نفي حكمته؛ إذ مطابقة المعلوم والمراد أعلم من أن يكون حكمة أو خلافها، فإن السفيه من العباد يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده، مع كونه سفيهاً.
 - الثاني - مذهب القدرية النفاة -: أنها مصالح العباد ومنافعهم العائدة عليهم، وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة، وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.
 - الثالث - قول أهل الإثبات والسنة -: أنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقدر وخلق لأجلها؛ وهي صفته القائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.
- وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنْ تَبْلُغَ فِي اسْتِدْلَالِكَ الْبَصِيرَةَ، وَفِي إِزْشَادِكَ الْحَقِيقَةَ، وَفِي إِشَارَتِكَ الْغَايَةَ».

يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهي البصيرة التي تكون (١) نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٧٨] أي: أنا وأتباعي على بصيرة.

(١) في «غ» والمنار: (يكون).

وقيل: ﴿وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ عطفٌ على المرفوع بـ «أدعو» أي: أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن أتبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرة.

وعلى القولين فالآية تدلُّ على أنَّ أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة، فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى. وقوله: «وفي إرشادك الحقيقة» إمَّا أن يريد: أنك إذا أرشدت غيرك تبلغ في إرشاده إلى الحقيقة، أو تبلغ في إرشاد غيرك لك إلى الحقيقة، ولا تقف دونها.

فعلى الأول: المصدر مضافٌ إلى الفاعل، وعلى الثاني: إلى المفعول. والمعنى: أنك تكون من أهل الوجود الذين إذا أشاروا لم يشيروا إلا إلى الغاية المطلوبة التي ليس وراءها مرعى.

والقوم يسمُّون أخبارهم عن المعارف وعن المطلوب إشاراتٍ؛ لأنَّ المعروف أجلُّ من أن يفصح عنه بعبارة مطابقة، وشأنه فوق ذلك، فالكامل من إشارته إلى الغاية، ولا يكون ذلك إلا لمن فني عن رسمه وهواه وحظِّه، وبقي بربه ومراده الدينيِّ الأمرِيَّ وكلُّ أحدٍ، فإشارته بحسب معرفته وهمته، ومعارف القوم وهمهم تؤخذ من إشاراتهم، والله المستعان.

فصل

[منزلة الفراسة]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الفراسة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قال مجاهد رضي الله عنه: «المتفريسين».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لِلنَّاطِرِينَ».

وقال قتادة: «لِلْمُعْتَبِرِينَ».

وقال مقاتل: «لِلْمُتَفَكِّرِينَ».

ولا تنافي بين هذه الأقوال؛ فإنَّ النَّاطِرَ متى نظر في آثار ديار المكذِّبين ومنزلهم، وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسةً وعبرةً وفكرةً.

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾

[محمد: ٣٠].

فالأول: فراسة النَّظَر والعين.

والثاني: فراسة الأذن والسَّمْع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «علّق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلّق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط، بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم؛ فقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه».

واللحن ضربان: صوابٌ وخطأٌ.

فلحن الصّواب نوعان:

أحدهما: الفطنة، ومنه الحديث: «وَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ»^(١).

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريبٌ من الكناية، ومنه قول الشاعر:

وَحَدِيثُ أَلْدُهُ وَهُوَ مِمَّا يَشْتَهِي السَّامِعُونَ يُوزَنُ وَزَنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا نَا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَخَا

والثالث: فساد المنطق في الإعراب، وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إمّا إلى خطأ، وإمّا إلى

معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم؛ فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه؛ فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية^(٢)، والفراسة تتعلّق بالنوعين بالنظر والسَّمْع.

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ

يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». ثم تلا^(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُمْتٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ [الحجر: ٧٥]^(٤).

(١) هو جزء من حديث أوله: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي...» الحديث. أخرجه البخاري في الشهادات، باب: من

أقام البينة بعد اليمين (٢٤٥٨)، ومسلم في «الأفضية»، باب: الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣).

(٢) في «غ» والمنار: (أظهر من دلالة السيماء المرئية).

(٣) في «غ» والمنار: (قرأ).

(٤) الحديث ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٢١)، وقال: أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير»، والترمذي

(٤/١٣٢)، وابن جرير في «التفسير» (٣١/١٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣٩٦)، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه

إلا من هذا الوجه.

فصل

* والفراسة ثلاثة أنواع:

إيمانيَّة: وهي المتكلم فيها^(١) في هذه المنزلة.

- وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده، يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والحالي والعاقل، والصادق والكاذب.

- وحققتها: أنَّها خاطرٌ يهجم على القلب ينفي ما يضاؤه، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة، لكنَّ الفريسة فعيلةٌ بمعنى مفعولة، وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه الفراسة على حسب قوَّة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحدُ فِرَاسَةٍ.

قال أبو سعيد الخزاز: «مَنْ نَظَرَ بِنُورِ الْفِرَاسَةِ نَظَرَ بِنُورِ الْحَقِّ، وَتَكُونُ مَوَادُّ عِلْمِهِ مَعَ الْحَقِّ بِإِلَاسَهُوٍ وَلَا غَفْلَةٍ، بَلْ حُكْمُ حَقِّ جَرَى عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ».

وقال الواسطي: «الْفِرَاسَةُ: شَعَائِعُ أَنْوَارٍ لَمَعَتْ فِي الْقُلُوبِ، وَتَمَكَّنُ مَعْرِفَةَ جُمْلَةِ^(٢) السَّرَائِرِ فِي الْغُيُوبِ مَنْ غَيْبٍ إِلَى غَيْبٍ، حَتَّى يَشْهَدَ الْأَشْيَاءَ مِنْ حَيْثُ أَشْهَدَهُ الْحَقُّ إِيَّاهَا، فَيَتَكَلَّمُ عَنْ صَمِيرِ الْخَلْقِ».

وقال الداراني: «الْفِرَاسَةُ: مُكَاشَفَةُ النَّفْسِ وَمُعَايِنَةُ الْغَيْبِ، وَهِيَ مِنْ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ».

وسئل بعضهم عن الفراسة؟ فقال: «أَرْوَاحٌ تَتَقَلَّبُ فِي الْمَلَكُوتِ، فَتُشْرِفُ عَلَى مَعَانِي الْغُيُوبِ، فَتَنْطِقُ عَنْ أَسْرَارِ الْخَلْقِ، تُنْقِ مَشَاهِدَةً لَا تُنْقِ ظَنًّا وَحُسْبَانًا».

وقال عمرو بن نجد: «كَانَ شَاهُ الْكِرْمَانِيِّ حَادًّا الْفِرَاسَةَ لَا يُخْطِئُ، وَيَقُولُ: مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَأَمْسَكَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَعَمَرَ بَاطِنَهُ بِالْمُرَاقَبَةِ وَظَاهِرَهُ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَنَعَوَّدَ أَكْلَ الْحَلَالِ: لَمْ تُخْطِئْ فِرَاسَتُهُ».

وقال أبو جعفر الحداد: «الْفِرَاسَةُ أَوَّلُ خَاطِرٍ بِإِلَاسَةٍ مُعَارِضٍ، فَإِنْ عَارَضَهُ مُعَارِضٌ آخَرٌ مِنْ جَنْسِيهِ، فَهُوَ خَاطِرٌ وَحَدِيثٌ نَفْسٍ».

وقال أبو حفص النيسابوري: «لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَّعِي الْفِرَاسَةَ، وَلَكِنْ يَتَّقِي الْفِرَاسَةَ مِنَ الْغَيْرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ». وَلَمْ يَقُلْ تَفَرَّسُوا، وَكَيْفَ يَصِحُّ دَعْوَى الْفِرَاسَةَ

(١) جملة (المتكلم فيها) ساقطة من المنار.

(٢) «غ» والمنار: (حملة).

لِمَنْ هُوَ فِي مَحَلِّ اتِّقَاءِ الْفِرَاسَةِ؟!».

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «إِذَا جَالَسْتُمْ أَهْلَ الصِّدْقِ فَجَالِسُوهُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّهُمْ جَوَاسِيسُ الْقُلُوبِ، يَدْخُلُونَ فِي قُلُوبِكُمْ وَيَخْرُجُونَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُونَ». وكان الجنيد يوماً يتكلم على النَّاسِ؛ فوقف عليه شابُّ نصرانيٌّ متنكراً، فقال: أَيُّهَا الشَّيْخُ، مَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»؟ فأطرق الجنيد، ثمَّ رفع رأسه إليه وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك، فأسلم الغلام.

ويقال في بعض الكتب القديمة: «إِنَّ الصِّدِّيقَ لَا تُحْطَى فِرَاسَتُهُ».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: الْعَزِيزُ فِي يُوسُفَ، حَيْثُ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَوْتَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخُذَهُ﴾ وَلَدَا ﴿يُوسُفَ: ٢١﴾، وَابْنَةُ شُعَيْبٍ ^(١) حِينَ قَالَتْ لِأَيِّهَا فِي مُوسَى: ﴿اسْتَجِرْهُ﴾، وَأَبُو بَكْرٍ فِي عُمَرَ رضي الله عنه، حَيْثُ اسْتَخْلَفَهُ. وفي روايةٍ أُخرى: «وَأَمْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَتْ: ﴿فَرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٢٩]».

وكان الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أعظم الأئمة فِرَاسَةً.

وبعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووقائع فراسته مشهورة، فإنه ما قال لشيءٍ أظنه كذا إلا كان كما قال، ويكفي في فراسته: موافقته ربِّه في المواضع المعروفة.

«وَمَرَّ بِهِ سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ أَنَّ هَذَا كَاهِنٌ، أَوْ كَانَ يَعْرِفُ الْكِهَانَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؛ فَلَمَّا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ ذَلِكَ عُمَرُ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا اسْتَبَلْتُ أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِكَ بِمِثْلِ مَا اسْتَبَلْتَنِي بِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: مَا كُنَّا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ».

(١) قال الشيخ ابن سعدي رحمته الله: «وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟»

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يعرى موسى عنده ويكون خادماً له وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (١/ ٦١٤).

وَلَكِنْ أَخْبَرَنِي عَمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ^(١). فَقَالَ: صَدَقْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ كُنْتُ كَاهِنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ». ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ، وَكَذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَادِقُ الْفِرَاسَةِ.

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دَخَلْتُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكُنْتُ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي الطَّرِيقِ تَأَمَّلْتُ مَحَاسِنَهَا، فَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَدْخُلُ عَلَيَّ أَحَدُكُمْ وَأَثَرُ الزَّانَا ظَاهِرٌ فِي عَيْنَيْهِ، فَقُلْتُ: أَوْحِي بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: [لا] (٢)؛ وَلَكِنْ تَبْصِرَةٌ وَبُرْهَانٌ وَفِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ» (٣).

وَفِرَاسَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَصْدَقُ الْفِرَاسَةِ.

وَأَصْلُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْفِرَاسَةِ: مِنَ الْحَيَاةِ وَالنُّورِ اللَّذِينَ يَهْبِمُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَحْيَا الْقَلْبَ بِذَلِكَ وَيَسْتَنْبِرُ، فَلَا تَكَادُ فِرَاسَتُهُ تَخْطِي، قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] كَانَ مَيِّتًا بِالْكَفْرِ وَالْجَهْلِ، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَجَعَلَ لَهُ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ نُورًا يَسْتَضِيءُ بِهِ فِي النَّاسِ عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ، وَيَمْشِي بِهِ فِي الظُّلْمِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

* الْفِرَاسَةُ الثَّانِيَّةُ: فِرَاسَةُ الرِّيَاضَةِ وَالْجُوعِ، وَالسَّهْرِ وَالتَّخَلِّي:

فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْعَوَائِقِ صَارَ لَهَا مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالْكَشْفِ بِحَسَبِ تَجَرُّدِهَا، وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مَشْرُوكَةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا تَدُلُّ عَلَى إِيْمَانٍ وَلَا عَلَى وِلَايَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْجَهَّالِ يَغْتَرُّ بِهَا، وَلِلرُّهْبَانِ فِيهَا وَقَائِعٌ مَعْلُومَةٌ، وَهِيَ فِرَاسَةٌ لَا تَكْشِفُ عَنْ حَقِّ نَافِعٍ (٤)، وَلَا عَنْ طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ كَشَفَهَا جَزْئِيًّا مِنْ جِنْسِ فِرَاسَةِ الْوَلَاةِ، وَأَصْحَابُ عِبَارَةِ الرُّؤْيَا وَالْأَطْبَاءِ وَنَحْوِهِمْ.

وَلِلْأَطْبَاءِ فِرَاسَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ حَذَقِهِمْ فِي صِنَاعَتِهِمْ، وَمِنْ أَحَبِّ الْوُقُوفِ عَلَيْهَا فِلِيطَالُ تَارِيخِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، وَقَرِيبٌ مِنْ نِصْفِ الطَّبِّ فِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ، يَقْتَرِنُ بِهَا تَجْرِبَةٌ، وَاللَّهُ سَبِيحَانَهُ أَعْلَمُ.

(١) كلمة (عنه): غير موجودة في «ع» والمنار.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي، ومثبت في «ع» والمنار.

(٣) هذه روايات غير مستندة إلى ما يطمئن قلب المؤمن إليه، وبالأخص بالنسبة إلى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (الفقي) باختصار.

(٤) الأصح: أنها ليست فِرَاسَةً، فإنهم برياضتهم السحرية الشيطانية: أظلم خلق الله نفوسًا وقلوبًا، وإنما هي نوع من استمتاع الشياطين بهم واستمتاعهم بالشياطين، أو هي غباوة وبلادة من المخدوعين بهم. (الفقي).

فصل

* الفراسة الثالثة: الفراسة الخلقية:

وهي التي صنّف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلّوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله، كالأستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره [على كبره]^(١)، وبسعة الصدر، وبعد ما بين جانبيه على سعة خلق صاحبه، واحتماله وبسطته، وبضيقه على ضيقه، وبخمود العين وكلال نظرها على بلاهة صاحبها، وضعف حرارة قلبه، وبشدّة بياضها مع إشرابه بحمرة - وهو الشّكل - على شجاعته وإقدامه وفطنته، وبتدويرها مع حمرتها وكثرة تقلّبها على خيانتته ومكره وخداعه.

ومعظم تعلق الفراسة بالعين، فإنّها مرآة القلب وعنوان ما فيه، ثمّ باللسان، فإنّه رسوله وترجمانه، وبالأستدلال بزرقتها مع شقرة صاحبها على رداءته، وبالوحشة التي ترى عليها على سوء داخله^(٢) وفساد طويّته.

وكالأستدلال بإفراط الشّعر في السُّبوطه على البلاهة، وبإفراطه في الجعودة على الشّرّ، وباعتداله على اعتدال صاحبه.

وأصل هذه الفراسة: أنّ اعتدال الخلقة والصُّورة هو من اعتدال المزاج والرُّوح، وعن اعتدالها يكون اعتدال الأخلاق والأفعال، وبحسب انحراف الخلقة والصُّورة عن الاعتدال يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال.

هذا إذا خلّيت النّفس وطبيعتها.

ولكنّ صاحب الصُّورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره ولو أنّه من الحيوان البهيم؛ فيصير من أحبّث النّاس أخلاقاً وأفعالاً، وتعود له تلك طباعاً، ويتعدّر - أو يتعسّر - عليه الانتقال عنها.

وكذلك صاحب الخلقة والصُّورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقاً وأفعالاً شريفةً، تصير له كالطّبيعة؛ فإنّ العوائد والمزاويل تعطي المملكات والأخلاق. فليتأمل هذا الموضوع ولا يعجلّ بالقضاء بالفراسة دونه، فإنّ القاضي حينئذٍ يكون خطؤه كثيراً؛

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي، ومثبت من نسخة «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (داخلته).

فإن هذه العلامات أسبابٌ لا موجبةٌ، وقد تتخلف عنها أحكامها لفوات شرطٍ، أو لوجود مانعٍ.

وفراسة المتفرّس تتعلّق بثلاثة أشياء: بعينه، وأذنه، وقلبه.

فعينه: للسّيماء والعلامات.

وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه، ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمائه ونحو

ذلك.

وقلبه: للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيّته، فيعبر إلى ما وراء ظاهره كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكّة إلى باطن النقد والاطّلاع عليه هل هو صحيحٌ، أو زغلٌ؟ وكذلك عبور المتفرّس من ظاهر الهيئة والدّلل، إلى باطن الرّوح والقلب، فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصّيرفيّ ينظر للجوهر من ظاهر السكّة والنقد.

وكذلك نقد أهل الحديث؛ فإنّه يمرُّ^(١) إسنادٌ ظاهرٌ كالشمس على متنيّ مكذوبٍ، فيخرجه ناقدهم، كما يخرج الصّيرفيّ الرّغل من تحت الظّاهر من الفضة.

وكذلك فراسة التّمييز بين الصّادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله.

* وللفراسة سببان:

- أحدهما: جودة ذهن المتفرّس، وحده قلبه، وحسن فطنته.

- والثّاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرّس فيه؛ فإذا اجتمع السّببان لم تكد تخطئ للعبد

فراسةً، وإذا انتفيا لم تكد تصحّ له فراسةً، وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر كانت فراسته بين بين.

وكان إياس بن معاوية من أعظم النّاس فراسةً، وله الوقائع المشهورة، وكذلك الشّافعيّ رحمّه الله.

وقيل: إنّ له فيها تأليف.

ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمّه الله أمورًا عجيبةً، وما لم أشاهده منها أعظم

وأعظم، ووقائع فراسته تستدعي سفيرًا ضخماً.

أخبر^(٢) أصحابه بدخول التّار الشّام سنة تسع وتسعين وستّمائة، وأنّ جيوش المسلمين تُكسر،

وأنّ دمشق لا يكون بها قتلٌ عامٌّ ولا سبيٌّ عامٌّ، وأنّ كلب الجيش وحدّته في الأموال، وهذا قبل أن يهّم

التّار بالحركة.

ثمّ أخبر النّاس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لمّا تحرّك التّار وقصدوا الشّام أنّ الدّائرة

والهزيمة عليهم^(٣)، وأنّ الظّفّر والنّصر للمسلمين، وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينًا، فيقال له:

(١) في «غ» والمنار: (يمر به).

(٢) في «غ» والمنار: (وأخبر).

(٣) في «غ» والمنار: (أن الدائرة عليهم والهزيمة).

قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وسمعتة يقول ذلك، قال: فلماً أكثروا عليّ، قلت: لا تكثروا، كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ، أنّهم مهزومون في هذه الكرّة، وأنّ النّصر لجيوش الإسلام^(١)، قال: وأطمعت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النّصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو. وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين مثل المطر.

ولمّا طُلب إلى الديار المصريّة، وأريد قتله - بعدما أنضجت له القدور، وقبّلت له الأمور - اجتمع أصحابه لوداعه، وقالوا: قد تواترت الكتب بأنّ القوم عاملون على قتلك، فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبداً، قالوا: أفتحبس؟ قال: نعم، ويطول حبسي، ثمّ أخرج وأتكلّم بالسنة على رءوس النّاس، سمعتة يقول ذلك.

ولمّا تولّى عدوّه الملقّب بالجاشنكير الملك أخبروه بذلك، وقالوا: الآن بلغ مراده منك، فسجد لله شكراً وأطال، فقيل له: ما سبب هذه السّجدة؟ فقال: هذا بداية ذلّه ومفارقة عزّه من الآن، وقرب زوال أمره، فقيل: متى هذا؟ فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتّى تغلب دولته، فوقع الأمر مثل ما أخبر به، سمعت ذلك منه.

وقال مرّة: يدخل عليّ أصحابي وغيرهم، فأرى في وجوههم وأعينهم أموراً لا أذكرها لهم. فقلت له - أو غيري - لو أخبرتهم؟ فقال: أتريدون أن أكون معرّفاً كمعرف الولاية؟ وقلت له يوماً: «لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصّلاح، فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة، أو قال: شهراً».

وأخبرني غير مرّة بأمور باطنية تختصّ بي ممّا عزمت عليه، ولم ينطق به لساني. وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل، ولم يعين أوقاتها، وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها^(٢).

وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته، والله أعلم.

(١) قد ذكر شيخ الإسلام وغيره أن من خوارق العادات الخوارق العلمية وهي الكشفية، ومن جملة الخوارق بأنواعها ما هو من كرامات الأولياء، ومصدر هذا النوع من الكرامات - وهي الخوارق الكشفية - هو الأولياء الإيماني الرحماني، والعلم بسنن الله ﷺ التي لا تتبدل، وغلبة قوة الرجاء حتى إن من العباد من يقسم على الله تعالى في أمر فيحققه له كما قال ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»؛ ومن المصادر: قوة الفراسة ودقة الملاحظة والانتباه للقرائن، فما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى عن شيخه من هذه الأمور الغربية نعلم علم اليقين أن ابن القيم لم يكن كاذباً، ولم يكن شيخ الإسلام فيها قائلاً لها رجماً بالغيب، ولكنها من الخوارق التي هي من كرامات الأولياء، والله يؤتي فضله من يشاء.

(٢) انظر التعليق السابق.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رحمه الله: «الْفِرَاسَةُ: اسْتِنَاسٌ حُكْمٌ غَيْبٌ».

والاستئناس: استفعالٌ من أنست كذا، إذا رأيتَه، فإن أدركت بهذا الاستئناس حكم غيبٍ كان فِرَاسَةً، وإن كان بالعين كان رُؤْيَةً، وإن كان بغيرها من المدارك فبحسبها.

□ قوله: «مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلَالٍ بِشَاهِدِهِ».

هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب أمرٌ مشتركٌ بين البرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، كالاستدلال بالبروق والرُّعود على الأمطار، وكاستدلال رؤساء البحر بالكدر الذي يبدو لهم في جانب الأفق على ريحٍ عاصفٍ، ونحو ذلك، وكاستدلال الطَّيِّبِ بالسُّحْنَةِ والتَّفْسِرَةِ^(١) على حال المريض.

ويدقُّ ذلك حتَّى يبلغ إلى حدٍّ يعجز عنه أكثر الأذهان، وكما يستدلُّ بسيرة الرَّجُلِ وسيره على عاقبة أمره في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، فيطابق، أو يكاد.

فهذا خارجٌ عن الفِرَاسَةِ الَّتِي تتكلم فيها هذه الطائفة، وهو نوع فِرَاسَةٍ، لكنَّها غير فِرَاسَتِهِمْ، وكذلك ما علم بالتَّجَرِبَةِ من مسائل الطَّبِّ والصَّنَاعَاتِ والفلاحة وغيرها، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الْأُولَى: فِرَاسَةٌ طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ، تَسْقُطُ عَلَى لِسَانِ

وَحِشِّي فِي الْعُمُرِ مَرَّةً، لِحَاجَةِ سَمْعٍ مُرِيدٍ صَادِقٍ إِلَيْهَا، لَا يُتَوَقَّفُ عَلَى مُخْرِجِهَا،

وَلَا يُؤْبَهُ لِصَاحِبِهَا، وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَخْلُصُ مِنَ الْكِبَانَةِ وَمَا ضَاهَاهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تُشْرَ

عَنْ عَيْنٍ، وَلَمْ تَصْدُرْ عَنْ عِلْمٍ، وَلَمْ تُسَبِّقْ بِوُجُودٍ».

يريد بهذا النوع: فِرَاسَةٌ تجري على السنة الغافلين، الذين ليست لهم يقظة أرباب القلوب؛

فلذلك قال: «طَارِئَةٌ نَادِرَةٌ تَسْقُطُ عَلَى لِسَانِ وَحِشِّي»، الذي لم يأنس بذكر الله، ولا اطمأنَّ إليه قلب

(١) التفسر: اسم للبول الذي ينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل. انظر: «تهذيب اللغة» (١٤/٤٠٧).

صاحبه، فيسقط على لسانه مكاشفةً في العمر مرّةً، وذلك نادرٌ، ورميةٌ من غير رامٍ.
وقوله: «لِحَاجَةِ مُرِيدٍ صَادِقٍ».

يشير إلى حكمة إجرائها على لسانه، وهي حاجة المرید الصادق إليها، فإذا سمعها على لسان غيره كان أشدّ تنبيهاً له، وكانت عنده أعظم موقفاً.
وقوله: «لَا يُوقَفُ عَلَيَّ مُخْرَجِيهَا».

يعني: لا يعلم الشخص الذي وصلت إليه، واتصلت به، ما سبب مخرج ذلك الكلام؟ وإنما سمعه مقتطعاً ممّا قبله وممّا هيّجه.
«وَلَا يُؤَبِّهُ لِصَاحِبِهَا» لأنه ليس هناك.

قلت: وهذا من جنس الفأل، وكان رسول الله ﷺ يحبُّ الفأل ويعجبه (١) والطيرة من هذا، ولكنّ المؤمن لا يتطيّر، فإنّ التّطيّر (٢) شركٌ، ولا يصدّه ما سمع عن مقصده وحاجته، بل يتوكّل على الله ويثق به، ويدفع شرّ التّطيّر عنه بالتوكّل.
وفي «الصّحاحين» عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الطَّيْرَةُ شُرْكٌ»، وما منّا إلّا، ولكنّ الله يذهب بالتوكّل (٣).

وهذه الزيادة - وهي قوله: «وَمَا مِنَّا إِلَّا» يعني: من يعتره «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهَا بِالتَّوَكُّلِ» مدرجةٌ في الحديث من قول ابن مسعودٍ، وجاء ذلك مبيناً.
ومن له يقظةٌ يرى ويسمع من ذلك عجائب، وهي من إلقاء المَلَكِ تارةً على لسان النّاطق، وتارةً من إلقاء الشيطان.

فالإلقاء الملكيُّ: تبشيرٌ وتحذيرٌ وإنذارٌ.
والإلقاء الشيطانيُّ: تحزينٌ وتخويفٌ وشركٌ، وصدٌّ عن المطالب.
وصاحب الهمة والعزيمة لا يتقيّد بذلك، ولا يصرف إليه همّته، وإذا سمع ما يسرّه استبشر وقوي رجائوه وحسن ظنّه، وحمد الله، وسأله إتمامه، واستعان به على حصوله، وإذا سمع ما يسوءه

(١) رواه ابن ماجه في «الطب»، باب: من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة برقم (٣٥٣٦)، ورواه الإمام أحمد (٣٣٢/٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢٨٤٨).

(٢) في «غ» والمنار: (الطيرة).

(٣) رواه الترمذي في «السير»، باب: ما جاء في الطيرة وقال: «هذا حسن صحيح»، وأبو داود في «الطب»، باب: في الطيرة (٣٩١٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٠٩).

استعاذ بالله ووثق به، وتوكل عليه، ولجأ إليه، والتجأ إلى التوحيد، وقال: «اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»، «اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

ومن جعل هذا نُصْبَ قلبه، وعلّق به همّته كان ضرره به أكثر من نفعه.

قوله: «وَهَذَا شَيْءٌ لَا يَخْلُصُ مِنَ الْكُهَانَةِ».

يعني: أنّه من جنس الكهانة، وأحوال الكهّان معلومةٌ قديماً وحديثاً في إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون إليهم السّمع، ولم يزل هؤلاء في الوجود، ويكثرون في الأزمنة والأمكنة التي يخفى فيها نور النّبوة؛ ولذلك كانوا أكثر ما كانوا في زمن الجاهليّة، وكلُّ زمان جاهليّة وبلد جاهليّة وطائفة جاهليّة، فلهم نصيبٌ منها بحسب اقتران الشياطين بهم^(٢) وطاعتهم لهم، وعبادتهم إيّاهم.

وقوله: «وَمَا ضَاهَاهَا».

أي: وما شابهها من جنس الخطّ بالرّمْل، وضرب الحصى والودع، وزجر الطير، الذي يسمّونه السّانح والبارح، والقرعة الشّركيّة لا الشّرعيّة، والاستقسام بالأزلام، وغير ذلك ممّا تتعلّق به النّفوس الجاهليّة المشركة التي عاقبة أمرها خسراً وبواراً.

وقوله: «لِأَنَّهَا لَمْ تُشْرَعْ عَنْ عَيْنٍ».

أي: عن عين الحقيقة التي لا يصدر عنها إلّا حقٌّ؛ يعني: غير متّصلة بالله ﷻ.

وقوله: «وَلَمْ تَصُدَّرْ عَنْ عِلْمٍ».

يعني: أنّها ظنٌّ وحسبانٌ، لا عن علمٍ ويقينٍ، وصاحبها دائماً في شكٍّ، ليس على بصيرةٍ من أمره.

وقوله: «وَلَمْ تُسَبِّقْ بِوُجُودٍ».

أي: لم يسبقها وجود الحقيقة لصاحبها، بل هو فارغٌ بو^(٣) غير واجدٍ، بل فاقدٌ من غير أهل

الوجود، والله أعلم.

(١) رواه أحمد (٢/٢٢٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٠٨)، وقال: «ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات»، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٦٥) بدون: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت...» إلى آخر الحديث.

(٢) كلمة (بهم) ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (بل).

والبو: جلد حوار يحشى تبناً أو ثماماً أو حشيشاً لتعطف عليه الناقة إذا مات ولدها. انظر: «لسان العرب» (١/٣٩٢).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فِرَاسَةٌ تُجَنَّى عَنْ غَرَسِ الْإِيمَانِ، وَتَطَّلُعُ مِنْ صِحَّةِ الْحَالِ، وَتَلْمَعُ مِنْ نُورِ الْكَشْفِ».

هذا النوع من الفراسة مختص بأهل الإيمان؛ ولذلك قال: «تُجَنَّى مِنْ غَرَسِ الْإِيمَانِ» وشبه الإيمان بالغرسة، لأنه يزداد وينمو، ويزكو على السقي، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه، وأصله ثابت في الأرض، وفروعه في السماء، فمن غرس الإيمان في أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغراس (١) بماء الإخلاص والصدق والمتابعة كان من بعض ثمره هذه الفراسة.

قوله: «وَتَطَّلُعُ» (٢) مِنْ صِحَّةِ الْحَالِ».

يعني: أن صدق الفراسة من صدق الحال، فكلمًا كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك.

قوله: «وتلمع من نور الكشف» يعني (٣) أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة، بل أصلها نور الكشف.

وقوة الفراسة بحسب قوة هذا النور وضعفه، وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: فِرَاسَةٌ سَرِيَّةٌ، لَمْ تَجْتَلِمِهَا رَوِيَّةٌ عَلَى لِسَانِ مُصْطَنَعٍ تَصْرِيحًا أَوْ زَمْرًا».

يحتمل لفظ السريّة وجهين:

- أحدهما: الشرف؛ أي: فراسة شريفة؛ فإن الرجل السري هو الرجل الشريف، وجمعه سراة،

(١) كلمة (الغراس): غير موجودة في المنار.

(٢) في «غ» والمنار: (فتطلع).

(٣) كلمة (يعني): غير موجودة في «غ» والمنار.

ومنه - في أحد التاويلين - قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ [مريم: ٢٤] أي: سيِّداً مطاعاً، وهو المسيح، وعلى هذا يكون سرِّيَّة بوزن شريفة.
- والثاني: أن يكون من السِّرِّ، أي: فراسةً متعلِّقةً بالأسرار لا بالطَّواهر، فتكون سرِّيَّة بوزن شريفة ومكيثة^(١).

قوله: «لَمْ تَجْتَلِبْهَا رَوِيَّةً».

أي: لا تكون عن فكرة؛ بل تهجم على القلب هجوماً لا يعرف سببه.

قوله: «عَلَى لِسَانِ مُصْطَنَعٍ».

أي: مختارٍ مصطنعٍ على غيره.

«تَصْرِيحًا أَوْ رَمْزًا».

يعني: أن هذا المختار المصطنع يخبر بهذه الفراسة العالية عن أمورٍ مغيبة، تارةً بالتصريح، وتارةً بالتلويح، إمَّا سترًا لحاله، وإمَّا صيانةً لما أخبر به عن الابتدال، ووصوله إلى غير أهله، وإمَّا لغير ذلك من الأسباب، والله ﷻ أعلم.

فصل

[منزلة التعظيم]

ومن منازل ﴿يَاكَ تَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِيبُ﴾ منزلة التعظيم.

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرّبِّ تعالى في القلب، وأعرف النَّاسَ به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذمَّ الله تعالى من لم يعظّمه حقَّ عظمته، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا وصفه حقَّ صفته، وأقوالهم تدور على هذا، فقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قال ابن عباسٍ ومجاهدٌ: «لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً».

وقال سعيد بن جبّيرٍ: «مَا لَكُمْ لَا تُعْظِمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ؟»

وقال الكلبيُّ: «لَا تَخَافُونَ لِلَّهِ عَظَمَةً».

(١) قوله: (فتكون بوزن شريفة ومكيثة) ليس مناسباً لكلمة: سرية من السر بكسر السين، وتشديد الراء والياء، فإن سرية بوزن سريبة نسبة إلى السراب، وأما شريبة ومكيثة بفتح أولها فلا يكون بوزن سرية، والله أعلم.

قال البغوي: «وَالرَّجَاءُ بِمَعْنَى الْمَخَوْفِ (١)، وَالْوَقَارُ الْعِظَمَةُ، اسْمٌ مِنَ التَّوْقِيرِ، وَهُوَ التَّعْظِيمُ». وقال الحسن: «لَا تَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقًّا، وَلَا تَشْكُرُونَ لَهُ نِعْمَةً». وقال ابن كيسان: «لَا تَرْجُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ عَلَى تَوْقِيرِكُمْ إِيَّاهُ خَيْرًا». وروح العباد: هو الإجلال والمحبة؛ فإذا تخلَّى (٢) أحدهما عن الآخر فسدت؛ فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل» رَحِمَهُ اللهُ: «التَّعْظِيمُ: مَعْرِفَةُ الْعِظَمَةِ، مَعَ التَّدَلُّلِ لَهَا. وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الْأُولَى: تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهُوَ أَلَّا يُعَارِضَا بِتَرْخُصٍ جَافٍ، وَلَا يُعَرِّضَا لِتَشَدُّدٍ (٣) غَالٍ، وَلَا يُحْمَلَا عَلَى عِلَّةٍ تُوهِنُ الْإِنْقِيَادَ».

هاهنا ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي:

- أحدها: الترخُّص الذي يجنف بصاحبه عن كمال الامتثال.

- والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

- فالأول: تفريط.

- والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمرٍ إلَّا وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريطٍ وإضاعةٍ، وإمَّا إلى إفراطٍ وغلوٍ، ودين الله وسطٌ بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضاللتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أنَّ الجافي عن الأمر مضيِّعٌ له، فالغالي فيه مضيِّعٌ له، هذا بتقصيره عن الحدِّ، وهذا بتجاوزه الحدَّ (٤).

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) في «غ» والمنار: (الخوف).

(٢) في «غ» والمنار: (خلى).

(٣) في «غ» والمنار: (لتشديد).

(٤) في «غ» والمنار: (عن الحد).

والغلو نوعان:

- نوعٌ يخرجُه عن كونه مطيعاً، كمن زاد في الصلوة ركعةً، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشراً أو نحو ذلك عمداً.

- وغلوٌ يخاف منه الانقطاع والاستحسار؛ كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع، بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَيَسِّرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»^(١) يعني: استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة؛ فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسَّير فيها.

وقال ﷺ: «لِيُصَلَّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ»^(٢). رواهما البخاريُّ.

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنه قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» - قالها ثلاثاً - وهم المتعمقون المتشددون^(٣).

وفي «صحيح البخاري» عنه ﷺ: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»^(٤).

وفي «السنن» عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبَعْضَنَّ إِلَيَّ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ»^(٥). أو كما قال.

وقوله: «وَلَا يُحْمَلَا عَلَى عِلَّةٍ تُوهِنُ الْإِنْفِيَادَ».

يريد: ألا يتأول في الأمر والنهي علةً تعود عليهما بالإبطال، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه

(١) رواه البخاري في «الإيمان»، باب: الدين يسر (٣٩)، والنسائي في «الإيمان»، باب: الدين يسر (٨/١٢١-١٢٢)، وأحمد (٥١٤/٢).

(٢) رواه البخاري في «التهجد»، باب: ما يكره من التشديد في العبادة (١١٥٠)، ورواه أبو داود في الصلاة، باب: النعاس في الصلاة (١٣١٢).

(٣) رواه مسلم في «العلم»، باب: هلك المتنتعون (٢٦٧٠)، وأبو داود في «السنن»، باب: في لزوم السنة (٤٦٠٨).

(٤) رواه البخاري في «التهجد»، باب: ما يكره من التشديد في العبادة (١١٥١)، ومسلم في «صلاة المسافرين»، باب: أمر من نعس في صلاته (٧٨٥).

(٥) رواه أحمد (١٩٩/٢)، بدون: «وَلَا تُبَعْضَنَّ...» الحديث، وقال في «الفتح الرباني»: «وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» وعزاه للإمام أحمد فقط ورمز له بعلامة الصحة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٤٦).

معلّل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرّض للفساد، فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه، كما قيل:
 أَدْرَهَا فَمَا التَّحْرِيمُ فِيهَا لِذَاتِهَا وَلَكِنْ لِأَسْبَابِ تَضَمَّنَهَا السُّكْرُ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ سُكْرٌ يُضِلُّ عَنِ الْهُدَى فَسَيَانَ مَاءٌ فِي الرَّجَاجَةِ أَوْ خَمْرُ

وقد بلغ هذا بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملةً، وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معللاً بالإسكار، فله أن يشرب منه ما شاء^(١) ما لم يسكر. ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر؛ فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم؛ ولهذا كانت طريقة القوم عدم التعرّض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَا تَقُولُوا: لِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟ وَلَكِنْ قُولُوا: بِمَ أَمَرَ رَبُّنَا؟». وأيضاً: فإنه إذا لم يمثل الأمر حتى تظهر له علته، لم يكن منقاداً للأمر، وأقل درجاته: أن يضعف انقياده له.

وأيضاً: فإنه إذا نظر إلى حكم العبادات والتكاليف مثلاً، وجعل العلة فيها هي جمعية القلب، والإقبال به على الله، فقال: أنا أشتغل بالمقصود عن الوسيلة، فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أورد العبادات فعملها، وترك الانقياد بحمله الأمر على العلة التي أذهبت انقياده. وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي، وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله، فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله، فكم عطلت لله من أمر، وأباحت من نهي، وحرّمت من مباح؟! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: تَعْظِيمُ الْحُكْمِ: أَنْ يُبْنَى لَهُ عِوَجٌ، أَوْ يُدَافَعَ بِعِلْمٍ، أَوْ يَرْضَى بِعِوَضٍ».

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: تَتَضَمَّنُ تَعْظِيمَ الْحُكْمِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ تَتَضَمَّنُ تَعْظِيمَ الْحُكْمِ الْكُونِيِّ الْقُدْرِيِّ، وَهُوَ الَّذِي يَخْصُّهُ الْمَصْنُفُ بِاسْمِ الْحُكْمِ، وَكَمَا يَجِبُ

(١) جملة (ما شاء): ساقطة من «غ» والمنار.

على العبد أن يرعى حكم الله الديني بالتعظيم، فكذلك يرعى حكمه الكوني به، فذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء:

﴿أحدها: «أَلَا يُبْغِي لَهُ عَوْجٌ».

أي: يطلب له عوجٌ، أو يرى فيه عوجٌ، بل يراه كله مستقيماً؛ لأنه صادرٌ عن عين الحكمة، فلا عوج فيه، وهذا موضعٌ أشكل على الناس جداً.

- فقال نفاة القدر: ما في خلق الرحمن من تفاوتٍ ولا عوجٍ، والكفر والمعاصي مشتملةٌ على أعظم التفاوت والعوج؛ فليست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره.

- وقالت فرقةٌ تقابلهم: بل هي من خلق الرحمن وقدره، فلا عوج فيها، وكلُّ ما في الوجود مستقيمٌ.

والطائفتان ضالّتان، منحرفتان عن الهدى، وهذه الثانية أشدُّ انحرافاً؛ لأنها جعلت الكفر والمعاصي طريقاً^(١) مستقيماً لا عوج فيه، وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي، والحكم والمحكوم به هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه.

- وقول سلف الأمة وجمهورها: إنَّ القضاء غير المقضي، فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به، والمقضي مفعوله المبين له المنفصل عنه، وهو المشتمل على الخير والشرِّ، والعوج والاستقامة. فقضاؤه كُله حقٌّ، والمقضي منه حقٌّ ومنه باطلٌ، وقضاؤه كُله عدلٌ، والمقضي منه عدلٌ ومنه جورٌ، وقضاؤه كُله مرضيٌّ، والمقضي منه مرضيٌّ ومنه مسخوطٌ، وقضاؤه كُله مسالمٌ، والمقضي منه ما يسالم ومنه ما يحارب.

وهذا أصلٌ عظيمٌ تجب مراعاته، وهو موضعٌ مزلةٌ أقدامٍ كما رأيت، والمنحرف عنه إمّا جاهلٌ^(٢) للحكمة، أو القدرة، أو للأمر والشرع ولا بدَّ، وعلى هذا يحمل كلام صاحب «المنازل» رَحِمَهُ اللهُ: «أَلَا يُبْغِي لِلْحُكْمِ عَوْجٌ».

وأما قوله: «أَوْ يَدْفَعُ بِلَعْمٍ» فأشكَل من الأوّل؛ فإنَّ العلم مقدّمٌ على القدر، وحاكَمٌ عليه، ولا يجوز دفع العلم بالحكم.

(١) كلمة (طريقاً): غير موجودة (ع) والمنار.

(٢) في «ع» والمنار: (جاحد).

فأحسن ما يحمل عليه كلامه أن يقال: قضاء الله وقدره وحكمه الكوني لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني؛ بحيث تقع المدافعة بينهما؛ لأنَّ هذا مشيئته الكونية؛ وهذا إرادته الدينية، وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان، لكنَّ من تعظيم كلِّ منهما ألا يدافع بالآخر ولا يعارض^(١)، فإنَّهما وصفان للربِّ تعالى، وأوصافه لا يدافع^(٢) بعضها ببعض، وإن استعيذ ببعضها من بعض، فالكلُّ منه سبحانه، وهو المعيد من نفسه بنفسه.

كما قال أعلم الخلق به: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٣)، فريضة وإن أعاذ من سخطه فإنَّه لا يبطله ولا يدفعه^(٤)، وإنَّما يدفع تعلُّقه بالمستعيد، وتعلُّقه بأعدائه باقٍ غير زائل، فهكذا أمره وقدره سواء؛ فإنَّ أمره لا يبطل قدره، ولا قدره يبطل أمره، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به وأحبَّه، وهو أيضًا من قضائه، فما دفع قضاؤه إلا بقضائه وأمره، فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به، والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قدَّر دفعه وأمر به.

فتأمل هذا؛ فإنَّه محض العبودية والمعرفة، والإيمان بالقدر، والاستسلام له، والقيام بالأمر، والتنفيذ له بالقدر، فما نفَّذ المطيع أمر الله [إلا]^(٥) بقدر الله، ولا دفع مقدور الله إلا بقدر الله وأمره. وأما قوله: «وَلَا يَرْضَى بِعَوَضٍ».

أي: أن صاحب مشهد الحكم قد وصل إلى حدٍّ لا يطلب معه عوضًا، ولا يكون ممَّن يعبد الله بالعوض؛ فإنَّه يشاهد جريان حكم الله عليه، وعدم تصرُّفه في نفسه، وأنَّ المتصرِّف فيه حقًا هو مالكة الحق، فهو الذي يقيمه ويقعده، ويقبِّله ذات اليمين وذات الشمال، وإنَّما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه، وذلك منافٍ لتعظيمه؛ فمن تعظيمه: ألا يرضى العبد بعوضٍ يطلبه بعمله؛ لأنَّ مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه أن يرى لنفسه ما يعاوض عليه، فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الأمر، والله سبحانه أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (ويعارض).

(٢) في «غ» والمنار: (لا يدفع).

(٣) تقدم تخريجه (٢٥١/١).

(٤) في «غ» والمنار: (ويدفعه).

(٥) ما بين المعكوفتين ساقط من جميع النسخ، وقد أثبتته هنا لأن المعنى لا يستقيم إلا به، ووجدت هذه الزيادة بعد ذلك في الطبعة التي حققها بشير عيون (٤٩٦/٢).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: تَعْظِيمُ الْحَقِّ»^(١) سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَلَّا يَجْعَلَ دُونَهُ سَبَبًا، وَلَا يَرَى عَلَيْهِ حَقًّا، أَوْ يُنَازِعَ لَهُ اخْتِيَارًا».

هذه الدَّرَجَةُ تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه، صاحب الخلق والأمر، والتي قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيّه، والأولى تتضمن تعظيم أمره.

وذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء:

﴿أحدها: «أَلَّا تَجْعَلَ دُونَهُ سَبَبًا» أي: لا تجعل للوصول إليه سببًا غيره، بل هو الذي يوصل عبده إليه، فلا يوصل إلى الله إلا الله، ولا يقرب إليه سواه، ولا يدني إليه غيره، ولا يتوصل إلى رضاه إلا به، فما دلّ على الله إلا الله، ولا هدى إليه سواه، ولا أدنى إليه غيره؛ فإنه سبحانه هو الذي جعل السبب سببًا، فالسبب وسببته وإيصاله كلّه خلقه وفعله.

﴿الثاني: «أَلَّا يَرَى عَلَيْهِ حَقًّا» أي: لا ترى لأحدٍ من الخلق - لا لك ولا لغيرك - حقًا على الله؛ بل الحقُّ لله على خلقه.

وفي أثرٍ إسرائيليٍّ: «أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا رَبِّ، بِحَقِّ آبَائِي عَلَيْكَ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ، أَيُّ حَقٍّ لِأَبَائِكَ عَلَيَّ؟ أَلَسْتُ أَنَا الَّذِي هَدَيْتُهُمْ وَمَنْنْتُ عَلَيْهِمْ وَاصْطَفَيْتُهُمْ، وَلِي الْحَقُّ عَلَيْهِمْ؟!».

وأما حقوق العبيد على الله تعالى من إثابته لمطيعهم، وتوبته على تائبهم، وإجابته لسائلهم، فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه، بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقها هم عليه، فالحق في الحقيقة لله على عبده، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبرّه وإحسانه إليه بمحض جوده وكرمه، هذا قول أهل التوفيق والبصائر، وهو وسط بين قولين منحرفين؛ قد تقدّم ذكرهما مرارًا، والله سبحانه أعلم.

وأما قوله: «أَوْ لَا يُنَازِعُ»^(٢) لَهُ اخْتِيَارًا».

أي: إذا رأيت الله ﷻ قد اختار لك أو لغيرك شيئًا - إمّا بأمره ودينه، وإمّا بقضائه وقدره - فلا تنازع اختياره، بل ارض باختيار ما اختاره لك؛ فإن ذلك من تعظيمه سبحانه.

(١) في «غ» والمنار: (الرب).

(٢) في «غ» والمنار: (ولا تنازع).

ولا يردّ عليه قدره^(١) من المعاصي، فإنّه سبحانه - وإن قدرها - لكنّه لم يخترها له، فمنازعتها غير اختياره من عبده، وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه، والله أعلم.

فصل

[منزلة الإلهام والإفهام والوحي والتّحديث والرؤيا الصادقة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الإلهام، والإفهام، والوحي، والتّحديث والرؤيا الصادقة.

وقد تقدّمت في أوّل الكتاب عند الكلام على مراتب الهداية، وذكرنا كلام صاحب «المنازل» هناك.

فصل

[منزلة السكينة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة السكينة.

هذه المنزلة من منازل المواهب، لا من منازل المكاسب، وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

﴿الْأَوَّلُ: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

﴿الثَّانِي: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

﴿الثَّالِث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿الرَّابِع: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

(١) في «غ» والمنار: (ما قدره).

﴿الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

﴿السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] الآية.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة.

وسمعه يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول ^(١) عن حملها - من محاربة أرواح شيطانية، ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة - قال: «فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيَّ الْأَمْرُ، قُلْتُ لِأَقَارِبِي وَمَنْ حَوْلِي: اقْرَأُوا آيَاتِ السَّكِينَةِ، قَالَ: ثُمَّ أَقْلَعْتُ عَنِّي ذَلِكَ الْحَالَ، وَجَلَسْتُ وَمَا بِي قَلْبَةٌ».

وقد جرّبت أنا أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأننته.

وأصل السكينة: هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب، كيوم الهجرة؛ إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرأهما، وكيوم حنين، حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحمّلها النفوس، وحسبك بضعف عمر رضي الله عنه عن حملها - وهو عمر - حتى ثبتته الله بالصديق رضي الله عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كُلُّ سَكِينَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ طُمَأْنِينَةٌ، إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ».

وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْقُلُ مِنْ تَرَابِ الْخَنْدَقِ، حَتَّى وَارَى التُّرَابَ جِلْدَةً بَطْنِهِ، وَهُوَ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

اللَّهُمَّ لَوْ لَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا نَصَّ دَقْنَا وَلَا صَاحَبْنَا

فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

إِنَّ الْأَوْلَى (٢) قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْنَنَا».

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «إِنِّي بَاعْتُ نَبِيًّا أُمِّيًّا، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ،

(١) في «غ» والمنار: (العقول والقوى).

(٢) هكذا في جميع النسخ (الأولى) والصواب: (الألى). انظر: «صحيح البخاري» (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٣).

وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا مُتَزَيِّنٍ بِالْفُحْشِ، وَلَا قَوَالٍ لِلْخَنَا، أُسَدُّدُهُ لِكُلِّ جَمِيلٍ، وَأَهْبُ لَهُ كُلُّ خُلُقٍ كَرِيمٍ، ثُمَّ أَجْعَلِ السَّكِينَةَ لِيَأْسَهُ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى صَمِيرَهُ، وَالْحِكْمَةَ مَعْقُولَهُ، وَالصَّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ، وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ، وَالْهُدَى إِمَامَتَهُ، وَالْإِسْلَامَ مِلَّتَهُ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ»^(١).

فصل

□ قال صاحب «المنازل»^(٢): «السَّكِينَةُ: اسْمٌ لِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَوَّلُهَا: سَكِينَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أُعْطَوْهَا فِي التَّابُوتِ، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: هِيَ رِيحٌ هَفَافَةٌ، وَذَكَرُوا صِفَتَهَا».

قلت: اختلفوا: هل هي عينٌ قائمةٌ بنفسها، أو معنى؟ على قولين:

أحدهما: أنها عينٌ، ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها.

فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أَنَّهَا رِيحٌ هَفَافَةٌ، لَهَا رَأْسَانٌ وَوَجْهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ».

ويروى عن مجاهد: «إِنَّهَا صُورَةٌ هَرَّةٌ لَهَا جَنَاحَانِ^(٣)، وَعَيْنَانِ لَهُمَا شِعَاعٌ، وَجَنَاحَانِ مِنْ زُمْرِدٍ

وَزَبْرَجِدٍ، فَإِذَا سَمِعُوا صَوْتَهَا أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «هِيَ طَسْتُ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْجَنَّةِ، كَانَ يُغْسَلُ فِيهِ قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ».

وعن وهب بن منبه: «هِيَ رُوحٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ تَتَكَلَّمُ، إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَخْبَرَتْهُمْ بِبَيَانِ مَا

يُرِيدُونَ».

والثاني: أنها معنى، ويكون معنى قوله: ﴿سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي ومجيئه إليكم سكينَةٌ

لكم وطمأنينةٌ.

وعلى الأول: يكون المعنى: إِنَّ السَّكِينَةَ فِي نَفْسِ التَّابُوتِ، وَيُؤَيِّدُهُ عَطْفُ قَوْلِهِ: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا

تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآءَالُ هَارُونَ﴾.

قال عطاء بن أبي رباح: «﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ هِيَ مَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْآيَاتِ فَتَسْكُنُونَ إِلَيْهَا».

(١) تقدم تخريجه مختصراً (٢٧٠/٢).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) في «غ» والمنار: (وجناحاها).

وقال قتادة والكلبي: «هي من السكون؛ أي طمأنينة من ربكم، ففي أي مكان كان التأبوت طمأنوا إليه وسكنوا».

فصل^(١)

□ قال: «وفيهما ثلاثة أشياء: للأنبياء مُعْجِزَةٌ، وللملوكهم كَرَامَةٌ، وهي آية النصر تخلع قلوب الأعداء بصوتها رُعبًا إذا التقى الصفان لِقِتَالٍ».

وكرامات الأولياء: هي من معجزات الأنبياء؛ لأنهم إنما نالوها على أيديهم وبسبب اتباعهم فهي لهم كراماتٌ، وللأنبياء دلالاتٌ، فكرامات الأولياء لا تعارض معجزات الأنبياء، حتى يطلب الفرقان بينهما؛ لأنهما؛ لأنهما من أدلتهم وشواهد صدقهم.

نعم؛ الفرقان بين^(٢) ما للأنبياء وما للأولياء من وجوه كثيرة جدًا، ليس هذا موضع ذكرها، وغير هذا الكتاب أليق بها.

فصل

□ قال: «السكينة الثانية: هي التي تنطق على لسان المُحَدِّثِينَ، لَيْسَتْ هي شيئًا يُمَلِّكُ^(٣)، إِنَّمَا هي شيءٌ من لطائف صنْعِ الْحَقِّ، تُلقِي على لسان المُحَدِّثِ الْحِكْمَةَ كَمَا يُلقِي الْمَلِكُ الْوَحْيَ على قلوبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَنْطِقُ بِنُكْتِ الْحَقَائِقِ مَعَ تَرْوِيجِ الْأَسْرَارِ، وَكَشْفِ الشُّبُهَةِ».

السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح، وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل.

(١) كلمة (فصل) ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (بينهما).

(٣) في «غ» والمنار: (تملك).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ السَّكِينَةَ تَنْطِقُ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ». وكثيراً ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رويّة ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه، كما يستغرب السامع له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه. وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة، وصدق الرغبة من السائل، والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرّده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين، وإزالة نفسه من البين. ومن جرّب هذا عرف منفعته وعظّمها، وساء ظنّه بما يحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس.

قوله: «وَلَيْسَتْ شَيْئًا يُمْلِكُ»^(١).

يعني: هي موهبة من الله تعالى ليست بسبيبة ولا كسبيبة، وليست كالسكينة التي كانت في التّابوت تنقل معهم كيف شاءوا.

وقوله: «تُلْقِي عَلَى لِسَانِ الْمُحَدِّثِ الْحِكْمَةَ».

أي: تجري الصّواب على لسانه.

وقوله: «كَمَا يُلْقِي الْمَلِكُ الْوَحْيَ عَلَى قُلُوبِ الْأَنْبِيَاءِ» ﷺ.

يعني: أنّها بواسطة الملائكة، بحيث تلقي في قلوب أربابها الحكمة عنهم والطمأنينة والصّواب، كما أنّ الأنبياء تتلقّى الوحي عن الله بواسطة الملائكة، ولكن ما للأنبياء مختصّ بهم، ولا يشاركونهم فيه غيرهم، وهو نوع آخر.

وقوله: «تُنطِقُ الْمُحَدِّثِينَ بِنُكْتِ الْحَقَائِقِ، مَعَ تَرْوِيحِ الْأَسْرَارِ وَكَشْفِ الشُّبْهِ».

قد تقدّم في أوّل الكتاب ذكر مرتبة المحدّث، وأنّ هذا التّحديث من مراتب الهداية العشرة، وأنّ المحدّث: هو الذي يحدث في سرّه بالشيء، فيكون كما يحدث به، والحقائق: هي حقائق الإيمان والسّلوك، ونكتها: عيونها ومواضع الإشارات منها، ولا ريب أنّ تلك توجب للأسرار روحاً تحيا به وتنعم، وتكشف عنها شبهات لا يكشفها المتكلّمون ولا الأصوليون، فتسكن الأرواح والقلوب إليها، ولهذا سمّيت سكينة، ومن لم يفز من الله بذلك لم تنكشف عنه شبهاته، فإنّها لا يكشفها إلا سكينة الإيمان واليقين.

(١) انظر الحاشية السابقة.

فصل

□ قال: «السَّكِينَةُ الثَّلَاثَةُ: هِيَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهِيَ شَيْءٌ يَجْمَعُ قُوَّةً وَرَوْحًا، يَسْكُنُ إِلَيْهِ الْخَائِفُ، وَيَتَسَلَّى بِهِ الْحَزِينُ وَالضَّجِرُ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ الْعَصِيُّ وَالْجَرِيءُ وَالْأَبِيُّ».

هذا من عيون كلامه وغرره الذي تشنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب، وتظفر به عن ذوق تام، لا عن مجرد.

فذكر: أن هذا الشَّيء أنزله الله في قلب رسوله ﷺ، وقلوب عباده المؤمنين يشتمل على ثلاثة معاني: النُّور، والقُوَّة، والروح.

وذكر له ثلاث ثمرات: سكون الخائف إليه، وتسلي الحزين والضَّجِر به، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه.

فبالروح الذي فيها: حياة القلب، وبالنُّور الذي فيها: استنارته، وضياؤه وإشراقه، وبالقُوَّة: ثباته وعزمه ونشاطه.

فالنُّور: يكشف له عن دلائل الإيمان، وحقائق اليقين، ويميز له بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغيِّ والرُّشد^(١)، والشكِّ واليقين.

والحياة: توجب كمال يقظته وفطنته، وحضوره وانتباهه من سِنَّة الغفلة، وتأهبه للقاءه. والقُوَّة: توجب له الصِّدق، وصحَّة المعرفة، وقهر داعي الغيِّ والعنت، وضبط النَّفس عن جزعها وهلعها، واسترسالها في النَّقائص والعيوب؛ ولذلك ازداد بالسَّكِينة إيماناً مع إيمانه. والإيمان: يثمر له النُّور والحياة والقُوَّة، وهذه الثلاثة تثمره أيضاً، وتوجب زيادته؛ فهو محفوفٌ بها قبلها وبعدها.

فبالنُّور: يكشف دلائل الإيمان، وبالحياة: يتبته من سنة الغفلة، ويصير يقظاناً، وبالقُوَّة: يقهر الهوى والنَّفس والشَّيطان، كما قيل:

وَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّحْمَنِ لَيْسَتْ تُحْصَلُ بِاجْتِهَادٍ أَوْ بِكَسْبٍ

(١) في «غ» والمنار: (والرشاد).

وَلَكِنْ لَا غِنَىٰ عَنِ بَذْلِ جُهْدٍ
 وَقَضَىٰ اللَّهُ مَبْدُودٌ وَلَكِنْ
 فَمَا مِنْ حِكْمَةٍ الرَّحْمَنِ وَضَعُ الْ-
 فَشُكْرًا لِلَّذِي أَعْطَاكَ مِنْهُ
 بِإِخْلَاصٍ وَجِدًّا لَا يَلْعَبُ
 بِحِكْمَتِهِ وَعَنْ ذَا النَّصِّ يُبَيِّ
 كَوَاكِبَ بَيْنَ أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ
 فَلَوْ قِيلَ الْمَحَلُّ لَزَادَ رَبِّي

فصل

فإذا حصلت هذه الثلاثة بالسكينة - وهي: النور، والحياة، والروح - سكن إليها العصي وهو الذي سكنه إلى المعصية والمخالفة؛ لعدم سكينه الإيمان في قلبه صار سكنه إليها عوض سكنه إلى الشهوات والمخالفات؛ فإنه قد وجد فيها مطلوبه، وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية، ولم يكن له ما يعيظه عنها؛ فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض لذتها وروحها ونعيمها عن لذة المعصية، فاستراحت بها نفسه، وهاج إليها قلبه، ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية، فصارت لذته روحانية قلبية بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها، وحبس عنها وخلصته؛ فإذا تألقت بروقها قال:

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ
 يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ

وإذا طرقت طيوفها الخيالية في ظلام ليل الشهوات، نادى لسان حاله، وتمثل بمثل قوله:
 طَرَقَتْكَ صَائِدَةٌ^(١) الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا
 وَقَتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

فإذا ودعته وعزمت على الرحيل، ووعدته بالموافاة، [تمثل] ^(٢) بقول الآخر:
 قَالَتْ وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى تَرْحَالِهَا
 مَاذَا تُرِيدُ فَقُلْتُ أَلَا تَرْجِعِي

فإذا باشرت هذه السكينة قلبه سكنت خوفه، وهو قوله: «يَسْكُنُ إِلَيْهَا الْخَائِفُ»، وسلت حزنه؛ فإنها لا حزن معها؛ فهي سلوة المحزون، ومذهبة الهموم والغموم، وكذلك تذهب عنه وخم ضجره، وتبعث نشوة العزم، وحالت بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر، وبين إباء النفس والانقياد إليه، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (مائدة).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي والمنار، وأثبتناها هنا من نسخة «غ» لمناسبتها.

فصل

□ قال: «وَأَمَّا سَكِينَةُ الْوَقَارِ، الَّتِي نَزَّلَهَا نَعْتًا لِإِرْبَابِهَا؛ فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلْكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الدَّرَجَةُ الْأُولَى: سَكِينَةُ الْخُشُوعِ عِنْدَ الْقِيَامِ لِلْخِدْمَةِ رِعَايَةً، وَتَعْظِيمًا، وَحُضُورًا».

«سَكِينَةُ الْوَقَارِ» هي نوعٌ من السَّكِينَةِ، ولكن لَمَّا كانت موجبةً للوقار سمَّاهَا الشَّيْخُ (١) «سَكِينَةَ الْوَقَارِ».

وقوله: «نَزَّلَهَا نَعْتًا» يعني: نَزَّلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا، وَنَعْتَهُمْ بِهَا. وقوله: «فَإِنَّهَا ضِيَاءُ تِلْكَ السَّكِينَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا». أي: نَتِيجَتُهَا وَثَمَرَتُهَا، وَعَنْهَا نَشَأَتْ، كَمَا أَنَّ الضِّيَاءَ عَنِ الشَّمْسِ حَصَلَ. وَلَمَّا كَانَ النُّورُ وَالْحَيَاةُ وَالقُوَّةُ - الَّتِي ذَكَرْنَاهَا (٢) - مِمَّا يَثْمُرُ الْوَقَارَ: جَعَلَ سَكِينَةَ الْوَقَارِ كَالضِّيَاءِ لِتِلْكَ السَّكِينَةِ؛ إِذْ هُوَ عِلْمٌ حَصُولُهَا، وَدَلِيلٌ عَلَيْهَا، كَدَلَالَةِ الضِّيَاءِ عَلَى حَامِلِهِ. □ قوله: «الدَّرَجَةُ الْأُولَى: سَكِينَةُ الْخُشُوعِ عِنْدَ الْقِيَامِ لِلْخِدْمَةِ».

يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان. ولَمَّا كَانَ الْإِيمَانُ مَوْجِبًا لِلْخُشُوعِ، وَدَاعِيًا إِلَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن تَحْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِدِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. دَعَاهُمْ مِنْ مَقَامِ الْإِيمَانِ إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ؛ يَعْنِي: أَمَّا أَنْ لَهُمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَى الْإِحْسَانِ بِالْإِيمَانِ، وَتَحْقِيقِ ذَلِكَ بِخُشُوعِهِمْ لِذِكْرِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ؟! قوله: «رِعَايَةً، وَتَعْظِيمًا، وَحُضُورًا» هذه ثلاثة أمورٍ، تَحَقُّقُ الْخُشُوعِ فِي الْخِدْمَةِ، وَهِيَ: - رِعَايَةُ حَقُوقِهَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ: فَلَيْسَ يَضِيْعُهَا خُشُوعٌ وَلَا وَقَارٌ. - الثَّانِي: تَعْظِيمُ الْخِدْمَةِ وَإِجْلَالُهَا، وَذَلِكَ تَبَعٌ لِتَعْظِيمِ الْمَعْبُودِ وَإِجْلَالِهِ وَوَقَارِهِ (٣)، فَفَعَلَى قَدْرِ تَعْظِيمِهِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَإِجْلَالِهِ وَوَقَارِهِ يَكُونُ تَعْظِيمُهُ لَخِدْمَتِهِ، وَإِجْلَالُهُ وَرِعَايَتُهُ لَهَا.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (ذكرنا).

(٣) كلمة (ووقاره): ساقطة من «غ».

- والثالث: الحضور، وهو إحضار القلب فيها مشاهدة المعبود كأنه يراه.
فهذه الثلاثة تثمر له سكينة الوقار، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: السَّكِينَةُ عِنْدَ الْمُعَامَلَةِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَمُلَاطَفَةِ الْخَلْقِ، وَمُرَاقَبَةِ الْحَقِّ».

هذه الدرجة هي التي يحوم عليها أهل التَّصَوُّفِ، والعَلَمُ الَّذِي يَشْمُرُونَ إِلَيْهِ لِلْمُعَامَلَةِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَتَحْصُلُ (١) بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

﴿أحدها: محاسبة النَّفْسِ: حتَّى تعرف ما لها وما عليها، ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالاً، فيضيِّعها ويهملها.

وأيضاً: فإنَّ زكاتها وطهارتها موقفٌ على محاسبتها؛ فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتَّة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللَّهِ - لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَةٍ كَذَا (٢)؟ مَا أَرَدْتُ بِمَدْخَلٍ كَذَا وَمَخْرَجٍ [كَذَا] (٣)؟ مَا أَرَدْتُ بِهِذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَيَّ هَذَا، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ».

فبمحاسبتها يطَّلَعُ على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السَّعي في إصلاحها.

﴿الثاني: ملاطفة الخلق: وهي معاملتهم بما يحبُّ أن يعاملوه به من اللُّطف، ولا يعاملهم بالعنف والشَّدَّة والغلظة؛ فإنَّ ذلك ينفرهم عنه، ويغريهم به، ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته، فليس للقلب أنفع من معاملة النَّاسِ بِاللُّطْفِ؛ فإنَّ معاملة النَّاسِ بِذَلِكَ إِمَّا أَجْنِبِيَّ فتكسب مودَّته ومحبَّته، وإمَّا صَاحِبٌ وَحِيْبٌ فتستديم (٤) صحبته ومودَّته، وإمَّا عدوٌّ ومبغضٌ فتطفئ بلطفك جمرته وتستكفي شرَّه، ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به.

(١) كلمة (وتحصل): غير موجودة (غ) والمنار.

(٢) جملة (ما أردت بكلمة كذا): كررت مرتين في (غ).

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي، ومثبت من نسخة (غ) والمنار.

(٤) في (غ) والمنار: (فيستديم).

كـ الثالث: مراقبة الحق سبحانه: وهي الموجبة لكل صلاح وخير عاجلٍ وآجلٍ، ولا تصحُّ الدَّرَجَتانِ الأولتان إلا بهذه، وهي المقصود لذاته، وما قبله وسيلةٌ إليه، وعاونٌ عليه، فمراقبة الحق ﷻ توجب إصلاح النفس، واللطف بالخلق.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: السَّكِينَةُ الَّتِي تُثَبِّتُ الرِّضَا بِالْقَسَمِ؛ وَتَمْنَعُ مِنَ الشَّطْحِ الْفَاحِشِ، وَتَقِفُ صَاحِبَهَا عَلَى حَدِّ الرُّتْبَةِ، وَالسَّكِينَةُ لَا تَنْزِلُ إِلَّا فِي قَلْبِ نَبِيِّ أَوْ وَلِيِّ».

هذه الدرجة الثالثة: كأنها عند الشيخ لأهل الصَّحو بعد السكر، ولمن شام بوارق الحقيقة. فقولُه: «تُثَبِّتُ الرِّضَا بِالْقَسَمِ».

أي: توجب لصاحبها أن يرضى بالمقسوم، ولا تتطلع نفسه إلى غيره. «وَتَمْنَعُ مِنَ الشَّطْحِ الْفَاحِشِ».

يعني: مثل ما نقل عن أبي يزيد^(١) ونحوه، بخلاف الجنيد وسهل وأمثالهما^(٢)، فإنَّهم لما كانت لهم هذه السَّكِينَةُ لم تصدر منهم الشَّطحات، ولا ريب أن الشَّطْح سببه عدم السَّكِينَةِ؛ فإنَّها إذا استقرَّت في القلب منعت من الشَّطْح وأسبابه.

قوله: «وَتُقِفُّ صَاحِبَهَا عَلَى حَدِّ الرُّتْبَةِ».

أي: توجب لصاحبها الوقوف عند حدِّه من رتبة العبودية؛ فلا يتعدى مرتبة العبودية وحدِّها. قوله: «وَالسَّكِينَةُ لَا تَنْزِلُ إِلَّا عَلَى قَلْبِ نَبِيِّ أَوْ وَلِيِّ» وذلك لأنَّها من أعظم مواهب الحق سبحانه ومنحِه، ومن أجل عطاياه؛ ولهذا لم يجعلها في القرآن إلا لرسوله ﷺ وللمؤمنين كما تقدَّم، فمن أُعْطِيَها فقد خُليعت عليه خلع الولاية وأُعطي منشورها.

والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (رضي الله عنهم).

فصل [منزلة الطمأنينة]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الطمأنينة.
قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿٢٨﴾
[الرعد: ٢٨]. وقال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلْ فِي عِبْدِي ﴿٢٩﴾
وَادْخُلْ جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه.
ومنه الأثر المعروف: «الصَّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبُ رَيْبَةٌ»^(١)؛ أي: الصَّدق يطمئنُ إليه قلب السامع، ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا.
ومنه قوله: ﷺ: «الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ»^(٢)؛ أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.
* وفي ذكر الله هاهنا قولان:

كـ أحدهما: أنه ذكر العبد ربّه؛ فإنه يطمئنُ إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئنُ به سوى ذكر الله.

ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه:

- فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين؛ إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنّت. ويروى هذا عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

- ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربّه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئنُ.

كـ والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين؛ فإن القلب لا يطمئنُ إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن؛ فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكّه، والقرآن هو المحصّل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئنُ قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو لمختار.

(١) تقدم تخريجه (ص ٩).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٩).

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ، قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾

[الزخرف: ٣٦].

والصحيح: أن ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه - من أعرض عنه قِيض له شيطانًا يضلُّه ويصدُّه عن السبيل؛ وهو يحسب أنه على هدى.

وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾ [طه: ١٢٤].

والصحيح: أنه ذكره الذي أنزله على رسوله - وهو كتابه -؛ ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿رَبِّ لِمَ

حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْبَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود؛ فإن ذكر الله بالحلف يجري

على لسان الصادق والكاذب، والبرِّ والفاجر، والمؤمنون تطمئن قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف؛

ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه^(١) ولو حلف، وجعل الله سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين

ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة؛ فطوبى لهم وحسن مآب،

وفي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] دليل على أنها لا ترجع إليه إلا

إذا كانت مطمئنة؛ فهناك ترجع إليه، وتدخل في عبادته، وتدخل جنته.

وكان من دعاء بعض السلف: «اللَّهُمَّ هَبْ لِي نَفْسًا مُطْمَئِنَّةً إِلَيْكَ».

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الطمأنينة: سُكُونٌ يَقْوِيهِ أَمْنٌ صَحِيحٌ، شَبِيهٌ بِالْعِيَانِ،

وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّكِينَةِ فَرْقَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّكِينَةَ صَوْلَةٌ تُوْرثُ حُمُودَ الْهَيْبَةِ أَحْيَانًا، وَالْطُّمَأْنِينَةُ: سُكُونٌ

أَمْنٌ فِي اسْتِرَاحَةِ أَنْسِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ السَّكِينَةَ تَكُونُ نَعْتًا^(٢)، وَتَكُونُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ، وَالطُّمَأْنِينَةُ لَا تُفَارِقُ

صَاحِبَهَا».

الطمأنينة موجب السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة.

(١) في «غ» والمنار: (منه).

(٢) في «غ» والمنار: (معنا).

فقوله: «سُكُونٌ يُقَوِّيه أَمْنٌ» أي: سكون القلب مع قوّة الأمن الصّحيح الذي لا يكون أمن غرور؛ فإنّ القلب قد يسكن إلى أمن الغرور، ولكن لا يطمئنُّ به لمفارقة ذلك السُّكون له، والطمأنينة لا تفارقه، فإنّها مأخوذة من الإقامة، يقال: اطمأنَّ بالمكان والمنزل إذا أقام به.

وسبب صحّة هذا الأمن المقوِّي للسُّكون: شبهه بالعيان، بحيث لا يبقى معه شيءٌ من مجرّزات الظُّنون والأوهام، بل كأنَّ صاحبه يعاين ما يطمئنُّ به، فيأمن به اضطراب قلبه وقلقه وارتياحه.

وأما الفرقان اللذان ذكرهما بينها وبين السّكينة: فحاصل الفرق الأوّل: أنّ السّكينة تصول على الهيبة الحاصلة في القلب فتخدمها في بعض الأحيان؛ فيسكن القلب من انزعاج الهيبة بعض السُّكون، وذلك في بعض الأوقات، فليس حكمًا دائمًا مستمرًّا، وهذا يكون لأهل الطمأنينة دائمًا، ويصحبه الأمن والرّاحة بوجود الأُنس؛ فإنّ الاستراحة في السّكينة قد تكون من الخوف والهيبة فقط، والاستراحة في منزلة الطمأنينة تكون مع زيادة أنس، وذلك فوق مجرد الأمن، وقدّر زائدٌ عليه.

وحاصل الفرق الثّاني: أنّ الطمأنينة ملكةٌ ومقامٌ لا يفارق، والسّكينة تنقسم إلى سكينه هي مقامٌ ونعتٌ لا يزول، وإلى سكينه تكون وقتًا دون وقتٍ، هذا حاصل كلامه.

* والذي يظهر لي في الفرق بينهما أمران سوى ما ذكر:

كـ أحدهما: أنّ ظفّره وفوزه بمطلوبه الذي حصّل له السّكينة بمنزلة من واجهه عدوٌّ يريد هلاكه، فهرب منه عدوه، فسكن روعه، والطمأنينة بمنزلة حصنٍ رآه مفتوحًا فدخله، وأمن فيه، وتقوى بصاحبه وعدّته، فللقلب ثلاثة أحوال:

- أحدها: الخوف والاضطراب والقلق من الوارد الذي يزعجه ويقلقه.

- الثّاني: زوال ذلك الوارد الذي يزعجه ويقلقه عنه وعدمه.

- الثّالث: ظفّره وفوزه بمطلوبه الذي كان ذلك الوارد حائلًا بينه وبينه.

وكلٌّ منهما يستلزم الآخر^(١) ويقارنه، فالطمأنينة تستلزم السّكينة ولا تفارقها، وكذلك بالعكس، لكنّ استلزام الطمأنينة للسّكينة أقوى من استلزام السّكينة للطمأنينة.

كـ الثّاني: أنّ الطمأنينة أعمُّ، فإنّها تكون في العلم والخبر به، واليقين والظّفّر بالمعلوم؛ ولهذا اطمأنت القلوب بالقرآن لما حصل لها الإيمان به ومعرفته والهداية به في ظلّم الآراء والمذاهب، واكتفت به منه، وحكّمته عليها وعزّلتها، وجعلت له الولاية بأسرها كما جعلها الله، فبه خاصمت، وإليه حاكمت، وبه صالت، وبه دفعت الشُّبه.

(١) كلمة (الأخر): ساقطة من «غ».

وَأَمَّا السَّكِينَةُ: فَإِنَّهَا ثَبَاتُ الْقَلْبِ عِنْدَ هِجُومِ الْمَخَافِ عَلَيْهِ، وَسُكُونِهِ وَزَوَالِ قَلْقِهِ وَاضْطِرَابِهِ، كَمَا يَحْصُلُ لِحِزْبِ اللَّهِ عِنْدَ مَقَابِلَةِ الْعَدُوِّ وَصَوْلَتِهِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَهِيَ طُمَأْنِينَةُ الْخَائِفِ إِلَى الرَّجَاءِ، وَالضَّجْرِ إِلَى الْحُكْمِ، وَالْمُبْتَلَى إِلَى الْمُثُوبَةِ».

قد تقدّم أنّ الطُّمَأْنِينَةَ بذكر الله بكلامه وكتابه، ولا ريب أنّ الذي ذكره في هذه الدرّجة هو من جملة الطُّمَأْنِينَةَ بذكره، وهي أهمُّ (١) من ذلك.

فذكر طُمَأْنِينَةَ الْخَائِفِ إِلَى الرَّجَاءِ، فَإِنَّ الْخَائِفَ إِذَا طَالَ عَلَيْهِ الْخَوْفُ وَاشْتَدَّ بِهِ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرِيحَهُ وَيَحْمِلَ عَنْهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ فَاسْتَرَحَ قَلْبُهُ إِلَى الرَّجَاءِ وَاطْمَأَنَّ بِهِ، وَسَكَنَ لِهَيْبِ خَوْفِهِ.

وَأَمَّا طُمَأْنِينَةُ الضَّجْرِ إِلَى الْحُكْمِ:

فالمراد بها: أنّ من أدركه الضَّجْرُ من قوّة التَّكْلِيفِ، وَأَعْبَاءِ الْأَمْرِ وَأَثْقَالِهِ - وَلَا سِيَّما من أقيم مقام التَّبْلِيغِ عَنِ اللَّهِ، وَمُجَاهِدَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَقَطَّاعِ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ - فَإِنَّ مَا يَحْمِلُهُ وَيَتَحَمَّلُهُ فَوْقَ مَا يَحْمِلُهُ النَّاسُ وَيَتَحَمَّلُونَهُ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ يَدْرِكَهُ الضَّجْرُ، وَيَضْعَفُ صَبْرُهُ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرِيحَهُ وَيَحْمِلَ عَنْهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ سَكِينَتَهُ، فَاطْمَأَنَّ إِلَى حُكْمِهِ الدِّينِيِّ، وَحُكْمِهِ الْقُدْرِيِّ، وَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ بَدُونِ مَشَاهِدَةِ الْحَكَمِينَ، وَبِحَسَبِ مَشَاهِدَتِهِ لِهَمَا تَكُونُ طُمَأْنِينَتَهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَى حُكْمِهِ الدِّينِيِّ عَلِمَ أَنَّ دِينَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ وَنَاصِرُ أَهْلِهِ وَكَافِيهِمْ وَوَلِيِّهِمْ.

وَإِذَا اطْمَأَنَّ إِلَى حُكْمِهِ الْكُونِيِّ عَلِمَ أَنَّ لَنْ يَصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، وَأَنَّ مَا يَشَاءُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَلَا وَجْهَ لِلْجَزَعِ وَالْقَلْقِ إِلَّا ضَعْفُ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْمَحْذُورَ وَالْمَخُوفَ إِنْ لَمْ يَقْدَرْ فَلَا سَبِيلَ إِلَى وَقُوعِهِ، وَإِنْ قَدَّرَ فَلَا سَبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ بَعْدَ أَنْ أُبْرِمَ تَقْدِيرُهُ؛ فَلَا جَزَعٌ حَيْثُئِذٍ لَا مِمَّا قَدَّرَ وَلَا مِمَّا لَمْ يَقْدَرْ (٢).

(١) في «غ» والمنار: (أعم).

(٢) في «غ»: (فلا جزع حيثئذٍ ممّا لا يقدر ولا ممّا يقدر).

نعم؛ إن كان له (١) في هذه النازلة (٢) حيلة؛ فلا ينبغي أن يضجر (٣) عنها (٤)، وإن لم يكن فيها حيلة، فلا ينبغي أن يضجر منها (٥)، فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم، وفي مثل هذا قال القائل:

مَا قَدْ قُضِيَ يَا نَفْسُ فَأَصْطَبِرِي لَهُ وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقَدَّرِ
وَتَحَقَّقِي أَنَّ الْمُقَدَّرَ كَوَائِنٌ يَجْرِي عَلَيْكَ حَذِرَتِ أُمَّ لَمْ تَحْدَرِي

وَأَمَّا طُمَأْنِينَةُ الْمُبْتَلَى إِلَى الْمُثُوبَةِ: فلا ريب أن المبتلى إذا قويت مشاهدته للمثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض، وإنما يشتدُّ به البلاء إذا غاب عنه ملاحظة الثواب، وقد تقوى ملاحظة العوض حتى يستلذَّ بالبلاء ويراه نعمة، ولا تستبعد هذا؛ فكثير من العقلاء إذا تحقق نفع الدواء الكريه فإنه يكاد يلتذُّ به، وملاحظته لنفعه تغيبه عن تألمه بمذاقه أو تخففه (٦) عنه، والعمل المعول عليه إنما هو على البصائر، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ فِي الْقَصْدِ إِلَى الْكُشْفِ، وَفِي الشُّوقِ إِلَى الْعِدَّةِ، وَفِي التَّفْرِقَةِ إِلَى الْجَمْعِ».

طمأنينة الروح أن تطمئن في حال قصدها، ولا تلتفت إلى ما وراءها.
والمراد بالكشف: كشف الحقيقة، لا الكشف الجزئي السفلي، وهو ثلاث درجات:
- كشف عن الطريق الموصل إلى المطلوب: وهو الكشف عن حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام.

- [وكشف عن معاطبها ومتاهاتها وآفاتنا: وهو الكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال] (٧).

(١) لفظة (له): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (هذا النازل).

(٣) في «غ»: (يعجز) ولعلها الصواب.

(٤) في «غ» والمنار: (عنه).

(٥) في «غ» والمنار: (أن يجزع منه).

(٦) في «غ» والمنار: (يخففه).

(٧) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي، وموجود في نسخة «غ» والمنار.

- وكشفت عن المطلوب المقصود بالسَّير: وهو معرفة الأسماء والصفات، ونوعي التوحيد وتفصيله، ومراعاة ذلك حقَّ رعايته.

وليس وراء ذلك إلا الدَّعوى والشَّطح والغرور.

وقوله: «وَفِي الشُّوقِ إِلَى الْعِدَّةِ».

يعني: أنَّ الرُّوحَ تظهر في اشتياقها^(١) إلى ما وعدت به، وشوَّقت إليه، فطمأنيتها بتلك العدة تسكِّن عنها لهيب اشتياقها، وهذا شأن كلِّ مشتاقٍ إلى محبوبٍ وعد بحصوله إنَّما يحصل لروحه الطَّمأنينة بسكونها إلى وعد اللِّقاء، وعلمها بحصول الموعود به.

قوله: «وَفِي التَّفْرِقَةِ إِلَى الْجَمْعِ». أي: وتطمئنُّ الرُّوحُ في حال تفرقتها إلى ما اعتادته من الجمع بأن توافيها روحه، فتسكن إليه وتطمئنَّ به كما يطمئنُّ الجائع الشَّديد الجوع إلى ما عنده من الطَّعام، ويسكن إليه قلبه، وهذا إنَّما يكون لمن أشرف على الجمع من وراء حجابٍ رقيقٍ، وشام برقه، فطمأنَّ بحصوله، وأمَّا من بينه وبينه الحجب الكثيفة فلا يطمئنُّ به.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: طَمَأْنِينَةٌ شُهُودِ الْحَضْرَةِ إِلَى اللَّطْفِ، وَطَمَأْنِينَةٌ الْجَمْعِ إِلَى الْبَقَاءِ، وَطَمَأْنِينَةٌ الْمَقَامِ إِلَى نُورِ الْأَزَلِ».

هذه الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ تتعلَّق بالفناء والبقاء، فالواصل إلى شهود الحضرة مطمئنٌّ إلى لطف الله، وحضرة الجمع يريدون بها الشُّهود الدَّاتِيَّ.

فإنَّ الشُّهود عندهم مراتب بحسب تعلُّقه؛ فشهود الأفعال أوَّل^(٢) مراتب الشُّهود، ثمَّ فوقه شهود الأسماء والصفات، ثمَّ فوقه شهود الدَّاتِ الجامعة إلى الأفعال^(٣) والأسماء والصفات، والتَّجَلِّي عند القوم بحسب هذه الشُّهود^(٤) الثلاثة.

- فأصحاب تجلِّي الأفعال مشهدهم توحيد الرُّبوبيَّة.

(١) في «غ» والمنار: (في حال اشتياقها).

(٢) في «غ» والمنار: (أولئ).

(٣) في «غ»: (للأفعال).

(٤) في «غ» والمنار: (الشهوات).

- وأصحاب تجلّي الأسماء والصفات مشهدهم توحيد الإلهية.

- وأصحاب تجلّي الذات يغنيهم به عنهم.

وقد يعرض لبعضهم بحسب قوّة الوارد وضعف المحلّ عجزٌ عن القيام والحركة، فربّما عطلّ بعض الفروض^(١)، وهذا له حكم أمثاله من أهل العجز والتّفريط، والكاملون منهم قد يفترّون في تلك الحال عن الأعمال الشّاقّة، ويقتصرون على الفرائض وسننها وحقوقها، ولا يقعد بهم ذلك الشّهود والتّجلّي عنها، ولا يؤثرون عليه شيئاً من النّوافل والحركات التي لم تعرض عليهم ألبتّة، وذلك في طريقهم رجوعٌ وانقطاعٌ.

وأكمل من هؤلاء: من يصحبه ذلك في حال حركاته ونوافله، فلا يعطلّ ذرّةً من أوراده، والله سبحانه قد فاوت بين قوى القلوب أشدّ من تفاوت قوى الأبدان، وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ، وصاحب هذا المقام آيةٌ من آيات الله لأولي الألباب والبصائر.

والمقصود: أنّه لولا طمأنينته إلى لطف الله لمحقّه شهود الحضرة وأفناه جملةً؛ فقد خرّ موسى صعباً لما تجلّى ربّه للجبل، وتدكدك الجبل^(٢) وساخ في الأرض من تجلّيه سبحانه.

هذا؛ ولا يتوهم متوهم^(٣) أنّ الحاصل في الدّنيا للبشر كذلك، ولا قريبٌ منه أبداً، وإنّما هي المعارف، واستيلاء مقام الإحسان على القلب فقط.

وإيّاك وترّهات القوم، وخيالاتهم ورعوناتهم، وإن سمّوك محجوباً، فقل: اللّهم زدني من هذا الحجاب الذي ما وراءه إلّا الخيالات والترّهات والشّطحات؛ فكليم الرّحمن وحده مع هذا لم تتجلّ الذّات له، وأراه ربّه تعالى أنّه لا يثبت لتجلّي ذاته، لما أشهده من حال الجبل، وخرّ الكليم صعقاً مغشياً عليه لما رأى ما رأى من حال الجبل عند تجلّي ربّه له، ولم يكن تجلياً مطلقاً.

قال الضّحّاك: «أظهر الله من نور الحُجبِ مثل منخرِ نورٍ».

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكعب الأخبار: «ما تجلّى من عظمة الله للجبل إلّا مثل سمّ الخياط حتّى صار دكّاً».

وقال السّديّ: «ما تجلّى إلّا قدرُ الخنصر».

وفي «مُسْتَدْرَكِ»^(٤) الحّاكِم من حديث ثابتِ البناني عن أنسٍ رضي الله عنه: أن النّبِيَّ صلّى الله عليه وآله قرأ هذه الآية، وقال:

(١) سبحانه الله كيف تلاعب الشيطان بالقوم حتّى عطلوا فرائض الله وأوامره بحجة حضرة الجمع والشهود الذاتي وأشباه هذه المصطلحات البدعية التي لم يكن عليها الرسول صلّى الله عليه وآله وأصحابه الكرام والتابعون لهم بإحسان.

(٢) جملة (وتدكدك الجبل) ساقطة من «غ».

(٣) كلمة (متوهم): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (وفي صحيح).

«هَكَذَا» ووضع الإيهام على المَفْصِلِ الأعلى من الخنصر «فَسَاخَ الْجَبَلُ»^(١). وإسناده على شرط مسلم. ولَمَّا حَدَّثَ به حميدٌ عن ثابتٍ استعظمه بعض أصحابه وقال: «تُحَدِّثُ بِهِدَا؟! فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: يُحَدِّثُ بِهِ ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتُنَكِّرُهُ أَنْتَ، وَلَا أُحَدِّثُ بِهِ؟!». فإذا شهد لك المخدوعون بأنك محبوبٌ عن ترهاتهم وخيالاتهم، فتلك الشهادة لك بالاستقامة، فلا تستوحش منها، وبالله التوفيق، وهو المستعان.

فصل

وَأَمَّا طُمَأْنِينَةُ الْجَمْعِ إِلَى الْبَقَاءِ.

فمشهدٌ شريفٌ فاضلٌ، وهو مشهد الكَمَلِ، فإنَّ حضرة الجمع تعفي الآثار، وتمحو الأغيار، وتحول بين الشاهد وبين رؤية القلب للخلق، فيرى الحقَّ سبحانه وحده قائمًا بذاته، ويرى كلَّ شيءٍ قائمًا به، متوحدًا في كثرة أسمائه وأفعاله وصفاته، ولا يرى معه غيره ولا يشهده عكس حال من يشهد غيره، وليس الشأن في هذا الشهود، فإنَّ صاحبه في مقام الفناء. فإن لم ينتقل منه إلى مقام البقاء وإلاَّ انقطع انقطاعًا كليًّا، ففي هذا المقام إن لم يطمئنَّ إلى حصول البقاء وإلاَّ عطَّل الأمر، وخلع ربة العبودية من عنقه، فإذا اطمأنَّ إلى البقاء طمأنينة من يعلم أنَّه لا بدَّ له منه، وإن لم يصحبه وإلاَّ فسد وهلك كان هذا من طمأنينة الجمع إلى البقاء، والله أعلم.

فصل

وَأَمَّا «طُمَأْنِينَةُ الْمُقَامِ إِلَى نُورِ الْأَزَلِ»:

فيريد به: طمأنينة مقامه إلى السابقة التي سبق بها الأزل، فلا تتغيَّر ولا تتبدَّل؛ ولهذا قال: «طُمَأْنِينَةُ الْمُقَامِ» ولم يقل طمأنينة الحال؛ فإنَّ الحال يزول ويحول، ولو لم يحلَّ كما سميَّ حالًا، بخلاف المقام.

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٥٧٧/٢)، وأحمد (١٢٥/٣)، ورواه الترمذي في «التفسير» سورة الأعراف، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٥٨).

فإذا اطمأن إلى السَّابِقة والحسنى التي سبقت له من الله في الأزل، كان هذا طمأنينة المقام إلى الأزل، وهذا هو شهود أهل البقاء بعد الفناء، والله أعلم^(١).

فصل (٢)

[منزلة الهمة]

ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الهمة. وقد صدرها صاحب المنازل بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. وقد تقدّم: أنه صدر بها باب الأدب، وذكرنا وجهه. وأما وجه تصدير «الهمة» بها: فهو^(٣) الإشارة إلى أن همته ﷺ ما تعلقت بسوى مشهوده، وما أقيم فيه، ولو تجاوزته همته لتبعها بصره. والهمة: فعلة من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهم مبدؤها، والهمة نهايتها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «فِي بَعْضِ الْأَثَارِ الْإِلَهِيَّةِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي لَا أَنْظُرُ إِلَى كَلَامِ الْحَكِيمِ، وَإِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى هِمَّتِهِ». قال: والعامّة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسن، والخاصّة تقول: قيمة كل امرئ ما يطلب، يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه.

□ قال صاحب «المنازل»: «الهمة: مَا يَمْلِكُ الْإِنْبِعَاثَ لِلْمَقْصُودِ صِرْفًا، لَا يَتِمَّالِكُ صَاحِبِيًّا، وَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهَا».

قوله: «يَمْلِكُ الْإِنْبِعَاثَ لِلْمَقْصُودِ».

أي: يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك، و«صِرْفًا» أي: خالصًا صرفًا. والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا، فتلك هي الهمة

(١) هنا ينتهي المجلد الثاني من طبعة (الفتاوى) ومن نسخة المنار.

(٢) من هذا الفصل يبدأ المجلد الثالث من مدارج السالكين لطبعة الفتاوى ونسخة المنار.

(٣) في «غ»: (في).

العالية التي «لَا يَتَمَالِكُ صَاحِبُهَا»؛ أي: لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه (١) عليه، وشدة إلزامها إيّاه بطلب المقصود، «وَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهَا» إلى ما سوى أحكامها. وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصوله وظفره بمطلوبه، ما لم تعقه العوائق (٢)، وتقطع العلاقات، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: هِمَّةٌ تَصُونُ الْقَلْبَ عَنْ وَحْشَةِ الرَّغْبَةِ فِي الْفَانِي، وَتَحْمِلُهُ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الْبَاقِي، وَتُصَفِّيهِ مِنْ كَدْرِ التَّوَانِي.»
«الْفَانِي» الدنيا وما عليها؛ أي (٣) يزهّد القلب فيها وفي أهلها، وسمّى الرّغبة فيها وحشةً لأنّها وأهلها توحش قلوب الرّاعبين فيها، وقلوب الرّاهدين فيها.
أمّا الرّاعبون فيها: فأرواحهم وقلوبهم في وحشةٍ من أجسامهم؛ إذ (٤) فاتها ما خلقت له؛ فهي في وحشةٍ لفواته.

وأمّا الرّاهدون فيها: فإنّهم يرونها موحشةً لهم؛ لأنّها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم، ولا شيء أوحش عند القلب ممّا يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه؛ ولذلك كان من نازع النّاس أموالهم وطلبها منهم أوحش شيء إليهم وأبغضه.
وأيضاً: فالرّاهدون فيها إنّما ينظرون إليها بالبصائر، والرّاعبون ينظرون إليها بالأبصار، فيستوحش الرّاهد ممّا يأنس به الرّاعب، كما قيل:

وإِذَا أَفَاقَ الْقَلْبُ وَأَنْدَمَلَ الْهَوَى
رَأَتْ الْقُلُوبُ وَلَمْ تَرَ الْأَبْصَارُ

وكذلك هذه الهمة تحمله على الرّغبة في الباقي لذاته، وهو الحقُّ سبحانه، والباقي بإبقائه هو الدّار الآخرة (٥).

(١) هكذا في جميع النسخ وفي هامش نسخة المنار قال: (وفي نسخة: سلطان الهمة).

(٢) في «غ» والمنار: (الهمة).

(٣) في «غ»: (أن).

(٤) في «غ»: (إذا).

(٥) في «غ»: (والباقي بإنعائه وهو الدار الآخرة).

«وَتَصَفِّيهِ مِنْ كَدَرِ التَّوَانِي».

أي: تخلّصه وتمحصه من أوساخ الفتور والتواني، الذي هو سبب الإضاعة والتفريط، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: هِمَّةٌ تُورِثُ أَنْفَةً مِنَ الْمُبَالَاةِ بِالْعَلَلِ، وَالنُّزُولِ عَلَى الْعَمَلِ، وَالثَّقَّةِ بِالْأَمَلِ».

العلل هاهنا: هي علل الأعمال من رؤيتها، أو رؤية ثمراتها وإرادتها، ونحو ذلك؛ فإنها عندهم عللٌ.

فصاحب هذه الهمة يأنف على همته وقلبه من أن يبالي بالعلل؛ فإن همته فوق ذلك، فمبالاة بها وفكرته فيها نزولٌ من الهمة.

وعدم هذه المبالاة إما لأن العلل لم تحصل له؛ لأن علو همته حال بينه وبينها، فلا يبالي بما لم يحصل له، وإما لأن همته وسعت مطلوبه، وعلوه يأتي على تلك العلل ويستأصلها، فإنه إذا علّق همته بما هو أعلى منها تضمّنتها الهمة العالية، فاندرج حكمها في حكم الهمة العالية، وهذا موضعٌ غريبٌ عزيزٌ جدًّا، وما أدري قصده الشيخ أو لا؟

وأما أنفثته من النزول على العمل: فكلامٌ يحتاج إلى تقييدٍ وتبيين، وهو أن العالي الهمة مطلبه فوق مطلب العمّال والعبّاد^(١)، وأعلى منه، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي إلى مجرد العمل والعبادة دون السفر بالقلب إلى الله، ليحصل له ويفوز به، فإنه طالبٌ لرّبّه تعالى طلبًا تامًّا بكلّ معنّى واعتبارٍ في عمله، وعبادته ومناجاته، ونومه ويقظته، وحركته وسكونه، وعزلته وخلطته، وسائر أحواله؛ فقد انصبغ قلبه بالتوجه إلى الله تعالى أيما صبغة.

وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة؛ فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال، ولا بالاعتصار على الطلب حال العمل فقط.

(١) وهل فوق العبادة - التي هي أصدق الحب في أخلص الذل - مطلب، إلا الوهم والخيال، أو شيء آخر، مثلما يطلبه العبد من الأنس بزوجه وصديقه، ولذلك يريد أن ينحو نحو الذات العلية، وسبحان ربنا عن ذلك علوًّا كبيرًا. (الفاقي).

وَأَمَّا أَنْفَتُهُ مِنَ الثَّقَةِ بِالْأَمَلِ: فَإِنَّ الثَّقَةَ تَوْجِبُ الْفُتُورَ وَالتَّوَانِي، وَصَاحِبُ هَذِهِ الْهَمَّةِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ، كَيْفَ وَهُوَ طَائِرٌ لَا سَائِرٌ؟! وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: هِمَّةٌ تَتَّصَعَدُ عَنِ الْأَحْوَالِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَتُزْرِي بِالْأَعْوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ، وَتَنْحُو عَنِ النَّعُوتِ نَحْوَ الدَّاتِ».

أي: هذه الهممة أعلى من أن يتعلّق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات، أو يتعلّق^(١) بالمعاملات، وليس المراد تعطيلها؛ بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها، والتعلّق بها. ووجه صعود هذه المهمة عن هذا: ما ذكره من قوله: «تُزْرِي بِالْأَعْوَاضِ وَالدَّرَجَاتِ، وَتَنْحُو عَنِ النَّعُوتِ نَحْوَ الدَّاتِ»^(٢)؛ أي صاحبها لا يقف عند عوضٍ ولا درجةٍ؛ فإنّ ذلك نزولٌ من همّته، ومطلبه أعلى من ذلك؛ فإنّ صاحب هذه المهمة قد قصر همّته على المطلب الأعلى، الذي لا شيء أعلى منه، والأعواض والدَّرَجَاتِ دونه، وهو يعلم أنّه إذا حصل له فهناك كلّ عوضٍ ودرجةٍ عالية. وأمّا نحوها نحو الدَّاتِ فيريد به: أنّ صاحبها^(٣) لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات، بل الدَّاتِ الجامعة لمتفرّقات الأسماء والصفات والأفعال، كما تقدّم، والله أعلم.

فصل

[منزلة المحبة]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَبِّدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة المحبة. وهي المنزلة التي فيها تنافس^(٤) المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمّر

(١) في «غ» والمنار: (تتعلق).

(٢) في «غ»: (إلى).

(٣) في «غ»: (صاحبه).

(٤) في «غ» والمنار: (يتنافس).

السَّابِقُونَ، وعليها تفانى المحبُّون، وبروح نسيما ترَوِّح العابدون؛ فهي قوت^(١) القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرْمها فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي مَن فقده (فهو في)^(٢) بحار الظُّلمات، والشِّفاء الذي من عَدَمه حَلَّتْ بقلبه جميع الأسقام، واللَّذَّة التي مَن لم يظفر بها فعيشه كلُّه همومٌ وآلامٌ.

وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه تحمل أثقال السَّائرين إلى بلادٍ لم يكونوا إلَّا بشقِّ الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوُّثهم من مقاعد الصُّدق مقاماتٍ لم يكونوا لولاها^(٣) داخلها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها^(٤) دائمةً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريبٍ.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيبٍ، وقد قضى الله - يوم قدر مقادير^(٥) الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة - أنَّ المرء مع من أحبَّ؛ فيا لها من نعمةٍ على المحبِّين سابغةٍ.

تالله لقد سبق القوم السُّعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدّموا الرِّكب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

مِنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

أجابوا منادي^(٦) الشُّوق إذ نادى بهم^(٧): حيَّ على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم وكان بذلهم بالرِّضا والسَّماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدوِّ والرَّواح. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم^(٨)، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنَّما يحمد القوم السُّرى عند الصُّباح.

فَحَيَّاهَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَدِي الشُّوقِ فَاطُو الْمَرَاحِلَا

(١) في «غ»: (قوة).

(٢) في «غ» والمنار: (ففي).

(٣) في «غ» والمنار: (لولا هي).

(٤) في «غ» والمنار: (التي هي مسراهم في ظهورها).

(٥) كلمة (مقادير): ساقطة من «غ».

(٦) في «غ» والمنار: (مؤذن).

(٧) في «غ»: (إذ ناداهم).

(٨) في «غ»: (مسراهم).

وَقُلْ لِمَتَادِي حُبِّهِمْ وَرَضَاهُمْ
 وَلَا تَنْظُرِ الْأَطْلَالَ مِنْ دُونِهِمْ فَإِنْ
 وَلَا تَنْتَظِرِ بِالسَّيْرِ رُفْقَةَ قَاعِدِ
 وَخُذْ مِنْهُمْ زَادًا إِلَيْهِمْ وَسِرَّ عَلَى
 وَأَخِي بِذِكْرِهِمْ سُرَّاكَ إِذَا وَنَتْ
 وَإِمَّا تَحَافَنَ الْكَلَالَ فَقُلْ لَهَا
 وَخُذْ قَبَسًا مِنْ نُورِهِمْ ثُمَّ سِرِّ بِهِ
 وَحَيَّ عَلَى وَادِ الْأَرَاكِ فَقُلْ بِهِ
 [وَالِإِلَّا فِئِي نُعْمَانَ^(٢) عِنْدَ مَعْرِفِ^(٣) الْ
 وَإِلَّا فِئِي جَمْعِ^(٥) بِلَيْلَتِهِ فَإِنْ
 وَحَيَّ عَلَى جَنَاتِ عَدْنٍ بِقُرْبِهِمْ
 وَلَكِنْ سَبَاكَ الْكَاشِحُونَ لِأَجْلِ ذَا
 فَدَعُهَا رُسُومًا دَارِسَاتٍ فَمَا بِهَا
 رُسُومٌ عَفَتْ يَغْنَى بِهَا الْخُلُقُ كَمْ بِهَا
 وَخُذْ يَمَنَةً عَنْهَا عَلَى الْمَنْهَجِ الَّذِي
 وَقُلْ سَاعِدِي يَا نَفْسُ بِالصَّبْرِ سَاعَةً
 فَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقُضِي

إِذَا مَا دَعَا لَيْتِكَ أَلْفًا كَوَامِلًا
 نَظَرْتَ إِلَى الْأَطْلَالِ عُدْنَ حَوَائِلًا
 وَدَعُهُ فَإِنَّ الشَّقَّ يُكْفِيكَ حَامِلًا
 طَرِيقِ الْهُدَى وَالْفَقْرُ تُصْبِحُ وَاصِلًا
 رِكَابِكَ فَالذِّكْرَى تُعِيدُكَ عَامِلًا
 أَمَامَكَ وَرُذُ الْوَصْلِ فَابْنِ الْمَنَاهِلَا
 فَنُورُهُمْ يَهْدِيكَ لَيْسَ الْمَشَاعِلَا
 عَسَاكَ تَرَاهُمْ فِيهِ إِنْ كُنْتَ قَائِلًا^(١)
 أَحَبَّةً فَاطْلُبُهُمْ إِذَا كُنْتَ سَائِلًا^(٤)
 تَفْتُ فَمَتَى يَا وَيْحَ مَنْ كَانَ غَافِلًا
 مَنَازِلِكَ الْأُولَى بِهَا كُنْتَ نَازِلًا
 وَقَفْتَ عَلَى الْأَطْلَالِ تَبْكِي الْمَنَازِلَا
 مَقِيلٌ فَجَاوِزَهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلَا
 قَتِيلٌ وَكَمْ فِيهَا لِدَا الْخُلُقِ قَاتِلَا
 عَلَيْهِ سَرَى وَفَدُ الْمَحَبَّةِ آهِلَا
 فَعِنْدَ اللَّقَا ذَا الْكَدِّ يُصْبِحُ زَائِلَا
 وَيُصْبِحُ ذُو الْأَحْزَانِ فَرْحَانَ جَادِلَا

(١) في «غ»: (سائلا).

(٢) قال في «اللسان»: «نعمان: اسم موضع وهو نعمان الأدراك بمكة، وهو نعمان الأكبر، وهو وادي عرفة». (٦/٤١٨٤).

(٣) يقصد عرفة، وجمع: مزدلفة.

(٤) هذا البيت بأكمله ساقط من «غ».

(٥) يقصد عرفة، وجمع: مزدلفة.

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح؛ فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟
بِذَمِ (١) الْمُحِبِّ يُبَاعُ وَضَلُّهُمْ فَمَنْ الَّذِي يَبْتَاعُ بِالثَّمَنِ

تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون.
لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمانٍ دون بذل النفوس، فتأخر البطالون،
وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَتْ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البيئة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم
لادعى الخليئي حرقة الشجوي، فتنوع المدعون في الشهود؛ فقليل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيئة: ﴿قُلْ إِنْ
كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البيئة
بتزكية: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقليل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم،
فهلّموا إلى بيعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبائع عرفوا قدر
السلعة، وأن لها شأنًا، فأروا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمانٍ بخس، ففقدوا معه بيعة الرضوان
بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك.

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر
ما كانت، وأضعافها معًا (٢): ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩]
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص، ومتابعة الحبيب، أثمرت أنواع
الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدره المنتهى.
لا يزال سعي المحب صاعدًا إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) في «غ»: (يوم).

(٢) في «غ» والمانار: (معها).

فصل

لا تُحَدُّ المحبَّةُ بحدٍّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً، فحدُّها وجودها، ولا توصف المحبَّةُ بوصفٍ أظهر من المحبَّةِ.

وإنَّما يتكلَّم النَّاسُ في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدنا، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه السَّنَّةِ، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشَّخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادَّةُ تدور في اللُّغة على خمسة أشياء:

- أحدها: الصَّفَاءُ والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.
- الثَّاني: العُلُوُّ والظُّهور، ومنه حب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشَّدِيدِ، وحب الكأس منه.

- الثَّالث: اللُّزوم والثِّبات، ومنه: حَبَّ البعير وأحَبَّ، إذا برك ولم يقم، قال الشَّاعر:
حُلَّتْ عَلَيْهِ بِأَلْفَلَاةٍ ضَرْبًا ضَرْبَ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحَبَّ

- الرَّابِع: اللَّبُّ، ومنه: حَبَّةُ القلب، للبِّ وداخله، ومنه الحَبَّةُ^(١) لواحدة الجبوب؛ إذ هي أصل الشَّيء ومادَّته وقوامه.

- الخَامِس: الحَفْظُ والإمساك، ومنه حَبُّ الماء للوعاء الَّذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثُّبوت أيضًا.

ولا ريب أنَّ هذه الخمسة من لوازم المحبَّةِ؛ فإنَّها صفاء المودَّةِ، وهيجان إرادات القلب للمحجوب، وعلوُّها وظهورها منه لتعلُّقها بالمحجوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحجوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، وإعطاء المحبِّ محبوبه لبِّه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه، ولا اجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمَّى غاية المناسبة، «الحَاءُ» الَّتِي هي من أقصى الحلق، و«الْبَاءُ» الشَّفَوِيَّةُ الَّتِي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبَّةِ وتعلُّقه بالمحجوب؛ فإنَّ ابتداءها منه وانتهاءها إليه.

(١) كلمة (الحبة): ساقطة من «ع» والمنار.

وقالوا في فعلها: حَبَّه وأحبه، قال الشاعر:

[أَحِبُّ أَبَانِرُونَ مِنْ حُبِّ تَمْرِهِ
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا تَمْرُهُ مَا حَبَّبْتُهُ
وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الرَّفْقَ بِالْجَارِ أَرْفَقُ] (١)

وَلَا كَانَ أَذْنَى مِنْ عُيَيْدٍ وَمَشْرِقٍ

ثم اقتصروا على اسم الفاعل من أحبَّ فقالوا: محبٌّ، ولم يقولوا: حابٌّ، واقتصروا على اسم المفعول من حبَّ، فقالوا: محبوبٌ، ولم يقولوا: مُحَبٌّ إلا قليلاً، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَنْظُنِّي غَيْرَهُ
مَنْنِي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

وأعطوا الحبَّ حركة الضمّ التي هي أشدُّ الحركات وأقواها، مطابقةً لشدة حركة مسماه وقوتها، وأعطوا الحبَّ وهو المحبوب حركة الكسر لخفتها عن الضمّة، وخفة المحبوب، وخفة (٢) ذكره على قلوبهم وألستهم: من إعطائه حكم نظائره، كنهى بمعنى منهوبٍ، وذبح بمعنى مذبوحٍ، وحملٍ للمحمول، بخلاف الحمل -الذي هو مصدرٌ- لخفته، ثم ألحقوا به حملاً لا يشقُّ على حامله حملة، كحمل الشجرة والولد.

فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني، تطلعك على قدر هذه اللغة، وأن لها شأنًا ليس لسائر اللغات!

فصل

في ذكر رسوم وحدود قبيلات في المحبة،

بحسب آثارها وشواهداها، والكلام على ما يحتاج إليه منها

كلمة الأولى: قيل: المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم.

وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبة الخاصة والمشاركة، والصّحيحة والمعلولة.

كلمة الثاني: إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

وهذا حكمٌ من أحكام المحبة وأثرٌ من آثارها.

كلمة الثالث: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

(١) هذا البيت ساقط من «غ».

(٢) كلمة (خفة): ساقطة من «غ» والمنار.

وهذا أيضًا موجبها ومقتضاها، وهو أكمل من الحدّين قبله؛ فإنّه يتناول المحبّة الصّادقة الصّحيحة خاصّةً، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة، فإنّه إن لم تصحبه موافقةً فمحبّته معلولةٌ.

﴿الرابع: محو الحبّ﴾^(١) لصفاته وإثبات المحبوب لذاته.

وهذا أيضًا من أحكام الفناء في المحبّة؛ أن تنمحي صفات المحبّ، وتفتنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بيانًا أنّ من هذا، لا يدركه إلّا من أفناه واراد المحبّة عنه، وأخذ منه.

﴿الخامس: مواطاة القلب لمرادات المحبوب.

وهذا أيضًا من موجباتها وأحكامها، والمواطاة الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه.

﴿السادس: خوف ترك الحرمة، مع إقامة الخدمة.

وهذا أيضًا من أعلامها وشواهدا وآثارها؛ أن يقوم بالخدمة كما ينبغي، مع خوفه من ترك

الحرمة والتّعظيم.

﴿السابع: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وهذا قول أبي يزيد، وهو أيضًا من أحكامها وموجباتها وشواهدا، والمحبّ الصّادق لو بذل

لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقلّه واستحيا منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيءٍ لاستكثره واستعظمه.

﴿الثامن: استكثار القليل من جنائتك، واستقلال الكثير من طاعتك، وهو قريبٌ من الذي

قبله، لكنّه مخصوصٌ بما من المحبّ.

﴿التاسع: معانقة الطّاعة، ومباينة المخالفة، وهو لسهل بن عبد الله.

وهو أيضًا حكم المحبّة وموجبها.

﴿العاشر: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحبّ، وهو للجنيد.

وفيه غموضٌ، ومراده: أنّ^(٢) استيلاء ذكر المحبوب وصفاته وأسمائه على قلب المحبّ حتّى

لا يكون الغالب عليه إلّا ذلك، ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلّا بها؛ فيصير شعوره وإحساسه بدلًا من شعوره وإحساسه بصفات نفسه، وقد يحتمل معنّى أشرف من هذا وهو تبدّل صفات المحبّ

الذّميّة التي لا توافق صفات المحبوب بالصفّات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته، والله أعلم.

﴿الحادي عشر: أن تهب كلّك لمن أحببت؛ فلا يبقى لك منك شيءٌ.

وهو لأبي عبد الله القرشيّ، وهو أيضًا من موجبات المحبّة وأحكامها.

(١) في «غ»: (المحب).

(٢) كلمة (أن): غير موجودة «غ» والمناز.

والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه وتجعلها حبسًا في مرضاته ومحابه؛ فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك، فتأخذه منه له.

﴿الثاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وهو للشبلي. وكمال المحبة يقتضي^(١) ذلك؛ فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.﴾

﴿الثالث عشر: إقامة العتاب على الدوام، وهو لابن عطاء. وفيه غموض، ومراده: ألا تزال عاتبًا على نفسك في مرضاة المحبوب، وألا ترضى له فيها عملاً ولا حالاً.﴾

﴿الرابع عشر: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك، وهو للشبلي أيضًا، وفيه كلامٌ سنذكره إن شاء الله في منزلة الغيرة.﴾

ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أن يكون مثلك من محبيه. ﴿الخامس عشر: إرادة غرست أغصانها في القلب؛ فأثمرت الموافقة والطاعة.﴾
﴿السادس عشر: أن ينسى المحب حظه في محبوبه، وينسى حوائجه إليه؛ وهو لأبي يعقوب الشوسيّ.﴾

ومراده: أن استيلاء سلطانها على قلبه غيبه عن حظوظه وعن حوائجه، واندرجت كلها في حكم المحبة.﴾

﴿السابع عشر: مجانية السلو على كل حال، وهو للنصرآبادي، وهو أيضًا من لوازمها وثمراتها، كما قيل:﴾

مَرَّتْ بِأَرْجَاءِ الْخَيْالِ طُيُوفُهُ فَبَكَتْ عَلَى رَسْمِ السُّلُوِّ الدَّارِسِ

﴿الثامن عشر: توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.﴾
﴿التاسع عشر: سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب، وهو لمحمد بن الفضل.﴾
ومراده: توحيد المحبوب بالمحبة.

﴿العشرون: غص طرف القلب عمًا سوى المحبوب غيره، وعن المحبوب هيبة، وهذا

يحتاج إلى تبين.
- أمّا الأول: فظاهر.

(١) في «غ»: (تقتضي).

- وأما الثاني: فإنَّ غَضَّ طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبَّته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء الهيبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبَّة المقارنة للهبية والتعظيم، وقد قيل: إنَّ هذا تفسير قول النَّبِيِّ ﷺ «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِّمُ»^(١) أي يعمي عمَّا سواه غيره، وعنه هيبة. وليس هذا مراد الحديث، ولكنَّ المراد به: أنَّ حُبَّكَ للشَّيْءِ يعمي ويصمُّ عن تأمُّل قبائحه ومساويه؛ فلا تراها ولا تسمعها، وإن كانت فيه، وليس المراد به: ذكر المحبَّة المطلوبة المتعلقة بالرَّبِّ، ولا يقال في حبِّ الرَّبِّ تبارك وتعالى حُبُّكَ الشَّيْءِ، ولا يوصف صاحبها بالعمى والصمِّ^(٢). ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين؛ فإنَّ المحبَّ [قد يعمي ويصمُّ عمَّا سوى محبوبه و] ^(٣) قد يعمي ويصمُّ عنه بالهبية والإجلال، ولكن لا توصف محبَّة العبد لرَبِّه تعالى بذلك، وليس أهلها من أهل العمى والصمِّ، بل هم أهل الأسماع والأبصار على الحقيقة ومن سواهم هم البكم العمي الصمُّ الَّذِينَ لا يعقلون.

الحادي والعشرون: ميلك للشَّيْءِ بكليَّتِكَ، ثمَّ إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثمَّ موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثمَّ علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: «سَمِعْتُ الْحَارِثَ الْمُحَاسِبِيَّ^(٤) يَقُولُ ذَلِكَ».

الثاني والعشرون: المحبَّة نازَّ في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «لَمْتُ بَعْضَ الْإِبَاحِيَّةِ، فَقَالَ لِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: وَالْكُونُ كُلُّهُ مُرَادُهُ، فَأَيُّ شَيْءٍ أَبْغَضُ مِنْهُ؟ قَالَ الشَّيْخُ: فَقُلْتُ لَهُ: إِذَا كَانَ الْمَحْبُوبُ قَدْ أَبْغَضَ أفعالًا وَأَقْوَالًا وَأَقْوَامًا وَعَادَاهُمْ فَطَرَدَهُمْ وَلَعَنَهُمْ فَأَحْبَبْتَهُمْ تَكُونُ^(٥) مُوَالِيًا لِلْمَحْبُوبِ أَوْ مُعَادِيًا لَهُ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا أُلْقِمَ حَجْرًا، وَأَفْتَضَحَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ مُقَدِّمًا فِيهِمْ مُشَارًا إِلَيْهِ».

وهذا الحدُّ^(٦) صحيح، وقائله إنَّما أراد أنَّها تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب الدِّيْنِي الأُمْرِي، الَّذِي يحبه ويرضاه، لا المراد الَّذِي قَدَرَهُ وقضاه، لكن لقلَّة حظِّ المتأخِّرين منهم وغيرهم من العلم، وقعوا فيما وقعوا فيه من الإباحة والحلول والاتِّحاد، والمعصوم من عصمه الله.

(١) رواه أحمد (٥/١٩٤)، وأبو داود في الأدب، باب: في الهوى (٥١٣٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٩٧).

(٢) في «غ» والمنار: (والصم) ولعله الصواب.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي وموجود في نسخة «غ».

(٤) في «غ» والمنار: (رحمهم الله).

(٥) في «غ» والمنار: (فأحببتهم أنت أكنت).

(٦) في «غ»: (الحديث).

﴿ الثالث والعشرون: المحبة بذل المجهود، وترك الاعتراض على المحبوب.

وهذا أيضًا من حقوقها وثمراتها وموجباتها.

﴿ الرابع والعشرون: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم الشكر الذي يحصل

عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فَأَسْكَرَ الْقَوْمَ دَوْرَ الْكَأْسِ بَيْنَهُمْ لَكِنَّ سُكْرِي نَشَأُ مِنْ رُؤْيَا السَّاقِي

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ، التي غاية صاحبها: أن يعذر بصدقه وغلبة

الوارد عليه، وقهره له، فمحبة الله أعلى وأجل من أن تضرب لها هذه الأمثال، وتجعل عرضة للأفواه المتلوثة، والألفاظ المبتدعة، ولكن الصادق في خفارة صدقه^(١).

﴿ الخامس والعشرون: ألا يؤثر على المحبوب غيره، وألا يتولى أمورك غيره.

﴿ السادس والعشرون: الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما

سواه.

﴿ السابع والعشرون: المحبة سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على

الدوام.

قلت: أمّا سفر القلب في طلب المحبوب فهو الشوق إلى لقاءه، وأمّا لهج اللسان بذكره فلا ريب

أن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

﴿ الثامن والعشرون: أن المحبة هي ما لا ينقص^(٢) بالجفاء، ولا تزيد بالبر، وهو ليحيى بن

معاذ.

بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته، فلا ينقص ذلك جفاؤه، ولا يزيده برّه.

وفي ذلك^(٣) ما فيه؛ فإنّ المحبة الذاتية تزيد بالبر، ولا تنقصها زيادتها بالبر^(٤)، وليس ذلك

(١) وهل الصدق في حب الله يكون إلا عن علم صحيح من كتاب الله وهدى رسوله ﷺ، ومعرفة بأسماء الله وصفاته وكتبه ورسله وشرائعه؟ وما أصدق ما قال الشيخ رحمه الله عن أفواههم المتلوثة بأقذار البدعة! فما أبعد الصدق عن قلوب أصحاب هذه الأفواه القذرة، والقلوب النجسة! (الفيقي) (باختصار).

تعليق: ما أحسن ما علق به الإمام ابن القيم والشيخ الفقي رحمهما الله تعالى على تعريف المحبة بالسكر، لكن الفيقي يباليغ في التشنيع ويستدرك هنا على ابن القيم في نسبة الصدق، وتجويزه من بعض المدعين لمحبة الله إلى حد السكر والصواب: ما قاله ابن القيم فقد يكون الإنسان مخطئًا في مقاله مغلوبًا في حاله، مع صدقه في محبة الله تعالى.

(٢) في «غ» والمنار: (تنقص).

(٣) في «غ»: (هذا).

(٤) بقصد بقوله: «ولا تنقصها زيادتها بالبر» أي: لا يقدر في المحبة ولا يعييبها زيادتها بالبر.

بعلة، ولكن مراد يحيى: أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية؛ فإذا جاء البر من محبوبه لم يجد في القلب مكاناً خالياً من حبه يشغله محبة البر، بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب، ومع هذا فلا يزيل الوهم؛ فإن المحبة لا نهاية لها، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره؛ فلا نهاية لمحبه، بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحد منهم، كان ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله؛ ولهذا لا تسمى محبة العبد لربه عشقاً كما سيأتي؛ لأنه إفراط المحبة، والعبد لا يصل في محبة الله إلى حد الإفراط البتة، والله أعلم.

﴿التاسع والعشرون: المحبة أن يكون (١) كلك بالمحبيب مشغولاً، وذلك له مبدولاً.

﴿الثلاثون: - وهو من أجمع ما قيل فيها- قال أبو بكر الكتاني (٢): «جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله تعالى - أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقبي؛ فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين».

فصل

في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها

* وهي عشرة (٣):

﴿أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به (٤)، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

﴿الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة.

(١) في «غ» والمنار: (تكون).

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٣) قام بشرح هذه الأسباب أخونا الشيخ عبد العزيز مصطفى في رسالة أسماها «شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله تعالى» وهو شرح نافع ومفيد في بابه.

(٤) كلمة (به): ساقطة من «غ».

﴿ الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال؛ فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.﴾

﴿ الرابع: إثارة محبته على محابك عند غلبات الهوى، والتسليم إلى محبته، وإن صعب المرتقى.﴾

﴿ الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبايها؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.﴾

﴿ السادس: مشاهدة بزه وإحسانه وآلائه، ونعمة الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.﴾

﴿ السابع: - وهو من أعجبها-: انكسار القلب بكلية بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.﴾

﴿ الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه؛ ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.﴾

﴿ التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطيب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطيب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.﴾

﴿ العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.﴾

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة، وبالله التوفيق.

فصل

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده.

* والناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام:

فأهل يحبهم ويحبونه على إثبات الطرفين: وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله، وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسوله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه؛ فإن ذلك أثر المحبة وموجبها؛ فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

والجهمية المعطلة: عكس هؤلاء فإنه عندهم لا^(١) يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص؛ فأولوا نصوص محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وإن أطلقوا عليهم بها^(٢) لفظ المحبة فلما ينالون به من الثواب والأجر، والثواب المنفصل عندهم هو المحبوب لذاته، والرَّبُّ تعالى محبوبٌ لغيره حبَّ الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم، وإعطائهم الثواب، وربما أولوها بثنائه عليهم ومدحه لهم، ونحو ذلك، وربما أولوها بإرادته لذلك، فتارةً يؤوّلونها بالمفعول المنفصل، وتارةً يؤوّلونها بنفس الإرادة.

- ويقولون: الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية سميت محبة، وإن تعلقت بالعقوبة والانتقام سميت غضبًا، وإن تعلقت بعموم الإحسان والإنعام الخاص سميت برًا، وإن تعلقت بإيصاله في خفاء من حيث لا يشعر ولا يحتسب سميت لطفًا، وهي واحدة، ولها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

ومن جعل محبته للعبد ثناء عليه ومدحه له: ردّها إلى صفة الكلام؛ فهي عنده من صفات الذات، لا من صفات الأفعال، والفعل عنده نفس المفعول، فلم يقدّم بذات الربّ محبةً لعبده، ولا لأنبيائه ورسله ألبتة.

ومن ردّها إلى صفة الإرادة جعلها من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلّقها.

ولمّا رأى هؤلاء أنّ المحبة إرادة، وأنّ الإرادة لا تتعلّق إلّا بالمحدث المقدور، والقديم يستحيل أن يراد أنكرها محبة العباد، والملائكة، والأنبياء، والرسل له، وقالوا: لا معنى لها إلّا إرادة التقرب إليه، والتعظيم له، وإرادة عبادته؛ فأنكروا خاصّة الإلهية، وخاصّة العبودية، واعتقدوا أنّ هذا من موجبات التوحيد والتنزيه؛ فعندهم لا يتمّ التوحيد والتنزيه إلّا بجحد حقيقة الإلهية، وجحد حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداناً - تدلّ على إثبات محبة العبد لربه، والرّبّ لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مائة طريق في كتابنا الكبير في المحبة^(٣)، وذكرنا فيه فوائد المحبة،

(١) كلمة (لا): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ»: (بها عليهم).

(٣) لعله يعني كتاب «روضة المحبين».

وما تثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرّدّ على من أنكرها، وبيان فساد قوله، وأنّ المنكرين لذلك قد أنكروا خاصّة الخلق والأمر، والغاية التي وجدوا لأجلها، فإنّ الخلق والأمر، والثواب، والعقاب إنّما نشأ عن المحبة^(١) ولأجلها، وهي الحقّ الذي به خلقت السموات والأرض، وهي الحقّ الذي تضمّنه الأمر والنهي، وهي سرّ التّأليه^(٢)، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلاّ الله.

وليس كما زعم المنكرون أنّ الإله هو الرّبّ الخالق؛ فإنّ المشركين كانوا مقرّين بأنّه لا ربّ إلاّ الله، ولا خالق سواه، وبأنّه وحده المنفرد بالخلق والرّبوبيّة، ولم يكونوا مقرّين بتوحيد الإلهيّة، وهو المحبة والتّعظيم، بل كانوا يؤلّهون^(٣) مع الله غيره، وهذا هو الشّرك الذي لا يغفره الله، وصاحبه ممّن اتّخذ من دون الله أندادًا.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. فأخبر أنّ من أحبّ من دون الله شيئًا، كما يحبّ الله تعالى فهو ممّن اتّخذ من دون الله أندادًا، فهذا ندّ في المحبة، لا في الخلق والرّبوبيّة؛ فإنّ أحدًا من أهل الأرض لم يثبت هذا الندّ في الرّبوبيّة^(٤)، بخلاف ندّ المحبة؛ فإنّ أكثر أهل الأرض قد اتّخذوا من دون الله أندادًا في الحبّ والتّعظيم. ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي تقدير الآية قولان:

- أحدهما: والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأنّادهم وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله.

- والثاني: والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله من محبة المشركين بالأنداد لله؛ فإنّ محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أنادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشدّ من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فإنّ فيها [قولين]^(٥):

- أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادًا.

- والثاني: أنّ المعنى يحبون أنادهم كما يحبّ المؤمنون الله، ثمّ بين أنّ محبة المؤمنين لله أشدّ من محبة أصحاب الأنداد لأنّادهم.

(١) في المنار: (على المحبة).

(٢) في «غ» والمنار: (التأله).

(٣) في «غ» والمنار: (يتألّهون).

(٤) جملة (في الرّبوبيّة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٥) في جميع النسخ: (قولان) والصواب ما أثبتته بين المعكوفتين لأنه سم (إن).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله يرجح القول الأوّل، ويقول: إنّما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبّة، ولم يخلصوها لله كمحبّة المؤمنين له.

وهذه التّسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار يقولون (١) لآلهتهم وأندادهم، وهي مُحَضَّرَةٌ معهم في العذاب: ﴿تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ اِذْ دُسُوْا۟ بِكُمْ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم أنّهم لم يسوّوهم برّب العالمين في الخلق والرّبوبيّة (٢)، وإنّما سوّوهم به في المحبّة والتّعظيم.

وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهٖمْ يَّعِدُوْنَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبّة والتّعظيم، وهذا أصحّ القولين. وقيل: الباء بمعنى «عن» والمعنى: ثمّ الذين كفروا عن ربّهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره، وهذا ليس بقويّ؛ إذ لا تقول العرب عدلت بكذا؛ أي: عدلت عنه، وإنّما جاء هذا في فعل السّؤال، نحو: سألت بكذا؛ أي: عنه، كأنّهم ضمّنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

وقال تعالى: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحِبِّكُمْ اللّٰهُ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] وهي تسمّى آية المحبّة. قال أبو سليمان الدّاراني: ﴿لَمَّا اَدْعَتِ الْقُلُوْبُ مَحَبَّةَ اللّٰهِ اَنْزَلَ اللّٰهُ لَهَا مِحْنَةً ﴿٣﴾﴾: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحِبِّكُمْ اللّٰهُ ﴿٣١﴾﴾.

قال بعض السّلف: «ادعى قوم محبّة الله فأنزّل الله آية المِحْنَةِ: ﴿قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحِبِّكُمْ اللّٰهُ ﴿٣١﴾﴾».

وقال: ﴿يُحِبِّكُمْ اللّٰهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبّة وثمرتها، وفائدتها؛ فدليلها وعلامتها، اتّباع الرّسول، وفائدتها وثمرتها: محبّة المرسل لكم؛ فما لم تحصل المتابعة فليست (٤) محبّتكم له حاصلّة، ومحبّته لكم متّفيّة.

وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الذّٰلِمِيْنَ اٰمَانًا مِّنْ يَّرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهٖۗ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوِيٍّ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُۥ اٰذَلَّةً عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ اَعَزَّ عَلٰى الْكٰفِرِيْنَ يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَلَا يَخٰفُوْنَ لَوْمَةً لّٰٓئِمَةً ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥] فقد ذكر لهم أربع علامات: - أحدها: أنّهم أذلة على المؤمنين قيل: معناه: أرقاء رحماء مشفقين عليهم؛ عاطفين عليهم؛

(١) في «ع» والمنار: (لأنهم يقولون).

(٢) بلى سووهم به في بعض خصائص الربوبية، وهي التشريع، كما قال الله عنهم: ﴿اَتَّخَذُوْا اٰخْبَارَهُمْ وَرُهْبٰنَهُمْ اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وفي قوله: ﴿اَمْ لَهُمْ شُرَكَوٰٓءُ شَرَعُوْا لَهُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا لَمْ يَأْتِ اللّٰهُ بِهٖ﴾ [الشورى: ٢١]، وفي حديث عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ شرح ذلك. (الفتحي) بتصرف يسير.

(٣) في «ع» والمنار: (أنزلها محنة).

(٤) في «ع» والمنار: (فلا).

فلَمَّا ضَمَّنْ أذَلَّةَ هَذَا الْمَعْنَى عَدَاهُ بِأَدَاةِ: «عَلَى».

قال عطاء: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْوَالِدِ لِلْوَالِدِ، وَالْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ، وَعَلَى الْكَافِرِينَ كَالْأَسَدِ عَلَى فَرَسَيْتِهِ: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

- العلامة الثالثة^(١): الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

- العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة؛ فكلُّ محبٍّ يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحبٍّ على الحقيقة، كما قيل:

لَا كَانَ مَنْ لِسَوَاكَ فِيهِ بَقِيَّةٌ يَجِدُ السَّبِيلَ بِهَا إِلَيْهِ اللَّوْمُ

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقامات الثلاث: الحبُّ، وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحة؛ والرَّجاء والخوف؛ يدلُّ على أنَّ ابتغاء الوسيلة أمرٌ زائدٌ على رجاء الرَّحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنك^(٢) لا يتنافس إلا في قرب من تحبُّ قربه، وحبُّ قربه تبعٌ لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، وعند الجهمية والمعطلة ما من ذلك كلُّه شيءٌ؛ فإنَّ عندهم لا تقرب ذاته من شيءٍ، ولا يقرب من ذاته شيءٌ، ولا يُحبُّ لذاته، ولا يُحبُّ.

فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة؛ ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حُجُبٌ^(٣) على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبُّونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونوعت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحقُّ بها وأهلها، وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله بِرَبِّكَ وَمَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوْحَةً اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

(١) سقط من جميع النسخ (العلامة الثانية) وهي (أعزة على الكافرين)، ولعلها دخلت في العلامة الأولى، والله أعلم.
(٢) في «غ» والمنار: (أنه) ولعله هو الصواب، إلا أن تكون الجملة التي بعدها: «لا تنافس» فهنا يستقيم الكلام في طبعة الفقي.

(٣) في «غ» والمنار: (حجاب).

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠، ١٩]. فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿وَلِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٩]. فجعل إرادته غير إرادة الآخرة..

وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما في «مُسْتَدْرِكِ الْحَاكِمِ» و«صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ» في الحديث المرفوع عن النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَيَّ الْخَلْقِ، أَحْبَبِي إِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرَّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرَّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشُّوقَ إِلَيَّ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»^(١).

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه، وعند الجهمية لا وجه له سبحانه، ولا ينظر إليه، فضلاً أن يحصل به لذة، كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هب أن له وجهاً، أفتلنذ بالنظر إليه؟

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(٢).

وفي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ آدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ»^(٣).

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عنه أَيضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ،

(١) تقدم تخريجه (٢/٢٩٢).

(٢) تقدم تخريجه (٢/١٥٠).

(٣) تقدم تخريجه (٢/٣٦).

ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١). وذكر في البغض عكس ذلك.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث أمير السَّرِيَّةِ الَّذِي كَانَ يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأصحابه في كُلِّ صَلَاةٍ، وَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»^(٢).

وفي «جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ» من حديث أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ «كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(٣).

وفيه أيضًا من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبَّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَأَجْعَلْهُ (قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، وَمَا رَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أَحَبُّ فَأَجْعَلْهُ)»^(٤) فَرَاغًا فِيمَا تُحِبُّ»^(٥).

والقرآن والسنة مملوءان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين^(٦)، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم.

كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، صَفًا كَانَتْهُمْ يُدِينُونَ مَرْمُوضًا﴾ [الصف: ٤].

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله في ضد ذلك: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

(١) رواه البخاري في «التوحيد»، باب: كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة (٧٤٨٥)، ورواه مسلم في البر والصلة، باب: إذا أحب الله عبداً أحبه إلى عباده (٢٦٣٧).

(٢) رواه البخاري في «التوحيد»، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ (٧٣٧٥)، ورواه مسلم في «صلاة المسافرين»، باب: فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٨١٣).

(٣) رواه الترمذي في «الدعوات»، باب (٧٣) وقال: «حسن غريب»، ورواه الحاكم في «مستدرکه» (٤٣٣/٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٩١).

(٤) ما بين القوسين ساقط المنار.

(٥) رواه الترمذي في «الدعوات»، باب (٧٤)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٩٢).

(٦) كلمة (المؤمنين): ساقطة من «غ» والمنار.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكم في السنة «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ كَذَا وَكَذَا»، و«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كَذَا وَكَذَا»، كقوله: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).
و«أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ»^(٢).
و«أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»^(٣).
وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤَخَذَ بِرُخَصِهِ»^(٤).

وأضعاف أضعاف ذلك، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشدُّ فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله^(٥).

فإنها روح كلِّ مقامٍ ومنزلةٍ وعملٍ، فإذا خلا منها فهو ميتٌ لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذلل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن الإله هو الذي يألهه العباد حباً وذللاً، وخوفاً ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً له، بمعنى مألوه، وهو الذي تأله القلوب؛ أي: تحبه وتذلُّ له.

وأصل التَّأَلُّهُ التَّعْبُدُ، والتَّعْبُدُ آخر مراتب الحبِّ، يقال: عبَّده الحبُّ وتيمَّه إذا ملكه وذلكه لمحبوبه.

ف«الْمَحَبَّةُ» حقيقة العبودية، وهل تمكن الإنابة بدون المحبة، والرِّضَا، والحمد والشُّكر، والخوف والرَّجاء؟!

(١) رواه البخاري في «مواقيت الصلاة»، باب: فضل الصلاة لوقتها رقم (٥٢٧)، ورواه مسلم في «الإيمان»، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

(٢) رواه البخاري في «الإيمان»، باب: من قال إن الإيمان هو العمل (٢٦)، ومسلم في «الإيمان»، باب: بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٣).

(٣) رواه البخاري في «الإيمان»، باب: أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣)، ومسلم في «صلاة المسافرين»، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (٧٨٢).

(٤) تقدم تخريجه (٢٥١/١).

(٥) جملة (إلى الله): غير موجودة في «ع» والمنار.

وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟! فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابته ومراضيه.

وكذلك الزهد في الحقيقة هو زهد المحبين؛ فإنهم يزهّدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبتته^(١).

وكذلك الحياء في الحقيقة إنما هو حياء المحبين، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم، وأمّا ما لا يكون عن محبة فذلك خوف محض.

وكذلك مقام الفقر فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها، وهو أعلى أنواع الفقر، فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه، لاسيما إذا وحده في الحب، ولم يجد منه عوضا سواه، هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك الغنى هو غنى القلب بحصول محبوبه، وكذلك الشوق إلى الله تعالى ولقائه، فإنه لب المحبة وسرها، كما سيأتي.

فمنكر المحبة هذه المسألة ومعطلها من القلوب معطل لذلك كله، وحجابه أكثر الحجب، وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله، وهو منكر لخلّة إبراهيم عليه السلام، فإنّ الخلّة كمال المحبة، وهو يتأول الخليل بالمحتاج، فخليل الله عنده هو المحتاج، فكم -على قوله- الله من خليل من بر وفاجر، بل مؤمن وكافر؛ إذ كثير من الفجار^(٢) والكفار^(٣) من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها، ويرى نفسه أحوج شيء إلى ربه في كل حالة.

فلا بالخلّة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

ولهذا ضحى خالد بن عبد الله القسري بمقدّم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم، وقال في يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته: «أيها الناس، ضحوا، تقبل الله صحاياكم؛ فإنني مضح بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا»، ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه، ورحمه الله وتقبل منه.

(١) في «غ» والمنار: (ما سواه لمحبتته).

(٢) كلمة (الفجار): ساقطة من «غ».

(٣) وكلمة (الكفار): ساقطة من والمنار.

فصل

في مراتب المحبة^(١)

﴿ أولها: العلاقة: وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبيب، قال الشاعر:
أَعْلَاقَةٌ أُمُّ الْوَلِيدِ بَعِيدَ مَا أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِيسِ

﴿ الثانية: الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

﴿ الثالثة: الصّابة: وهي انصباب القلب إليه؛ بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور، فاسم الصّفة منها صبّ، والفعل صبا إليه يصبو صبّا، وصبابةً، فعاقبوا بين المضاعف والمعتلّ، وجعلوا الفعل من المعتلّ والصّفة من المضاعف، ويقال: صبّا وصبوّةً، وصبابةً، فالصّبا: أصل الميل، والصبّوة: فوقه، والصبّابة: الميل اللّازم وانصباب القلب بكليّته.

﴿ الرابعة: الغرام: وهو الحبّ اللّازم للقلب، الّذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سمي عذاب النّار: غرامًا للزومه لأهله، وعدم مفارقتها لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ ﴿٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥].

﴿ الخامسة: الوداد: وهو صفو المحبّة، وخالصها ولبّها، والودود: من أسماء الرّبّ تعالى، وفيه قولان:

- أحدهما: أنّه المودود، قال البخاريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِهِ»: «الْوَدُودُ: الْحَبِيبُ» (٢).
- والثاني: أنّه الوادُّ لعباده؛ أي: المحبُّ لهم، وقرنه باسمه الغفور إعلامًا بأنّه يغفر الذّنْب، ويحبُّ التّائب منه، ويودّه؛ فحظُّ التّائب: نيل المغفرة منه.
وعلى القول الأوّل «الْوَدُودُ» في معنَى يكون سرُّ الاقتران؛ أي: اقتران «الْوَدُودِ بِالْغُفُورِ» استدعاء مودّة العباد له، ومحبتهم إيّاه باسم الغفور.

﴿ السادسة: الشّغف: يقال: شغف بكذا؛ فهو مشغوفٌ به، وقد شغفه المحبوب؛ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبه، كما قال النّسوة عن امرأة العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثة أقوال:

(١) ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المراتب بشيء من التفصيل في كتابه المشهور «روضة المحبين».
(٢) ذكر ذلك البخاري في كتاب «الوحيد»، باب: وكان عرشه على الماء قال: «وقال: ابن عباس: المجيد: الكريم: والودود: الحبيب».

- أحدها: أنه الحبُّ المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره.
قال الكلبي: «حَجَبَ حُبُّهُ قَلْبَهَا حَتَّى لَا تَعْقِلَ سِوَاهُ».
- الثاني: الحبُّ الواصل إلى داخل القلب.
قال صاحب هذا القول: المعنى: أحبَّته حتى دخل حُبُّه شغاف قلبها؛ أي: داخله.
- الثالث: أنه الحبُّ الواصل إلى غشاء القلب، والشَّغاف: غشاء القلب إذا وصل الحبُّ إليه
باشِر القلب.

قال السُّديُّ: «الشَّغافُ: جِلْدَةٌ رَقِيْقَةٌ عَلَى الْقَلْبِ؛ يَقُولُ: دَخَلَهُ الْحُبُّ حَتَّى أَصَابَ الْقَلْبَ».

وقرأ بعض السلف «شَعَفَهَا» بالعين المهملة؛ ومعناه: ذهب الحبُّ بها كلَّ مذهبٍ، وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شغف الجبال لرءوسها.

كلمة السَّابعة: العشق: وهو الحبُّ المفرط الَّذي يخاف على صاحبه منه، وعليه تأوَّل إبراهيم، ومحمَّد بن عبد الوهَّاب: ﴿وَلَا تُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال محمَّد: «هُوَ الْعِشْقُ».

«وَرَفَعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شَابٌّ وَهُوَ يَعْرِفُهُ^(١) قَدْ صَارَ كَالْحَلَالِ؛ فَقَالَ: مَا بِهِ؟ قَالُوا: الْعِشْقُ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَامَّةَ دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ: الْإِسْتِعَاذَةَ مِنَ الْعِشْقِ».

وفي اشتقاقه قولان:

- أحدهما: أنه من العشقة - محرَّكة -، وهي نبتٌ أصفر يلتوي على الشَّجر، فشبه به العاشق.
- والثاني: أنه من الإفراط.
- وعلى القولين فلا يوصف به الرَّبُّ تبارك وتعالى، ولا العبد في محبة ربِّه، وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحبُّ عن تمييزه، كان في خفارة صدقه ومحبته.
- كلمة الثامنة: التَّيِّمُ: وهو التَّعْبُدُ والتَّذَلُّلُ؛ يقال: تيمه الحبُّ؛ أي: ذلَّه وعبَّده، وتيم الله: عبد الله، وبينه وبين اليتيم^(٢) - الَّذي هو الانفراد - تلاقٍ في الاشتقاق الأوسط، وتناسبٌ في المعنى؛ فإنَّ اليتيم المنفرد بحبه وشجوه كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكلُّ منهما مكسورٌ ذليلٌ؛ هذا كسره يَتِيْمٌ، وهذا كسره تَيِّمٌ.

كلمة التاسعة: التَّعْبُدُ: وهو فوق التَّيِّمِ؛ فإنَّ العبد هو الَّذي قد ملك المحبوب رقه فلم يبق له شيءٌ من نفسه ألبتَّة، بل كلُّه عبدٌ لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد

(١) في المنار: (وهو بعرفة).

(٢) في «غ»: (اليتيم).

كَمَلْ مَرْتِبَتَهَا. وَلَمَّا كَمَلَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ هَذِهِ الْمَرْتِبَةَ وَصَفَهُ اللهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ مَقَامَاتِهِ، مَقَامِ الْإِسْرَاءِ، كَقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

ومقام الدَّعوة؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].
ومقام التَّحَدِّي؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وبذلك استحقَّ التَّقْدِيمَ عَلَى الْخَلَائِقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وكذلك يقول المسيح عليه الصَّلَاة والسَّلَام لهم، إذا طلبوا منه الشَّفَاعَةَ بعد الأنبياء عليهم الصَّلَاة والسَّلَام: «أَذْهَبُوا إِلَيَّ مُحَمَّدٍ، عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ!» (١).

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَكَمَالِ مَعْفَرَةِ اللهِ لَهُ».

وحقيقة العبوديَّة: الحُبُّ التَّامُّ، مع الذَّلِّ التَّامِّ والخضوع للمحسوب، تقول العرب طريقٌ معبَّدٌ؛ أي: قد ذلَّته الأقدام وسهَّلته.

العاشرة: مرتبة الخَلَّة: الَّتِي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، كما صحَّ عنه أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» (٢).

وقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ» (٣). والحديثان في الصَّحيح.

وهما ييطان قول من قال الخَلَّةُ لإبراهيم والمحبَّةُ لمحمدٍ، فإبراهيم خليله ومحمدٌ حبيبه. والخَلَّةُ: هي المحبَّة الَّتِي تخلَّلت روح المحبِّ وقلبه، حتَّى لم يبق فيه موضعٌ لغير المحبوب، كما قيل:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مِنِّي
وَلَدًا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا (٤)

(١) جزء من حديث الشفاعة، رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ في الصحيح، ولكن رواه ابن ماجه في «المقدمة»، باب: فضل العباس بن عبد المطلب (١٤١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» برقم (٢٦).

(٣) رواه البخاري في «فضائل أصحاب النبي ﷺ»، باب: قول النبي ﷺ «سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر» (٣٦٥٤)، ورواه مسلم في «فضائل الصحابة»، باب: فضائل أبي بكر ﷺ (٢٣٨٣).

(٤) لا يخفى أن هذا التفسير للخَلَّة المختصة بالمخلوق، فلا يناسب ذكر ذلك في مقام الكلام في الخَلَّة المضافة إلى الله ﷻ المختصة به، فلو أن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى اقتصر في تفسير الخَلَّة المطلقة على ما ذكره أولاً من أنها أعلى مراتب المحبة لكان أبعد عن الإشكال والاشتباه، وأما قوله رحمه الله تعالى أن الخَلَّة لا تقبل الشركة فهذا قول يحتاج إلى تفصيل، فأما الخَلَّة من الله تعالى فلا مانع أن يشترك فيها من شاء الله تعالى من عباده؛ فقد اتخذ إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وأما الخَلَّة من المخلوق

وهذا هو السرُّ الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمره فؤاده وفلذة كبده؛ لأنَّه لما سأل الولد فأعطيه، تعلَّقت به شعبةٌ من قلبه؛ والخلة منصبٌ لا يقبل الشركة والقسمة؛ فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره، فأمره بذبح الولد، ليخرج المزاحم من قلبه، فلمَّا وطَّن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر؛ فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحةٌ؛ فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، وقيل له: ﴿يَتَابِرْهِمُ﴾ ﴿١٤١﴾ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴿١٤٢﴾ أي: عملت عمل المصدِّق: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقرُّ عينه كما أفرنا عينك بامثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَوُا الْمُبِينُ﴾ ﴿١٠٦﴾ [الصفات: ١٤٠ - ١٠٦] وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إيَّاه ليؤثر مرضاته؛ فيتمَّ عليه نعمه (١)، فهو بلاء محنة ومنحةٍ عليه معًا. وهذه الدَّعوة إنَّما دعا إليها بها خواصُّ خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم، فما كلُّ أحدٍ يجيب داعيها، ولا كلُّ عينٍ قريرةٌ بها، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فَمَا كُلُّ عَيْنٍ بِالْحَبِيبِ قَرِيرَةٌ
وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِي هَذَاكَ فَخَلَّهِ
وَقُلْ لِلْعُيُونِ الرُّمِدِ إِيَّاكَ أَنْ تَرِي
وَسَامِعِ نَفُوسًا لَمْ يَهَبْهَا لِحَبِّهِمْ
وَقُلْ لِلَّذِي قَدْ غَابَ يَكْفِي عُقُوبَةً
وَوَاللَّهِ لَوْ أَضْحَى نَصِيْبُكَ وَإِفْرًا
أَلَمْ تَرَ آثَارَ الْقَطِيعَةِ قَدْ بَدَتْ
حَقَافِيْشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوْوِهِ
فَجَالَتْ وَصَالَتْ فِيهِ حَتَّى إِذَا النُّ

وَلَا كُلُّ مَنْ نُودِيَ يُجِيبُ الْمُنَادِيَا
يُجِيبُ كُلُّ مَنْ أَضْحَى إِلَيَّ الْغِيَّ دَاعِيَا
سَنَا الشَّمْسِ فَاسْتَنْغَشِي ظِلَامَ اللَّيَالِيَا
وَدَعَهَا وَمَا اخْتَارَتْ وَلَا تَكُ جَافِيَا
مَغِيْبِكَ عَنِ ذَا الشَّأْنِ لَوْ كُنْتَ وَاعِيَا
رَحِمْتَ عَدُوًّا حَاسِدًا لَكَ قَالِيَا
عَلَى حَالِهِ فَارْحَمْهُ إِنْ كُنْتَ رَائِيَا
وَلَاءَ مَهْمَا قَطَعُ مِنَ اللَّيْلِ بَادِيَا
تَهَارُ بَدَا اسْتَخْفَتْ وَأَعْطَتْ تَوَارِيَا

للمخلوق فكذلك لا يمتنع أن يكون للشخص الواحد خليلًا فأكثر، وأما محبة العد لربه فلم يرد نص صريح في إطلاق اسم الخلة عليها بمعنى أن يقال: الله خليل إبراهيم و خليل محمد، ولكن ذلك يفهم من قوله ﷺ: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»، وإذا قيل إن هذه الخلة لا تقبل المزاحمة والشركة فهو حق؛ لأنه ﷺ تبرأ أن يكون له خليل من أمته ليفرد ربه بذلك. (١) في «غ» والمنار: (فيتم نعمته عليه).

فَيَا مَحْنَةَ الْحَسَنَاءِ تُهْدِي إِلَى امْرِئٍ
 إِذَا ظَلَمَهُ اللَّيْلُ انْجَلَتْ بِضِيائِهَا
 فَضَنَّ بِهَا إِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَهَا
 فَمَا مَهْرَهَا شَيْءٌ سِوَى الرُّوحِ أَيُّهَا الْ
 فَكُنْ أَبَدًا حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبُ الْ
 وَأَذْلَجْ وَلَا تَخَشِ الظَّلَامَ فَإِنَّهُ
 وَسُقُوقَهَا بِذِكْرَاهُ مَطَايَاكَ إِنَّهُ
 وَعِدْهَا بِرُوحِ الوُضْلِ تُعْطِيكَ سَيْرَهَا
 وَأَقْدِمْ فَإِمَّا مُنِيَّةٌ أَوْ مَنِيَّةٌ
 فَمَا نَمَّ إِلَّا الوُضْلُ أَوْ كَلَفُ بِهِمْ
 أَمَا سَمِئَتْ مِنْ عَيْشِهَا نَفْسٌ وَالِهِ
 أَمَا مَوْتُهُ فِيهِمْ حَيَاةٌ وَذُلُّهُ
 أَمَا يَسْتَحِي مَنْ يَدْعِي الحُبَّ بِاخْتِلَا (١)
 أَمَا تَلِكْ دَعْوَى كَاذِبٍ لَيْسَ حَظُّهُ
 أَمَا أَنْفُسُ العُشَّاقِ مَلِكٌ لِغَيْرِهِمْ
 أَمَا سَمِعَ العُشَّاقُ قَوْلَ حَبِيْبَةٍ
 وَلَمَّا شَكُوْتُ الحُبَّ قَالَتْ كَذَّبْتَنِي
 فَلَا حُبَّ حَتَّى يُلْصِقَ القَلْبُ بِالْحَشَا
 وَتَنْحُلُ حَتَّى لَا يُبْقِي لَكَ الهَوَى

ضَرِيرٍ وَعَيْنَيْنِ مِنَ الوَجْدِ خَالِيَا
 يَعُودُ لِعَيْنَيْهِ ظَلَامًا كَمَا هِيََا
 إِلَى أَنْ تَرَى كُفْمًا أَتَاكَ مَوَافِيَا
 جَبَانٌ تَأَخَّرَ لَسْتَ كُفْمًا مُسَاوِيَا
 مَحَبَّةٍ فِي ظَهْرِ العَرَائِمِ سَارِيَا
 سَيَكْفِيكَ وَجْهُ الحُبِّ فِي اللَّيْلِ هَادِيَا
 سَيَكْفِي المَطَايَا طِيبُ ذِكْرَاهُ حَادِيَا
 فَمَا شِئْتَ وَاسْتَبَقِ العِظَامَ البُؤَالِيَا
 تُرِيحُكَ مِنْ عَيْشٍ بِهِ لَسْتَ رَاضِيَا
 وَحَسْبُكَ فَوْزًا ذَاكَ إِنْ كُنْتَ وَاعِيَا
 تَبِيْتُ بِنَارِ البُعْدِ تَلْقَى المَكَاوِيَا
 هُوَ العِزُّ وَالتَّوْفِيقُ مَا زَالَ غَالِيَا
 بِمَا لِحَبِيْبٍ عَنْهُ يَدْعُوهُ ذَا لِيَا
 مِنَ الحُبِّ إِلَّا قَوْلُهُ وَالأَمَانِيَا
 بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الحُبِّ مَا زَالَ فَاشِيَا
 لِيَصَّبَّ بِهَا وَافِيَا مِنَ الحُبِّ شَاكِيَا
 فَمَا لِي أَرَى الأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
 وَتَخْرَسَ حَتَّى لَا تُحِيبَ المُنَادِيَا
 سِوَى مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَا

(١) في المنار: (خالياً).

فصل

□ قال صاحب المنازل رحمه الله: «المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعني: تعلق القلب بالمحوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب وأنسه بالمحوب، في حالتي بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق؛ بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلى أنها بين الهمة والأنس؛ لأن المحبة لما كانت هي نهاية شدة الطلب، وكان المحب شديد الرغبة والطلب كانت الهمة من مقومات حبه، وجملة صفاته، ولما كان الطلب بالهمة قد يعرئ عن الأنس، وكان المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه، وطمعه بالوصول إليه، فمن هذين يتولد الأنس وجب^(١) أن يكون المحب موصوفاً بالأنس؛ فصارت المحبة قائمة بين الهمة والأنس.

ويريد بالبذل والمنع أحد أمرين: إمّا بذل الروح والنفس لمحجوبه، ومنعها عن غيره؛ فيكون البذل والمنع صفة المحب، وإمّا بذل الحبيب ومنعه؛ فتعلق^(٢) همة المحب به في حالتي بذله ومنعه. ويريد بالأفراد معنيين: إمّا أفراد المحبوب وتوحيده بذلك التعلق، وإمّا فناؤه في محبته، بحيث ينسى نفسه وصفاته في ذكر محاسن محبوبه، حتى لا يبقى إلا المحبوب وحده. والمقصود: أفراد المحب لمحجوبه بالتوحيد والمحبة، والله أعلم.

فصل

□ قال: «والمحبة: أول أودية الفناء، والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو، وهي

آخر منزل تلتقي^(٣) فيه مقدمة العامة، وساقفة الخاصة».

إنما كانت المحبة أول أودية الفناء؛ لأنها تفني خواطر المحب عن التعلق بالغير، وأول ما يفنى من المحب خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه؛ لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت

(١) في «غ»: (واجب).

(٢) في «غ» والمنار: (فتعلق).

(٣) في «غ»: (يلتقي).

خواتمه تبعًا.

ويريد بمنازل المحو: مقاماته.

﴿وَأُولَٰهَا: محو الأفعال: في فعل الحقِّ تعالى؛ فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً.﴾

﴿وَالثَّانِي: محو الصِّفَات: الَّتِي فِي الْعَبْد، فِيرَاهَا عَارِيَةً أَعِيرَهَا، وَهَبَةً وَهَبَهَا، لِيَسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى بَارئِهِ وَفَاطِرِهِ، وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَيَعْلَمُ بِوَسْاطَةِ حَيَاتِهِ مَعْنَى حَيَاةِ رَبِّهِ، وَبِوَسْاطَةِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَسَمِعِهِ وَبَصَرِهِ، وَكَلَامِهِ وَغَضْبِهِ وَرِضَاهِ، وَلَوْلَا هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهِ لَمَا عَرَفَهَا مِنْ رَبِّهِ.﴾

وهذا أحد التَّأْوِيلَاتِ فِي الْأَثَرِ الْإِسْرَائِيلِيِّ: «اعْرِفْ نَفْسَكَ تَعْرِفْ رَبَّكَ».

وهذه الصِّفَاتُ فِي الْحَقِيقَةِ: أَثَرُ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ فِيهِ؛ فَإِنَّهَا أَثَرُ أَعْمَالِ الْحَقِّ، وَأَعْمَالِهِ مَوْجِبُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ؛ فَإِذَنْ (١) عَادَ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَى أَعْمَالِهِ، وَعَادَتِ أَعْمَالُهُ إِلَى صِفَاتِهِ.

ففي هذه المنزلة يمحو العبد شهود صفاته ووجودها الذي ليس بحقيقي، ويثبت شهود صفات المعبود ووجودها الحقيقي، فالله سبحانه منح عبده هذه الصفات ليعرفه بها، ويستدل بها عليه، فإن لم يفعلها عطّل عليه طريق المعرفة والاستدلال بها، فصارت بمنزلة العدم، ولهذا يوصف الغافل عن الله بالصَّمِّ والبكم والعمى والموت، وعدم العقل.

﴿الثَّالِث: محو الدَّات: وهو شهود تفرُّد الحقِّ تعالى بالوجود أزلاً وأبداً، وأنه الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ، والآخر الذي ليس بعده شيءٌ، ووجود كلِّ ما سواه قائمٌ به وأثر صنعه؛ فوجوده هو الوجود الواجب الحقُّ، الثَّابِتُ لِنَفْسِهِ أَزْلاً وَأَبْداً، وأنه المتمرُّدُ بذلك.﴾

وهذا المحو يصحُّ باعتبارين.

- أحدهما: باعتبار الوجود الدَّاتِيَّ، ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار؛ إذ ليس مع الله موجودٌ بذاته سواه، وكلُّ ما سواه فموجودٌ (٢) بإيجاده سبحانه.

- الاعتبار الثَّانِي: المحو في المشهد (٣)، فلا يشهد فاعلاً غير الحقِّ سبحانه، ولا صفات غير صفاته، ولا موجود سواه، لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره.

وَأَمَّا محو ذلك من الوجود جملةً: فهو محو الرِّنَادِقَةِ وَطَائِفَةِ الْإِتِّحَادِيَّةِ، وَصَاحِبِ «الْمَنَازِلِ»

(١) في «غ» والمنار: (فإذا).

(٢) في «غ»: (فوجود).

(٣) في «غ» والمنار: (المشهد).

وكلُّ وليِّ الله بريءٌ منهم حالاً وبعيداً.

والمقصود: أن من عقبة المحبة ينحدر المحبُّ على منازل المحو.

ولمَّا كانت منازل المحو والفناء غايةً عند صاحب المنازل جعل المحبة عقبةً ينحدر منها إليها.

وأما من جعل المحبة غايةً: فمنازل المحو عنده أوديةٌ يصعد منها إلى روح المحبة، وليس بعد

المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء، وأما الفناء والمحو فعقباتٌ (١) وأوديةٌ في طريقها عند هؤلاء، والله أعلم.

قوله: «وَهِيَ آخِرُ مَنْزِلَةٍ تَلْتَقِي فِيهَا مُقَدِّمَةُ الْعَامَّةِ وَسَاقَةُ الْخَاصَّةِ».

هذا بناءٌ على الأصل الذي ذكره، وهو: أن المحبة ينحدر منها على أودية الفناء؛ فهي أولُّ أودية

الفناء، فمقدِّمة العامة: هم في آخر مقام المحبة، وساقاة الخاصة: في أول منزل الفناء، ومنزلة الفناء (٢)

متَّصلةٌ بآخر منزلة المحبة؛ فالتقي (٣) حينئذٍ مقدِّمة العامة بساقاة الخاصة، هذا شرح كلامه.

وعند الطائفة الأخرى: الأمر بالعكس، وهو أن مقدِّمة أرباب الفناء يلتقون بساقاة أرباب المحبة؛

فإنَّهم أمامهم في السير، وهم أمام الركب دائماً، وهذا بناءٌ على أن أهل البقاء في المحبة أعلى شأناً من

أهل الفناء، وهو الصواب، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَمَا دُونَهَا أَغْرَاضٌ» (٤) لِأَعْوَاضٍ.

يعني: ما دون المحبة من المقامات؛ فهي أغراضٌ (٥) من المخلوقين لأجل أعواضٍ ينالونها،

وأما المحبُّون فإنَّهم عبيدٌ، والعبد ونفسه وعمله ومنافعه ملكٌ لسيِّده، فكيف يعاوضه على ملكه؟!

والأجير عند أخذ الأجرة ينصرف، والعبد في الباب لا ينصرف، فلا عبوديةٌ إلا عبودية أهل المحبة

الخالصة، أولئك هم (٦) الفائزون بشرف الدنيا والآخرة، وأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

(١) في «غ» والمنار: (فعباب).

(٢) جملة (ومنزلة الفناء): ساقطة من المنار.

(٣) في «غ» والمنار: (فالتقي).

(٤) في «غ» والمنار: (أعراض).

(٥) انظر الحاشية السابقة.

(٦) كلمة (هم): ساقطة من «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «وَالْمَحَبَّةُ هِيَ سِمَةُ الطَّائِفَةِ، وَعُنْوَانُ الطَّرِيقَةِ، وَمَعْقِدُ النَّسَبَةِ».

يعني: سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق، وقعد من (١) سواهم على الرسوم. و«عُنْوَانُ طَرِيقَتِهِمْ»: أي: دليلها، فإنَّ العنوان يدلُّ على الكتاب، والمحبة تدلُّ على صدق الطالب، وأنه من أهل الطريق.

و«مَعْقِدُ النَّسَبَةِ»: أي: النسبة التي بين الربِّ وبين العبد؛ فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والرُّبوبيَّة (٢) من الربِّ، وليس في العبد شيء من الرُّبوبيَّة (٣)، ولا في الربِّ شيء من العبودية، فالعبد عبدٌ من كلِّ وجه، والربُّ تعالى هو الإله الحقُّ من كلِّ وجه، ومعقد نسبة العبودية هو المحبة، فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: مَحَبَّةٌ تَقْطَعُ الْوَسَاوِسَ، وَتُلِدُّ الْخِدْمَةَ، وَتُسَلِّي عَنِ الْمَصَائِبِ».

قوله: «تَقْطَعُ الْوَسَاوِسَ»، فإنَّ الوسواس والمحبة متناقضان؛ فإنَّ المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب، والوسواس تقتضي غيبته عنه، حتَّى توسوس له نفسه بغيره، فبين المحبة والوسواس تناقضٌ شديدٌ، كما بين الذكر والغفلة.

فعزيمة المحبة تنفي تردُّد القلب بين المحبوب وغيره، وذلك سبب الوسواس (٤)، وهيئات أن

(١) كلمة (من): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (والألوهية).

(٣) في «غ» والمنار: (الألوهية).

(٤) في «غ» والمنار: (الوسواس).

يجد المحبُّ الصادق فراغًا لوسواس الغير، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟! ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس (١)؟
لَا كَانَ مَنْ لِسِوَاكَ فِيهِ بَقِيَّةٌ فِيهَا يُقَسَّمُ فَكْرُهُ وَيُوسَّوَسُ

قوله: «وَتُلدُّ الخِدْمَةُ».

أي: المحبُّ يلتدُّ بخدمة محبوبه، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخليُّ في أثناء الخدمة، وهذا معلومٌ بالمشاهدة.

قوله: «وَتُسَلِّي عَنِ الْمَصَائِبِ» فإنَّ المحبَّ يجد في لذَّة المحبَّة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسَّها ما يجد غيره، حتَّى كأنَّه قد اكتسب طبيعةً ثانيةً ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبَّة حتَّى يلتدُّ المحبُّ بكثيرٍ من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخليِّ بحظوظه وشهوته، والدُّوق والوجود شاهدٌ بذلك، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَنْبُتُ مِنْ مُطَالَعَةِ الْمِنَّةِ، وَتَنْبُتُ بِإِتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَتَنْمُو عَلَى الْإِجَابَةِ بِالْفَاقَةِ».

قوله: «تَنْبُتُ مِنْ مُطَالَعَةِ الْمِنَّةِ»؛ أي: تنشأ من مطالعة العبد منَّة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فيقدر مطالعته (٢) ذلك تكون قوَّة المحبَّة؛ فإنَّ القلوب مجبولةٌ على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، وليس للعبد قطُّ إحسانٍ إلا من الله، ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومن أعظم مطالعة منَّة الله على عبده: تأهيله لمحبتِّه ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه، وأصل هذا نورٌ يقذفه الله في قلب العبد؛ فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته أشرقت ذاته (٣)؛ فرأى فيه نفسه، وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعَلَّتْ به همَّته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه (٤) وطبعه؛ لأنَّ النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويترد أحدهما صاحبه، فرقت حيثنذ بين

(١) في «غ» والمنار: (ومن أين المحب الوسواس).

(٢) كلمة (مطالعه): ساقطة من «غ».

(٣) كلمة (ذاته): ساقطة من المنار.

(٤) كلمة (نفسه) والواو بعدها: ساقطة من «غ».

الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

نَقَلَ فُوَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى
مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٌ فِي الْأَرْضِ يَأْلُقُهُ الْفَتَى
وَخَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّبين السابقين^(١)، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامّة المؤمنين، وتفاوتهم فيه كتفاوت^(٢) ما^(٣) بين الزهرة والشها. قوله: «وَتَثَبَّتْ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ».

أي: ثباتها إنّما يكون^(٤) بمتابعة^(٥) الرّسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه؛ فبحسب هذا الاتّباع يكون منشأ هذه المحبّة وثباتها وقوّتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها، كما تقدّم: أنّ هذا الاتّباع يوجب المحبّة والمحبوبيّة معاً، ولا يتمّ الأمر إلّا بهما؛ فليس الشّأن في أن تحبّ الله، بل الشّأن في أن يحبّك الله، ولا يحبّك الله إلّا إذا اتّبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدّقته خبيراً، وأطعته أمراً، وأجبتة دعوةً، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبّته غيره من الخلق بمحبّته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنّ، وارجع من حيث شئت فالتمس نوراً، فلست على شيء. وتأمل قوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ أي: الشّأن في أن الله يحبّكم، لا في أنّكم تحبّونه، وهذا لا تنالونه إلّا باتّباع الحبيب ﷺ.

قوله: «وَتَنَّمُو عَلَى الْإِجَابَةِ بِالْفَاقَةِ» الإجابة بالفاقة: أن يجيب الدّاعي بموфор (٦) الأعمال، وهو خالٍ منها كأنه لم يعملها، بل يجيب دعوته بمجرد الإفلاس والفقير التّام؛ فإنّ طريقة الفقر والفاقة تأبى أن يكون لصاحبها عملٌ، أو حالٌ أو مقامٌ، وإنّما يدخل على ربّه بالإفلاس المحض، والفاقة المجرّدة، ولا ريب أنّ المحبّة تنمو على هذا المشهد، وهذه الإجابة، وما أعزّه من مقامٍ وأعلاه من مشهد! وما أنفعه للعبد! وما أجلبه للمحبّة! والله المستعان.

(١) كلمة (السابقين): ساقطة من «غ».

(٢) كلمة (وتفاوتهم فيه كتفاوت): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (فكما).

(٤) كلمة (إنما يكون): ساقطة من «غ» والمنار.

(٥) في «غ»: (باتّباع).

(٦) في المنار: (بوفور).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةٌ تَبَعْتُ عَلَى إِثَارِ الْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ، وَتُلْهِجُ اللِّسَانَ بِذِكْرِهِ، وَتَعْلِقُ الْقَلْبَ بِشُهُودِهِ، وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَظْهَرُ مِنْ مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ، وَالنَّظَرِ إِلَى الْآيَاتِ، وَالْإِرْتِيَاضِ بِالْمَقَامَاتِ».

هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها، باعتبار سببها وغايتها؛ فإنَّ سبب الأولى: مطالعة الإحسان والمنَّة، وسبب هذه: مطالعة الصِّفَاتِ، وشهود معاني آياته المسموعة، والنَّظَرُ إلى آياته المشهودة، وحصول الملكة في مقامات السُّلوك، وهو الارتياض بالمقامات؛ ولذلك كانت (١) غايتها أعلى من غاية ما قبلها. قوله: «تَبَعْتُ عَلَى إِثَارِ الْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ».

أي: لجمالها وقوتها فإنَّها (٢) تقتضي من المَحَبِّ أن يترك لأجل الحقِّ ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لهجاً بذكره؛ فإنَّ من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره. «وَتَعْلُقُ الْقَلْبَ بِشُهُودِهِ» لفرط استيلائه على القلب، وتعلقه به، حتَّى كأنه لا يشاهد غيره. وقوله: «وَهِيَ مَحَبَّةٌ تَظْهَرُ مِنْ مُطَالَعَةِ الصِّفَاتِ».

يعني: إثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التَّحْرِيفِ والتَّعْطِيلِ عن نصوصها ثالثاً، ونفي التَّمْثِيلِ والتَّكْيِيفِ عن معانيها رابعاً؛ فلا يصحُّ له مطالعة الصِّفَاتِ الباعثة على المَحَبَّةِ الصَّحِيحَةِ إِلَّا بهذه الأمور الأربعة، وكلِّما أكثر قلبه من مطالعتها ومعرفة معانيها ازدادت مَحَبَّتُهُ للموصوف بها؛ ولذلك كانت الجهميَّة -قطاع طريق المحبَّة- بين المحبِّين وبينهم السَّيْفُ الأحمر. وقوله: «وَالنَّظَرُ إِلَى الْآيَاتِ».

أي: نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة وفي آياته المسموعة، وكلُّ منهما داع قويٌّ إلى مَحَبَّتِهِ سبحانه؛ لأنَّها أدلَّةٌ على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته، وإلهيته، وعلى حكمته وبرِّه، وإحسانه ولطفه، وجوده وكرمه، وسعة رحمته، وسبوغ نعمته (٣)، فإدانة النَّظَرِ فيها داع -لا محالة- إلى مَحَبَّتِهِ.

(١) كلمة (كانت): غير موجودة «غ» والمنار.

(٢) كلمة (فإنها): غير موجودة «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (نعمه).

وكذلك الارتياض بالمقامات؛ فإنَّ مَنْ كانت له رياضةٌ ومَلَكةٌ في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان كانت محبته أقوى؛ لأنَّ محبة الله له أتمُّ، وإذا أحبَّ الله عبدًا أنشأ في قلبه محبته.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: مَحَبَّةٌ خَاطِفَةٌ، تَقَطُّعُ الْعِبَارَةِ، وَتَدْفَعُ الْإِشَارَةَ، وَلَا تَنْتَهِي بِالنُّعُوتِ».

يعني: أنَّها تخطف قلوب المحبِّين، لما يبدو لهم من جمال محبوبهم، ويشير الشَّيخ^(١) بذلك إلى الفناء في المحبة والشُّهود، وإنَّ العبارة تنقطع دون حقيقة تلك المحبة ولا تبلغها؛ ولا تصل إليها الإشارة، فإنَّها فوق العبارة والإشارة.

وحقيقتها عندهم: فناء الحدوث في القدم، واضمحلال الرُّسوم في نور الحقيقة التي تظهر لقلوب المحبِّين؛ فتملك عليها العبارة والإشارة والصفة؛ فلا يقدر المحبُّ أن يعبرَ عمَّا يجده لأنَّ واردها قد خطف فهمه، والعبارة تابعة للفهم؛ فلا يقدر المحبُّ أن يشير إليه إشارة تامَّة. والعبارة عندهم تحت الإشارة وأبعد منها؛ ولذلك جعل حظَّها القطع، وحظَّ الإشارة الدَّفْع؛ فإنَّ مقام المحبة يقبل العبارة، وهذه الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ لا تقبل إشارة ما، ولا تقبل عبارة. وعندهم: إنَّما تمتنع العبارة والإشارة في مقام التَّوْحِيدِ؛ حيث لا يبقى للمحبة رسمٌ، ولا اسمٌ، ولا إشارة، وهو الغاية عندهم كما سيأتي.

والصَّواب: أنَّ توحيد المحبة أكمل من هذا التَّوْحِيدِ الَّذِي يشيرون إليه، وأعلى مقامًا، وأجلَّ مشهدًا؛ وهو مقام الرُّسُلِ والأنبياء عليهم الصَّلَاة والسَّلَامُ وخواصُّ المقرَّبين. وأمَّا توحيد الفناء: فدونه بكثيرٍ، وليس ذلك من مقامات الرُّسُلِ والأنبياء - عليهم الصَّلَاة والسَّلَامُ -؛ فإنَّ توحيدهم توحيد بقاءٍ ومحبةٍ؛ لا توحيد فناءٍ وغيبيةٍ، وسكِّرٍ واصطلام. ولمَّا كان المحبُّ عند أرباب الفناء لم يخلص إلى مقام توحيد الفناء بالكلِّية، بل رسوم المحبة معه بعدُ، جعلوا المحبة التي ينحدر منها إلى أودية الفناء، كما تقدَّم. والصَّواب الَّذِي لا ريب فيه عند أرباب التَّحْقِيقِ والبصائر: أنَّ لسان المحبة أتمُّ، ومقامها أكمل،

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

وحالها أشرف، وصاحبها من أهل الصَّحو بعد الشُّكر، والتَّمكين بعد التَّلوين، والبقاء بعد الفناء، ولسانه نائبٌ عن كلِّ لسانٍ، وبيانه وافٍ بكلِّ ذوقٍ، ومقامه أعلى من كلِّ مقامٍ؛ فهو أمينٌ على كلِّ من دونه من أرباب المقامات؛ لأنَّ مقامه أميرٌ على المقامات كلها.

أَمِينٌ أَمِينٌ عَلَيْهِ النَّدَى جَوَادٌ بِخَيْلٍ بَالًا يَجُودًا

وأما كون نعوت المحبة لا تتناهى: فلأنَّ لها في كلِّ مقام نسبةً وتعلُّقًا به، وهي روح كلِّ مقام، والحاملة له، وأقدام السَّالِّكين إنَّما تتحرَّك بها، فلها تعلُّقٌ بكلِّ قدمٍ (١) وحالٍ ومقامٍ؛ فلا تتناهى نعوتها ألبتَّة، والله أعلم.

فصل

□ قوله: «وَهَذِهِ الْمُحَبَّةُ: هِيَ قُطْبُ هَذَا الشَّانِ، وَمَا دُونَهَا مَحَابٌّ نَادَتْ عَلَيَّهَا الْأَلْسُنُ، وَأَدَعَتْهَا الْخَلِيقَةُ، وَأَوْجَبَتْهَا الْعُقُولُ».

يريد: أنَّ مدار شأن السَّالِّكين المسافرين إلى الله على هذه المحبة الثالثة؛ وإنَّما كان ذلك كذلك (٢) لخلوصها من الشَّوائب والعلل والأغراض (٣)، وصاحبها مرادٌ ومجدوبٌ ومطلوبٌ، وما دونها من المحابِّ فصاحبها باقٍ مع إرادته من محبوبه.

أَمَّا مَحَبَّةُ الْإِحْسَانِ وَالْأَفْعَالِ: فَظَاهِرٌ.

وأما مَحَبَّةُ الصِّفَاتِ: فَصاحبها مع لذة روحه ونعيم قلبه بمطالعة الصِّفات؛ فإنَّ لذة الأرواح والعقول لا محالة في مطالعة صفات الكمال، ونعوت الجمال.

وصاحب هذه المحبة الثالثة قد ارتقى عن هاتين الدَّرجتين، وأخذ منه، وغيب عنه، وهذا مبنيٌّ على أصله في كون الفناء غايةً، وقد عرفته.

وقوله: «وَنَادَتْ عَلَيْهَا الْأَلْسُنُ».

أي: وصفتها الألسن؛ فأكثرت صفاتها، وتمكَّنت من التَّعبير عنها.

و«أَدَعَتْهَا الْخَلِيقَةُ» بخلاف الدَّرجة الثالثة؛ فإنَّه لا وصول لأحدٍ إليها إلا بالحقِّ تعالى، فهي غير

(١) جملة (فلها تعلق بكل): ساقطة من «غ».

(٢) كلمة (كذلك): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (والأغراض).

كسبيّة، ولا تنال بسبب، فلا يمكن فيها الدّعوى؛ فإنّ شأنها أجلّ من ذلك.
قوله: «وَأَوْجَبْتُهَا الْعُقُولُ».

يريد: أنّ العقل يحكم بوجوبها، وهو كما قال؛ فإنّ العقول تحكم بوجوب تقديم محبّة الله على محبّة النّفس والأهل والمال والولد، وكلّ ما سواه.

وكلّ مَنْ لم يحكّم عقله بهذا فلا تعباً بعقله؛ فإنّ العقل والفطرة والشّريعة والاعتبار والنّظر تدعو^(١) كلّها إلى محبّته سبحانه، بل إلى توحيده في المحبّة، وإنّما جاءت الرّسل بتقرير ما في الفطر والعقول.

كما قيل:

هَبِ الرُّسُلَ لَمْ تَأْتِ مِنْ عِنْدِهِ
أَلَيْسَ مِنَ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقُّ
فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَمْرًا
وَإِنَّ الْعُقُولَ لَتَدْعُو إِلَى
أَلَيْسَتْ عَلَيَّ ذَاكَ مَجْبُولَةً
أَلَيْسَ الْجَمَالَ حَيِّبَ الْقُلُوبِ
أَلَيْسَ جَمِيلًا يُحِبُّ الْجَمَالَ
أَمَا بَعْدَ ذَلِكَ إِحْسَانُهُ
أَلَيْسَ إِذَا كُمَلَا^(٢) أَوْجَبَا
فَمَنْ ذَا يُشَابُهُ أَوْ صَافُهُ
وَمَنْ ذَا يُكَافِي إِحْسَانَهُ
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَيَّ أَنَّهُ
فَيَا مُنْكَرًا ذَاكَ وَاللَّهِ أَنَّهُ

وَلَا أَخْبَرْتَ عَن جَمَالِ الْحَيِّبِ
قِ مَحَبَّتِهِ فِي اللَّقَا وَالْمَغِيْبِ
بِذَا مَا لَهُ فِي الْحَجَا مِنْ نَصِيْبِ
مَحَبَّةِ فَاطِرِهَا مِنْ قَرِيْبِ
وَمَمْطُورَةً لَا بِكَسْبِ غَرِيْبِ
لِذَاتِ الْجَمَالِ وَذَاتِ الْقُلُوبِ
تَعَالَى إِلَهُ الْوَرَى عَن نَسِيْبِ
بِدَاعِ إِلَيْهِ لِقَلْبِ الْمُتَنِيْبِ
كَمَالِ الْمَحَبَّةِ لِلْمُسْتَجِيْبِ
تَعَالَى إِلَهُ الْوَرَى عَن ضَرِيْبِ
فَيَالَهُ قَلْبُ عَبْدٍ مُتَنِيْبِ
إِلَى كُلِّ ذِي الْخُلُقِ أَوْلَى حَيِّبِ
تَ عَيْنُ الطَّرِيْدِ وَعَيْنُ الْحَرِيْبِ^(٣)

(١) في المنار: (يدعو).

(٢) في المنار: (أكملا).

(٣) الحريب: من سلب ماله. «لسان العرب» (٢/٨١٦).

وَيَا مَنْ يُحِبُّ سِوَاهُ كَثُورًا
وَيَا مَنْ يُوحِّدُ مَحْبُوبَهُ
وَلَوْ سَخَطَ الْخَلْقَ فِي وَجْهِهِ (١)
حَظِيَّتْ وَخَابُوا فَلَا تَبْتَسُّسُ
لِ مَحَبَّتِهِ أَنْتَ عَبْدُ الصَّالِحِ
وَيُرْضِيهِ فِي مَشْهَدٍ أَوْ مَغِيبِ
لَقَالَ هَوَانًا وَلَوْ بِالنَّسِيبِ
بِكَيْدِ الْعَدُوِّ وَهَجْرِ الرَّقِيبِ

فصل

[منزلة الغيرة]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعُدُّ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ منزلة الغيرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي الصحيح عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ غَيَّرْتَهُ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمُدْحُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَجَلَّ ذَلِكَ أَتَى عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» (٢).

وفي الصحيح أيضًا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَبْدُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ» (٣).

وفي الصحيح أيضًا أن النبي ﷺ قال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعِيدٍ؟! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي» (٤).

ومِمَّا يَدْخُلُ فِي الْغَيْرَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال السري لأصحابه: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ؟ حِجَابُ الْغَيْرَةِ؛ وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ».

(١) في المنار: حبه.

(٢) تقدم تخريجه بلفظ «لا أحد أغير...» رواه البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٣) رواه البخاري في «النكاح»، باب: الغيرة (٥٢٢٣)، ورواه مسلم في «التوبة»، باب: غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

إنَّ الله تعالى لم يجعل الكفَّار أهلاً لفهم كلامه، ولا أهلاً لمعرفة وتوحيده ومحَبَّته، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون، غيرَةً عليه أن يناله من ليس أهلاً به. والغيرة: منزلة شريفة عظيمة جداً، جليلة المقدار، ولكنَّ الصَّوفيَّة المتأخِّرين منهم مَنْ قَلَب موضوعها، وذهب بها مذهباً باطلاً سمَّاه: غيرَةً فوضعها في غير موضعها، ولَبَّس عليه أعظم تلبيس، كما ستراه.

والغيرة نوعان:

- غيرَةٌ من الشَّيء.
- وغيرَةٌ على الشَّيء.
والغيرة من الشَّيء: هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.
والغيرة على الشَّيء: هي شدَّة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

والغيرة أيضاً نوعان:

غيرة العبد من نفسه على نفسه، كغيرته من نفسه على قلبه، ومن تفرقة على جمعيتها، ومن إعراضه على إقباله، [ومن صيانتها على ابتذاله]^(١)، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة. وهذه الغيرة خاصية النَّفس الشَّريفة الزَّكية العلوِيَّة، وما للنَّفس الدَّنيَّة المهينة فيها نصيبٌ، وعلى قدر شرف النَّفس وعلوِّ همَّتها تكون هذه الغيرة.

ثمَّ الغيرة أيضاً نوعان:

- غيرة الحقِّ تعالى على عبده.
- وغيرة العبد لرَبِّه لا عليه.
فأمَّا غيرة الرَّبِّ على عبده: فهي ألا يجعله للخلق عبداً، بل يتَّخذُه لنفسه عبداً؛ فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين، بل يفرده لنفسه، ويضنُّ به على غيره، وهذه أعلى الغيرتين.

وغيرة العبد لرَبِّه، نوعان أيضاً:

- غيرَةٌ من نفسه.
- وغيرَةٌ من غيره.
فألتي من نفسه: ألا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربِّه.
والتي من غيره: أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون.

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. الفقي فأثبتناه هنا من نسخة «غ» والمنار.

وأما الغيرة على الله: فأعظم الجهل وأبطل الباطل، وصاحبها من أعظم الناس جهلاً، وربما أدت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام.

وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قطاع الطريق، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقةً، وأخرج قطع الطريق في قالب الغيرة، وأين هذا من الغيرة لله؟ التي توجب تعظيم حقوقه، وتصفية أعماله وأحواله لله؟! فالعارف يغار لله، والجاهل يغار على الله، فلا يقال: أنا أغار على الله، ولكن أنا أغار لله.

وغيرة العبد من نفسه: أهم من غيرته من غيره؛ فإنك إذا عزت من نفسك صحت لك (١) غيرتك لله من غيرك، وإذا غرت له من غيرك، ولم تغر من نفسك فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد، فتأملها وحقق النظر فيها.

فلتأمل السالك اللبيب هذه الكلمات في هذا المقام، الذي زلت فيه أقدام كثير من السالكين، والله الهادي والموفق (٢) المثبت.

كما حكى عن واحد من مشهوري الصوفية (٣) أنه قال: «لَا أُسْتَرِيحُ حَتَّى لَا أَرَى مَنْ يُذَكِّرُ اللَّهَ». يعني: غيرةً عليه من أهل الغفلة وذكرهم.

والعجب أن هذا يُعدُّ من مناقبه ومحاسنه.

وغاية هذا: أن يعذر فيه لكونه مغلوباً على عقله، وهو من أقبح الشطحات (٤)، وذكر الله على الغفلة وعلى كل حال خير من نسيانه بالكليّة، والألسن متى تركت ذكر الله الذي هو محبوبها اشتغلت بذكر ما يبغضه ويمقت عليه؛ فأبى راحة للعارف في هذا؟! وهل هو إلا أشقُّ عليه وأكره إليه؟! وقول آخر: «لَا أُحِبُّ أَنْ أَرَى اللَّهَ وَلَا أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ لَهُ: كَيْفَ؟ قَالَ: غَيْرَةٌ عَلَيْهِ مِنْ نَظَرِ مِثْلِي [إِلَيْهِ]!» (٥).

(١) في «غ»: (بك).

(٢) في «غ» والمنار: (الموفق).

(٣) جملة (من مشهوري الصوفية): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) إن ما يدعونه من الشطح والاصطلام ونحوها: إنما هي أستار وتقية يتقون بها من لم يكن من عارفيهم، وله نفوذ وسطان، أو لأنهم يريدون جذبته وإلقاء الشبكة حوله ليصيده، واحذر يا أخي، فكلامهم سم في دسم، نصيحة صادق كان قد وقع في الشبكة، فأحسن الله إليه وخلصه، فهو أدري بخيوطها وعقدتها. (الفاقي).

تعليق: يعارض الشيخ (الفاقي) ابن القيم هنا في اعتذاره عن الصوفية في شطحاتهم ويدعي أنه أعلم بأحوال الصوفية، ولا يسلم له هذا؛ فابن القيم رحمه الله تعالى خير بالقوم بل لعله أخبر بهم، وهو لم يعتذر عنهم جميعاً بل يفترض أن فيهم من يعذر، والشيخ (الفاقي) لا يعذر أحداً منهم، ولا يخفى ما في كلام ابن القيم من العدل والوسطية.

(٥) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفاقي فأثبتناها هنا من «غ» والمنار.

فانظر إلى هذه الغيرة القبيحة، الدالة على جهل صاحبها، مع أنه في خفارة ذلّه وتواضعه وانكساره واحتقاره لنفسه.

ومن هذا ما يحكى عن السبلي: «أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ ابْنُهُ دَخَلَ الْحَمَامَ وَتَوَرَّ لِحَيْتِهِ، حَتَّى أَذْهَبَ شَعْرَهَا كُلَّهُ، فَكُلُّ مَنْ آتَاهُ مُعَزِّيًّا، قَالَ: إِيشْ هَذَا يَا أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَ: وَافَقْتُ أَهْلِي فِي قَطْعِ شُعُورِهِمْ؛ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِي: أَحْبِرْنِي لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: عَلِمْتُ أَنَّهُمْ يُعْزُّونَنِي عَلَى الْغَفْلَةِ وَيَقُولُونَ: آجَرَكَ اللَّهُ، فَدَدَيْتُ ذِكْرَهُمْ لِلَّهِ عَلَى الْغَفْلَةِ^(١) بِلِحَيْتِي».

فانظر إلى هذه الغيرة المحرمة القبيحة، التي تضمنت أنواعاً من المحرمات:

- حلق الشعر عند المصيبة، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَقَ وَسَلَقَ وَخَرَقَ»^(٢) أي: حلق شعره، ورفع صوته بالندب والنياحة، وخرق ثيابه.
 - ومنها: حلق اللحية، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها.
 - ومنها: منع إخوانه من تعزيتهم ونيل ثوابها.
 - ومنها: كراهته لجريان ذكر الله على ألسنتهم بالغفلة، وذلك خيرٌ بلا شك من ترك ذكره.
- فغاية صاحب هذا: أن تغفر له هذه الذنوب ويعفى عنه، وأمّا أن يُعَدَّ ذلك في مناقبه وفي الغيرة المحمودة؛ فسبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ!

ومن هذا: ما ذكر عن أبي الحسين الثوري: «أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يُؤَدِّنُ، فَقَالَ: طَعَنَهُ وَسَمَّ الْمَوْتَ». «وَسَمِعَ كَلْبًا يَنْبُحُ، فَقَالَ: كَلْبِيكَ وَسَعْدِيكَ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا تَرْكٌ لِلدِّينِ».

وصدقوا والله، يقول للمؤدِّن في تشهده: طعنه وسم الموت، ويلبي نباح^(٣) الكلب؟! فقال: «أَمَّا ذَاكَ فَكَانَ يَذْكُرُ اللَّهَ عَنِ رَأْسِ الْغَفْلَةِ؛ وَأَمَّا الْكَلْبُ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]».

فيا لله! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك، أو عمر بن الخطاب، أو من عدَّ ذلك في المناقب والمحاسن؟!.

«وَسَمِعَ السَّبْلِيَّ رَجُلًا يَقُولُ: جَلَّ اللَّهُ، فَقَالَ: أَحِبُّ أَنْ تُجِلَّهُ عَنِّي هَذَا». «وَأَذَّنَ مَرَّةً، فَلَمَّا بَلَغَ الشَّهَادَتَيْنِ، قَالَ: لَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَنِي مَا ذَكَرْتُ مَعَكَ غَيْرِكَ».

(١) في «غ» والمنار: (بالغفلة).

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود في «الجنائز»، باب: في النوح (٣١٣٠)، رواه البخاري تعليقاً في «الجنائز»، باب: ما ينهى عن الحلق عند المصيبة (١٢٩٦)، ووصله مسلم في «الإيمان»، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدوى الجاهلية (١٠٤)، بلفظ: «أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق».

(٣) في المنار: (بنيابح).

وَقَالَ بَعْضُ الْجُهَّالِ مِنَ الْقَوْمِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ أَصْلِ الْقَلْبِ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْقُرْطِ». ونحن نقول: محمدٌ رسول الله من تمام قول لا إله إلا الله؛ فالكلمتان يخرجان من أصل القلب، من مشكاة واحدة، لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (١).

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ الْغَيْرَةِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].»

ووجه استشهاده بالآية: أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل؛ فشغله استحسانها، والنظر إليها لما عرضت عليه عن صلاة النهار، حتى توارت الشمس بالحجاب؛ فلحقته الغيرة لله من الخيل، إذ استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه؛ فقال: ردوها علي فطفق يضرب أعناقها وعراقبها بالسيف غيرة لله (٢).

□ قال: «الْغَيْرَةُ: سُقُوطُ الْإِحْتِمَالِ ضَنْبًا، وَالضَّيْقُ عَنِ الصَّبْرِ نَفَاسَةٌ.»

أي: عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه، ويحجبه عنه ضنبًا به؛ أي: بخلافه أن يعتاض عنه بغيره، وهذا البخل: هو محض الكرم عند المحييين الصادقين.

وَأَمَّا «الضَّيْقُ عَنِ الصَّبْرِ نَفَاسَةٌ» فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه، وهذا هو الصبر الذي لا يذم من أنواع الصبر سواه، أو ما كان من وسيلته، والحامل له على هذا الضيق: مغالته بمحبوبه، وهي النفاسة؛ فإنه لمنافسته ورغبته لا يسامح نفسه بالصبر عنه.

والمنافسة: هي كمال الرغبة في الشيء، ومنع الغير منه إن لم يمدح فيه المشاركة والمساابقة (٣) إليه إن (٤) مدحت فيه المشاركة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

(١) جزاك الله خير الجزاء يا ناصر الحق وقامع البدع والأهواء هنا! أليس هؤلاء وأمثالهم هم أئمة الصوفية المقتدى بهم، المحتج بكلامهم. (الفقي).

(٢) سبق أن ذكرنا بأن هذا التفسير لا دليل عليه ثابت، وهو من أخبار بني إسرائيل التي لا تصدق ولا تكذب.

(٣) في «غ» والمنار: (أو المسابقة).

(٤) كلمة (إن): غير موجودة «غ».

وبين المنافسة والغبطة جمعٌ وفرقٌ، وبينهما^(١) وبين الحسد أيضًا جمعٌ وفرقٌ. فالمنافسة: تتضمّن مسابقةً واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدلُّ على مهانة الحاسد وعجزه، وإلاّ فنافس من حسدته؛ فذلك أنفع لك من حسده، كما قيل:

إِذَا أَعْجَبْتِكَ خِلَالِ امْرِئٍ فَكُنْهُ يَكُنْ مِنْكَ مَا يُعْجِبُكَ
فَلَيْسَ عَلَى الْجُودِ وَالْمَكْرَمَاتِ إِذَا جِئْتَهَا حَاجِبٌ يَحْجُبُكَ
والغبطة: تتضمّن نوع تعجّبٍ وفرحٍ للمغبوط واستحسانٍ لحاله.

فصل

□ قال: «وَهِيَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:
الدَّرَجَةُ الْأُولَى: غَيْرُهُ الْعَابِدِ عَلَى ضَائِعٍ يَسْتَرُ^(٢) ضَيَاعَهُ، وَيَسْتَدْرِكُ قَوَاتَهُ،
وَيَتَدَارَكُ قَوَاهُ».

العابد: هو العامل بمقتضى العلم النَّافع للعمل الصَّالح؛ فغيرته على ما ضاع عليه من عملٍ صالحٍ؛ فهو يستردُّ ضياعه بأمثاله، ويَجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القُرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها، فيقضي ما ينفع فيه القضاء، ويعوّض ما يقبل العوض، ويَجبر ما يمكن جبره. وقوله: «وَيَسْتَدْرِكُ قَوَاتَهُ».

الفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته: أنَّ الأوَّل يمكن أن يستردَّ بعينه، كما إذا فاته الحجُّ في عامٍ تمكَّن منه، فأضاعه في ذلك العام استدركه في العام المقبل، وكذلك إذا أَّخر الزَّكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفئات: فإنَّما يستدرك بنظيره، كقضاء الواجب المؤقَّت إذا فات وقته. أو يكون مراده باسترداد الضَّائع واستدراك الفئات نوعي التَّفريط في الأمر والنَّهي، فيستردُّ ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله، ويستدرك فائته هذا -أي: سالفه- بالتَّوبة والنَّدَم.

(١) في المنار: (وبينها).

(٢) في «غ» والمنار: (يَسْتَرِدُّ)، وهو الصواب لبيان ذلك في الشرح.

وأما «تَدَارِكُ قُوَاهُ» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف؛ فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله، ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتور عنه بأن يكسوه قوّة ونشاطاً، غيرة له وعليه.

فهذه غيرة العباد على الأعمال، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: غَيْرَةُ الْمُرِيدِ، وَهِيَ غَيْرَةٌ عَلَى وَقْتِ فَاتٍ، وَهِيَ غَيْرَةٌ قَاتِلَةٌ؛ فَإِنَّ الْوَقْتَ وَحْيُ التَّقْضِي، أَبِي الْجَانِبِ، بَطِي الرُّجُوعِ».

والمريدون هم أرباب الأحوال، والعباد أرباب الأوراد والعبادات، وكلُّ مرید عابِدٌ، وكلُّ عابِدٍ مریدٌ، لكنَّ القومَ خُصُّوا أهلَ المحبَّةِ وأذواقِ حقائق الإيمان باسم «المُرِيدِ»، وخصُّوا أصحاب العمل المجرَّد باسم «العابِدِ»، وكلُّ مریدٍ لا يكون عابداً فزديقٌ، وكلُّ عابِدٍ لا يكون مریداً فمُراءٍ. و«الْوَقْتُ» عند العابد: هو وقت العبادة والأوراد، وعند المرید: هو وقت الإقبال على الله، والجمعيّة عليه، والعكوف عليه بالقلب كلّهُ.

والوقت أعز شيء عليه، يغار عليه أن ينقضى بدون ذلك؛ فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه ألّبتة؛ لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعاً: «مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ مُتَعَمِّدًا مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ لَمْ يَقْضِهِ عَنْهُ صِيَامُ الدَّهْرِ، وَإِنْ صَامَهُ»^(١).

وقوله: «وَهِيَ غَيْرَةٌ قَاتِلَةٌ».

يعني: مضرّة ضرراً شديداً بيّناً يشبه القتل؛ لأن حسرة الفوت قاتلة، ولاسيما إذا علم المتحسّر أنّه لا سبيل له إلى الاستدراك.

وأيضاً: فالغيرة على التّفويت تفويتٌ آخر، كما يقال: الاشتغال بالنّدم على الوقت الفائت تضييعٌ للوقت الحاضر؛ ولذلك يقال: الوقت سيفٌ إن لم تقطعه وإلّا قطعك.

(١) رواه الترمذي في «الصوم»، باب: ما جاء في الإفطار متعمداً، وقال الترمذي «لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، ورواه أبو داود في «الصوم»، باب: التخليط فيمن أظفر متعمداً (٢٣٩٦)، إلا أنه قال: «في غير رخصة رخصها الله له»، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥١٧).

ثُمَّ بَيْنَ الشَّيْخِ (١) السَّبَبُ فِي كَوْنِ هَذِهِ الْغَيْرَةِ قَاتِلَةً فَقَالَ: «فَإِنَّ الْوَقْتَ وَحِيَّ التَّقْضَى» .
أي: سريع الانقضاء، كما تقول العرب: الوحا الوحا! العَجَل العَجَل! والوحي: الإعلام في
خفاء وسرعة، ويقال: جاء فلانٌ وحيًّا؛ أي مجيئًا سريعًا.

فالوقت منقضى بذاته، منصرفٌ بنفسه؛ فمن غفل عن نفسه تصرّمت أوقاته، وعظم فواته،
واشدّت حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقّق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرجعى فحيل بينه
وبين الاسترجاع وطلب تناول الفائت؟!

وكيف يردُّ الأَمْسُ في اليوم الجديد؟ ﴿وَإِنِّي لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤]، ومنع ممّا
يحبُّه ويرتضيه، وعلم أنّ ما اقتناه ليس ممّا ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهي.

فِيَا حَسْرَاتٍ مَا إِلَيَّ رَدٌّ مِثْلُهَا سَبِيلٌ وَلَوْ رُدَّتْ لَهَانَ التَّحَسُّرُ
هِيَ الشَّهَوَاتُ اللَّائِي كَانَتْ تَحَوَّلَتْ إِلَيَّ حَسْرَاتٍ حِينَ عَزَّ التَّصَبُّرُ
فَلَوْ أَنَّهُا رُدَّتْ بِصَبْرٍ وَقُوَّةٍ تَحَوَّلْنَ لَذَاتٍ وَذُو اللَّبِّ يُبْصِرُ

ويقال: إنَّ أصعب الأحوال المنقطعة انقطاع الأنفاس؛ فإنَّ أربابها إذا صعد النَّفس الواحد
صعدوه إلى نحو محبوبهم، صاعدًا إليه، متلبسًا بمحبّته والشّوق إليه؛ فإذا أرادوا دفعه لم يدفعه حتّى
يتبعوه نفسًا آخر مثله؛ فكلُّ أنفاسهم بالله، وإلى الله، متلبسًا بمحبّته (٢) والشّوق إليه والأنس به، فلا
يفوتهم نفسٌ من أنفاسهم مع الله إلّا إذا غلبهم النّوم، وكثيرٌ منهم يرى في نومه أنّه كذلك لا لتباس روحه
وقلبه، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته، ولا تستنكر هذه الحال، فإنَّ المحبّة إذا غلبت على القلب
وملكته أوجبت له (٣) ذلك لا محالة.

والمقصود: أنّ الواردات سريعة الزوال، تمرُّ أسرع من السّحاب، وينقضي الوقت بما فيه؛ فلا
يعود عليك منه إلّا أثره وحكمه، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك؛ فإنّه عائدٌ عليك لا محالة؛
لهذا يقال للسّعداء: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٧٤﴾﴾ [الحاقة: ٧٤]، ويقال (٤) للأشقياء:
﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥].

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) في «غ» والمنار: (لمحبّته).

(٣) كلمة (له): غير موجودة «غ» والمنار.

(٤) كلمة (يقال): ساقطة من «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: غَيْرَةُ الْعَارِفِ عَلَى عَيْنِ غَطَّاهَا غَيْنٌ، وَسِرِّ غَشِيَهُ رَيْنٌ،

وَنَفْسٍ عَلِقَ بِرَجَاءٍ، أَوْ التَّتَفَّتْ إِلَى عَطَاءٍ».

أي: يغار على بصيرة غطَّاهَا سترٌ أو حجابٌ؛ فإنَّ الغين بمنزلة الغطاء والحجاب، وهو غطاء رقيق جدًّا، وفوقه الغيم وهو لعموم المؤمنين، وفوقه الرِّين والرَّان وهو للكفار.

وقوله: «وَسِرِّ غَشِيَهُ رَيْنٌ» أي: حجابٌ أغلظ من الغيم الأول.

والسَّرُّ هاهنا: إمَّا اللَّطِيفَةُ الْمُدْرَكَةُ مِنَ الرُّوحِ، وإمَّا الْحَالُ الَّتِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ؛ فإذا غشيه رين النَّفْسِ وَالطَّبِيعَةِ اسْتَغَاثَ صَاحِبَهُ كَمَا يَسْتَعِيثُ الْمَعْدَّبُ فِي عَذَابِهِ، غَيْرَةً عَلَى سِرِّهِ مِنْ ذَلِكَ الرَّيْنِ.

وقوله: «وَنَفْسٌ عَلِقَ بِرَجَاءٍ، وَالتَّتَفَّتْ إِلَى عَطَاءٍ».

يعني: أنَّ صَاحِبَ النَّفْسِ يَغَارُ عَلَى نَفْسِهِ إِذَا تَعَلَّقَ بِرَجَاءٍ مِنْ ثَوَابٍ مُنْفَصِلٍ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمُحِبَّتِهِ؛ فَإِنَّ بَيْنَ النَّفْسَيْنِ كَمَا بَيْنَ مُتَعَلِّقَيْهِمَا.

وكذلك قوله: «أَوْ التَّتَفَّتْ إِلَى عَطَاءٍ».

يعني: أَنَّهُ يَلْتَفِتُ إِلَى عَطَاءٍ مِنْ (١) دُونَ اللَّهِ فَيَرْضَى (٢) بِهِ؛ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّقَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَّا إِلَى الْمَعْطِيِّ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فصل

[منزلة الشوق]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الشوق.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥].

(١) كلمة (من): ساقطة من «ع» والمنار.

(٢) في «ع» والمنار: (فرضي به).

قيل: هذا تعزيةٌ للمشتاقين، وتسلييةٌ لهم؛ أي: أنا أعلم أنّ من كان يرجو لقائي فهو مشتاقٌ إليّ، فقد أجلت له أجلاً يكون عن قريبٍ؛ فإنّه آتٍ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ.

وفيه لطيفةٌ أخرى: وهي تعليل^(١) المشتاقين برجاء اللقاء.

لَوْ لَا التَّعَلُّلُ بِالرَّجَاءِ لَقَطَّعْتَ نَفْسَ الْمُحِبِّ صَبَابَةً وَتَشْوُقًا

وَلَقَدْ يَكَادِي دُوبُ مِنْهُ قَلْبُهُ مِمَّا يِقَاسِي حَسْرَةً وَتَحْرُقًا

حَتَّى إِذَا رَوَّحَ الرَّجَاءُ أَصَابَهُ سَكَنَ الْحَرِيقِ إِذَا تَعَلَّلَ بِاللِّقَاءِ

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجَهَكَ، وَالشَّوْقَ إِلَيَّ لِقَائِكَ»^(٢).

قال بعضهم: كان النبي ﷺ^(٣) دائم الشَّوْقِ إلى لقاء الله، لم يسكن شوقه إلى لقائه قطُّ، ولكنَّ

الشَّوْقُ مائة جزءٍ، تسعةٌ وتسعون له، وجزءٌ مقسومٌ على الأمة؛ فأراد ﷺ أن يكون ذلك الجزء مضافاً إلى ما له من الشَّوْقِ الَّذِي يختصُّ به، والله ﷻ أعلم.

فصل

والشَّوْقُ أثرٌ من آثار المحبَّة، وحكمٌ من أحكامها؛ فإنّه سفر القلب إلى المحبوب في كلِّ حالٍ.

وقيل: هو احتياج القلوب إلى لقاء المحبوب.

وقيل: هو احتراق الأحشاء، ومنها يتهيَّج ويتولَّد، ويلهب^(٤) القلوب ويقطِّع^(٥) الأكباد.

والمحبَّة أعلى منه؛ لأنَّ الشَّوْقَ عنها يتولَّد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيى بن معاذ^(٦): «عَلَامَةُ الشَّوْقِ فِطَامُ الْجَوَارِحِ عَنِ الشَّهَوَاتِ».

وقال أبو عثمان: «عَلَامَتُهُ حُبُّ الْمَوْتِ مَعَ الرَّاحَةِ وَالْعَافِيَةِ، كَحَالِ يُوسُفَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي الْجُبِّ لَمْ يَقُلْ

تَوَفَّنِي، وَلَمَّا أُدْخِلَ السِّجْنَ لَمْ يَقُلْ تَوَفَّنِي، وَلَمَّا تَمَّ لَهُ الْأَمْرُ وَالْأَمْنُ وَالنَّعْمَةُ، قَالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾».

قال ابن خفيف: «الشَّوْقُ ارْتِيَاحُ الْقُلُوبِ بِالْوَجْدِ، وَمَحَبَّةُ اللَّقَاءِ بِالْقُرْبِ».

(١) في «غ» والمنار: (تعلل).

(٢) تقدم تخريجه (٢/٢٩٢).

(٣) في «غ» والمنار: (النبي ﷺ كان دائم).

(٤) في «غ» (ويتلهب)، وفي المنار: (وتلهب).

(٥) في «غ» والمنار: (وتقطع).

(٦) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

وقيل: هو لهب ينشأ بين أثناء الحشا، يسنح عن الفرقة، فإذا وقع اللقاء طفى.

قلت: هذه مسألة نزاع بين المحبين، وهي: أن الشوق هل يزول باللقاء أم لا؟ ولا يختلفون أن المحبة لا تزول باللقاء.

فمنهم من قال: يزول باللقاء؛ لأن الشوق هو سفر القلب إلى محبوبه؛ فإذا قدم عليه، ووصل إليه، صار مكان الشوق قرّة عينه به، وهذه القرّة تجامع المحبة ولا تنافها.

قال هؤلاء: وإذا كان الغالب على القلب مشاهدة المحبوب، لم يطرقه الشوق.

وقيل لبعضهم: «هل تشتاق إليه؟ فقال: لا؛ إنما الشوق إلى غائب، وهو حاضر!».

وقالت طائفة: بل يزيد الشوق بالقرب والوصول، ولا يزول؛ لأنه كان قبل الوصول على الخبر

والعلم، وبعده قد صار على العيان والشهود؛ ولهذا قيل:

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشُّوقُ يَوْمًا إِذَا دَنَتِ الخِيَامُ مِنَ الخِيَامِ

قال الجنيد: «سمعت السري يقول: الشوق أجل مقام للعاريف إذا تحقّق فيه، وإذا تحقّق في الشوق لها عن كلّ شيء يسعّله عمّن يشتاق إليه، وعلى هذا فأهل الجنة دائماً في شوق إلى الله، مع قُرْبِهِمْ مِنْهُ، وَرُؤْيَيْهِمْ لَهُ».

قالوا: ومن الدليل على أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم: أننا نرى المحب يبكي عند لقاء محبوبه، وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه، ووجده به، ولذلك يجد عند لقائه نوعاً من الشوق لم يجده في حال غيبته عنه.

فصل

النزاع في هذه المسألة: أن الشوق يراد به: حركة القلب واهتياجه للقاء المحبوب؛ فهذا يزول باللقاء، ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه، تثيره حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب؛ فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا يزول، والعبارة عن هذا وجوده، والإشارة إليه حصوله.

وبعضهم سمى النوع الأول: شوقاً، والثاني: اشتياقاً.

قال القشيري: «سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق يفرّق بين الشوق والاشتياق، ويقول: الشوق

يسكن باللقاء، والاشتياق لا يزول باللقاء، قال: وفي معناه أنشدوا:

مَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهُ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ الطَّرْفُ مُشْتِاقًا».

وقال النضر أبادي: «للخلق كلّهم مقام الشوق، وكيس لهم مقام الاشتياق، ومن دخل في حال

الإشْتِيَاقِ هَامٌ فِيهِ حَتَّى لَا يُرَى لَهُ فِيهِ أَثَرٌ وَلَا قَرَارٌ».

قال الدَّقَاقُ في قول موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿طه: ٨٤﴾ قال: «مَعْنَاهُ: شَوْقًا إِلَيْكَ، فَسْتَرَهُ بِلَفْظِ الرِّضَا».

وقيل: إنَّ أهلَ الشَّوْقِ إلى لقاءِ الله يتَحَسَّسونَ حلاوةَ القربِ عندَ ورودِهِ؛ لما قد كشف لهم من روحِ الوصولِ، أحلى من الشَّهْدِ؛ فهم في سكراته في أعظم لَذَّةٍ وحلاوةٍ، وقيل: من اشتاق إلى الله اشتاق إليه كلُّ شيءٍ.

كما قال بعضهم: «أَنَا أَدْخُلُ فِي الشَّوْقِ وَالْأَشْيَاءِ تَشْتَأِقُ إِلَيَّ، وَأَتَأَخَّرُ عَنْ جَمِيعِهَا، وَفِي مِثْلِ هَذَا قِيلَ:

إِذَا اشْتَأَقْتَ الْخَيْلَ الْمَنَاهِلَ أَعْرَضْتُ عَنِ الْمَاءِ فَاشْتَأَقْتَ إِلَيْهَا الْمَنَاهِلَ

«وَكَاثَتْ عَجُوزٌ مُعَيَّبَةٌ، فَقَدِمَ غَائِبُهَا مِنَ السَّفَرِ، فَفَرِحَ بِهِ أَهْلُهُ وَأَقَارِبُهُ، وَقَعَدَتْ هِيَ تَبْكِي؛ فَقِيلَ لَهَا: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَتْ: ذَكَرَنِي قُدُومُ هَذَا الْفَتَى يَوْمَ الْقُدُومِ عَلَى اللَّهِ ﷻ».

يَا مَنْ شَكَا شَوْقَهُ مِنْ طُولِ فُرْقَتِهِ أَصْبِرْ لَعَلَّكَ تَلْقَى مَنْ تُحِبُّ عَدَا

وقيل: «حَرَجَ دَاوُدُ ﷺ يَوْمًا إِلَى الصَّحْرَاءِ مُنْفَرِدًا؛ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: مَا لِي أَرَاكَ مُنْفَرِدًا؟! فَقَالَ: إِلَهِي اسْتَأْثَرَ شَوْقِي إِلَى لِقَائِكَ عَلَى قَلْبِي؛ فَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صُحْبَةِ الْخَلْقِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَنِي بَعْدَ ابْتِغَائِكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ جِهْدًا».

فصل

□ قال صاحب المنازل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الشَّوْقُ: هُبُوبُ الْقَلْبِ إِلَى غَائِبٍ، وَفِي مَذْهَبِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: عِلَّةُ الشَّوْقِ عَظِيمَةٌ؛ فَإِنَّ الشَّوْقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى الْغَائِبِ، وَمَذْهَبُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: إِنَّمَا قَامَ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ؛ وَلِهَذَا الْعِلَّةُ لَمْ يَنْطِقِ الْقُرْآنُ بِاسْمِهِ».

قلت: هو صدر الباب بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ ﴿العنكبوت: ٥﴾ فكأنه جعل الرجاء شوقًا بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير، أو أن دلالة الرجاء على الشوق باللزوم، لا بالتضمن ولا بالمطابقة.

قوله: «هُبُوبُ الْقَلْبِ إِلَى غَائِبٍ».

يعني: سفره إليه، وهويته إليه.

وأما العلة التي ذكرها في الشوق: فقد تقدّم أنّ من الناس من جعل الشوق في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب، فعلى قول هؤلاء لا علة فيه.

وأما من جعله سفر القلب إلى المحبوب في حال غيبته عنه، فعلى قوله يجيء كلام المصنّف، ووجهه مفهومٌ.

وقوله: «فإنّ مذهب هذه الطائفة» الذي هو الفناء يريد: أنّ الفناء إنّما قام على المشاهدة؛ فإنّ بدايته - كما قرّره هو - المحبّة التي هي نهاية مقامات المرّيين، والفناء إنّما يكون مع المشاهدة، ومع المشاهدة، لا عمل للشوق.

فيقال: هذا باطلٌ من وجوه:

- أحدها: أنّ المشاهدة لا تزيل الشوق بل تزيده، كما تقدّم.

- الثّاني: أنّه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنّة، وهم إلى يوم المزيّد - وهو يوم الجمعة - أشوق شيء، كما في الحديث^(١)، وكذلك هم أشوق شيء إلى رؤية^(٢) ربّهم وسماع كلامه تعالى وهم في الجنّة؛ فإنّ هذا إنّما يحصل لهم في حالٍ دون حالٍ، كما في حديث ابن عمر المسند وغيره: «إنّ أعلى أهل الجنّة منزلة من ينظر إلى وجه ربّه كلّ يوم مرّتين»^(٣).

ومعلومٌ قطعاً أنّ شوق هذا إلى الرّؤية قبل حصولها أعظم شوقٍ يقدر، وحصول المشاهدة لأهل الجنّة أتمّ منها لأهل الدّنيا.

- الثّالث: أنّه لا سبيل في الدّنيا إلى مشاهدة تزيل الشوق ألبتّة، ومن ادّعى هذا فقد كذب وافترى^(٤)؛ فإنّه لم يحصل هذا لموسى بن عمران كليّم الرّحمن ﷺ، فضلاً عمّن دونه.

فما هذه المشاهدة التي مبنّى مذهب هذه الطائفة عليها^(٥)؛ بحيث لا يكون معها شوقٌ؟ أهي كمال المشاهدة عياناً وجهرةً؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ.

أم نوعٌ من مشاهدة القلب لمعروفه، مع اقترانها بالحجب الكثيرة التي لا يحصيها إلاّ الله؟ فهل

(١) يشير إلى حديث أنس رضي الله عنه: «أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء، فقلت: ما هذه يا جبريل؟ قال هذه الجمعة...» الحديث. وفيه: «ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيّد...» الحديث بطوله ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢١/١٠)، وقال: «رواه البزار والطبراني في الأوسط» بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان وقد وثقه غير واحد وضعفه غيرهم، وإسناد البزار فيه خلاف»، وصحح الحديث حسين أسد محقق «مسند أبي يعلى» (٤٢٢٨).

(٢) في «غ» والمنار: (رؤيته)، وكلمة (ربهم) بعدها غير موجودة.

(٣) رواه أحمد (١٣/٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٧٢٩) وضعفه حسين أسد.

(٤) كلمة (وافترى): غير موجودة «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (التي مذهب هذه الطائفة مبنّى عليها).

تمنع هذه المشاهدة الشوق إلى كمالها وتاممها؟ وهل الأمر إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة؛ لأنَّ مَنْ شاهد محبوبه من بعض الوجوه، كان شوقه إلى كمال مشاهدته أشدَّ وأعظم، وتكون تلك المشاهدة الجزئية سبباً لاشتياقه إلى كمالها وتاممها؛ فأين العلة في الشوق؟ وأين المشاهدة المانعة من الشوق؟

وهذا بحمد الله ظاهرٌ، ومن نازع فيه كان مكابراً، والله أعلم.

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: شَوْقُ الْعَابِدِ إِلَى الْجَنَّةِ، لِيَأْمَنَ الْخَائِفُ وَيَفْرَحَ الْحَزِينُ، وَيَظْفَرَ الْأَمَلُ».

يعني: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث.

- أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل، فإنَّ الخوف المجرد عن الأمن من كلِّ وجه لا ينبعث صاحبه لعمل البتة إن لم يقارنه أمل؛ فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطاً.
- الثاني: فرح الحزين، فإنَّ الحزن المجرد أيضاً إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه؛ فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وقعد حزنه به، ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح.
- الثالث: روح الظفر؛ فإنَّ الأمل إن لم يصحبه روح الظفر مات أمله، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: شَوْقٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ زَرَعَهُ الْحُبُّ الَّذِي يَنْبُتُ عَلَى حَافَاتِ

الْمُنَى، فَعَلِقَ قَلْبُهُ بِصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ فَاشْتَقَ إِلَى مُعَايَنَةِ لَطَائِفِ كَرَمِهِ وَأَيَاتِ بَرِّهِ وَأَعْلَامِ فَضْلِهِ، وَهَذَا شَوْقٌ تَغْشَاهُ الْمُبَارَةُ، وَتَخَالِجُهُ الْمَسَارَةُ، وَيَقَاوِمُهُ الْإِصْطِبَارُ».

الشُّوقُ إِلَى اللَّهِ لَا يَنَافِي الشُّوقَ إِلَى الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ أَطْيَبَ مَا فِي الْجَنَّةِ قُرْبَهُ تَعَالَى وَرُؤْيَتَهُ، وَسَمَاعَ كَلَامِهِ وَرِضَاهُ؛ نَعَمَ الشُّوقُ إِلَى مَجْرَدِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْحُورِ الْعَيْنِ فِي الْجَنَّةِ نَاقِصٌ جَدًّا، بِالنِّسْبَةِ إِلَى

شوق المحبِّين إلى الله تعالى، بل لا نسبة له إليه ألبتَّة، وهذا الشوق درجتان.

- إحداهما: شوقُ زرع الحبِّ الذي سببه الإحسان والمنَّة، وهو الذي قال فيه: «تَبَّتْ عَلَيَّ حَافَاتِ الْمُنَنِ»؛ فسببه مطالعة منَّة الله وإحسانه ونعمه (١).
وقد تقدَّم بيان ذلك في منزلة المحبَّة، وتبيَّن أنَّ محبَّة الأسماء والصفات أكمل وأقوى من محبَّة الإحسان والآلاء.

وفي قوله: «تَبَّتْ عَلَيَّ حَافَاتِ الْمُنَنِ»؛ أي: جوانبه: إشارة إلى عدم تمكُّنها وقوتها، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن؛ لا من نبات الأسماء والصفات.
وقوله: «فَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ»؛ يعني الصفات المختصَّة بالمنن والإحسان؛ كالبرِّ والمنان، والمحسن، والجواد، والمعطي، والغفور، ونحوها.
وقوله: «الْمُقَدَّسَةُ»؛ يعني: المطهَّرة المنزَّهة عن تأويل المحرِّفين وتشبيه الممثِّلين وتعطيل المعطلين (٢)، وإنَّما قلنا: إنَّ مراده هذه الصفات الخاصَّة لوجهين.

- أحدهما: أنَّ تعلق القلب بالصفات العامَّة: إنَّما يكون في الدَّرَجَة الثالثة.
- الثاني: أنَّه جعل ثمرة هذا التعلُّق شوق العبد إلى معاينة لطائف كرم الرِّبِّ ومننه وإحسانه وآيات برِّه، وهي علامات برِّه بالعبد وإحسانه إليه، وكذلك «أَعْلَامُ فَضْلِهِ» وهو ما يفضل عليه به، ويفضِّله به على غيره.

قوله: «وَهَذَا شَوْقٌ تَغَشَاهُ الْمَبَارُّ» يعني: أنَّه شوقٌ معلولٌ؛ ليس خالصاً لذات المحبوب، بل لما ينال منه من المبارِّ «فَقَدْ غَشِيَتْهُ» أي: أدركته المبارِّ.
قوله: «وَتُخَالِجُهُ الْمَسَارُّ» أي: تجاذبه؛ فإنَّ المخالجة هي المجاذبة؛ فإذا خالط هذا الشوق الفرح كان ممزوجاً بنوع من الحظِّ.
وقوله: «وَيُقَاوِمُهُ الْأَصْطِبَارُّ» أي: أنَّ صاحبه يقوى على الصِّبر، فيقاوم صبره شوقه ولا يغلبه، بخلاف الشوق في الدَّرَجَة الثالثة.

(١) الدرجة الثانية لهذا الشوق لم تذكر هنا، ولعلها تفهم مما سيأتي من الكلام وهي: الشوق الذي زرعه محبة الأسماء والصفات.

(٢) جملة (وتعطيل المعطلين): غير موجودة «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: نَارٌ أَضْرَمَهَا صَفْوُ الْمَحَبَّةِ، فَتَغَصَّتِ الْعَيْشُ، وَسَلَبَتِ السَّلْوَةَ، وَلَمْ يُتَهَنَّهُهَا مَعْرَى^(١) دُونَ اللَّقَاءِ».

يريد: أن الشوق في هذه المرتبة شبيهة بالنار التي أضرمها صفو المحبة، وهو خالصها، وشبهه بالنار لالتهابه في الأحشاء.

وفي قوله: «صَفْوُ الْمَحَبَّةِ» إشارة إلى أنها محبة لم تكن لأجل المنّة والنعم، ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات.

قوله: «فَتَغَصَّتِ الْعَيْشُ» أي: منعت صاحبها السكون إلى لذيذ العيش، و«التَّغْيِصُ»: قريب من التَّكْدِيرِ.

قوله: «وَسَلَبَتِ السَّلْوَةَ» أي: نهبت السلو وأخذته قهراً.

و«السَّلْوَةُ» هي الخلاص من كرب المحبة وإلقاء حملها عن الظهر؛ والإعراض عن المحبوب تناسياً.

وقوله: «لَمْ يُتَهَنَّهُهَا مَعْرَى^(٢) دُونَ اللَّقَاءِ» أي: لم يكفها ويردّها قرأً دون لقاء المحبوب، وهذه لا يقاومها الاضطراب؛ لأنه لا يكفها دون لقاء من يحبُّ قرأً.

فصل

[منزلة القلق]^(٣)

وقد يقوى هذا الشوق، ويتجرّد عن الصبر؛ فيسمى قلقاً، وبذلك سمّاه صاحب «المنازل»، واستشهد عليه بقوله تعالى حاكياً عن كليمة موسى ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤] فكأنه

(١) في «غ» والمنار: (مقر).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) لم يعدّ الشارح رحمته الله القلق منزلة مستقلة، وإنما عدّها حالة أو درجة للشوق، وكذلك العطش كما ستراه قريباً.

فهم أن عجلته إنما حمله عليها القلق، وهو تجريد الشوق للقاءه وميعاده.
وظاهر الآية: أن الحامل لموسى عليه السلام على العجلة: هو (١) طلب رضا ربّه، وأنّ رضاه في المبادرة إلى أوامره، والعجلة إليها؛ ولهذا احتجّ السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: «إِنَّ رِضَا الرَّبِّ فِي الْعَجَلَةِ إِلَى أَوْامِرِهِ».
□ ثمّ حدّاه صاحب «المنازل» (٢) بأنّه: «تَجْرِيدُ الشَّوْقِ بِإِسْقَاطِ الصَّبْرِ» أي: تخلّصه من كلّ شائبة بحيث يسقط معه الصبر، فإن قارنه اصطباراً فهو شوق.
□ ثمّ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:
الدَّرَجَةُ الْأُولَى: قَلْقٌ يُضَيِّقُ الْخُلُقَ، وَيُبَغِّضُ الْخَلْقَ، وَيُلْدِّدُ الْمَوْتَ».

يعني: يضيق خلق صاحبه عن احتمال الأغيار؛ فلا يبقى فيه اتساعٌ لحملهم، فضلاً عن تقيدهم له، وتعوّقه بأنفسهم.
و«يُبَغِّضُ الْخَلْقَ» يعني: لا شيء أبغض إلى صاحبه من اجتماعه بالخلق، لما في ذلك من التنافر بين حاله وبين خلطتهم.

وحدّثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله قال: «كان في بداية أمره يخرج أحياناً إلى الصحراء يخلو عن الناس، لقوّة ما يرد عليه، فتبعته يوماً فلمّا أضحى تنفّس الصّعداء، ثمّ جعل يتمثّل بقول الشّاعر - وهو لمجنون ليلى من قصيدته الطويلة -:

وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ الْبَيْوتِ لَعْنِي
أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ بِالسَّرِّ خَالِيًا.

وصاحب هذه الحال إن لم يرده الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوّة، وإلاّ فإنّه لا صبر له على مخالطتهم.

قوله: «وَيُلْدِّدُ الْمَوْتَ» فإنّ صاحبه يرجو فيه لقاء محبوبه؛ فإذا ذكر الموت التذّب به، كما يلتذّ المسافر بتذكّر قدومه على أهله وأحبابه.

(١) كلمة (هو): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: قَلَقٌ يُغَالِبُ الْعَقْلَ، وَيُخَلِّي السَّمْعَ، وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ».

أي: يكاد يقهر العقل ويغلبه، فهو والعقل تارةً وتارةً، ولكن لما لم يصل إلى درجة الشُّهود لم يسطلمه؛ فإنَّ العقل لا يسطلمه إلا الشُّهود؛ ولذلك قال: يغالب، ولم يقل يغلب.

وأما «إِخْلَاؤُهُ السَّمْعَ» فهو يتضمَّن إخلاءه من شيءٍ وإخلاءه لشيءٍ؛ فيخليه من استماعه ذكر الغير، ويخليه لاستماعه أوصاف المحبوب وذكره وحديثه، وقد يقوى إلى أن يبعد بين قلب صاحبه وبين إدراك الحواسِّ؛ لانقهار الحسِّ لسلطان القلب.

قوله: «وَيُطَاوِلُ الطَّاقَةَ» يعني: يصابرها ويقاومها؛ فلا تقدر طاقة الاضطراب على دفعه وردّه، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: قَلَقٌ لَا يَرْحَمُ أَبَدًا، وَلَا يَقْبَلُ أَمَدًا، وَلَا يُبْقِي أَحَدًا».

يريد: أن هذا القلق له القهر والغلبة؛ لأنَّه ربَّما كان عن شهودٍ؛ فإذا علق بالقلب لم يبق عليه حتَّى يلقيه في فناء الشُّهود.

«وَلَا يَقْبَلُ أَمَدًا»؛ أي: لا يقبل حدًّا ومقدارًا يقف عنده، وينقضي به، كما ينقضي ذو الأمد، فإنَّه حاكمٌ غير محكومٍ عليه، مالكٌ للقلب غير مملوكٍ له.

«وَلَا يُبْقِي أَحَدًا»؛ أي: يلقي صاحبه في الشُّهود الذي تفتى فيه الرُّسوم وتضمحلُّ؛ فلا يبقى معه على أحدٍ رسمه حتَّى يفنيه، والله أعلم.

فصل [منزلة العطش]

ثم يقوى هذا القلق ويتزايد حتى يورث القلب حالةً شبيهةً بشدةً ظمأ الصّادي الحرّان إلى الماء، وهذه الحالة هي التي يسمّيها صاحب المنازل «العَطَشُ»، واستشهد عليه بقوله تعالى عن الخليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، كأنه أخذ من إشارة الآية: أنه لشدة عطشه إلى لقاء محبوبه - لَمَّا رَأَى الْكَوْكَبَ - قال: هذا ربّي؛ فإنّ العطشان إذا رأى السّراب ذكر به الماء^(١)، فاشتدّ عطشه إليه.

وهذا ليس معنى الآية قطعاً، وإنّما القوم مولعون بالإشارات.

وإلا فالآية قد قيل: إنّها على تقدير الاستفهام؛ أي: أهذا ربّي؟ وليس بشيء.

وقيل: إنّها على وجه إقامة الحجّة على قومه، فتصوّر بصورة الموافق، ليكون أدعى إلى القبول، ثمّ توسّل بصورة الموافقة إلى إعلامهم بأنّه لا يجوز أن يكون المعبود ناقصاً آفلاً؛ فإنّ المعبود الحقّ لا يجوز أن يغيب عن عابديه وخلقه ويأفل عنهم، فإنّ ذلك منافٍ لربوبيّته لهم، أو أنّه انتقل من مراتب الاستدلال على المعبود حتى أوصله الدليل إلى الذي فطر السّموات والأرض؛ فوجّه إليه وجهه حنيفاً موحّداً، مقبلاً عليه، معرّضاً عمّا سواه، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال: «العَطَشُ: كِنَايَةٌ عَنِ غَلْبَةِ وُلُوعٍ بِمَأْمُولٍ».

الولوع بالشّيء: هو التعلّق به بصفة المحبّة، مع أمل الوصول إليه.
وقيل في حدّ الولوع: إنّ كثرة ترداد القلب إلى الشّيء المحبوب؛ كما يقال: فلانٌ مولعٌ بكذا،

(١) في «غ» والمنار: (ذكره الماء).

وقد أولع به.

وقيل: هو لزوم القلب للشيء؛ فكأنه مثل: أغري به، فهو مُغْرَى.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الأولى: عَطَشٌ الْمُرِيدِ إِلَى شَاهِدٍ يَرُويهِ، أَوْ إِشَارَةً تَشْفِيهِ، أَوْ عَطْفَةً تُؤْوِيهِ»^(١).

ولمّا كان المرید من أهل طلب الشواهد على الاعتبار، ومثير العزمات، وتعلق العباد بالأعمال. وقوله: «شَاهِدٌ يَرُويهِ» يحتمل: أنه من الرواية؛ أي: يرويه عن أقالمه له؛ فيكون ذلك إشارة إلى شواهد العلم، فهو شديد العطش إلى شواهد يرويها عن الصادقين من أهل السلوك، يزداد بها تشبهاً وقوة بصيرة؛ فإن المرید إذا تجددت له حالة أو حصل له وارد استوحش من تفرده بها؛ فإذا قام عنده بمثلها شاهد حال لمرید آخر صادق، قد سبقه إليها استأنس بها أعظم استئناس، واستدل بشاهد ذلك المرید على صحّة شاهده؛ فلذلك يشتد عطشه إلى شاهد يرويه عن الصادقين.

ويحتمل أنه من الرّي فيكون مضموم الياء يعني^(٢): إذا حصل له الرّي بذلك الشاهد، ونزل على قلبه منزلة الماء البارد من الظمان؛ فقرّر عنده صحته، وأنه شاهد حق.

ويرجع هذا: ذكر الرّي مع العطش، ويرجع الأول: ذكره لفظه الرّي في قوله: «أَوْ عَطْفَةً تَرُويهِ»^(٣)، والأمر قريب.

قوله: «أَوْ إِشَارَةً تَشْفِيهِ» أي: تشفي قلبه من علة عارضة؛ فإذا وردت عليه الإشارة -إمّا من صادق مثله، أو من عالم، أو من شيخ مسلك^(٤)، أو من آية فهمها، أو عبرة ظفر بها-: اشتفى بها قلبه، وهذا معلوم عند من له ذوق.

قوله: «أَوْ إِلَى عَطْفَةٍ تَرُويهِ»؛ أي: عطفة من جانب محبوبه عليه، تروي لهيب عطشه وتبرّده، ولا شيء أروى لقلب المحب من عطف محبوبه عليه، ولا شيء أشدّ للهيبة وحريقه من إعراض محبوبه عنه؛ ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربّهم عنهم أشدّ عليهم ممّا هم فيه من العذاب الجسماني؛ كما أنّ نعيم أهل الجنة -برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله- أعظم من نعيمهم الجسماني.

(١) في «غ» والمنار: (ترويه).

(٢) كلمة (يعني): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في المتن «تؤويه» وهي أصح؛ لأنها أنسب بالعطف.

(٤) في «غ» والمنار: (ملك).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: عَطَشُ السَّالِكِ إِلَى أَجَلٍ يَطْوِيهِ، وَيَوْمٌ يُرِيهِ مَا يُغْنِيهِ، وَمَنْزِلٌ يَسْتَرِيحُ فِيهِ».

إمّا أن يريد بالأجل الذي يطويه: انقضاء مدّة سجن القلب والرّوح في البدن، حتّى تصل إلى ربّها وتلقاه، وهذا هو الظّاهر من كلامه.

وإمّا أن يريد به: عطشه إلى مقصود السلوك من وصوله إلى محبوبه وقرّة عينه وجمعيّته عليه؛ فهو يطوي مراحل سيره حيثّياً، ليصل إلى هذا المقصود، وحينئذٍ يعود إليه سيراً آخر وراء هذا السّير، مع عدم مفارقتة له؛ فإنّه إنّما وصل به إليه^(١)، فلو فارقه لانقطع انقطاعاً كليّاً، ولكن يبقى له سيرٌ، وهو مستلّق على ظهره، يسبق به السّعاة.

ويرجّح هذا المعنى الثّاني: أنّ المرید الصّادق لا يحبّ الخروج من الدّنيا، حتّى يقضي نحبّه، لعلمه أنّه لا سبيل إلى انقضائه في غير هذه الدّار؛ فإذا علم أنّه قد قضى نحبّه أحبّ حينئذٍ الخروج منها، ولكن لا يقضي نحبّه حتّى يوفّي ما عليه.

والنّاس ثلاثة: موفٍ قد قضى نحبّه، ومنتظرٌ للوفاء ساعٍ فيه حريصٌ عليه، ومفرطٌ في وفاء ما عليه من الحقوق، والله المستعان.

قوله: «وَيَوْمٌ يُرِيهِ مَا يُغْنِيهِ»؛ أي: يوم يرى فيه ما يغني قلبه، ويسدّ فاقته من قرّة عينه بمطلوبه ومراده.

قوله: «وَمَنْزِلٌ يَسْتَرِيحُ فِيهِ» أي: منزل من منازل السّير، ومقام من مقامات الصّادقين، يستريح فيه قلبه، ويسكن فيه، ويخلص من تلوّن الأحوال عليه؛ فإنّ المقامات منازل والأحوال مراحل، فصاحب الحال شديد العطش إلى مقام يستقرّ فيه وينزله.

(١) كلمة (إليه): غير موجودة «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: عَطَشُ الْمُحِبِّ إِلَى جَلْوَةٍ، مَا دُونَهَا سَحَابٌ عَلِيٌّ، وَلَا يُعْطِيهَا حِجَابٌ تَفْرِقَةٌ، وَلَا يُعْرَجُ دُونَهَا عَلَى انْتِظَارٍ».

عطش المحبِّ فوق عطش المريد والسالك، وإن كان كلُّ محبِّ سالكاً وكلُّ مريدٍ سالكاً، وكلُّ سالكٍ ومريدٍ محبِّ، لكنَّ خصَّ المحبِّ بهذا الاسم لتمكُّنه من المحبَّة، ورسوخ قلبه فيها. والمريد والسالك يشمَّران إلى عَلمه الَّذِي رفع له، ووصل إليه؛ ولذلك جعل الأولى لأهل البدايات، والثانية للمتوسِّطين، والثالثة لأهل النهايات. وقوله: «عَطَشُ الْمُحِبِّ إِلَى جَلْوَةٍ مَا دُونَهَا سَحَابٌ».

يريد بالجلوة: استجلاء القلب لصفات المحبوب ومحاسنه، وانكشافها له. وقوله: «مَا دُونَهَا سَحَابٌ» أي: لا يسترها شيءٌ من سُحُبِ النَّفْسِ، وهي سحب العُللِ الَّتِي هي بقايا في العبد، تحول بينه وبين استجلائه صفات محبوه، وتعوِّقه عنه؛ فمهما بقي في العبد بقيَّةٌ من نفسه، فهي سحابٌ وغيِّمٌ ساترٌ على قدره، فكثيفٌ، ورقيقٌ، وبين بين. قوله: «وَلَا يُعْطِيهَا حِجَابٌ».

الحجاب في لسان الطائفة: النَّفْسُ وصفاتها وأحكامها، وهم مجمعون على أن النَّفْسَ من أعظم الحُجُبِ، بل هي الحجاب الأكبر، فإنَّ حجاب الرَّبِّ سبحانه عن ذاته هو الثُّور، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه^(١)، وحجابه من عبده: هو نفسه وظلمته، فلو كشف عنه هذا الحجاب لوصل إلى ربِّه.

والوصول عند القوم: عبارةٌ عن ارتفاع هذا الحجاب وزواله، فالحجاب الَّذِي يشتدُّ على المحبِّ^(٢)، ويشتدُّ عطشه إلى زواله هو حجاب الظُّلمة والنَّفْسِ، وهو الحجاب الَّذِي بينه وبين الله. وأمَّا الحجاب الَّذِي بين الله وبين خلقه - وهو حجاب الثُّور - فلا سبيل إلى كشفه في هذا العالم اللَّبَّتة، ولا يطمع في ذلك بشرٌ، ولم يكلم الله بشراً إلَّا من وراء حجابٍ.

(١) الحديث: «إن الله سبحانه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام...» إلى قوله: «حجابه النور لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحات وجهه ما أدركه بصره». وقد تقدم تخريجه (٥١/١).

(٢) في «غ»: (الحجب).

وهذا الحجاب كاشفٌ للبعد، موصلٌ^(١) له إلى مقام الإحسان الذي يعبر عنه القوم بمقام المشاهدة، والأول سائرٌ للبعد، قاطعٌ له، حائلٌ بينه وبين الإحسان وحقيقة الإيمان. والتفرقة كلها عندهم حجبٌ، إلا تفرقةً في الله وبالله والله؛ فإنها لا تحجب العبد عنه، بل توصله إليه؛ فلذلك قال: «وَلَا يُعْطِيهَا حِجَابٌ تَفْرِقَةٌ»؛ فإن التفرقة إنما تكون حجابًا إذا كانت بالنفس ولها. قوله: «وَلَا يُعْرَجُ دُونَهَا عَلَيَّ أَنْتَظَرُ»، يعني: لا يعرج المشاهد^(٢) لما يشاهده على انتظار أمرٍ آخر وراءها، كما يعرج المحبُّ المحجوب على انتظار زوال حجابها، والمراد: أنه حصل له مشهدٌ تامٌّ، لا يبقى له بعده ما ينتظره.

وهذا عندي وهمٌ بينٌ؛ فإنه لا غاية لجمال المحبوب وكمال صفاته؛ بحيث يصل المشاهد لها إلى حالة لا ينتظر معها شيئًا آخر.

هذا؛ وسنبين إن شاء الله تعالى أنه لا يصح لأحدٍ في الدنيا مقام المشاهدة أبدًا، وأن هذا من أوهام القوم وترهاتهم، وإنما غاية ما يصل إليه العبد الشواهد، ولا سبيل لأحدٍ قطُّ في الدنيا إلى مشاهدة الحق سبحانه، وإنما وصوله إلى شواهد الحق، ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم.

ولله درُّ الشبلي حيث سئل عن المشاهدة؟ فقال: «مِنْ أَيْنَ لَنَا مُشَاهَدَةُ الْحَقِّ؟! لَنَا شَاهِدُ الْحَقِّ». هذا؛ وهو صاحب الشطحات المعروفة، وهذا من أحسن كلامه وأبينه.

وأراد بشاهد الحق: ما يغلب على القلوب الصادقة العارفة الصافية من ذكره ومحبه، وإجلاله وتعظيمه وتوقيره^(٣)، بحيث يكون ذلك^(٤) حاضرًا فيها، مشهودًا لها، غير غائب عنها، ومن أشار إلى غير ذلك فمغرورٌ مخدوعٌ، وغايته أن يكون في خفارة صدقه، وضعف تمييزه وعلمه.

ولا ريب أن القلوب تشاهد أنوارًا بحسب استعدادها، تقوى تارةً وتضعف أخرى، ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف، وصفاء البواطن والأسرار، لا أنها أنوار الذات المقدسة؛ فإن الجبل لم يثبت ليسير من ذلك النور حتى تدكدك وخر الكليم صعقًا، مع عدم تجليه له؛ فما الظنُّ بغيره؟ فأياك ثم إياك وترهات القوم وخيالاتهم وأوهامهم؛ فإنها عند العارفين أعظم من حجاب النفس وأحكامها؛ فإن المحجوب بنفسه معترفٌ بأنه في ذلك الحجاب.

(١) في «غ»: (موصول).

(٢) في «غ»: (المشاهدة).

(٣) في «غ» والمنار: (ووقاره).

(٤) كلمة (ذلك): غير موجودة في المنار.

وصاحب هذه الخيالات والأوهام يرى أنَّ الحقيقة قد تجلَّت له أنوارها، ولم يحصل ذلك لموسى بن عمران كليم الرَّحمن، فحجاب هؤلاء أغلظ بلا شكَّ من حجاب أولئك، ولا يقرُّ لنا بهذا إلاَّ عارفٌ قد أشرق في باطنه نور السُّنَّة^(١) المحمَّديَّة، فرأى ما النَّاس فيه، وما أعزَّ ذلك في الدُّنيا! وما أغربه بين الخلق! وبالله المستعان.

فالصَّادقون في أنوار معارفهم وعباداتهم وأحوالهم ليس إلاَّ، وأنوار ذات الرَّبِّ تبارك وتعالى وراء ذلك كلِّه، وهذا الموضوع من مقاطع الطَّريق، والله كم زلَّت فيه أقدام! وضلَّت فيه أفهام! وحات فيه أوهام! ونجا منه صادق البصيرة، تامُّ المعرفة، علمه متَّصلٌ بمشكاة النُّبوة، وبالله التَّوفيق.

فصل

[منزلة الوجد]

ومن منازل ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الوجد.

ثبت في «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(٢).

وقد استشهد صاحب «المَنَازِلِ»^(٣) بقوله تعالى في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَّا لَهَا قَدَّ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

وهذا من أحسن الاستدلال والاستشهاد؛ فإنَّ هؤلاء كانوا بين قومهم الكفَّار في خدمة ملكهم الكافر؛ فما هو إلاَّ أن وجدوا حقيقة الإيمان والتَّوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشروا قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

والرَّبط على قلوبهم: يتضمَّن الشَّدَّ عليها بالصَّبْر والتَّثْبِيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتَّى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش، وفروا بدينهم إلى الكهف.

(١) كلمة (السنة): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) تقدم تخريجه (٢/١٥٠، ٢٦١).

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

والرَّبُّطُ عَلَى الْقَلْبِ: عكس الخذلان؛ فالخذلان: حلُّه من رباط التَّوْفِيقِ؛ فيغفل عن ذكر ربِّه، ويتَّبِعَ هواه، ويصير أمره فرطاً.

والرَّبُّطُ عَلَى الْقَلْبِ: شدُّه برباط التَّوْفِيقِ، فيتَّصِلُ بذكر ربِّه، ويتَّبِعَ مرضاته، ويجمع عليه شمله؛ فلهذا استشهد عليه بهذه الآية في مقام الوجد.

والشَّيْخُ (١) جعل مقام الوجد غير مقام الوجود كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فإنَّ الوجود عند القوم: هو الظَّفَرُ بحقيقة الشَّيْءِ، والوجد: هو ما يصادف القلب ويردُّ عليه من واردات المحبَّة والشَّوْقِ، والإجلال والتَّعْظِيمِ، وتوابع ذلك، والمواجيد عندهم فوق الوجد؛ فإنَّ الوجد مصادفةٌ، والمواجيد ثمرات الأوراد، وكلِّما كثرت الأوراد قويت المواجيد.

و«الْوُجُودُ» عندهم فوق ذلك، وهو الظَّفَرُ بحقيقة المطلوب، ولا يكون إلا بعد خمود البشريَّة، وانسلاخ أحكام النَّفْسِ انسلاخاً (٢) كلياً.

قال الجنيد (٣): «عِلْمُ التَّوْحِيدِ مُبَايِنٌ لُجُودِهِ، وَوُجُودُهُ مُبَايِنٌ لِعِلْمِهِ».

ولا يريد بالمباينة: المخالفة والمناقضة؛ فإنَّه يطابقه مطابقة العلم للمعلوم. وإنما يريد بالمباينة: أنَّ حال الموحِّد وذوقه للتَّوْحِيدِ وانصباغ قلبه بحاله أمرٌ وراء علمه به، ومعرفته به، والمباينة بينهما كالمباينة بين علم الشَّوْقِ والتَّوَكُّلِ والخوف ونحوها، وبين حقائقها ومواجيدها.

* فالمراتب أربعة:

كس أضعفها: التَّوَّاجِدُ: وهو نوع تكلُّفٍ وتعمُّلٍ واستدعاءٍ.

واختلفوا فيه: هل يسلم لصاحبه أم لا؟ على قولين:

- فطائفةٌ قالت: لا يسلم لصاحبه، وينكر عليه، لما فيه من التَّكَلُّفِ والتَّصْنَعِ (٤) المباين لطريق

الصَّادِقِينَ، وبناء هذا الأمر على الصِّدْقِ المحض.

- وطائفةٌ قالت: يسلم لصاحبه إذا كان قصده استدعاء الحقيقة، لا التَّشْبُهَ بأهلها، واحتجُّوا

بقول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد رأى رسول الله ﷺ وأبا بكرٍ يبيكان في شأن أسارى بدرٍ، وما قبلوا منهم من الفداء:

«أَخْبِرَانِي مَا يُبْكِيكُمَا؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِلَّا تَبَاكَيْتُ» (٥).

(١) انظر الحاشية السابقة.

(٢) في «غ» والمنار: (نسخاً).

(٣) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٤) في المنار: والصنع.

(٥) رواه مسلم في «الجهاد والسير»، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣)، وأحمد (٣١/١).

ورروا أثرًا: «ابْكُوا؛ فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبَاكُوا» (١).

- قالوا: والتكف والتعمل في أوائل السير والسلوك لابد منه؛ إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال، ومن (٢) تأمله بنيت حصول الحقيقة لمن رصد الوجد لا يذم، والتواجد يكون بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة، و«المواجيد» لمن يتأوله من أحكام باطنة.

المرتبة الثانية: المواجيد: وهي نتائج الأوراد وثمراتها.

المرتبة الثالثة: الوجد: وهو ثمرة أعمال القلوب، من الحب في الله والبغض فيه، كما جعله النبي ﷺ ثمرة كون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، وثمره الحب فيه، وكرهه عوده في الكفر كما يكره أن يقذف في النار؛ فهذا الوجد ثمرة هذه الأعمال القلبية، التي هي الحب في الله (٣) والبغض في الله.

المرتبة الرابعة: الوجود: وهي أعلى ذروة مقام الإحسان؛ فمن مقام الإحسان يرقى إليه؛ فإنه إذا غلب على قلبه مشاهدة معبوده، حتى كأنه يراه وتمكن في ذلك، صار له ملكة أخدمت (٤) أحكام نفسه، وتبدل بها أحكامًا أخرى، وطبيعة ثانية، حتى كأنه أنشئ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، وولد وولدًا جديدًا.

ومما يذكر عن المسيح ﷺ أنه قال: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَنْ تَلْجُوا مَلَكَوتَ السَّمَاءِ حَتَّى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ».

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يذكر ذلك، ويفسره بأن الولادة نوعان:

- أحدهما: هذه المعروفة.

- والثانية: ولادة القلب والروح وخروجهما من مشيمة النفس، وظلمة الطبع.

قال: «وَهَذِهِ الْوِلَادَةُ لَمَّا كَانَتْ بِسَبَبِ الرَّسُولِ كَانَ كَالْأَبِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ قَرَأَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» (٥).

قال: «وَمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ وَالْقِرَاءَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] إِذْ ثُبُوتُ أُمُومَةٍ أَزْوَاجِهِ لَهُمْ فَرُعٌ عَنْ ثُبُوتِ أَبَوْتِهِ».

(١) رواه ابن ماجه في «الزهد»، باب: الحزن والبكاء (٤١٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٦١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٩١٨).

(٢) كلمة (من): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في المنار: الحب لله.

(٤) في «غ» والمنار: (خدمت).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٦٨)، والقرطبي (١٤/ ١٢٣)، و«الدر المشور» (٥/ ١٨٢).

قال: «فَالشَّيْخُ وَالْمُعَلِّمُ وَالْمُؤَدِّبُ أَبُو الرُّوحِ، وَالْوَالِدُ أَبُو الْجِسْمِ». ويقال في الحبِّ: وجدٌ، وفي الغضب: موجدٌ، وفي الظفر: وجدانٌ ووجودٌ.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الْوَجْدُ: لَهَبٌ^(١) يَتَأَجَّجُ مِنْ شُهُودِ عَارِضِ الْقَلْبِ».

لَمَّا كَانَ الْوَجْدُ أَعْلَى مِنَ الْوَجْدِ جَعَلَ سَبَبَ الْوَجْدِ شُهُودًا عَارِضًا، وَجَعَلَ الْوَجْدُ نَفْسَ الظَّفْرِ بِالشَّيْءِ، كَمَا سَيَأْتِي، وَإِنَّمَا أَوْجَبَ اللَّهَبُ^(٢) لِأَنَّ صَاحِبَهُ لَمَّا شَهِدَ مَحْبُوبَهُ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ لَهَبَ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، وَلَمَّا لَمْ يَظْفِرْ بِهِ أَوْرَثَهُ الْقَلْقُ؛ فَلِذَلِكَ جَعَلَهُ لَهَبِيًّا مَقْلَقًا.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: وَجْدٌ عَارِضٌ يَسْتَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمْعِ، أَوْ شَاهِدُ الْبَصَرِ، أَوْ شَاهِدُ الْفِكْرِ، أَبْقَى عَلَى صَاحِبِهِ أَثْرًا أَوْ لَمْ يُبْقِ».

قوله: «وَجْدٌ عَارِضٌ» أي: متجددٌ ليس بلازم.

«يَسْتَفِيقُ لَهُ شَاهِدُ السَّمْعِ» أي: يتتبه السَّمْعُ من سنته لوروده عليه، وهذا إذا كان المنبِّه له خطابًا

من خارجٍ أو من نفسه.

وَأَمَّا إِفَاقَةُ شَاهِدِ الْبَصَرِ: فَلَمَّا يَرَاهُ وَيَعَايِنُهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ؛ فَيَنْتَقِلُ مِنْهَا إِلَى مَا نَصَبَتْ آيَةٌ لَهُ وَعَلَيْهِ.

وَأَمَّا إِفَاقَةُ شَاهِدِ الْفِكْرِ: ففِيمَا يَفْتَحُ لَهُ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي أَوْقَعَهُ عَلَيْهَا فِكْرَهُ وَتَأَمُّلُهُ.

وهذه الشواهد الثلاثة التي دعا الله سبحانه عباده إلى تبيينها^(٣) والاستشهاد بها وقبول الحق

الذي تشهد به وترتيب حكم هذه الشهادة عليها، من التوحيد والإقرار والإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

(١) في «غ» والمنار: (لهيب).

(٢) في «غ» والمنار: (اللهيب).

(٣) في «غ» والمنار: (تنبيهها).

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَعَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

وقال: ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

[وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]] (١).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

والقرآن مملوءٌ من هذا.

فيذا استفاق شاهد السَّمع والبصر والفكر، ووجد القلب حلاوة المعرفة والإيمان: خرج من

جملة النيام الغافلين.

قوله: «أَبْقَى عَلَى صَاحِبِهِ أَثْرًا أَوْ لَمْ يُبْقِ».

يعني: أن ذلك الوجد العارض قد يبقي على واجده أثرًا من أحكامه بعد مفارقتة، وقد لا يبقي،

والظاهر: أنه لا بد أن يبقي أثرًا، لكن قد يخفى وينغمر بما يعقبه بعده، ويخلفه من أضداده.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: وَجَدُ تَسْتَفِيقُ لَهُ الرُّوحُ بِلَمَعِ نُورِ أَزَلِيٍّ، أَوْ سَمَاعِ نِدَائِ

أَوْلِيِّ، أَوْ جَذْبِ حَقِيقِيٍّ، إِنْ أَبْقَى عَلَى صَاحِبِهِ لِبَاسَهُ، وَإِلَّا أَبْقَى عَلَيْهِ نُورُهُ».

إنما كان هذا الوجد أعلى من الوجد الأول؛ لأن محلَّ اليقظة فيه هو الرُّوح، ومحلُّها في الأول

السَّمع والبصر والفكر، والرُّوح هي الحاملة للسَّمع والبصر والفكر؛ وهذه الأوصاف من صفاتها.

وأيضًا: فلعلَّ وجد الرُّوح سببٌ آخر؛ وهو علوُّ متعلِّقه، فإنَّ متعلِّق وجد السَّمع والبصر والفكر

الآيات والبصائر، ومتعلِّق وجد الرُّوح تعلُّقها بالمحجوب لذاته؛ ولذلك جعل سببه «لَمَعَ نُورِ أَزَلِيٍّ»

يعني: شهودها لمع نور (٢) الحقيقة الأزلي، وهذا الشهود لا حظَّ فيه للسَّمع ولا للبصر ولا للفكر، بل

تستتير به الأسماع والأبصار، لأنَّ الرُّوح لَمَّا استتارت بهذه اليقظة والإفاقة، ثمَّ استتارت بنورها

الأسماع والأبصار؛ لاسيما وصاحبها في هذه الحال إنما يسمع بالله ويبصر به، وإذا كان سمعه وبصره

وبطشه بالله، فما الظنُّ بحركة روحه وقلبه وأحكامها؟

(١) هذه الآية غير موجودة في طبعة (الفاقي).

(٢) لفظة (نور): ساقطة من «غ».

وقوله: «أَوْ سَمَاعٍ نِدَاءٍ أَوْلِيٍّ».

إن أراد به: تعرّف الحقّ تعالى إلى عباده بواسطة الخطاب على ألسنة رسله وهذا هو الخطاب الأزلّي؛ فصحيحٌ.

وإن أراد به: خطاب الملك له؛ فليس بخطابٍ أزلّيّ.

وإن أراد: ما سمعه في نفسه من الخطاب؛ فهو خطابٌ وهميٌّ، وإن ظنّه أزلّيًّا^(١)؛ فإيّاك والأوهام والغرور!

ونحن لا ننكر الوجود، ولا ندفع الشهود، وإنّما نتكلّم مع القوم في رتبته وإنشائه^(٢)، ومن أين بدأ؟ وإلى أين يعود؟ فلا ننكر واعظ الله في قلب عبده المؤمن الذي يأمره وينهاه، ولكن ذلك في قلب كلّ مؤمن جعله الله واعظاً له يأمره وينهاه، وينادي به ويحدّره، ويبشّره وينذره، وهو الداعي الذي يدعو فوق الصّراط.

والداعي على رأس الصّراط: كتاب الله، كما في «المُسْنَدِ» والتّرْمِذِيِّ من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْحَاةٌ، وَدَاعٌ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ، وَدَاعٌ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ؛ فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: الْإِسْلَامُ، وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ حَتَّى يَكْشِفَ السُّتْرَ، وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ»^(٣).

فما تمّ خطابٌ قطُّ إلا من جهةٍ من هاتين: إمّا خطاب القرآن، وإمّا خطاب هذا الواعظ. ولكن لما كانت الرّوح قد تتجرّد ويقوى تعلقها بالحقّ تعالى [ويضعف تعلقها]^(٤)، بل قد تتلاشى بما سواه، وقد يقترن بذلك نوع غيبية من حسّه، ويقوى داعي هذا الواعظ، ويستولي على قلبه وروحه، بحيث يمتلئ به، فتؤدّيه الرّوح إلى الأذن، فيخرج^(٥) عن الأذن إليها؛ إذ هي مبدؤه، وإليها يعود، فيظنّه خطاباً خارجاً، وينضاف إلى ذلك نوعٌ من ضعف العلم ومعرفة المراتب؛ فينشأ الغلط والوهم.

(١) في «غ»: (وليّاً)، والمنار: (أوليّاً).

(٢) في «غ»: (ونشأته).

(٣) أحمد (٤/١٨٢، ١٨٣)، والتّرْمِذِي (٢٨٥٩)، وصححه الألباني في «تخريج كتاب السنة» (١٨-١٩).

(٤) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي فأثبتناه هنا من نسخة «غ» والمنار.

(٥) كلمة (قد): ساقطة من «غ» والمنار.

(٦) في «غ» والمنار: (فيرجع).

قوله: «أَوْ جَذْبٌ حَقِيقِيٌّ»؛ يعني: أن من أسباب هذا الوجد جذبةٌ حَقِيقِيَّةٌ من جَذَبَاتِ الرَّبِّ تعالَى لعبده، استفاقت لها روحه من منامها، وحييت بها بعد مماتها، واستنارت بها بعد ظلماتها، فالوجد خلعة هذه الجذبة.

قوله: «إِنْ أَبْقَى عَلَى صَاحِبِهِ لِبَاسَهُ، وَإِلَّا أَبْقَى عَلَيْهِ نُورَهُ» يريد بلباسه مقامه، يعني: إن أبقى عليه تحقّق مقامه فيه، وإلّا أبقى عليه أثره، فمقامه يورثه عزّاً ومهابةً وخلافةً نبوّةً، ومنشور صدقيّةً، وأثره يورثه حلاوةً وسكينةً، وأنساً في نفسه وأنساً للقلوب به، وهوى الأفتدة إليه.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: وَجُدٌ يَخْطِفُ الْعَبْدَ مِنْ يَدِ الْكُوْنَيْنِ، وَيُمَحِّصُ مَعْنَاهُ مِنْ دَرَنِ الْحَظِّ، وَيَسْلُبُهُ مِنْ رِقِّ الْمَاءِ وَالطِّينِ، إِنْ سَلَبَهُ أَنْسَاهُ اسْمَهُ، وَإِنْ لَمْ يَسْلُبْهُ أَعَارَهُ رَسْمَهُ».

فقوله: «يَخْطِفُ الْعَبْدَ مِنْ يَدِ الْكُوْنَيْنِ»؛ أي: يغنيه عن شهود ما سوى الله من كوني الدنيا والآخرة، فيختطف القلب من شهود هذا وهذا بشهود^(١) المكوّن.

قوله: «وَيُمَحِّصُ مَعْنَاهُ مِنْ دَرَنِ الْحَظِّ»؛ أي: يخلص عبوديته التي هي حقيقته وسرّه من وسخ حظوظ نفسه وإراداتها المزاحمة لمراد ربّه منه؛ فإنّ تحقيق العبوديّة - التي هي معنى العبد - لا يكون إلّا بفقد النّفس الحاملة للحظوظ؛ فمتى فقدت حظوظها تمحّصت عبوديتها، وكلّما مات منها حظٌّ حيي منها عبوديّةٌ ومعنى، وكلّما حيي فيها حظٌّ ماتت عبوديّةٌ، حتّى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلبٌ حيٌّ، وروحٌ حيّةٌ بموت نفسه وحظوظها، وقلبٌ ميّتٌ، وروحٌ ميّتةٌ بحياة نفسه وحظوظه، وبين ذلك مراتب متفاوتةٌ في الصّحّة والمرض، وبين بين^(٢)، لا يحصيها إلّا الله ﷻ.

قوله: «وَيَسْلُبُهُ مِنْ رِقِّ الْمَاءِ وَالطِّينِ»؛ أي: يعتقه ويحرّره من رِقِّ الطّبيعة والجسم المركّب من الماء والطّين، إلى رِقِّ ربِّ العالمين، فخادم الجسم الشّقّي بخدمته عبد الماء والطّين، كما قيل:

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَشَقَّى بِخِدْمَتِهِ فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

(١) في «غ» والمنار: (بشهوده).

(٢) في «غ» والمنار: (وبين وبين).

والتَّاس في هذا المقام ثلاثة: عبدٌ محضٌ، وحرٌّ محضٌ، ومكاتبٌ قد أدَّى بعض كتابته، وهو يسعى في بقية الأداء.

فالعبد المحض: عبد الماء والطِّين، الَّذِي قد استعبده نفسه وشهوته، وملكته وقهرته، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيِّده الحاكم عليه.

والحرُّ المحض: هو الَّذِي قهر شهوته ونفسه وملكها؛ فانقادت معه، وذلت له ودخلت تحت رقبته وحكمه.

والمكاتب: مَنْ قد عقد له سبب الحرِّية، وهو يسعى في كمالها؛ فهو عبدٌ من وجهٍ حرٌّ من وجهٍ، وبالبقية^(١) التي بقيت عليه من الأداء يكون^(٢) عبدًا ما بقي عليه درهمٌ؛ فهو عبدٌ ما بقي عليه حظٌّ من حظوظ نفسه.

فالحرُّ من تخلَّص من رقب الماء والطِّين، وفاز بعبودية ربِّ العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرِّية، فعبوديته من كمال حرِّيته، وحرِّيته من كمال عبوديته^(٣).

(١) في «غ» والمنار: (والبقية).

(٢) في «غ» والمنار: (كان).

(٣) ويزيد على هذا المعنى البديع حسناً قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وكل مَنْ علَّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم متصرفاً بهم، فالناظر ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيراً لها تحكّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لاسيما إذا دَرَّتْ بفقرة إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها فإنها تحكّم فيه حينئذ حكم السيد القاهر الظالم في عبدة المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه». «العبودية» (٣٢-٣٨) باختصار.

ويقول في موطن آخر عن مستعبد القلب لغير الله: «... فتارة تجذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيراً عابداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك نقصاً وعباً وذمّاً. وتارة يجذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها؛ فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدي من الله.

ومن لم يكن مخلصاً لله عبداً له، قد صار قلبه مستعبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه، ويكون ذليلاً خاضعاً له، وإلا استعبده الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين». المصدر السابق.

وكذلك قول سيد قطب رحمه الله تعالى: «إن الدينونة لله تعالى تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحرية الحقيقية، هذه الحرية وتلك الكرامة اللتان يتسحيل ضمانيهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي... والذين لا يدينون لله وحده يقعون من

قوله: «إِنْ سَلَبَهُ أَنْسَاهُ اسْمَهُ، وَإِنْ لَمْ يَسْلُبْهُ أَعَارَهُ رَسْمَهُ».

أي: هذا الوجد إن سلب صاحبه بالكليّة فأفناه عنه، وأخذه منه أنساه اسمه؛ لأنّ الاسم تبعٌ للحقيقة؛ فإذا سلب الحقيقة نسي اسمها، وإن لم يسلبه بالكليّة، بل أبقى منه رسمًا، فهو معارٌ عنده بصدد الاسترجاع؛ فإنّ العواري يوشك أن تستردّ، ويشير بالأوّل: إلى حالة الفناء الكامل، والثاني: إلى حالة الغيبة التي يثوب منها غائبها، والله أعلم.

فصل

[منزلة الدهش] (١)

وقد تعرض للسالك دهشة^(٢) في حال سلوكه، شبيهة بالبهتة التي تحصل للعبد عند مفاجأة رؤية محبوبه، وليست من منازل السلوك؛ خلافاً لأبي إسماعيل الأنصاريّ حيث جعلها من المنازل، بل من غاياتها؛ فإنّ هذه الحالة ليست مذكورة في القرآن ولا في السنّة ولا في كلام السالكين، ولا عدّها أحدٌ من المتقدّمين من المنازل والمقامات؛ ولهذا لم يجد ما يستشهد به عليها سوى حال النسوة مع يوسف عليه السلام، لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ.

فصدر الباب بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ [يوسف: ٣١] أي: أعظمته.

فإن كان مقصوده: ما حصل لهنّ من إعظامه وإجلاله فذلك منزلة التعظيم، وإن كان مراده: ما ترتب على رؤيته لهنّ، من غيبتهنّ عن أنفسهنّ وعن أيديهنّ، وما فيها حتّى قطّعتها فتلك منزلة الفناء. وإن كان مقصوده: الدهشة والبهتة التي حصلت لهنّ عند مفاجأته - وهو الذي قصده - فذلك

فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة، إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط، «في ظلال القرآن» (٣/ ١٩٣٩).

وما أحسن ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى في «نونيته»:

هربوا من الرق لذي خلقوا له فبأبواب الرق النفس والشيطان

(١) قال في حاشية المنار كتب في الهامش هنا: «منزلة الدهش»؛ أي: في اصطلاح الهروي؛ وهذا العنوان غير موجود في طبعة (الفقي).

(٢) في «غ» والمنار: (وحشة).

أمرٌ عارضٌ من عوارض الطَّرِيق عند مفاجأة ما يغلب على صبر الإنسان وعقله، ولا ريب أن ذلك عارضٌ من عوارض الطَّرِيق ليس بمقامٍ للسَّالِكين، ولا منزلٍ مطلوبٍ لهم؛ فعوارض الطَّرِيق شيءٌ، ومنازلها ومقاماتها شيءٌ.

فلهذا قال في تعريفه: «الدَّهْشُ: بَهْتَةٌ تَأْخُذُ الْعَبْدَ عِنْدَ مُفَاجَأَةٍ مَا يَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهِ، أَوْ صَبْرِهِ، أَوْ عِلْمِهِ».

يشير إلى الشُّهود الَّذِي يغلب على (١) عقله، والحبِّ (٢) الَّذِي يغلب على (٣) صبره، والحال التي تغلب على (٤) علمه.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الأوَّلَى: دَهْشَةُ الْمُرِيدِ عِنْدَ صَوْلَةِ الْحَالِ (٥) عَلَى عِلْمِهِ، وَالْوَجْدِ عَلَى طَاقَتِهِ، وَالْكَشْفِ عَلَى هِمَّتِهِ».

يعني: أن علمه يقتضي شيئاً، وحاله يصول عليه بخلافه؛ فهذا غايته أن يكون معذوراً إن لم يكن مفراطاً؛ فإنَّ الحال لا يصول على العلم إلا وأحدهما فاسدٌ، إمَّا الصَّائِل، أَو المَصُول عليه؛ فإذا اقتضى العلم سكوتاً، فصال عليه الحال بحركته فهي حركةٌ فاسدةٌ؛ غاية صاحبها أن يكون معذوراً لا مشكوراً، وإذا اقتضى العلم حركةً فصال الحال عليه بسكونه فهو سكونٌ فاسدٌ.

مثال الأوَّل: اقتضاء العلم للسُّكون والخشوع عند واردة السَّماع القرآنيِّ، وصولة الحال عليه حتَّى يزعق ويشقِّ (٦) ثيابه، أو يلقي نفسه لورود ما يدهشه من معاني المسموع على قلبه؛ فيصول حاله على عمله (٧)، حتَّى لو كان في صلاة فرض لأبطلها وقطعها.

ومثال الثَّاني: اقتضاء العلم حركةً (٨) مفرقةً في رضا المحبوب، فيصول الحال عليها بسكونه وجمعيتيه، حتَّى يقهرها، وهذه من مقاطع القوم وأفاتهم، وما نجا منها إلا أهل البصائر منهم، العاملون على تجريد العبودية، وكثرة صور هذا مغنية عن كثرة الأمثلة.

(١) كلمة (على): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (والحب): ساقطة من «غ».

(٣) كلمة (على): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) في «غ» والمنار: (الحالة).

(٦) في «غ» والمنار: (أو يشق).

(٧) في «غ»: (علمه)، ولعلها هي الصواب.

(٨) في «غ» والمنار: (بحركة).

فإن أكثرهم يقدم حال الجمعية على ملابسة الأغيار والأعداء في الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصوّل حال الجمعية عنده على الحركة التي يأمر بها العلم، كما صالت حركة الأوّل على السكون الذي يأمر به العلم.

قوله: «وَالْوَجْدُ عَلَى الطَّاقَةِ» يعني: أن وجد المحبّ ربّما غلب صبره، وصال على طاقته، فصرخ إلى محبوبه، واستغاث به، حتّى يأتي النصر من عنده، بل صراخه به واستغاثته به عين (١) نصره إيّاه، حيث حفظ عليه وجده، ولم يردّه فيه إلى صبر يسلبه ويجفو؛ فيكون ذلك (٢) نوع طرد.

قوله: «وَالكُشْفِ عَلَى هِمَّتِهِ» يعني: أن الهمة تستدعي صدق الطلب ودوامه، والكشف: هو الشهود (٣)، وهو في مظنة فسخ الهمة وإبطال حكمها؛ لأنّها تقتضي الطلب، وهو يقتضي الفتور؛ لأنّ الطلب للغائب عن المطلوب، فهمة متعلّقة بتحصيله، وصاحب الكشف في حضور مع مطلوبه، فكشفه صائل على همة، كما قال بعضهم: إذا برقت بارقة من بوارق الحقيقة لم يبق معها حال ولا همة.

(وهذا أيضًا عارض مطلوب الرّوال، والبقاء معه انقطاع كلي؛ فإنّ السّالك في همة (٤) ما دامت روحه في جسده، فإذا فارقت الهمة انقطع واستحسر.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَهْشَةُ السَّالِكِ عِنْدَ صَوْلَةِ الْجَمْعِ عَلَى رَسْمِهِ، وَالسَّبْقِ عَلَى وَقْتِهِ، وَالْمُشَاهَدَةِ عَلَى رُوحِهِ».

الجمع عند القوم: ما أسقط التّفرقة، وقطع الإشارة، وباين الكائنات، و«رسم» العبد عندهم: هو صورته الظّاهرة والباطنة؛ فشهود الجمع يقتضي أن يستولي على فناء تلك الرّسوم فيه، فللجمع صولة على رسم السّالك، يغشاها عندهم بهمة، هي الدهشة المشار إليها.

وأما صولة السّبِقِ عَلَى وَقْتِهِ: فالسّبِق: هو الأزل، وهو سابق على وقت السّالك، وإنّما صال الأزل على وقته لأنّ وقته حادث فانّ؛ فهو يرى فناء في بقاء الأزل وسبقه، فيغلبه شهود السّبِق، ويقهره

(١) في «غ»: (غير).

(٢) كلمة (ذلك): ساقطة من والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (المشهود).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «غ».

على شهود وقته، فلا يتسع له.

وأما «صَوْلَةُ الْمُشَاهَدَةِ عَلَى رُوحِهِ»: فلَمَّا كانت المشاهدة تعلق إدراك الرُّوح بشهود الحقِّ تعالى، فهي شهود الحقِّ بالحقِّ كما قال تعالى في الحديث القدسي: «فِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ»^(١)، اقتضى هذا الشُّهود صَوْلَةَ عَلَى الرُّوح؛ فحيث صار الحكم له دونها انطوى^(٢) حكم الشَّاهد في شهوده، وقد عرفت ما في ذلك فيما تقدّم.

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: دَهْشَةُ الْمُحِبِّ عِنْدَ صَوْلَةِ الْإِتِّصَالِ عَلَى لُطْفِ الْعَطِيَّةِ، وَصَوْلَةِ نُورِ الْقُرْبِ عَلَى نُورِ الْعَطْفِ، وَصَوْلَةِ شَوْقِ الْعِيَانِ عَلَى شَوْقِ الْخَبْرِ».

الأتصال عنده على ثلاثة مراتب: اتّصال الاعتصام، واتّصال الشُّهود، واتّصال الوجود، كما سيأتي الكلام عليه^(٣) إن شاء الله، وبيان ما فيه من حقِّ وباطل يجلُّ عنه جناب الحقِّ تعالى. و«الْعَطِيَّةُ» هاهنا: هي الواردات التي ترد في لطفٍ وخفاءٍ على قلب العبد من قبَل الحقِّ تعالى، وهي أُلطافٌ يعامل المحبوب بها محبّه، توجب قربًا خالصًا هو المسمّى بالاتّصال؛ فيصول ذلك القرب على لطف العطيّة؛ فيغيب العبد عنها وعن شهودها، وينسيه إيّاها، لما أوجبه له ذلك القرب من الدّهش.

وقد يكون سبب ذلك: تواتر أنواع العطايا عليه، حتّى يدّهشه كثرتها وتنوعها، فتوجب له كثرتها دهشةً تمنعه من مطالعتها، مع انضمام ذلك إلى صولة القرب، وهي وارداتٌ وأنوارٌ يتّصل بعضها ببعض، تمحو ظلم نفسه ورسمه.

وأما صَوْلَةَ نُورِ الْقُرْبِ عَلَى نُورِ الْعَطْفِ: فهو قريبٌ من هذا، أو^(٤) هو بعينه، وإنّما كرر المعنى بلفظٍ آخر؛ فإنّ لطف العطيّة كلّ نور عطفٍ، والاتّصال هو القرب نفسه، تعالى الله عن غير ذلك من اتّصالٍ يتوهّمه ملاحظة الطّريق وزنادقتهم.

وأما «صَوْلَةُ شَوْقِ الْعِيَانِ عَلَى شَوْقِ الْخَبْرِ».

فمراده بها: أنّ المرید في أوّل الأمر سالكٌ على شوق الخبر في مقام الإيمان؛ فإذا ترقّى عنه إلى مقام الإحسان وتمكّن منه بقي شوقه بشوق العيان، فصال هذا الشّوق على الشّوق الأوّل؛ فإن كان هذا مراده وإلّا فالعيان في الدُّنيا لا سبيل للبشر إليه البتّة.

(١) تقدم تخريجه (٣٦/٢).

(٢) في «غ» والمنار: (فانطوى).

(٣) كلمة (عليه): ساقطة من «غ».

(٤) في «غ» والمنار: (و).

ومن زعم خلاف ذلك فأحسن أحواله أن يكون ملبوساً عليه وليس فوق الإحسان للصدّيقين مرتبةً إلا بقاءهم فيه، فإن سمّي ذلك عياناً فالتسمية الشرعية المخلصة التي لا لبس فيها أولى وأحرى. وأكثر آفات الناس من الألفاظ؛ ولا سيما في هذه المواضع التي يعزُّ فيها تصوُّر الحقِّ على ما هو عليه، والتعبير المطابق، فيتولّد من ضعف التّصوُّر، وقصور التّعبير نوع تخبيطٍ، ويتزايد على ألسنة السّامعين له وقلوبهم، بحسب قصورهم، وبُعدهم من العلم، فتفاقم الخطب، وعظم الأمر، والتبس طريق أولياء الله الصّادقين بطرائق الزّنادقة الملحدين، وعزّ المفرّق بينهما؛ فدخل على الدّين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله، وأشير إلى أعظم الخلق كفرةً بالله ﷻ وإلحاداً في دينه بأنّه من شيوخ التّحقيق والمعرفة والسلوك.

ولولا ضمان الله بحفظ دينه، وتكفّله بأن يقيم له من يجدّد أعلامه، ويحيي منه ما أماته المبتلون، وينعش ما أحمله الجاهلون؛ لهدّمت أركانه، وتداعى بنيانه، ولكنّ الله ذو فضلٍ على العالمين.

فصل

في منزلة الهيمان^(١)

وقد يعرض للسّالك عند ورود بعض المعاني والواردات العجيبة على قلبه فرط تعجّبٍ، واستحسانٍ واستلذاذٍ، يزيل عنه تماسكه، فيورثه ذلك الهيمان.

وليس ذلك من مقامات السّير، ولا منازل الطّريق المقصودة بالتّزول فيها للمسافرين؛ خلافاً لصاحب «المنازل»^(٢)؛ حيث عدّ ذلك من أعلى المنازل وغاياتها، وعبر عنه بمنزلة الهيمان؛ ولهذا ليس له ذكرٌ في القرآن، ولا في السنّة، ولا في لسان سلف القوم.

وقد تكلف له صاحب «المنازل» الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ مَوْسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وما أبعد الآية من استشهاد، وكأنّه ظنّ أنّ موسى ذهب عن تماسكه لِمَا ورد عليه في حالة الخطاب والتّكليم الإلهي؛ فأورثه ذلك هيماناً صعق منه، وليس كما ظنّه، وإنّما صعق موسى عند

(١) هذا العنوان غير موجود في «غ» والمنار؛ وقال في حاشية المنار: كتب في هامش الأصل «منزلة الهيمان».

(٢) في «غ»: (رحمه الله).

تجلّي الرَّبِّ تعالى للجبل واضمحلاله، وتدكدكه من تجلّي الرَّبِّ تعالى. فلاستشهاد بالآية في منزلة الفناء التي تضمحلّ فيها الرسوم أنسب وأظهر؛ لأنّ تدكدك الجبل هو اضمحلال رسمه عند ورود نور التّجلّي عليه، والصّعق فناءً في هذه الحال لهذا الوارد المنفني لبشريّة^(١) موسى عليه الصّلاة والسّلام.

وقد حدّه بأنّه: «الذّهَابُ عَنِ التَّمَاكُ تَعَجُّبًا أَوْ حَيْرَةً».

يعني: أنّ الهائم لا يقدر على إمساك نفسه للوارد تعجّباً منه وحيرةً.

قال: «وَهُوَ أَثْبُتٌ دَوَامًا وَأَمْلَكُ لِلنَّعْتِ مِنَ الدَّهْشِ».

يعني: أنّ الهائم قد يستمرُّ هيمانه مدّةً طويلةً؛ بخلاف المدهوش، وصاحب الهيمان يملك^(٢) عنان القول؛ فيصرّفه كيف يشاء، ويتمكّن من التّعبير عنه، وأمّا الدّهش فلضيق معناه، وقصر زمانه: لم يملك النّعت؛ فالهائم أملك بنعت حاله ووارده من المدهوش.

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الأوّلَى: هَيْمَانٌ فِي شَيْمٍ أَوَائِلِ بَرَقِ اللَّطْفِ عِنْدَ قَصْدِ الطَّرِيقِ، مَعَ مَلَاخِظَةِ الْعَبْدِ

خَسَّةَ قَدْرِهِ، وَسَفَالَةَ مَنْزِلَتِهِ، وَنَفَاهَةَ قِيمَتِهِ».

يريد: أنّ القاصد للسُّلوك إذا نظر إلى مواقع لطف ربّه به؛ حيث أهله لما لم يؤهّل له أهل البلاء، وهم أهل الغفلة والإعراض عنه أورثه ذلك النّظر تعجّباً يوقعه في نوع من الهيمان.

قال بعض العارفين في الأثر المروي: «إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبَلَاءِ فَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»: «تَدْرُونَ مَنْ هُمْ أَهْلُ الْبَلَاءِ؟! هُمْ أَهْلُ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ!».

وتقوى هذه الحال إذا انضاف إليها شهود العبد خسّة^(٣) قدر نفسه؛ فاستصغرها أن تكون أهلاً لما أهّلت له، وكذلك شهود سفالة منزلته؛ أي: انحطاط رتبته، وكذلك شهود تفاهة قيمته أي: خسّتها وقتلتها.

وحاصل ذلك كلّهُ: احتقاره لنفسه، واستعظامه للطف ربّه به، وتأهيله له، فيتولّد من بين هذين الهيمان المذكور، ولا ريب أنّه يتولّد من بين هذين الشُّهودين أمورٌ أخرى أجلُّ وأعظم وأشرف من الهيمان؛ من محبّةٍ وحميدٍ وشكرٍ، وعزمٍ وإخلاصٍ، ونصيحةٍ في العبوديّة، وسرورٍ وفرحٍ برّبّه، وأنسٍ به هي مطلوبةٌ لذاتها؛ بخلاف عارض الهيمان، فإنّه لا يطلب لذاته، وليس هو من منازل العبوديّة.

(١) في «غ» والمنار: (بشريّة).

(٢) في «غ» والمنار: (يملكه).

(٣) في «غ» والمنار: (بخسة).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: هَيْمَانٌ فِي تَلَاطُمِ أَمْوَاجِ التَّحْقِيقِ، عِنْدَ ظُهُورِ بَرَاهِينِهِ، وَتَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ، وَلَوَامِعِ أَنْوَارِهِ».

يريد: أن السَّالِكَ والمريد إذا لاحت له أنوار تحقُّق العلم والمعرفة، اهتدى بها إلى القصد، عن بصيرة مستجدَّة^(١)، ويقظة مستعدَّة^(٢)؛ فاستنار بها قلبه، وأشرق لها سرُّه، فتلاطمت عليه^(٣) أمواج التَّحْقِيقِ عند ظهور البراهين؛ فهام قلبه فيها، وهذا أمرٌ يعرفه بالذَّوق كُلُّ طالبٍ لأمرٍ عظيمٍ انفتحت له الطُّرُق والأبواب إلى تحصيله.

ويريد «تَوَاصُلِ عَجَائِبِهِ»: تتابُع عجائب التَّحْقِيقِ، وأنَّ بعضها لا يحجب عن بعضٍ، ولا يقف في طريق بعضٍ؛ وكذلك «لَوَامِعُ أَنْوَارِهِ» وأعظم ما يجد هذا الواجد عند استغراقه في تدبُّر القرآن، ويحصل ذلك بحسب استعداده وأهليَّته للفهم، ونسبة ما دون ذلك إليه كتفلةٍ في بحرٍ.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: هَيْمَانٌ عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي عَيْنِ الْقِدَمِ، وَمُعَايَنَةِ سُلْطَانِ الْأَزْلِ، وَالغَرَقِ فِي بَحْرِ الْكُشْفِ».

يريد: هيمان الفناء، والوقوع في عين القدم إنَّما يكون باضمحلال الرِّسْمِ وفنائه في شهود القدم؛ فإنَّه يفنى من لم يكن مشهودًا، ويبقى من لم يزل، وكذلك معاينة سلطان الأزل لا يبقى معها معاينة رسوم الكائنات وأطلال الحادثات.

وأما «بَحْرُ الْكُشْفِ» الَّذِي أشار إليه: فهو انكشاف الحقيقة لعين القلب، ولا تعتقد أنَّ للسَّالِكَ وراء مقام الإحسان شيئًا أعلى منه، بل الإحسان مراتب، وأما الكشف الحقيقي للحقيقة فلا سبيل إليه في الدنيا ألَبَّتة.

(١) في المنار: (مستجدة).

(٢) في «غ» والمنار: (مستجدة).

(٣) كلمة (عليه) ساقطة من المنار.

والقوم يلوح لأحدهم أنوارٌ هي ثمرات الإيمان ومعاملات القلوب، وآثار الأحوال الصّادقة^(١) فيظنونها نور الحقيقة، ولا يأخذهم في ذلك لومة لائم، وإنّما هي أنوارٌ في بواطنهم ليس إلّا، وباب العصمة عن غير الرّسل مسدودٌ إلّا عمّن^(٢) اتّفتت عليه الأئمة، والله أعلم.

فصل

[منزلة البرق]

ومن أنوار: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نور البرق^(٣).

الذي يبدو للعبد عند دخوله في طريق الصّادقين وهو لامعٌ يلمع لقلبه، يشبه لامع البرق.

□ قال صاحب المنازل: «الْبَرْقُ: بَاكُورَةٌ تَلْمَعُ لِلْعَبْدِ: فَتَدْعُوهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ».

واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثِ مُوسَىٰ ﴿١﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ٩، ١٠].

وجه الاستشهاد: أنّ النّار التي رآها موسى كانت مبدأً في طريق نبوته.

و«الْبَرْقُ» مبدأً في طريق الولاية التي هي وراثه النبوة.

وقوله: «بَاكُورَةٌ»: الباكورة: هي أوّل الشّيء، ومنه باكورة الثّمار، وهو لما سبق نوعه في النّضح.

وقوله: «تَلْمَعُ لِلْعَبْدِ»؛ أي: يبدو له ويظهر «فَتَدْعُوهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ» ولم يرد طريق أهل البدايات، فإنّ تلك هي اليقظة التي ذكرها في أوّل كتابه، وإنّما أراد طريق أرباب التّوسّط والنّهيات.

وعلى هذا: فالبرق الذي أشار إليه هو برق الأحوال، لا برق الأعمال، أو برق لا سبب له من

(١) أصدق الإيمان والأحوال: إيمان وأحوال الصحابة والتابعين، وهم كانوا أهدى الناس بعد رسل الله، وبالأخص الصديق رضي الله عنه وعنهم، وأئمة الهدى كالشافعي ومالك وأحمد وإخوانهم - فما بالهم لم يكونوا يظنون هذا الظن السيئ، اللهم إنهم كانوا على صراطك الله المستقيم حقاً وصدقاً. (الفتي باختصار).

(٢) في «غ» والمنار: (عما).

(٣) في هامش نسخة المنار قال: وفي نسخة «ب»: (ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة البرق).

السَّالِكِ، إِنَّمَا هُوَ مَجْرَدٌ مُوَهَّبَةٌ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ مَا يَحْصُلُ لِأَرْبَابِ التَّوَسُّطِ وَالتَّهَيَّاتِ: أَنَّهُ أَخَذَ بَعْدَ تَعْرِيفِهِ يَفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَجْدِ.

□ فقال: «وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَجْدِ: أَنَّ الْوَجْدَ يَقَعُ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ، وَالْبَرْقُ قَبْلَهُ؛ فَالْوَجْدُ زَادٌ، وَالْبَرْقُ إِذْنٌ».

يريد: أَنَّ الْبَرْقَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، وَيَبْدِيهِ لَهُ؛ فَيُدْعُوهُ بِهِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الطَّرِيقِ، وَالْوَجْدُ هُوَ شِدَّةُ الطَّلَبِ، وَقُوَّتُهُ الْمَوْجِبَةُ لِتَأْجِيجِ اللَّهْبِ مِنَ الشُّهُودِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

و«الْوَجْدُ زَادٌ» يَعْنِي: أَنَّهُ يَصْحَبُ السَّالِكَ كَمَا يَصْحَبُهُ زَاوِي، بَلْ هُوَ مِنْ نَفَائِسِ زَاوِي. «وَالْبَرْقُ إِذْنٌ» يَعْنِي: إِذْنًا فِي السُّلُوكِ، وَالْإِذْنَ إِنَّمَا يَفْسَحُ (١) لِسَّالِكَ فِي الْمَسِيرِ لَا غَيْرِ.

□ قال: «وَهُوَ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ:

الأولى: بَرْقٌ يَلْمَعُ مِنْ جَانِبِ الْعِدَّةِ فِي عَيْنِ الرَّجَاءِ، فَيَسْتَكْثِرُ فِيهِ الْعَبْدُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَطَاءِ، وَيَسْتَقْبِلُ فِيهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِعْيَاءِ، وَيَسْتَحْلِي فِيهِ مَرَارَةَ الْقَضَاءِ».

يعني بالعدة: ما وعد الله أوليائه من أنواع الكرامة في هذه الدار وعند اللقاء.

وقوله: «يَلْمَعُ فِي عَيْنِ الرَّجَاءِ» أَي يَبْدُو فِي حَقِيقَةِ الرَّجَاءِ مِنْ أَفْقِهِ وَنَاحِيَتِهِ، فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ اسْتِكْثَارَ الْقَلِيلِ وَلَا قَلِيلَ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَطَائِهِ، وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى هَذَا الاسْتِكْثَارِ أَرْبَعَةٌ أُمُورٌ:

- أحدها: نظره إلى جلالته معطيه وعظمته.

- الثاني: احتقاره لنفسه؛ فَإِنَّ (٢) ازدرائه لها يوجب استكثار ما يناله من سيده.

- الثالث: محبته له؛ فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ إِذَا تَمَكَّنَتْ مِنَ الْعَبْدِ اسْتَكْثَرَ قَلِيلَ مَا يَنَالُهُ مِنْ مَحْبُوبِهِ.

- الرابع: أَنَّ هَذَا - قَبْلَ الْعَطَاءِ (٣) - لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلفٌ بِهِ، وَلَا اتِّصَالٌ بِالْعَطِيَّةِ، فَلَمَّا فَاجَأَتْهُ اسْتَكْثَرَهَا.

وَأَمَّا اسْتِقْلَالُهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِعْيَاءِ: وَهُوَ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ؛ فَلِأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ لَهُ بَرْقُ الْوَعُودِ مِنْ أَفْقِ الرَّجَاءِ: حَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى الْجِدِّ وَالطَّلَبِ، وَحَمَلَ عَنْهُ مَشَقَّةَ السَّيْرِ؛ فَلَمْ يَجِدْ لَذَلِكَ مِنْ مَسِّ الْإِعْيَاءِ

(١) في «غ»: (تفسح).

(٢) في «غ» والمنار: (الواو) بدل (فإن).

(٣) في «غ» (أن هذا العطاء)، والمنار: (أن هذا قبل هذا العطاء).

والنَّصَبُ ما يجده من لم يشمَّ ذلك.

وكذلك استحلاؤه في هذا البرق مرارة القضاء: وهو البلاء الَّذِي يختبر به الله بِرَبِّكَ عبادَه، ليلوهم أئهِم أصبر وأصدق، وأعظم إيمانًا ومحبةً وتوكلًا وإنابةً؟ فإذا لاح للسالك هذا البرق استحلّ فيه مرارة القضاء.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: بَرَقٌ يَلْمَعُ مِنْ جَانِبِ الوَعِيدِ فِي عَيْنِ الحَذَرِ، فَيَسْتَقْصِرُ فِيهِ العَبْدُ الطَّوِيلُ مِنَ الأَمَلِ، وَيَزْهَدُ فِي الخَلْقِ عَلَى القُرْبِ، وَيَرْغَبُ فِي تَطْهِيرِ السِّرِّ».

هذا البرق أفقه وعينه غير أفق البرق الأوّل؛ فإنّ هذا يلمع من أفق الحذر، وذاك من أفق الرّجاء؛ فإذا شام هذا البرق استقصر فيه الطّويل من الأمل، وتخيل في كلّ وقت أنّ المنية تُعافِصُه (١) وتفاجئه؛ فاشتدّ حذره من هجومها، مخافة أن تحلّ به عقوبة الله، ويحال بينه وبين الاستعتاب والتأهب للقاء؛ فيلقى ربّه قبل الطُّهر التّامّ، فلا يؤذّن له بالدُّخول عليه بغير طهارة، كما أنّه لم يؤذّن له في دار التّكليف بالدُّخول عليه للصّلاة بغير طهارة.

وهذا يذكّر العباد بالتّطهّر (٢) للموافاة والقدوم عليه، والدُّخول وقت اللّقاء لمن عقل عن الله، وفهم أسرار العبادات، فإذا كان العبد لا يدخل عليه حتّى يستقبل بيته المحرّم (٣) بوجهه، ويستر عورته، ويطهّر بدنه وثيابه، وموضع مقامه بين يديه، ثمّ يخلص له النية؛ فهكذا الدُّخول عليه وقت اللّقاء، لا يحصل إلّا بأن يستقبل ربّه بقلبه كلّه، ويستر عوراته الباطنة بلباس التّقوى، ويطهّر قلبه وروحه وجوارحه من أدناسها الظّاهرة والباطنة، ويتطهّر لله طهراً كاملاً، ويتأهب للدُّخول أكمل تأهب، وأوقات الصّلاة نظير وقت الموافاة.

فإذا تأهب العبد قبل الوقت جاءه الوقت وهو متأهب؛ فيدخل على الله، وإذا فرط في التّأهب خيف عليه من خروج الوقت قبل التّأهب؛ إذ هجوم وقت الموافاة مضيّق لا يقبل التّوسعة؛ فلا يمكن

(١) في «غ» (تغافسه)، والمنار: (تفاوضه).

(٢) في «غ»: (بالنظر).

(٣) كلمة (المحرّم): غير موجودة «غ» والمنار.

العبد من التَّطَهَّرَ والتَّأَهَّبَ عند هجوم الوقت، بل يقال له هيهات، فات ما فات، وقد بعدت بينك وبين التَّطَهَّرَ المسافات، فمن شام برق الوعيد بقصر الأمل لم يزل على طهارة!
وَأَمَّا تَزْهِيدُهُ فِي الْخَلْقِ عَلَى الْقُرْبِ وَإِنْ (١) كانوا أقاربه أو مناسبيه، أو مجاوريه وملاصقيه، أو معاشريه ومخالطيه، فلكمال حذره، واستعداده واشتغاله بما أمامه، وملاحظة الوعيد من أفق ذلك البارق الذي ليس بخُلْبٍ، بل هو أصدق بارق.
ويحتمل أن يريد بقوله: «عَنْ قُرْبٍ» أي: عن أقرب وقت؛ فلا ينتظر بزهده فيهم أملاً يؤمِّله، ولا وقتاً يستقبله.

قوله: «وَيَزَعْبُ فِي تَطْهِيرِ السَّرِّ»؛ يعني: تطهير سرِّه عمَّا سوى الله، وقد تقدَّم بيانه.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: بَرَقَ يَلْمَعُ مِنْ جَانِبِ اللَّطْفِ فِي عَيْنِ الْإِفْتِقَارِ: فَيُنْشِئُ سَحَابَ السُّرُورِ، وَيُمْطِرُ مَطَرَ الطَّرَبِ، وَيَجْرِي مِنْ نَهْرِ الْإِفْتِخَارِ».

هذا البرق يلمع من أفق ملاطفة الرَّبِّ تعالى لعبده بأنواع الملاطفات، ومطلع هذا البرق في عين الافتخار، الذي هو باب السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ تعالى، والطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْهُ، وَكُلُّ طَرِيقٍ سِوَاهُ فَمَسْدُودٌ، ومع هذا فلا يصل العبد منه إِلَّا بِالْمَتَابَعَةِ؛ فلا طريق إِلَى اللَّهِ أَلْبَتَّةَ أَبَدًا ولو تعَنَّى المتعَنُّونَ، وتمنَّى المتمنُّونَ إِلَّا الْإِفْتِقَارَ وَمَتَابَعَةَ الرَّسُولِ فَقَطْ؛ فلا يتعب السَّالِكُ نَفْسَهُ فِي (٢) غير هذه الطَّرِيقِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ، وهو صيد الوحوش والسَّبَاعِ.

قوله: «فَيُنْشِئُ سَحَابَ السُّرُورِ»: أي: ينشئ للعبد سرورًا خاصًّا وفرحًا برَّبِّه لا عهد له بمثله، ولا نظير له في الدُّنْيَا، ونفحةً من نعيم الجنَّةِ، ونسمةً من ريح شمالهم، فإذا نشأ له ذلك السَّحَابُ أَمَطَرَ عَلَيْهِ صَيْبَ الطَّرَبِ، فطرب باطنه وسرَّه لما ورد عليه من عند سيِّده ووليِّه، وإذا اشتدَّ ذلك الطَّرَبُ، جرى به نهر الافتخار، يتميِّز به عن أبناء جنسه بما خصَّه الله به.

(١) في «ع» والمنار: (أي وإن).

(٢) في المنار: (على).

وإِذَا أَنْ يَرِيدَ بِهِ: افْتِخَارُهُ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَهَذِهِ مَخِيلَةٌ مَحْمُودَةٌ^(١)، طَرِبًا وَافْتِخَارًا عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَكْرَهُ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا يَحِبُّ الْمُخْتَالَ بَيْنَ الصَّفِّينِ عِنْدَ الْحَرْبِ، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ مِرَاغِمَةِ أَعْدَائِهِ، وَيَحِبُّ الْخِيَلَاءَ عِنْدَ الصَّدَقَةِ - كَمَا جَاءَ ذَلِكَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي الْحَدِيثِ^(٢) - لَسَرٍّ عَجِيبٍ، يَعْرِفُهُ أَوْلُو الصَّدَقَاتِ وَالْبَدَلِ مِنْ نَفُوسِهِمْ عِنْدَ ارْتِيَاخِهِمْ لِلْعَطَاءِ، وَابْتِهَاجِهِمْ بِهِ، وَاخْتِيَالِهِمْ عَلَى النَّفْسِ الشَّحِيحَةِ الْأَمَّارَةَ بِالْبَخْلِ، وَعَلَى الشَّيْطَانِ الْمَزِينِ لَهَا ذَلِكَ:

(وَهُمْ يُنْفِدُونَ الْمَالَ فِي أَوَّلِ الْغِنَى
مَغَاوِيرٍ لِلْعَالِيَا مَغَابِيرٍ لِلْحَمَى
وَتَأْخُذُهُمْ فِي سَاعَةِ الْجُودِ هَزَّةٌ
وَيَسْتَأْنِفُونَ الصَّبْرَ فِي آخِرِ الصَّبْرِ
مَفَارِيحٍ لِلْعَمَى مَادَارِيكٍ لِلْوُورِ
كَمَا تَأْخُذُ الْمِطْرَابَ عَن نَزْوَةِ الْحَمْرِ)^(٣)

فهذا الافتخار من تمام العبودية.

أَوْ يَرِيدُ بِهِ: أَنَّهُ حَرِيٌّ بِالْاِفْتِخَارِ بِمَا تَمَيَّزَ بِهِ، وَلَمْ يَفْتَخِرْ بِهِ إِبْقَاءً عَلَى عِبُودِيَّتِهِ وَافْتِقَارِهِ، وَكَلَامَ الْمَعْنِينِ صَحِيحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَسُرُّ ذَلِكَ: أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَاحَظَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَطَافِ، وَشَهِدَهُ مِنْ عَيْنِ الْمَنَّةِ، وَمَحْضُ الْجُودِ شَهِدَ مَعَ ذَلِكَ فَقَرَهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ، وَعَدَمَ اسْتِغْنَاءَهُ عَنْهُ طَرَفَةً عَيْنٍ؛ فَكَانَ^(٤) ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الشُّكْرِ، وَأَسْبَابِ الْمَزِيدِ، وَتَوَالِي النَّعْمِ عَلَيْهِ.

وَكَأَمَّا تَوَالَتِ عَلَيْهِ النَّعْمُ أَنْشَأَتْ فِي قَلْبِهِ سَحَابَ السُّرُورِ، وَإِذَا انْبَسَطَتْ هَذِهِ السَّحَابُ فِي سَمَاءِ قَلْبِهِ، وَامْتَلَأَ بِهَا أَفْقُهُ^(٥) أَمْطَرَتْ عَلَيْهِ وَابِلَ الطَّرْبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ السُّرُورِ؛ فَإِنْ لَمْ يَصْبِهِ وَابِلٌ فَطُلٌّ، وَحَيْثُ يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ وَظَاهِرِهِ نَهْرُ الْاِفْتِخَارِ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَلَا فَخْرٍ، بَلْ فَرَحًا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]؛ فَالْاِفْتِخَارُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَالْاِفْتِقَارُ وَالْانْكَسَارُ فِي بَاطِنِهِ، وَلَا يَنَافِي أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.

وَتَأْمَلْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وُلْدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»^(٦)، فَكَيْفَ أَخْبَرَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنَّةِ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ افْتِخَارًا بِهِ عَلَى مَنْ دُونَهُ، وَلَكِنْ إِظْهَارًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِعْلَامًا لِلْأُمَّةِ بِقَدْرِ

(١) في «غ» والمنار: (محمولة).

(٢) تقدم ذكر هذا الحديث وتخريجه (ص ٤٧).

(٣) هذه الأبيات الثلاثة ساقطة من «غ»، ومذكورة في حاشية المنار.

(٤) في «غ» والمنار: (كان).

(٥) في «غ» والمنار: (وامتلاً أفقه بها).

(٦) رواه الترمذي في «المناقب»، باب: فضل النبي ﷺ وقال الترمذي: «حسن صحيح»، رواه ابن ماجه في «الزهد»، باب:

ذكر الشفاعة (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٧٧).

إمامهم ومتبوعهم عند الله، وعلو منزلته لديه؛ لتعرف الأمة نعمة الله عليه وعليهم؟! ويشبه هذا قول يوسف الصديق للعزیز: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ [يوسف: ٥٥]، فأخبره عن نفسه بذلك، لما كان متضمناً لمصلحة تعود على العزيز وعلى الأمة، وعلى نفسه كان حسناً، إذ لم يقصد به الفخر عليهم، فمصدر الكلمة والحامل عليها يحسنها ويهجنها، وصورته (١) واحدة.

فصل

ومنها منزلة الذوق

و«الذوق»: مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائم والمنافر، ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن، بل ولا في لغة العرب.

قال الله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وقال: ﴿ذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ [ص: ٥٧].

وقال: ﴿فَذُوقْهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس، ليدل على مباشرة المذوق (٢) وإحاطته وشموله؟! فأفاد الإخبار عن إذاقته أنه واقع مباشر غير منتظر؛ فإنَّ الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن. وفي الصحيح عنه ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا» (٣)؛ فأخبر أن للإيمان طعمًا، وأنَّ القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان، والإحسان، وحصوله للقلب ومباشرته له: بالذوق تارة، وبالطعام والشراب تارة، وبوجود الحلاوة تارة، كما قال: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ».

وقال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ» (٤).

(١) في «غ»: (وصورتها).

(٢) في المنار: (الذوق).

(٣) تقدم تخريجه (١٥٠/٢).

(٤) تقدم تخريجه (١٥٠/٢).

ولمّا نهامهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل، قال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أُطَعِمُ وَأُسْقِي» (١).
وفي لفظ: «إِنِّي أَطْلُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي».
وفي لفظ: «إِنَّ لِي مُطْعِمًا يُطْعِمُنِي، وَسَاقِيًا يَسْقِينِي».

وقد غلظ حجاب مَنْ ظنَّ أَنَّ هَذَا طَعَامٌ وَشَرَابٌ حَسْبِي لِلْفَمِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا ظَنَّهُ هَذَا الظَّانُّ (٢) لَمَا كَانَ صَائِمًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُوَاصِلًا، وَلَمَا صَحَّ جَوَابُهُ بِقَوْلِهِ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ» فَأَجَابَ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَلَوْ كَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِفِيهِ الْكَرِيمَ حَسًّا، لَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ يَقُولَ: وَأَنَا لَسْتُ أُوَاصِلُ أَيْضًا؛ فَلَمَّا أَقْرَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ: «إِنَّكَ تُوَاصِلُ» عَلِمَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَمْسِكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَكْتَفِي بِذَلِكَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْعَالِي الرُّوحَانِي، الَّذِي يَغْنِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ الْمَشْتَرَكِ الْحَسْبِيِّ.

وهذا الذوق هو الذي استدلل به هرقل على صحّة النبوة، حيث قال لأبي سفيان: «فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ؟ فَقَالَ: لَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا خَالَطَتْ حَلَاوَتُهُ بِشَاشَةَ الْقُلُوبِ» (٣).
فاستدل بما يحصل لأتباعه من ذوق الإيمان الذي [إذا] (٤) خالطت بشاشته القلوب لم يسخطه ذلك القلب أبدًا، على أنه دعوة نبوة ورسالة، لا دعوى ملك ورياسة.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان، أمر يجده القلب، تكون نسبتته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى إلفة النفس؛ كما قال النبي ﷺ: «حَتَّى تَذُوقِي عُسْبَتَهُ، وَيَذُوقِي عُسْبَتِكَ» (٥) فلإيمان طعم وحلاوة يتعلّق بهما ذوقٌ ووجدٌ، ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب (٦) إلّا إذا وصل العبد إلى هذه الحال، فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته، والله الموفق (٧).

(١) رواه البخاري في «الصوم»، باب: بركة السحور من غير إيجاب (١٩٦٢)، (١٩٦٤)، ومسلم في «الصيام»، باب: النهي عن الوصال في الصوم (١١٠٢)، (١١٠٥)، (١٩٦٣).

(٢) جملة (هذا الظان): ساقطة من «غ» وفي المنار سقطت كلمة «الظان».

(٣) رواه البخاري في «بدء الوحي» (٧)، ورواه مسلم في «الجهاد»، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعو إلى الإسلام (١٧٧٣).

(٤) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي ومثبت من نسخة «غ» والمنار لمناسبته.

(٥) رواه البخاري في «الطلاق»، باب: من أجاز طلاق الثلاثة (٢٦٣٩)، ورواه مسلم في «النكاح»، باب: نكاح المحلل وما أشبهه (١٤٣٣).

(٦) جملة (عن القلب): ساقطة من «غ» والمنار.

(٧) جملة (والله الموفق): غير موجودة في «غ» والمنار.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ الذُّوقِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: ٤٩].».

في تنزيل هذه الآية على الذوق صعوبة، والذي يظهر - والله أعلم - أن الشيخ أراد أن الذوق مقدمة الشراب، كما أن التذکر مقدمة المعرفة، ومنه يدخل إلى مقام الإيمان والإحسان؛ فإنه إذا تذکر أبصر الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الأعراف: ٢١]، فالتذکر يوجب التبصّر، فيكون له الإيمان بعد التبصّر ذوقاً وعياناً.

ولهذا قال بعده: ﴿وَإِنَّ لِّلْمُنْتَقِينَ لِحُسْنِ مَتَابٍ﴾ ﴿٤٩﴾ جَدَّتْ عَدْنٌ ﴿[ص: ٤٩، ٥٠] فالتذکر بهذا الذکر، الذي قصه الله تعالى يشهد صاحبه الإيمان بالمعاد، وما أعد الله لأولياته عند لقائه، فيصير إيمانهم بذلك ذوقاً، لا خبراً محضاً؛ لأنه نشأ عن تذکرهم بذكره سبحانه، وتأملهم حقائقه وأسراره، وما فيه من الهدى والبيان، فالتذکر سبب الذوق، والله سبحانه أعلم.

فصل

□ قال: «وَالذُّوقُ أَبْقَى مِنَ الْوُجْدِ، وَأَجْلَى مِنَ الْبُرْقِ.».

يريد به: أن منزلة الذوق أثبت وأرسخ من منزلة الوجد؛ وذلك لأن أثر الذوق يبقى في القلب، ويطول بقاؤه، كما يبقى أثر ذوق الطعام والشراب في القوة الدائقة، ويبقى على البدن والروح، فإن الذوق مباشرة كما تقدم، والوجد عند الشيخ: لهيب يتأجج من شهود عارض مقلق، فهو عنده من العوارض، كالهيمان والقلق، فإنه ينشأ من مكاشفة لا تدوم؛ فلذلك جعله أبقى من الوجد. وأما قوله: «وَأَجْلَى مِنَ الْبُرْقِ» فإن البرق أسرع انقضاءً، وكشفه دون كشف الذوق، وهذا صحيح.

ولكن جعله الذوق أبقى من الوجد وأعلى منه في نظر، وقد يقال: إن النبي ﷺ جعل الوجد فوق الذوق وأعلى منزلة منه، فإنه قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»^(١) الحديث، وقال

(١) تقدم تخريجهما (١٥٠/٢).

في الذوق: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ»، فوجد حلاوة الشيء المذوق أخص من مجرد ذوقه، ولما كانت الحلاوة أخص من الطعم قرن بها الوجد الذي هو أخص من مجرد الذوق؛ فقرن الأخص بالأخص، والأعم بالأعم.

وليس المراد بوجد حلاوة الإيمان الوجد الذي هو لهيب القلب؛ فإن ذلك مصدر وجد بالشيء وجدًا، وإنما هو من الوجود الذي هو الثبوت؛ فمصدر هذا الفعل الوجود والوجدان، فوجد الشيء يجده وجدانًا إذا حصل له وثبت، كما يجد الفاقد الشيء الذي بعد منه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ يَجِدُ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [١] و﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [٢] و﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [٣] [الضحى: ٦].

وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

فهذا كله من الوجود والثبوت، وكذلك قوله ﷺ: «وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ».

فوجدان الشيء: ثبوته واستقراره، ولا ريب أن ذوق طعم الإيمان وجدان له؛ إذ يمتنع حصول هذا الذوق من غير وجدان، ولكن اصطلاح كثير من القوم على أن الذائق أخص من الواجد، فكأنه شارك الواجد في الحصول، وامتاز عنه بالذوق؛ فإنه قد يجد الشيء ولا يذوقه الذوق التام.

وهذا ليس كما قالوه، بل وجود هذه الحقائق للقلب ذوق لها وزيادة، وثبوت واستقرار،

والله ﷻ أعلم.

فصل

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: ذَوْقُ التَّصَدِيقِ طَعْمَ الْعِدَّةِ، فَلَا يَعْقِلُهُ ظَنٌّ، وَلَا يَقْطَعُهُ أَمَلٌ، وَلَا تَعُوقُهُ أُمْنِيَّةٌ».

يريد: أن العبد المصدق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته، ثبت على حكم الوعد واستقام.

«فَلَمْ يَعْقِلْهُ ظَنٌّ» أي: لم يحبس ظنًّا، تقول: عقلت فلانًا عن كذا؛ أي: منعته عنه وصددته، ومنه عقال البعير، لأنه يحبس عن الشرود، ومنه: العقل؛ لأنه يحبس صاحبه عن فعل ما لا يحسن

ولا يجمل، ومنه: عقلت الكلام، وعقلت معناه: إذا حبسته في صدرك وحصلته في قلبك، بعد أن لم يكن حاصلًا عندك، ومنه: العقل للذية؛ لأنها تمنع أخذها من العدوان على الجاني وعصيته. والمقصود: أن ذوق طعم الإيمان بوعده الله يمنع الذائق أن يحبسه ظنُّ عن الجِدِّ في الطُّلب، والسَّير إلى ربِّه^(١)، والظنُّ هو الوقوف عن الجزم بصحة الوعد والوعيد، بحيث لا يترجَّح عنده جانب التصديق.

وكأنَّ الشَّيخ يقول: الذائق بالتصديق طعم الوعد، لا يعارضه ظنُّ يعقله عن صدق الطُّلب، ويحبس عزمته عن الجِدِّ فيه وفي حديث سيِّد الاستغفار قوله: «وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»^(٢) أي: مقيمٌ على التصديق بوعدهك، وعلى القيام بعهدك، بحسب استطاعتي.

والحامل على هذه الإقامة والثبات: ذوق طعم الإيمان، ومباشرته للقلب، ولو كان الإيمان مجازًا لا حقيقة لم يثبت القلب على حكم الوعد، والوفاء بالعهد، ولا يفيد في هذا المقام إلا ذوق طعم الإيمان، وثوب العارية لا يجمل لابسها، ولا سيِّما إذا عرف النَّاس أنَّه ليس له، وأنه عاريةٌ عليه، كما قيل:

ثُوبُ الرِّيَاءِ يَشْفُ عَمَّا تَحْتَهُ
فَإِذَا اسْتَمَلْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِي

وكان بعض الصحابة يكثر التلبية في إحرامه، ثم يقول لبيك، لو كان رياءً لاضمحلَّ وقد نفى الله تعالى الإيمان عمَّن ادَّعاه، وليس له فيه ذوق، فقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهؤلاء مسلمون، وليسوا بمؤمنين؛ لأنهم ليسوا ممَّن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام، وليس هؤلاء كفارًا؛ فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] ولم يرد: قولوا بألستكم، من غير مواطأة القلب؛ فإنه فرق بين قولهم آمنًا وقولهم أسلمنا، ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾. ووعدهم ﷺ مع ذلك على طاعتهم ألا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الريب لأن الإيمان قد باشر قلوبهم، وخالطتها^(٣) بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضعٌ.

(١) في «غ»: (الجد في السير والطلب إلى ربه).

(٢) تقدم تخريجه (١/١٥٠).

(٣) في «غ» والمنار: (وخالطها).

وصدَّق ذلك الذوق: بذلهم أحبَّ شيءٍ إليهم في رضا ربِّهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته؛ فإنَّ ذلك إنَّما يحصل (١) بصدق (٢) الذوق والوجد.

كما قال الحسن: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالْتَّمَنِّي وَلَا بِالْتَّحَلِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْعَمَلُ». فالذوق والوجد أمرٌ باطنٌ، والعمل دليلٌ عليه ومصدِّقٌ له، كما أنَّ الرِّيب والشكَّ والتَّفَاقُ أمرٌ باطنٌ، والعمل دليلٌ عليه ومصدِّقٌ له؛ فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد؛ فاليقين يثمر الجهاد، ومقامات الإحسان، فعلى حسب قوَّته تكون ثمرته ونتيجته، والرِّيب والشكُّ يثمر الأعمال المناسبة له، وبالله التَّوفيق.

قوله: «وَلَا يَقْطَعُهُ أَمَلٌ» أي: من علامات الذوق: ألاَّ يقطع صاحبه عن طلبه أمر دنيا، وطمعٌ في غرضٍ من أغراضها فإنَّ الأمل والطَّمع يقطعان طريق القلب في سيره إلى مطلوبه.

ولم يقل الشيخ: إنَّه لا يكون له أمل، بل قال: «لَا يَقْطَعُهُ أَمَلٌ»، فإنَّ الأمل إذا قام به ولم يقطعه لم يضره، وإن عَوَّق سيره بعض التَّعويق، وإنَّما البلاء في الأمل القاطع للقلب عن سيره إلى الله. وعند الطائفة أن كلَّ ما سوى الله، فإرادته أملٌ قاطعٌ، كائنًا ما كان، فمَن كان ذلك أمله، ومنتهى طلبه فليس من أهل ذوق الإيمان؛ فإنَّه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب منه، والأنس به لم يكن له أملٌ في غيره، وإن تعلَّق أمله بسواه، فهو لإعانتة على مرضاته ومحابَّته، فهو يؤمِّله لأجله، لا يؤمِّله معه. فإن قلت: فما الَّذي يقطع به العبد هذا الأمل؟

قلت: قوَّة رغبته في المطلب الأعلى، الَّذي ليس شيءٌ أعلى منه، ومعرفته بخسَّة ما يؤمِّل دونه، وسرعة ذهابه، فيوشك انقطاعه، وأنَّه في الحقيقة كخيال طيفٍ، أو سحابة صيفٍ، فهو ظلٌّ زائلٌ، ونجمٌ قد تدلَّى للغروب، فهو عن قريبٍ أقلُّ.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا أَنَا كَرَائِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (٣). وقال: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي النَّيْمِ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟!» (٤).

(١) جملة (إنما يحصل): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (يصدق).

(٣) رواه الترمذي في «الزهد» (٤٤)، وقال الترمذي: «حسن صحيح ورواه ابن ماجه في «الزهد»، باب: مثل الدنيا (٤١٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٧).

(٤) رواه مسلم في «الجنة وصفة نعيمها»، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨)، والترمذي في «الزهد»، باب (١٥).

فشبه الدنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلبل حين تغمس في البحر. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا مِنْ أَوْلَاهَا إِلَى آخِرِهَا أَوْ تَيْهَا رَجُلٌ، ثُمَّ جَاءَهُ الْمَوْتُ لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسْرُهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ فَإِذَا لَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ». وقال مطرف بن عبد الله أو غيره: «نَعِيمُ الدُّنْيَا بِحَدَافِيرِهِ فِي جَنبِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ: أَقْلٌ مِنْ ذَرَّةٍ فِي جَنبِ جِبَالِ الدُّنْيَا».

ومن حدّق عين بصيرته في الدنيا والآخرة علم أن الأمر كذلك. فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقيق عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟! فضلاً عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] فيسير من رضوانه - ولا يقال له يسير - أكبر من الجنات وما فيها. وفي حديث الرؤية: «قَوْلَ اللَّهِ مَا أَعْطَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيَّ وَجْهِهِ» (١). وفي حديث آخر: «إِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيَّ شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ حَتَّى يَتَوَارَى عَنْهُمْ» (٢).

فمن قطعه عن هذا أمل، فقد فاز بالحرمان، ورضي لنفسه بغاية الخسران، والله المستعان، وعليه التكلان، وما شاء الله كان. قوله: «وَلَا تَعُوذُ أُمْنِيَّةٌ».

الأمنية: هي ما يتمناه العبد من الحظوظ، وجمعها أمان، والفرق بينها وبين الأمل: أن الأمل يتعلّق بما يرجى وجوده، والأمنية قد تتعلّق بما لا يرجى حصوله، كما يتمنى العاجز المراتب العالية. والأمانى الباطلة هي رءوس أموال المفاليس، بها يقطعون أوقاتهم ويلتذون بها كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيلات الباطلة. وفي الحديث المرفوع: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ» (٣).

(١) تقدم تخريجه (١٦٢/٢).

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٤) بلفظ مقارب، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٣).

(٣) رواه الترمذي في «صفة القيامة»، باب (٢٥)، وقال: «حديث حسن»، ورواه ابن ماجه في «الزهد»، باب: ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٩٣٠).

ولا يرضى بالأمانى عن الحقائق^(١) إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة، كما قيل:
 وَأَتْرَكَ مُنَى النَّفْسِ لَا تَحْسَبُهُ يُشْبِعُهَا إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِسِ
 وأمنية الرجل تدل على علو همته وخستها؛ وفي أثر إلهي: «إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما
 أنظر إلى همته».

والعامّة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه.
 والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: ذَوْقُ الْإِرَادَةِ طَعْمَ الْأَنْسِ، فَلَا يَعْلُقُ بِهِ شَاغِلٌ، وَلَا يُفْسِدُهُ
 عَارِضٌ، وَلَا تُكَدِّرُهُ تَفْرِقَةٌ».

الإرادة: وصف المرید، والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها: أن الأولى وصف حال العابد
 الذي ذاق بتصديقه طعم وعد الربِّ ﷻ، فجدَّ في العبادة وأعمال البرِّ، لثقتة بالوعد عليها، وصاحب
 هذه الدرجة ذاق إرادته طعم الأنس؛ فهي حال المرید.

ولهذا علق حال صاحب الدرجة الأولى بالوعد الجميل، وعلق حال صاحب هذه الدرجة^(٢):
 بالأنس بالله، والأنس به سبحانه أعلى من الأنس بما يريه العابد من نعيم الجنة، فإذا ذاق المرید طعم
 الأنس جدَّ في إرادته، واجتهد في حفظ أنسه، وتحصيل الأسباب المقوية له.
 «فَلَا يَعْلُقُ بِهِ شَاغِلٌ»: أي لا يتعلَّق به شيء يشغله عن سلوكه وسيره إلى الله، لشدة طلبه الباعث
 عليه أنسه، الذي قد ذاق طعمه، وتلذذ بحلاوته.

والأنس بالله: حالة وجدانية، وهي من مقامات الإحسان، تقوى بثلاثة أشياء: دوام الذكر،
 وصدق المحبة، وإحسان العمل.

وقوة الأنس وضعفه على حسب قوة القرب، فكلمًا كان القلب من ربِّه أقرب، كان أنسه به
 أقوى، وكلمًا كان منه أبعد كانت الوحشة بينه وبين ربِّه أشدَّ.

(١) في «غ» والمنار: (من الحقائق).

(٢) كلمة (الدرجة): غير موجودة «غ» والمنار.

قوله: «وَلَا يُفْسِدُهُ عَارِضٌ».

العارض المفسد: هو الذي يعذل المحبَّ، ويلومه على النَّشاط في رضا محبوبه وطاعته، ويدعوه إلى الالتفات إليه، والوقوف معه دون مطلبه العالي، فهو كالذي يجيء عرضاً يمنع المارَّ في طريقه عن المرور، ويلفته عن جهة مقصده إلى غيرها.

وهذا العارض عند القوم: هو إرادة السَّوى؛ فإنَّ كلَّ ما سوى الله فهو عارضٌ، وإرادة السَّوى توقف السَّالك، وتنكُّس الطَّالِب، وتحجب الواصل؛ فإنَّك وإرادة السَّوى وإن علا؛ فإنَّك تحجب عن الله بقدر إرادتك لغيره، قال تعالى إخباراً عن عباده المقربين: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩، ٢٠].

قوله: «وَلَا تُكَدِّرُهُ تَفْرِقَةٌ».

الكدر: ضدُّ الصَّفَاء، والتَّفْرِقَة: ضدُّ الجمعيَّة، والجمعيَّة: هي جمع القلب والهمَّة على الله بالحضور معه بحال الأنس، خاليًا من تفرقة الخواطر، والتَّفْرِقَة من أعظم مكدِّرات القلب، وهي تزيل الصَّفَاء الَّذِي أثمره له الإسلام والإيمان والإحسان، فإنَّ القلب يصفو بذلك، فتجيء التَّفْرِقَة، فتكدِّر عليه ذلك الصَّفَاء، وتشعث القلب، فيجد الصادق ألم ذلك الشعث وأذاه، فيجتهد في لممه، ولا يَلْمُ شعث القلوب بشيء غير الإقبال على الله والإعراض عمَّا سواه، فهناك يلمُّ شعثه، ويزول كدره، ويصحُّ سفره، ويجد روح الحياة، ويدوق طعم الحياة الملكيَّة.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ النَّالِيَةُ: ذَوْقُ الْإِنْقِطَاعِ طَعْمِ الْإِتِّصَالِ، وَذَوْقُ الْهِمَّةِ طَعْمِ الْجَمْعِ،

وَذَوْقُ الْمَسَامَرَةِ طَعْمِ الْعَيَانِ».

الفرق بين هذه الدَّرَجَة، والتي قبلها: أنَّ تلك بقاءً مع الأحوال، وهذه الدَّرَجَة خروجٌ وفناءٌ عن الأحوال؛ فإنَّ المتمكِّن في حال فئائه عن الأسباب أعمالاً كانت، أو أحوالاً هو الَّذِي يجد طعم الاتِّصال حقيقةً؛ فإنَّه على حسب تجرُّده عن الالتفات إلى الأسباب يكون اتِّصاله، وعلى حسب التفاته إليها يكون انقطاعه، وكلِّما تمكَّن في جمع همِّه على الحقِّ سبحانه، وجد لذَّة الجمع عليه، وذاق طعم

القرب منه والأنس به.

فالانقطاع عند القوم: هو أنس القلب بغيره تعالى، والاتفات إلى ما سواه.
والاتّصال: تجريد التعلُّق به وحده؛ والانقطاع عمّا سواه بالكلّيّة.
إذا عرفت هذا؛ فلنرجع إلى تفسير كلامه.

فقوله: «ذَوْقُ الْإِنْقِطَاعِ طَعْمُ الْإِتِّصَالِ» استعارة، وإلّا فالذائق هو صاحب الانقطاع، لا نفس الانقطاع؛ فإنّه هو الذي ذاق الانقطاع والاتّصال، وبالجمله فالمراد أنّ المنقطع هو المحجوب، والمتّصل هو المشاهد بقلبه، المكاشف بسرّه.
وأحسن من التعبير بالاتّصال: التعبير بالقرب؛ فإنّها العبارة السديده^(١) التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام.

وأما التعبير بالوصل والاتّصال: فعبارة غير سديده؛ يتشبّث بها الزنديق الملحد، والصّدّيق الموحد، فالموحد يريد بالاتّصال القرب، وبالفصال والانقطاع البعد، والملحد يريد به الحلول تارة والاتّحاد تارة.

حتّى قال بعض هؤلاء: المنقطع ليس في الحقيقة منقطعاً، بل لم يزل متّصلاً، لكنّه كان غائباً عن المشاهدة، فلمّا شاهد وجد نفسه لم يكن منقطعاً، بل لم يزل متّصلاً.

قال: وليس قولنا: «لَمْ يَزَلْ مُتَّصِلاً» بسديده؛ فإنّ الاتّصال لا يصحّ إلا بين اثنين؛ فلا المحجوب منقطعاً، ولا المكاشف متّصلاً، وإنّما هي عبارات للتقريب والتّفهيم، وأنشد في ذلك:

مَا بَالُ عَيْسِكَ لَا يَقْرَأُ قَرَأَهَا وَإِلَامَ ظِلِّكَ لَا يَنْبِي مُتَنَقِّلاً
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ سَيْرِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَيْكَ إِذَا بَلَغْتَ الْمُنْزِلَا

وبإزاء هؤلاء طائفة غلظ حجابهم، وكثفت أرواحهم عن هذا الشأن؛ فزعموا أنّ القرب والبعد والأنس ليس له حقيقة تتعلّق بالخالق سبحانه، وإنّما ذلك القرب من داره وجنّته بالطّاعات، وأنس القلب بما وعد عليها من الثواب، والبعد ضدّ ذلك، لأنّ العبد لا يقرب من ربّه، ولا يبعد عنه^(٢)، ولا يأنس به، وصرّحوا بأنّه لا يريده ولا يحبّه؛ فلا يصحّ تعلق الإرادة والمحبة به، فسار هؤلاء مغرّبين، وسار أولئك مشرّقين، كما قيل:

سَارَتْ مُشْرِقَةً وَسِيرَتْ مُغْرَبًا شَتَانٌ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ

(١) كلمة (السديده): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (منه).

ومصباح الموحّد السالك على درب الرّسول وطريقه يتوقّد: ﴿ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ﴾ [النور: ٣٥].

قوله: «وَذَوْقُ الْهَمَّةِ طَعْمُ الْجَمْعِ» جعل الهمة ذائقةً: وإنما الذوق لصاحبها، توسّعاً. و«الهمة» قد عبّر عنها الشيخ فيما تقدّم بأنها «مَا يَمْلِكُ الْإِنْبِعَاتِ إِلَى الْمَقْصُودِ صِرْفًا» أي حالة وصفيّة لها سطوة وملكّة، تحمل صاحبها على المقصود، وتبعثه عليه بعثاً لا يخالطه غيره. فالهمة عندهم: طلب الحقّ، من غير التفاتٍ إلى غيره، والجمع شهود الفردانيّة التي تفتنى فيها رسوم المشاهد، وهذا جمع في الربوبية.

وأعلى منه: الجمع في الألوهية وهو جمع قلبه وهمّه وسرّه على محبوبه ومراضيه ومراده منه، فهو عكوف القلب بكليّته على الله ﷻ، لا يلتفت عنه يمنةً ولا يسرةً؛ فإذا ذاق الهمة طعم هذا الجمع اتّصل اشتياق صاحبها، وتأجّجت نيران المحبّة والطلب في قلبه، ويجد صبره عن محبوبه من أعظم كباتره؛ كما قيل:

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمُواطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

وقد تقدّم ذكر الأثر الإلهي: «إِنِّي لَا أَنْظُرُ إِلَى كَلَامِ الْحَكِيمِ؛ وَإِنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى هِمَّتِهِ». فله همة نفسٍ قطعت جميع الأكوان، وسارت فما ألفت عصا السير إلا بين يدي الرّحمن تبارك وتعالى، فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه، فلم تزل ساجدةً حتّى قيل لها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

فسبحان من فاوت بين الخلق في همهم، حتّى ترى بين الهمتين أبعد ما بين المشرقين والمغربيين، بل أبعد ممّا بين أسفل سافلين وأعلى عليّين، وتلك مواهب العزيز الحكيم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

قوله: «وَذَوْقُ الْمَسَامَرَةِ طَعْمُ الْعِيَانِ» مرادهم بالمسامرة: مناجاة القلب ربّه، وإن سكت اللسان، فلذّة استيلاء ذكره تعالى ومحبّته على قلب العبد، وحضوره بين يديه، وأنسه به، وقربه منه، حتّى يصير كأنّه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارةً، ويتملّقه تارةً، ويشني عليه تارةً، حتّى يبقى القلب ناطقاً بقوله: «أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»، من غير تكلفٍ له بذلك بل يبقى هذا حالاً له ومقاماً، ولا ينكر وصول القوم إلى هذا؛ فقد قال النبي ﷺ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١)، فإذا بلغ في مقام الإحسان

(١) تقدم تخريجه (١٤٧/٢).

بحيث يكون (١) كأنه يرى الله سبحانه؛ فهكذا مخاطبته ومناجاته له.
 لكنَّ الأولى العدول عن لفظ المسامرة إلى المناجاة، فإنَّه اللَّفْظ الَّذِي اختاره رسول الله ﷺ في هذا، وعبر به عن حال العبد بقوله: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ» (٢).
 وفي الحديث الآخر: «كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ» (٣).
 فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ، فإنَّها معصومة، وصادرة عن معصوم، والإجمال والإشكال في اصطلاحات القوم (٤) وأوضاعهم، وبالله التَّوفيق (٥).

فصل

ومن ذلك منزلة «اللَّحْظُ»

□ قال شيخ الإسلام: «(بَابُ اللَّحْظِ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقْرَمَ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]».

قلت: يريد -والله أعلم- بالاستشهاد بالآية: أن الله سبحانه أراد أن يري موسى ﷺ من كمال عظمته وجلاله ما يعلم به أن القوة البشرية في هذه الدار لا تثبت لرؤيته ومشاهدته عياناً لصيرورة الجبل دكاً عند تجلي ربه سبحانه أدنى تجلٍ.

كما رواه ابن جرير في «تفسيره» من حديث حماد بن سلمة: أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ: «﴿فَلَمَّا نَجَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قَالَ حَمَّادٌ: «هَكَذَا» وَوَضَعَ الْإِبْهَامَ عَلَى مِفْصَلِ الْخِنْصِرِ الْأَيْمَنِ فَقَالَ حُمَيْدٌ لِثَابِتٍ: أَتَحَدَّثُ بِمِثْلِي هَذَا؟ فَضَرَبَ ثَابِتٌ صَدْرَ حُمَيْدٍ ضَرْبَةً بِيَدِهِ، وَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ بِهِ وَأَنَا لَا أُحَدِّثُ بِهِ! (٦). رواه الحاكم في «صحيحه» وقال: «هُوَ عَلَيَّ شَرْطٌ مُسْلِمٍ». وهو كما قال.

(١) كلمة (يكون): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) رواه البخاري في «المساجد»، باب: حك البزاق باليد من المسجد برقم (٤١٦)، ورواه مسلم في «المساجد»، باب: النهي عن البزاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥١).

(٣) رواه أحمد (٣٦/٢، ٩٤/٣)، وأبو داود في الصلاة، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (١٣٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١١٨٣).

(٤) في «غ» والمنار: (الناس).

(٥) هنا انتهى المجلد الثاني من نسخة «غ».

(٦) «تفسير الطبري» بتحقيق أحمد شاکر (٩٩/١٣).

والمقصود: أَنَّ الشَّيْخَ اسْتَشْهَدَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي بَابِ اللَّحْظِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَمْرَ مُوسَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ حِينَ تَجَلَّى لَهُ رَبُّهُ، فَرَأَى أَثَرَ التَّجَلِّيِّ فِي الْجَبَلِ دَكًّا؛ فَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا.

قَالَ الشَّيْخُ: «اللَّحْظُ: لَمَحُّ مُسْتَرْقٍ» الصَّوَابُ قِرَاءَةُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى الصِّفَةِ بِالتَّخْفِيفِ، فوصف اللَّمَحُ بِأَنَّهُ مُسْتَرْقٌ كَمَا يُقَالُ: سَارَقَتَهُ النَّظْرُ، وَهُوَ لَمَحٌ بِخَفِيَّةٍ، بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهِ الْمَلْمُوحُ.

وَلِهَذَا الْاِسْتِرَاقُ أَسْبَابٌ: مِنْهَا: تَعْظِيمُ الْمَلْمُوحِ وَإِجْلَالُهُ، فَالنَّظْرُ يَسَارِقُهُ النَّظْرُ، وَلَا يَحْدُ نَظْرَهُ إِلَيْهِ إِجْلَالًا لَهُ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَحْدُونُ النَّظْرَ إِلَيْهِ إِجْلَالًا لَهُ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: «لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ لَكُمُ لَمَّا قَدَرْتُ، لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ»^(١).

ومنها: خوف اللامح سطوته.

ومنها: محبته.

ومنها: الحياء منه.

ومنها: ضعف القوة الباصرة عن التحديق فيه، وهذا السبب هو السبب الغالب في هذا الباب.

ويجوز أن تقرأ^(٢) بكسر الراء وتشديد القاف؛ أي نظرًا يسترقُّ صاحبه؛ أي: يأسر قلبه ويجعله رقيقًا؛ أي: عبدًا مملوكًا للمنظور إليه، لما شاهد من جماله وكماله، فاسترقَّ قلبه؛ فلم يكن بينه وبين رقه له إلا مجرد وقوع لحظه عليه.

فهكذا صاحب هذه الحال إذا لاحظ بقلبه جلال الربوبية، وكمال الرب سبحانه، وكمال نعوته، ومواقع لطفه وفضله وبره وإحسانه استرقَّ قلبه له وصارت له عبودية خاصة.

□ قال: «وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: مُلَاحَظَةُ الْفَضْلِ سَبْقًا، وَهِيَ تَقْطَعُ طَرِيقَ السُّؤَالِ، إِلَّا مَا

اسْتَحَقَّتْهُ الرَّبُّوبِيَّةُ مِنْ إِظْهَارِ التَّدَلُّلِ لَهَا، وَتَنْبِتِ السُّرُورِ، إِلَّا مَا يَشُوبُهُ مِنْ حَذَرِ

الْمُكْرِ، وَتَبَعَتْ عَلَى الشُّكْرِ إِلَّا مَا قَامَ بِهِ الْحَقُّ بِعِبَادَتِكَ مِنْ حَقِّ الصِّفَةِ».

الشَّيْخُ عَادَتُهُ فِي كُلِّ بَابٍ أَنْ يَقُولَ: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ». وَقَالَ هَاهُنَا: «وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ

وذكره شاكر في الطبري في «الأثر» (١٥٠٨٨)، وقال: «رواه الحاكم في «المستدرک» (٣٢٠/٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح لا علة فيه.

(١) رواه مسلم في «الإيمان»، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، وهو جزء من حديث طويل (١٢٢)، ورواه أحمد (١٩٨/٤).

(٢) في المنار: يقرأ.

عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ» فعين هذا الباب هنا دون غيره من الأبواب؛ لأنّ اللّحظ مشتركٌ بين لِحظِّ البصر ولِحظِّ البصيرة، والشّيخ إنّما أراد هاهنا هذا الثاني دون الأوّل؛ فإنّ كلامه فيه خاصّةً.

وهو لمّا صدرَ بالآية والأمر بالنّظر فيها إنّما توجّه إلى الأمر بنظر العين، استدرك كلامه، وقال: اللّحظ الّذي نشير إليه في هذا الباب ليس هو لِحظِّ العين، والله أعلم.

قوله: «مُلاحِظَةُ الْفَضْلِ سَبَقًا» الفضل: هو العطاء الإلهي، و«السَّبَقُ» هو ما سبق له بالتقدير قبل خروجه إلى الدّنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنبياء: ١٦١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصفات: ١٧١ - ١٧٣] وهذا الكلام يفسر على معنيين:

- أحدهما: أنّ العبد إذا رأى ما قدّره الله له قد سبق به تقديره فهو واصلٌ إليه لا محالة، ولا بدّ أن يناله سكن جأشه، واطمأن قلبه، ووطن نفسه، وعلم: أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّه ما يفتح الله له وللنّاس^(١) من رحمةٍ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فإذا تيقن ذلك، وذاق طعم الإيمان به قطع ذلك عليه طريق الطّلب من ربّه؛ لأنّ ما سبق له به القدر كائنٌ واصلٌ لا محالة.

ثمّ استدرك الشّيخ: أنّ العبد لا بدّ له من سؤال ربّه، والطّلب منه، فقال: «إِلَّا مَا اسْتَحَقَّتْهُ الرُّبُوبِيَّةُ مِنْ إِظْهَارِ التَّدَلُّلِ لَهَا»؛ أي: لا يعتقد أنّ سؤاله وطلبه يجلب له ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره؛ فإنّ القدر السّابق قد استقرّ بوصول المقدور إليه، سأله أو لم يسأله، ولكن يكون سؤاله على وجه التّدلّل وإظهار فقر العبوديّة وذلّها بين يدي عزّ الرُّبُوبِيَّةِ.

فإنّ الرّبَّ سبحانه يحبُّ من عبده أن يسأله ويرغب إليه؛ لأنّ وصول برّه وإحسانه إليه موقوفٌ على سؤاله، بل هو المتفضّل به ابتداءً بلا سببٍ من العبد، ولا توسط سؤاله وطلبه، بل قدّر له ذلك الفضل بلا سببٍ من العبد، ثمّ أمره بسؤاله والطّلب منه، وإظهارًا لمرتبة العبوديّة والفقر والحاجة، واعترافًا بعزّ الرُّبُوبِيَّةِ، وكمال غنى الرّبِّ، وتفردّه بالفضل والإحسان، وأنّ العبد لا غنى له عن فضله طرفه عين، فيأتي بالطّلب والسؤال إتيان من يعلم أنّه لا يستحقُّ بطلبه وسؤاله شيئًا.

ولكنّ ربّه تعالى يحبُّ أن يسأل، ويرغب إليه، ويطلب منه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

(١) كلمة (وللنّاس): ساقطة من «غ» والمنار.

وَلْيَوْمُنَا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال النبي ﷺ: «لَيْسَ أَلْحَدُكُمْ رَبَّهُ كُلُّ شَيْءٍ، حَتَّى شِئْتَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُسِّرْهُ لَمْ يَتَسَّرْ» (١).

وقال: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» (٢).

(وروى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ) (٣) قال: «سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَافِيَةِ» (٤).

وقال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِهِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَيُؤَمِّنَ رُوعَاتِكُمْ» (٥).

وقال: «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ بِهَا أَحَدٌ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ حَاجَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا». قالوا: إذن نكثر يا رسول الله؟ قال: «فَاللَّهُ أَكْثَرُ» (٦).

وقال «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ» (٧).

(١) تقدم تخريجه (٣٠٧/٢) كجزء من حديث، أما كونه حديثاً مستقلاً فقد ضعفه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (١٣٤/٢).

(٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة «غ» والمنار.

(٤) رواه الترمذي (٣٥٦٦) دون نصفه الأخير، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٢٧٨).

(٥) قال العراقي في «تخريج إحياء علوم الدين»: «أخرجه الترمذي الحكيم في «النوادر» والطبراني في «الأوسط»، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»، واختلف في إسناده (٣٣٥/١)». اهـ. وذكره الهيثمي بلفظ آخر في «المجمع» (٢٣١/١)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» بنحوه وفيه من لم أعرفهم.

(٦) رواه الترمذي بنحوه في «الدعاء»، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، وأورده الهيثمي في «المجمع» وقال: «ورواه أحمد والبزار وقال: رجل أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة (١٥١/١٠).

(٧) رواه الترمذي في «الدعوات»، باب: ما جاء في فضل الدعاء وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمران القطان، ورواه ابن ماجه في «الدعاء»، باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٨٧).

وقال تعالى^(١) في الحديث القدسي فيما رواه مسلم عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «يا عبادي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ!
يا عبادي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ!
يا عبادي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ!
يا عبادي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا أَبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»^(٢).

وقال ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ، فَمَنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(٣).
وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ عَلِمْتُ أَنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ».

وفي هذا يقول القائل:

لَوْ لَمْ تُرِدْ بَدَلُ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ جُودِ كَفِّكَ مَا عَوَّدْتَنِي الطَّلْبَا

والله ﷻ يحبُّ تذلل عبده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم إليه،
وعياذهم به منه، وفرارهم منه إليه، كما قيل:

قَالُوا أَتَشْكُو إِلَيْهِ مَا لَيْسَ يَخْفَى عَلِيهِ
فَقُلْتُ رَبِّي يَرْضَى ذُلَّ الْعَبِيدِ لَدَيْهِ

وقال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ إِسْحَاقَ عَنْ مَطْرَفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٤) قَالَ:
«تَذَاكُرْتُ مَا جَمَاعُ الْخَيْرِ؛ فَإِذَا الْخَيْرُ كَثِيرٌ: الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَإِذَا هُوَ فِي يَدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا أَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَيَّ مَا فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَسْأَلَهُ فَيُعْطِيكَ؛ فَإِذَا جَمَاعُ الْخَيْرِ الدُّعَاءُ».

* وفي هذا المقام غلط طائفتان من النَّاسِ:

طائفةٌ ظنَّتْ أَنَّ الْقَدْرَ السَّابِقَ يَجْعَلُ الدُّعَاءَ عَدِيمَ الْفَائِدَةِ.

- قالوا: فَإِنَّ الْمَطْلُوبَ إِنْ كَانَ قَدْ قَدَّرَ فَلَا بَدَّ مِنْ وَصُولِهِ، دَعَا الْعَبْدَ أَوْ لَمْ يَدْعَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرَ^(٥) فَلَا سَبِيلَ إِلَى حَصُولِهِ، دَعَا أَوْ لَمْ يَدْعَ.

(١) في «غ» والمنار: (وقال تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ: «يا عبادي...»).

(٢) تقدم تخريجه (١/١١٠).

(٣) رواه مسلم (٤٧٩)، وأبو داود (٨٧٦).

(٤) جملة (ابن عبد الله): غير في «غ» والمنار.

(٥) في «غ» والمنار: (وإن لم يقدر).

ولمَّا رأوا الكتاب والسُّنَّة والآثار قد تظاهرت بالدُّعاء وفضله، والحثُّ عليه وطلبه، قالوا: هو عبوديَّةٌ محضَةٌ، لا تأثير له في المطلوب ألبيَّة، وإنَّما تعبَّدنا به الله، وله أن يتعبَّد عباده بما شاء كيف شاء. **ك** والطائفة الثانية: ظنَّت أنَّ بنفس الدُّعاء والطلب ينال المطلوب، وأنَّه موجبٌ لحصوله، حتَّى كأنَّه سببٌ مستقلٌّ، وربَّما انضاف إلى ذلك شهودهم^(١) أنَّ هذا السبب منهم وبهم، وأنَّهم هم الَّذِينَ فعلوه، وأنَّ نفوسهم هي التي فعلته وأحدثته.

وإن علموا^(٢) أنَّ الله خالق أفعال العباد وحرركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فربَّما غاب عنهم^(٣) شهود كون ذلك بالله ومن الله، لا بهم ولا منهم، وأنَّه هو الَّذي حرَّكهم^(٤) للدُّعاء، وقذفه في قلب العبد، وأجراه على لسانه.

فهاتان الطائفتان غالطتان أقبح غلطٍ، وهما محجوبتان عن الله. فالأولى: محجوبةٌ عن رؤية حكمته في الأسباب ونصبها لإقامة العبوديَّة، وتعلُّق الشَّرع والقدر بها؛ فحجابها كثيفٌ عن معرفة حكمة الله ﷻ في شرعه وأمره وقدره. والثانية: محجوبةٌ عن رؤية منته وفضله، وتفردُه بالرُّبوبيَّة والتدبير، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه لا حول للعبد ولا قوَّة له بل ولا للعالم أجمع إلَّا به سبحانه، وأنَّه لا تتحرَّك ذرَّةٌ إلَّا بإذنه ومشيتته.

وقول الطائفة الأولى: إنَّ المطلوب إن قدر لا بدَّ من حصوله، وإنَّه إن لم يقدر فلا مطمع في حصوله.

جوابه: أن يقال: بقي قسمٌ ثالثٌ، لم تذكروه، وهو أنَّه قدر بسببه^(٥)؛ فإن وجد سببه وُجد ما رتبَّ عليه، وإن لم يوجد سببه لم يوجد.

ومن أسباب المطلوب: الدُّعاء والطلب اللذان إذا وجدا وجد ما رتبَّ عليهما، كما أن من أسباب الولد الجماع؛ ومن أسباب الزَّرع البذر، ونحو ذلك، وهذا القسم الثالث هو الحقُّ.

ويقال للطائفة الثانية: لا موجبٌ إلَّا مشيئة الله تعالى، وليس هاهنا سببٌ مستقلٌّ غيرها، فهو الَّذي جعل السبب سببًا، وهو الَّذي رتبَّ على السبب^(٦) حصول المسبَّب، ولو شاء لأوجده بغير ذلك

(١) في «ع» والمنار: (شهودها).

(٢) في «ع» والمنار: (علمت).

(٣) في المنار: (عنها).

(٤) في «ع» والمنار: (حركها).

(٥) في المنار: (سببه).

(٦) في «ع» والمنار: (رتب عليه).

السَّبب، وإذا شاء منع سببِيَّة السَّبب، وقطع عنه اقتضاء أثره، وإذا شاء أقام له مانعًا يمنعه من اقتضاء أثره، مع بقاء قوَّته فيه؛ وإذا (١) شاء رتَّب عليه ضدَّ مقتضاه وموجه.

فالأَسباب طوع مشيئته سبحانه وقدرته، وتحت تصرُّفه وتدييره، يقبِّلها كيف شاء، فهذا أحد المعنيين في كلامه.

والمعنى الثاني: أن من لاحظ بعين قلبه ما سبق له من ربِّه من جزيل الفضل والإحسان والبرِّ من غير معاوضة، ولا سبب من العبد أصلًا؛ فإنَّه سبقت له تلك السَّابقة وهو في العدم، لم يكن شيئًا ألبتَّة شغلته تلك الملاحظة بطلب الله ومحَبَّته وإرادته عن الطَّلَب منه، وقطعت عليه طريق السُّؤال، اشتغالًا بذكره وشكره، ومطالعة منَّته عن مسألته، لا لأنَّ مسألته والطَّلَب منه نقصٌ، بل لأنَّه في هذه الحال لا يتَّسع للأمرين، بل استغراقه في شهود المنَّة وسبق الفضل قطع عليه طريق الطَّلَب والسُّؤال، وهذا لا يكون مقامًا لازمًا له لا يفارقه، بل هذا حكمه في هذه الحال، والله أعلم.

فصل

□ قوله: «وَيُنْبِتُ السُّرُورَ، إِلَّا مَا يَشُوبُهُ مِنْ حَذَرِ الْمَكْرِ».

يعني: أن هذا اللُّحظ من العبد ينبت له السُّرور، إذا علم أن فضل ربِّه قد سبق له بذلك قبل أن يخلقه، مع علمه به وبأحواله وتقصيره على التَّفصيل ولم يمنعه علمه به أن يقدر له ذلك الفضل والإحسان، فهو أعلم به إذ أنشأه من الأرض، وإذ هو جنينٌ في بطن أمِّه، ومع ذلك فقدَّر له من الفضل والوجود ما قدره بدون سببٍ منه، بل مع علمه بأنَّه يأتي من الأسباب ما يقتضي قطع ذلك ومنعه عنه.

فإذا شاهد العبد ذلك؛ اشتدَّ سروره وبرِّه، وبمواقع فضله وإحسانه، وهذا فرحٌ محمودٌ غير مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

ففضله: الإسلام والإيمان، ورحمته: العلم والقرآن، وهو يحبُّ من عبده أن يفرح بذلك ويسرَّ به، بل يحبُّ من عبده أن يفرح بالحسنة إذا عملها وأن (٢) يسرَّ بها، وهو في الحقيقة فرحٌ بفضل الله، حيث وفَّقه الله لها، وأعانها عليها ويسرَّها له، ففي الحقيقة إنَّما يفرح العبد بفضل الله وبرحمته.

ومن أعظم مقامات الإيمان: الفرح بالله، والسُّرور به، فيفرح به إذ هو عبده ومحَبُّه، ويفرح به

(١) في «غ» والمنار: (وإن).

(٢) كلمة (أن): ساقطة من «غ» والمنار.

سبحانه ربًّا وإلهًا، ومنعمًا ومرتبًّا، أشدَّ من فرح العبد بسيِّده المخلوق المشفق عليه، القادر على ما يريده العبد ويطلبه منه (١)، المتنوع في الإحسان إليه، والذَّبُّ عنه.

وسياتي عن قريب - إن شاء الله - تمام هذا المعنى في باب الشُّرور.
قوله: «إِلَّا مَا يُشَوِّبُهُ مِنْ حَذَرِ الْمَكْرِ»؛ أي يمازجه، فإنَّ الشُّرور والفرح يبسط النَّفس وينمِّيها، وينسيها عيوبها وآفاتنا ونقائصها؛ إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها ذلك (٢) عن الفرح.
وأيضًا: فإنَّ الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعم، فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه، فيطفح عليه الشُّرور حتَّى يغيب بنعمته عنه، وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفرح.

ولله كم هاهنا من مستردٍّ منه ما وهب له عزَّةً وحكمةً، وربِّما كان ذلك رحمةً به؛ إذ لو استمرَّ على تلك الولاية لخيف عليه من الطُّغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَنْقَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]، فإذا كان هذا غنىً بالحطام الفاني، فكيف بالغنى بما هو أعلى من ذلك وأكثر؟ فصاحب هذا إن لم يصحبه حذر المكر خيف عليه أن يسلبه وينحطَّ عنه.

و«المكْر» الذي يخاف عليه منه: أن يغيب الله سبحانه عنه شهود أوليَّته في ذلك ومنته وفضله، وأنَّه محض منته عليه، وأنَّه به وحده، ومنه وحده، فيغيب عن (٣) شهود حقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُمْ كَلُّهُ، لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّيْتُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وأمثال

ذلك.

فيغيبه عن شهود ذلك، ويحيله على معرفته في كسبه وطلبه، فيحيله على نفسه التي لها الفقر بالذَّات، ويحجبه عن الحوالة على (٤) المليء الوفي الذي له الغنى التأمُّ كلُّه بالذَّات؛ فهذا من أعظم أسباب المكر، والله المستعان.

(١) جملة (ويطلبه منه): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (ذلك): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (عنه).

(٤) جملة (الحوالة على): ساقطة من المنار.

ولو بلغ العبد من الطاعة ما بلغ، فلا ينبغي له أن يفارقه هذا الحذر؛ وقد خافه خيار خلقه، وصفوته من عباده.

قال شعيب رضي الله عنه وقد قال له قومه: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِرِينَ ﴿٨٨﴾﴾ فَدَافَرْتِنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَهَابًا لِي إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وعلمه، أدبًا مع الله، ومعرفةً بحقِّ الربوبية، ووقوفًا مع حدِّ العبودية.

وكذلك قال إبراهيم رضي الله عنه لقومه وقد خوفوه بالهتهم فقال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] فردَّ الأمر إلى مشيئة الله وعلمه.

وقد قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقد اختلف السلف: هل يكره أن يقول العبد في دعائه: اللَّهُمَّ لَا تَوَمِّئْ مَكْرًا؟

فكان بعض السلف يدعو بذلك، ومراده: لا تخذلني، حتى آمن مكرًا ولا أخافه، وكرهه مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ مَطْرَفِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: «أَنَّكَ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ، وَلَا تَوَمِّئْ مَكْرَكَ، وَلَكِنْ أَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تُنْسِنِي ذِكْرَكَ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمِنَ مَكْرَكَ، حَتَّى تَكُونَ (١) أَنْتَ تَوَمِّئِي».

وبالجملة: فمن أحيل على نفسه، فقد مكر به.

قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ: حَدَّثَنَا الصَّلْتُ بْنُ طَرِيفِ الْمَعُولِيِّ: حَدَّثَنَا غِيلَانُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ مَطْرَفِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: «وَجَدْتُ هَذَا الْإِنْسَانَ مُلْقَى بَيْنَ اللَّهِ عز وجل وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ خَيْرًا جَبَدَهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ فَقَدْ هَلَكَ».

وقال جعفر بن سليمان: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ مَطْرَفِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: «لَوْ أُخْرِجَ قَلْبِي فَجُعِلَ فِي يَدِي هَذِهِ فِي الْبَسَارِ، وَجِيءَ بِالْخَيْرِ فَجُعِلَ فِي هَذِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ قُرْبْتُ مِنَ الْأُخْرَى مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أُوَلِّجَ فِي قَلْبِي شَيْئًا حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ عز وجل يَضَعُهُ».

ومما يدلُّ على أن الفرح من أسباب المكر، ما لم يقارنه خوفٌ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

فَتَحَنَّنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، فالفرح متى كان بالله،

وبما منَّ الله به، مقارنةً للخوف والحذر لم يضرَّ صاحبه، ومتى خلا عن ذلك ضرَّه ولا بدَّ.

(١) في «ع» والمنار: (لا تكون).

قوله: «وَيَبْعَثُ عَلَى الشُّكْرِ إِلَّا مَا قَامَ بِهِ الْحَقُّ بِبَرِّكَانٍ مِنْ حَقِّ الصَّفَةِ».

هذا الكلام يحتمل معنيين:

- أحدهما: أن يريد أن هذه الملاحظة تبعته على الشكر لله في السراء والضراء في كل حين، إلا ما عجزت قدرته عن شكره؛ فإنَّ الحقَّ سبحانه هو الذي يقوم به لنفسه بحقِّ كماله المقدَّس، وكمال صفاته ونعوته، فتلك الملاحظة تبسط للعبد الشكر الذي يعجز عنه، ولا يقدر أن يقوم به.

فإنَّ شكر العبد لربه نعمة من الله أنعم بها عليه، فهي تستدعي شكرًا آخر عليها، وذلك الشكر نعمة أيضًا، فيستدعي شكرًا ثالثًا... وهلمَّ جزًا، فلا سبيل إلى القيام بشكر الربِّ على الحقيقة، ولا يشكره على الحقيقة سواه، فإنه هو المنعم بالنعمة وبشكرها، فهو الشكور لنفسه، وإن سَمَّى عبده شكورًا؛ فمدحة الشكر في الحقيقة راجعة إليه، وموقوفة عليه، فهو الشاكر لنفسه بما أنعم على عبده، فما شكره في الحقيقة سواه، مع كون العبد عبدًا والربُّ ربًّا، فهذا أحد المعنيين في كلامه.

- المعنى الثاني: أن هذا اللحظ يبسطه للشكر الذي هو وصفه وفعله، لا الشكر الذي هو صفة الربِّ ﷻ وفعله، فإنه سَمَّى نفسه بالشكور، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]. وقال أهل الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

فهذا الشكر الذي هو وصفه سبحانه لا يقوم إلا به، ولا يبعث العبد على الملاحظة المذكورة إلا على وجه واحد، وهو أنه إذا لاحظ سبق الفضل منه سبحانه علم أنه فعل ذلك لمحبتته للشكر؛ فإنه تعالى يحبُّ أن يشكر، كما قال موسى ﷺ: «يَا رَبِّ، هَلَّا سَاوَيْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُشْكِرَ».

وإذا كان يحبُّ الشكر فهو أولى أن يتَّصف به، كما أنه سبحانه وترُّ يحبُّ الوتر، جميلٌ يحبُّ الجمال، محسنٌ يحبُّ المحسنين، صبورٌ يحبُّ الصَّابرين، عفوٌ يحبُّ العفو، قويٌّ والمؤمن القويُّ أحبُّ إليه من المؤمن الضَّعيف؛ فكذا هو شكورٌ يحبُّ الشَّاكرين، فملاحظة العبد سبق الفضل تُشهد صفة الشكر، وتبعته على القيام بفعل الشكر، والله أعلم.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: مَلَاخِظَةُ نُورِ الْكَشْفِ، وَهِيَ تُسَبِّلُ لِبَاسِ التَّوَلَّى وَتُدْبِقُ طَعْمَ التَّجَلِّي، وَتَعْصِمُ مِنْ عَوَارِ النَّسَلِيِّ».

هذه الدَّرَجَةُ أتمَّ ممَّا قبلها، فإنَّ تلك الدَّرَجَةَ ملاحظة ما سبق بنور العلم، وهذه ملاحظة كشف

بحالٍ قد استولى على قلبه، حتّى شغله عن الخلق، فأسبل عليه لباس توكّيه الله وحده وتوكّيه عمّا سواه. ونور الكشف عندهم: هو مبدأ الشهود، وهو نور تجلّي معاني الأسماء الحسنی على القلب، فتضيء به ظلمة القلب، ويرتفع به حجاب الكشف.

ولا تلتفت إلى غير هذا فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها، فإنّك تجد في كلام بعضهم تجلّي الذات يقتضي (١) كذا وكذا، وتجلّي الصفات يقتضي (٢) كذا وكذا، وتجلّي الأفعال يقتضي (٣) كذا وكذا، والقوم عنايتهم بالألفاظ، فيتوهم المتوهم أنّهم يريدون تجلّي حقيقة الذات والصفات والأفعال للعيان، فيقع من يقع منهم في الشطحات والطامات. والصادقون العارفون برآء من ذلك.

وإنّما يشيرون إلى كمال المعرفة، وارتفاع حجب الغفلة والشك والإعراض، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوي بالكلية، فلا يشهد القلب سوى معروفه. وينظرون هذا بطلوع الشمس؛ فإنّها إذا طلعت انطمس نور الكواكب، ولم تعدم الكواكب، وإنّما غطّي عليها نور الشمس، فلم يظهر لها وجودٌ، وهي في الواقع (٤) موجودةٌ في أماكنها، وهكذا نور المعرفة إذا استولى على القلب قوي سلطانها، وزالت الموانع والحجب عن القلب.

ولا ينكر هذا إلّا من ليس من أهله. ولا يعتقد أنّ الذات المقدّسة والأوصاف برزت وتجلّت للعبد - كما تجلّي سبحانه للطور، وكما يتجلّي يوم القيامة للناس - إلّا غلطٌ فاقدٌ للعلم، وكثيرًا ما يقع الغلط من التّجاوز من نور العبادات والرياضة والذكر إلى نور الذات والصفات.

فإنّ العبادة الصّحيحة، والرياضة الشرعيّة، والذكر المتواضع عليه القلب واللّسان يوجب نورًا على قدر قوّته وضعفه، وربّما قوي ذلك النور حتّى يشاهد بالعيان، فيغلط فيه ضعيف العلم والتّمييز بين خصائص الرّبوبيّة ومقتضيات العبوديّة، فيظنّه نور الذات، وهيهات! ثمّ هيهات! نور الذات لا يقوم له شيءٌ، ولو كشف صلى الله عليه وآله الحجاب عنه لتدكك العالم كلّهُ، كما تدكك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليسير من التّجلّي.

وفي الصّحيح عنه صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ

(١) في «غ» والمنار: (تقتضي).

(٢) انظر الحاشية السابقة.

(٣) انظر الحاشية السابقة.

(٤) كلمة (في الواقع): ساقطة من «غ» والمنار.

سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١).

فالإسلام له نورٌ، والإيمان له نورٌ أقوى منه، والإحسان له نورٌ أقوى منهما، فإذا اجتمع الإسلام والإيمان والإحسان، وزالت الحُجُبُ الشاغلة عن الله تعالى امتلأ القلب والجوارح بذلك النور، لا بالنور الذي هو صفة الربِّ تعالى؛ فإنَّ صفاته لا تحلُّ في شيءٍ من مخلوقاته، كما أنَّ مخلوقاته لا تحلُّ فيه؛ فالخالق سبحانه بائنٌ عن المخلوق بذاته وصفاته، فلا اتِّحاد، ولا حلول، ولا ممازجة، تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

قوله: «وَيَعِصُمُ مِنْ عَوَارِ النَّسْلِيِّ».

العوار: العيب، والنَّسْلِيُّ: السَّلْوَةُ^(٢) عن المحبوب الذي لا حياة للقلب ولا نعيم إلاَّ بحبِّه والقرب منه، والأنس بذكره؛ فإنَّ سلو القلب وغفلته عن ذكره هو من أعظم العيوب، فهذه الملاحظة إذا صدقت عصمت صاحبها عن عيب سلوته عن مطلوبه ومراده.

فإنَّه في هذه الدرَّجة مستغرقٌ في شهود الأسماء والصفات؛ وقد استولى على قلبه نور الإيمان بها ومعرفتها، ودوام ذكرها؛ ومع هذا فباب السَّلْوَةِ عليه مسدودٌ، وطريقها عليه مقطوعٌ، والمحبُّ يمكنه النَّسْلِيُّ قبل أن يشاهد جمال محبوبه، ويستغرق في شهود كماله، ويغيب به عن غيره، فإذا وصل إلى هذه الحال كان كما قيل:

مَرَّتْ بِأَرْجَاءِ الْخَيَالِ طُيُوفُهُ فَبَكَتْ عَلَيَّ رَسْمِ السُّلُوكِ الدَّارِسِ

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: مَلَاخِظَةُ عَيْنِ الْجَمْعِ، وَهِيَ تَوْقِظُ لِاسْتِحَانَةِ الْمُجَاهِدَاتِ، وَتَخْلِصُ مِنْ رُعُونَةِ الْمُعَارِضَاتِ، وَتُفِيدُ مُطَالَعَةَ الْبِدَايَاتِ».

هذه الدرَّجة عنده أرفع ممَّا قبلها، فإنَّ ما قبلها -مطالعة كشف الأنوار- تشير إلى نوع كسبٍ واختيارٍ، وهذه مطالعةٌ تجذب القلب من التَّفَرُّقِ في أودية الإرادات، وشعاب الأحوال والمقامات إلى ما استولى عليه من عين الجمع، الناظر إلى الواحد الفرد، الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ، الآخر الذي

(١) تقدم تخريجه (٥١/١).

(٢) كلمة (السَّلْوَةُ): غير موجودة في «غ» والمنار.

ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، سبق كل شيء (١) بأوليته، وبقي بعد كل شيء بأخريته، وعلا فوق كل شيء بظهوره، وأحاط بكل شيء ببطونه.

فالنظر بهذه العين يوقظ قلبه لاستهانته بالمجاهدات.

ومعنى ذلك: أَنَّ السَّالِكَ فِي (٢) مَبْدَأُ أَمْرِهِ لَهُ شَرَّةٌ، وَفِي طَلَبِهِ حِدَّةٌ، تَحْمَلُهُ عَلَى أَنْوَاعِ الْمَجَاهِدَاتِ، وَتَرْمِيهِ عَلَيْهَا لِشِدَّةِ طَلَبِهِ، فَفَتْورُهُ نَائِمٌ، وَاجْتِهَادُهُ يَقْظَانُ.

فإذا وصل إلى هذه الدرّجة استهان بالمجاهدات الشّاقة في جنب ما حصل له من مقام الجمع على الله، واستراح من كدّها؛ فَإِنَّ سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الْجَمْعِ عَلَى اللَّهِ أَنْفَعُ وَأَجْدَى عَلَيْهِ (٣) مِنَ الْقِيَامِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَجَاهِدَاتِ الْبَدْنِيَّةِ، الَّتِي لَمْ يَفْرُضْهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِذَا جَمَعَ هَمَّهُ وَقَلْبَهُ كُلَّهُ عَلَى اللَّهِ، وَزَالَ كُلُّ مَفْرُقٍ وَمَشْتَبٍ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ سَاعَاتُ عَمْرِهِ فِي الْحَقِيقَةِ؛ فَتَعَوَّضَ بِهَا عَمَّا كَانَ يِقَاسِيهِ مِنْ كَدِّ الْمَجَاهِدَاتِ وَتَعَبِهَا.

وهذا موضعٌ غلط فيه طائفتان من النَّاسِ:

إحدهما: غلت فيه، حتّى قدّمته على الفرائض والسّنن، ورأت نزولها عنه إلى القيام بالأوامر انحطاطاً من الأعلى إلى الأدنى، حتّى قيل لبعض من زعم أنّه ذاق ذلك: قم إلى الصّلاة، فقال:

يُطَالِبُ بِالْأَوْرَادِ مَنْ كَانَ غَافِلاً
فَكَيْفَ بِقَلْبٍ كُلِّ أَوْقَاتِهِ وَرُدُّ

وقال آخر: «لَا تُسَيِّبْ وَارِدَكَ لِيُورِدَكَ».

وهؤلاء بين كافرٍ وناقصٍ.

فمن لم ير القيام بالفرائض إذا حصلت له الجمعيّة فهو كافرٌ، منسلخٌ من الدّين، ومن عطّل لها مصلحةً راجحةً (٤) كالسّنن الرّواتب، والعلم النّافع، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والنّفع العظيم المتعدّي فهو ناقصٌ.

والطّائفة الثّانية: لا تعبأ بالجمعيّة، ولا تعمل عليها، ولعلّها لا تدري ما مسمّاها ولا حقيقتها.

وطريقة الأقوياء أهل الاستقامة: القيام بالجمعيّة في التّفرقة ما أمكن، فيقوم أحدهم بالعبادات، ونفع الخلق، والإحسان إليهم، مع جمعيّته على الله، فإن ضعف عن اجتماع الأمرين، وضاق عن ذلك قام بالفرائض، ونزل عن الجمعيّة، ولم يلتفت إليها، إذا كان لا يقدر على تحصيلها إلّا بتعطيل الفرض؛ فإن ربّه سبحانه يريد منه أداء فرائضه، ونفسه تريد الجمعيّة لما فيها من الرّاحة واللذّة،

(١) جملة (سبق كل شيء): ساقطة من والمنار.

(٢) كلمة (في): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) كلمة (عليه): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (ما مصلحته راجحة).

والتَّخْلُصُ من ألم التَّفْرِقة وشعثها^(١)، فالفرائض حقُّ ربِّه^(٢)، والجمعيَّة حظُّه هو.

فالعبوديَّة الصَّحيحة توجب عليه تقديم أحد الأمرين على الآخر؛ فإذا جاء إلى النَّوافل، وتعارض عنده الأمران فمنهم من يرجِّح الجمعيَّة، ومنهم من يرجِّح النَّوافل؛ ومنهم من يؤثر هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ.

والتَّحْقِيقُ - إن شاء الله -: أن تلك النَّوافل إن كانت مصلحتها أرجح من الجمعيَّة، ولا تعوِّضه الجمعيَّة عنها اشتغل بها، ولو فاتت الجمعيَّة، كالدَّعوة إلى الله، وتعليم العلم النَّافع، وقيام وسط اللَّيْلِ، والذِّكْر أوَّل اللَّيْلِ وآخره، وقراءة القرآن بالتَّدبُّر، ونفل الجهاد، والإحسان إلى المضطرِّ، وإغاثة الملهوف، ونحو ذلك، فهذا كلُّه مصلحته أرجح من مصلحة الجمعيَّة.

وإن كانت مصلحته دون الجمعيَّة، كصلاة الضُّحى، وزيارة الإخوان، والغسل^(٣) لحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وإجابة الدَّعوات، وزيارة القدس، وضيافة الإخوان ونحو ذلك فهذا فيه تفصيلٌ.

فإن قويت جمعيَّته فظهر تأثيرها فيه، فهي أولى له، وأنفع من ذلك، وإن ضعفت الجمعيَّة، وقوي إخلاصه في هذه الأعمال فهي أنفع له، وأفضل من الجمعيَّة.

والمعوَّل عليه في ذلك كلُّه: إيثار أحبِّ الأمرين إلى الرَّبِّ تعالى.

وذلك يعرف بنفع^(٤) العمل وثمرته، من زيادة الإيمان به، وترتب الغايات الحميدة عليه،

(١) في «غ» والمنار: (وشعبها).

(٢) الواقع أن الصلاة: صلة العبد بربه، ليرفع إليه فيها حاجاته في دنياه وآخرته وهي قرّة عين المؤمن، كما كانت قرّة عين رسول الله ﷺ، وهي العون على كل أمورهم، وكذلك الصيام إنما هو حصن من أقوى أسباب الوقاية بما يريه ربه حال كونه معه بقوة العزيمة والإرادة الصادقة، والبصيرة النيرة التي يكون بها المؤمن في وقاية من كل ما يخاف في أولاه وأخراه، وكل الطاعات المفروضة: إنما هي كذلك، أسباب لسعادته ووقايته من كل ما يخاف في أولاه قبل أخراه، وكل شأن الإنسان في أهله، أو مسجده أو مزرعته، أو مصنعه، أو ميدان حربه؛ فإنما هو لخيره في الأولى قبل الأخرى، وهو به يسلم شأنه ويستسلم به لربه خلقاً وشرعاً؛ فتكون كل حركاته وسكناته في مطعمه وملبسه ومشربه ومنامه ويقظته: عبادة بتدليل وحب صادقين، وخطوات يسعى بها حثيثاً إلى لقاء الله والمصير إليه، راضياً مرضياً في قبره وما بعده؛ فيسعى بها حثيثاً ليكون من عباد الرحمن، وهذا كان شأن الرسول والذين آمنوا به، واتبعوا النور الذي أنزل معه، ثم لما دخل الدخيل وأدخل أباطيله وبدعه الخرافية، وزخرفها حسننها شياطين الإنس والجن: تغير الناس. فتغيرت الأعمال والموجبات، وصاروا يعتقدون أن الذكر أن يجلس في خلوة ليعبد مئات لا إله إلا الله، أو ليصلي ألف ركعة، أو ليقرا ألف ختمة في غفلة غافلة، وأشباه هذا مما يجعل العبادات أشكالاً وصوراً وتمثيلاً، بخلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال ابن مسعود عنه: «ما كنا نجاوز الآية حفظاً حتى نتقنها عملاً»، أو كما قال. هداانا الله هدي أولئك الأخيار الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ. (الفتحي).

(٣) في «غ» والمنار: (والتبتل).

(٤) في «غ» والمنار: (نفع).

وكثرة مواظبة الرسول ﷺ عليه، وشدة اعتناؤه به، وكثرة الوصية به، وإخباره أن الله يحبُّ فاعله، ويباهي به الملائكة، ونحو ذلك.

ونكتة المسألة وحرفها: أن الصادق في طلبه يؤثر مرضاة ربِّه على حظِّه، فإن كان رضا الله في القيام بذلك العمل وحظُّه في الجمعية خلى الجمعية تذهب، وقام بما فيه رضا الله. ومتى علم الله من قلبه أن تردُّه وتوقُّفه؛ ليعلم أيَّ الأمرين أحبَّ إلى الله وأرضى له، أنشأ له من ذلك التوقُّف والتردُّد حالة شريفةً فاضلةً، حتَّى لو قدَّم المفضول لظنَّه أنه الأحبُّ إلى الله ردَّت تلك النية والإرادة عليه ما ذهب عليه وفاته من زيادة العمل الآخر، وبالله التوفيق.

وفي كلامه معنَى آخر: وهو أن صاحب المجاهدات مسافرٌ بعزمه وهمته إلى الله؛ فإذا لاحظ عين الجمع، وهي الوجدانية - التي شهود عينها هو انكشاف حقيقتها للقلب - كان بمنزلة مسافرٍ جادٍّ في سيره، وقد وصل إلى المنزل، وقرَّت عينه بالوصول، وسكنت نفسه، كما قيل:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّرَ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

ولكنَّ هذا الموضع مورد الصديق الموحد، والزنديق الملحد.

فالزنديق يقول: الاشتغال بالسَّير بعد الوصول عيبٌ، لا فائدة فيه، والوصول عنده هو ملاحظة عين الجمع؛ فإذا استغرق في هذا الشهود، وفني به عن كلِّ ما سواه ظنَّ أن ذلك هو الغاية المطلوبة بالأوراد والعبادات، وقد حصلت له الغاية، فرأى قيامه بها أولى به، وأنفع له من الاشتغال بالوسيلة، فالعبادات البدنية عنده وسيلةٌ لغايةٍ، وقد حصلت، فلا معنى للاشتغال بالوسيلة بعدها، كما يقول كثيرٌ من النَّاس: إنَّ العلم وسيلةٌ إلى العمل؛ فإذا اشتغلت بالغاية لم تحتج إلى الوسيلة. وقد اشتدَّ نكير السلف - من أهل الاستقامة من الشيوخ - على هذه الفرقة؛ وحدَّروا منهم؛ وجعلوا أهل الكبائر وأصحاب الشهوات خيرًا منهم، وأرجى عاقبةً.

وأما الصديق الموحد: فإذا وصل إلى هناك، صارت أعماله القلبية والروحية أعظم من أعماله البدنية، ولم يسقط من أعماله شيئاً، ولكنَّه استراح من كدِّ المجاهدات بملاحظة عين الجمع. وصار بمنزلة مسافرٍ طلب ملكاً عظيماً رحيماً جواداً، فجدَّ في السَّفر إليه، خشية أن يقتطع دونه، فلماً وصل إليه ووقع بصره عليه، بقي له سيرٌ آخر في مرضاته ومحابته؛ فالأول كان سيراً إليه؛ وهذا سيرٌ في محابته ومراضيه، فهذا أقرب ما يقال في كلام الشيخ وأمثاله في ذلك.

وبعد:

فالعبد - وإن لاحظ عين الجمع، ولم يغب عنها - فهو سائرٌ إلى الله ولا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة، ولا يصل العبد ما دام حياً إلى الله وصولاً يستغني به عن السَّير إليه البتة، وهذا عين المحال.

بل يشتدُّ سيره إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيده، وأسمائه وصفاته؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق اجتهادًا، وقيامًا بالأعمال، ومحافظةً عليها إلى أن توفاه الله، وهو أعظم ما كان اجتهادًا وقيامًا بوظائف العبودية، فلو أتى العبد بأعمال الثقلين جميعها لم تفارقه حقيقة السير إلى الله، وكان بعدُ في طريق الطلب والإرادة.

وتقسيم السَّائرين إلى الله إلى طالب، وسائر، وواصل، أو إلى مرید، ومرادٍ، تقسيمٌ فيه مساهلةٌ لا تقسيمٌ حقيقيٌّ، فإنَّ الطلب والسُّلوك والإرادة لو فارق العبد لاَنقطع^(١) عن الله بالكلية. ولكنَّ هذا التَّقسيم باعتبار تنقل^(٢) العبد في أحوال سيره وإلاَّ فإرادة العبد المراد، وطلبه وسيره أشدُّ من إرادة غيره وطلبه وسيره.

وأيضًا: فإنَّه مرادٌ أوَّلًا؛ حيث أقيم في مقام الطلب، وجذب إلى السير، فكلُّ مریدٍ مرادٌ، وكلُّ واصلٍ وسالكٍ^(٣) وطالبٍ لا يفارقه طلبه ولا سيره، وإن تنوعت طرق السير، بحسب اختلاف حال العبد.

فمن السَّالِكين: من يكون سيره ببدنه وجوارحه أغلب عليه من سيره بقلبه وروحه.

ومنهم: من سيره بقلبه أغلب عليه؛ أعني: قوَّة سيره وحدته.

ومنهم وهم الكَمَل الأقوياء: من يعطي كلَّ مرتبةٍ حقَّها، فيسير إلى الله ببدنه وجوارحه، وقلبه

وروحه.

وقد أخبر الله سبحانه عن صفوة أوليائه بأنَّهم دائِمًا^(٤) في مقام الإرادة له، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطْرِدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَىٰ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [١٩] ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [٢١]

[الليل: ١٩ - ٢١].

فالعبد أخصُّ أوصافه وأعلى مقاماته: أن يكون مریدًا صادق الإرادة، عبدًا في إرادته؛ بحيث يكون مراده تبعًا لمراد ربِّه الدِّينيِّ منه، ليس له إرادةٌ في سواه.

وقد يحمل كلام الشَّيخ على معنى آخر وهو: أن يكون معنى قوله: «إِنَّ مَلَا حِظَّةَ عَيْنِ الْجَمْعِ تُوقِظُ الْإِسْتِهَانَةَ بِالْمُجَاهِدَاتِ» أنَّه يوقظه من نوم الاستهانة بالمجاهدات، وتكون اللام للتعليل؛ أي: يوقظه من سنة التقصير لاستهانتها بالمجاهدات، وهذا معنى صحيح في نفسه فإنَّ العبد كلما كان إلى الله

(١) في «غ» والمنار: (انقطع).

(٢) في المنار: (تقلب).

(٣) في المنار: (سالك) بدون واو العطف.

(٤) كلمة (دائمًا): غير موجودة «غ» والمنار.

أقرب كان جهاده في الله أعظم، قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وتأمل أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام، عظم جهادهم واجتهادهم^(١)، لا كما ظنَّه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق؛ حيث قال: القرب الحقيقي تنقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة، ويريح الجسد والجوارح من كد العمل.

وهؤلاء أعظم كفرًا وإلحادًا؛ حيث عطَّلوا العبودية، وظنُّوا أنَّهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي من أماني النفس، وخدع الشيطان، وكأنَّ قائلهم إنَّما عنى نفسه وذوي مذهبه بقوله:

رَضُوا بِالْأَمَانِي وَابْتُلُوا بِحُظْوَتِهِمْ وَخَاضُوا بِحَارِ الْحُبِّ دَعْوَى فَمَا ابْتُلُوا
فَهُمْ فِي السَّرَى لَمْ يَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِهِمْ وَمَا ظَعَنُوا فِي السَّيْرِ عَنْهُ وَقَدْ كَلُّوا

وقد صرَّح أهل الاستقامة، وأئمة الطريق بكفر هؤلاء، فأخرجوهم من الإسلام، وقالوا: لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرَّة؛ أي: ما دام قادرًا عليه.

وهؤلاء يظنون أنَّهم يستغنون بهذه الحقيقة عن ظاهر الشريعة.

وأجمعت هذه الطائفة^(٢) على أنَّ هذا كفرٌ وإلحادٌ، وصرَّحوا بأنَّ كلَّ حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفرٌ.

قال سري السَّقَطِيُّ^(٣): «مَنْ ادَّعَى بَاطِنَ حَقِيقَةٍ يَنْقُضُهَا ظَاهِرُ حُكْمٍ فَهُوَ غَالِطٌ».

وقال سيِّد الطائفة الجنيد بن محمد: «عِلْمُنَا هَذَا مُتَشَبِّهُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

وقال إبراهيم بن محمد النصرآبادي: «أَصْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ: مُلَازِمَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، وَالتَّمَسُّكُ بِالْأَيْمَةِ، وَالِاقْتِدَاءُ بِالسَّلَفِ، وَتَرْكُ مَا أَحْدَثَهُ الْآخِرُونَ، وَالْمُقَامُ عَلَى مَا سَلَكَ الْأَوَّلُونَ».

وسئل إسماعيل بن نجيد: «مَا الَّذِي لَا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُ؟ فَقَالَ: مُلَازِمَةُ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى السُّنَّةِ، وَدَوَامُ

الْمُرَاقِبَةِ، وَسَيْلُ مَا التَّصَوَّفُ؟ فَقَالَ: الصَّبْرُ تَحْتَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ».

وقال أحمد بن أبي الحواري: «مَنْ عَمِلَ بِلَا اتِّبَاعِ سُنَّةِ فَبَاطِلٌ عَمَلُهُ».

(١) في «غ» والمنار: (عظم اجتهادهم وجهادهم).

(٢) في «غ» والمنار: (وأجمعت علماء الطائفة).

(٣) في «غ» والمنار: (قال سري رحمه الله).

وقال الشَّيْبِيُّ يوماً ومدَّ يده إلى ثوبه: «لَوْ لَا أَنَّهُ عَارِيَةٌ لَمَزَّقْتُهُ؛ فَفَقِيلَ لَهُ: رُؤْيُكَ فِي تِلْكَ الْعَلْبَةِ ثِيَابَكَ وَأَنَّهَا عَارِيَةٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ؛ أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ مَحْفُوظٌ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ الشَّرِيعَةِ».

وقال أبو يزيد البسطاميُّ: «لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى رَجُلٍ أُعْطِيَ مِنَ الْكَرَامَاتِ حَتَّى يَرْتَفِعَ فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تَعْتَرُّوا بِهِ، حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ وَالشَّرِيعَةِ»^(١).

وقال عبد الله الخياط: «النَّاسُ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا مَعَ مَا يَفَعُ فِي قُلُوبِهِمْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَرَدَّهُمْ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ».

«ولمَّا حضرت أبا عثمان الحيريَّ الوفاة مَرَّقَ ابنه أبو بكرٍ قميصه، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: يَا بَنِيَّ خِلَافُ السُّنَّةِ فِي الظَّاهِرِ مِنْ رِيَاءٍ بَاطِنٍ فِي الْقَلْبِ».

ومن كلام ابن عثمان هذا: «أَسْلَمَ الطَّرِيقُ مِنَ الاغْتِرَارِ: طَرِيقُ السَّلَفِ، وَلَزُومُ الشَّرِيعَةِ».

وقال عبد الله بن مبارك: «لَا يَظْهَرُ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ، وَمُجَابَبَةِ الْبِدْعَةِ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ تَرَى فِيهِ اجْتِهَادًا ظَاهِرًا بِلَا نُورٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ تَمَّ بَدْعَةً خَفِيَّةً».

وقال سهل بن عبد الله: «الزَّمِ السَّوَادَ عَلَى الْبَيَاضِ - حَدَّثَنَا وَأَخْبَرْنَا - إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَفْلَحَ».

ولقد كان سادات الطائفة أشدَّ ما كانوا اجتهادًا في آخر أعمارهم.

قال القشيريُّ: «سَمِعْتُ أَبَا عَلِيٍّ الدَّقَّاقَ يَقُولُ: رُئِيَ فِي يَدِ الْجُنَيْدِ سُبْحَةً، فَفَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ مَعَ شَرَفِكَ تَأْخُذُ بِيَدِكَ سُبْحَةً؟ فَقَالَ: طَرِيقٌ وَصَلْتُ بِهِ إِلَى رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا أَفَارِقُهُ أَبَدًا»^(٢).

وقال إسماعيل بن نجيد: «كَانَ الْجُنَيْدُ يَجِيءُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى السُّوقِ، فَيَفْتَحُ بَابَ حَانُوتِهِ، فَيَدْخُلُهُ وَيُسْبِلُ السُّتْرَ، وَيُصَلِّي أَرْبَعِمِائَةَ رُكْعَةٍ»^(٣) ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ عَطَاءٍ - وَهُوَ فِي النَّزْعِ

(١) فكيف كان هو وشيوخ الطائفة عند الحدود الشرعية، حين يهتف «سبحاني؟» وهكذا من تأمل كلامهم وأحوالهم، كمن تأمل كلام الرافضة وأحوالهم وكلام كل المبتدعين من عباد القبور وغيرهم - عرف حقيقة ما يقصدون إليه بدعواهم اتباع الكتاب والسنة، فإن مسكوا ونوقشوا، صاحوا هارين: نحن في حال جذب واصطلام وشطح، والله عليم بذات الصدور.

تعليق: شتان بين رأي ابن القيم ورأي الشيخ (الفقي) رحمهما الله تعالى فابن القيم يحسن الظن بشيوخ الصوفية المتقدمين ويعرف من أحوالهم وأقوالهم ما لا يعرفه الشيخ، (الفقي) ولذلك فهو يعترف بما عندهم من حق وينصفهم ويرد أخطأهم ويلتمس العذر لهم ما أمكنه، وهذا هو منهج العدل والإنصاف في الحكم على الطوائف والأشخاص.

وأما الشيخ (الفقي) فإنه يسيء الظن بهم فلا يرى لهم حسنة ويسحب حكم المتأخرين من الصوفية على المتقدمين وحكم الاتحادية الملحدين على الموحدين.

وفي هذا من المجازفة في الحكم ما لا يخفى، ولعل عذر الشيخ ما يعرفه من حال رءوس الصوفية المعاصرين له.

(٢) هل كان هذا طريق رسول الله ﷺ؟ وهل عرفت السبحة عنده وعند أصحابه الكرام. (الفقي بتصرف).

(٣) هل هذا معقول؟ أو هي نقر ولعب، أو دعوى للتمويه على الدهماء؟ وهل كان هدي رسول الله ﷺ؟ وأئمة الهدى من الصحابة والتابعين بإحسان؟ (الفقي).

فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْدَ سَاعَةٍ، فَقَالَ: اعْذِرْنِي، فَإِنِّي كُنْتُ فِي وِرْدِي، ثُمَّ حَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ وَكَبَّرَ وَمَاتَ!.

وقال أبو سعيد بن الأعرابي: «سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْعَطَّارَ يَقُولُ: حَضَرْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الْجُنَيْدَ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا فَكَانَ قَاعِدًا يُصَلِّي، وَيَثْنِي رِجْلَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسْجُدَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى خَرَجَتْ الرُّوحُ مِنْ رِجْلَيْهِ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَرَكَتُهَا، وَكَانَتَا قَدْ تَوَرَّمَتَا.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: مَا هَذَا يَا أَبَا الْقَاسِمِ؟ فَقَالَ: هَذِهِ نِعْمَ اللَّهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قَالَ لَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيُّ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، لَوْ اضْطَجَعْتَ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، هَذَا وَقْتُ يُؤْخَذُ فِيهِ؟ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ حَالَهُ حَتَّى مَاتَ».

«وَدَخَلَ عَلَيْهِ شَابٌّ - وَهُوَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَقَدْ تَوَرَّمَ وَجْهَهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَخَدَّةٌ يُصَلِّي إِلَيْهَا - فَقَالَ: وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ لَا تَتْرُكُ الصَّلَاةَ؟ فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَاهُ وَقَالَ: شَيْءٌ وَصَلْتُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، فَلَا أَدْعُهُ، وَمَاتَ بَعْدَ سَاعَةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ».

وقال أبو محمد الجريبي: «كُنْتُ وَاقِفًا عَلَى رَأْسِ الْجُنَيْدِ فِي وَفَاتِهِ، وَكَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، وَيَوْمَ تَبْرُوزِ، وَهُوَ يَفْرَأُ الْقُرْآنَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، ارْفُقْ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَأَيْتَ أَحَدًا أَحْوَجَ إِلَيْهِ مِنِّي فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ، وَهُوَ ذَا تُطَوَّى صَحِيفَتِي؟!».

وقال أبو بكر العطوي: «كُنْتُ عِنْدَ الْجُنَيْدِ حِينَ مَاتَ، فَخَتَمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فِي خَتْمَةِ أُخْرَى، فَقَرَأَ مِنَ الْبَقَرَةِ سَبْعِينَ آيَةً، ثُمَّ مَاتَ».

وقال محمد بن إبراهيم: «رَأَيْتُ الْجُنَيْدَ فِي النَّوْمِ؛ فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: طَاحَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ، وَغَابَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْعُلُومُ، وَنَفَدَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ، وَمَا نَفَعَنَا إِلَّا رَكَعَاتُ كُنَّا نَرَكَعُهَا فِي الْأَسْحَارِ».

وتذكروا بين يديه أهل المعرفة، وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه؟ فقال الجنيد: «الْعِبَادَةُ عَلَى الْعَارِفِينَ أَحْسَنُ مِنَ التَّيَجَانِ عَلَى رُءُوسِ الْمُلُوكِ».

وقال: «الطَّرِيقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ، إِلَّا مَنْ افْتَقَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ، وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ، وَلَزِمَ طَرِيقَتَهُ؛ فَإِنَّ طَرِيقَ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ».

وقال: «مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِبَدَلِ الْمَجْهُودِ فَمَتَعَنُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَصِلُ بِغَيْرِ بَدَلِ الْمَجْهُودِ فَمَتَمَنُ».

وقال أبو نعيم: «سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ هَانِئٍ يَقُولُ: «سَأَلْتُ الْجُنَيْدَ: مَا عَلَامَةُ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: عَلَامَتُهُ طَاعَةٌ مَنْ آمَنَتْ بِهِ، وَالْعَمَلُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَتَرْكُ التَّشَاغُلِ عَنْهُ بِمَا يَنْقِضِي وَيُزِيلُ».

فرحمة الله على أبي القاسم الجنيّد ورضي الله عنه، ما أتبعه لسنة الرسول ﷺ! وما أقفاه لطريقة أصحابه!

وهذا بابٌ يطول تتبُّعه جدًّا، يدُلُّك على أن أهل الاستقامة في نهاياتهم أشدُّ اجتهادًا منهم في بداياتهم، بل كان اجتهادهم في البداية في عمل مخصوص، فصار اجتهادهم في النِّهاية الطَّاعة المطلقة، وصارت إرادتهم دائرةً معها، فتضعف الاجتهاد في المعنى^(١) المعين؛ لأنَّه كان مقسومًا بينه وبين غيره. ولا تصغ إلى قول ملحدٍ قاطع للطريق في قالب عارفٍ، يقول: إنَّ منزلة القرب تنقل العبد من الأعمال الظَّاهرة إلى الأعمال الباطنة، وتحمل على الاستهانة بالطَّاعات الظَّاهرة، وتريحه من كدِّ^(٢) القيام بها.

فصل

□ قوله: «وَتَخَلِّصُ مِنْ رُعُونَةِ الْمَعَارِضَاتِ».

يريد: أن هذه الملاحظة تخلِّص العبد من رعونة معارضة حكم الله الدِّينيِّ والكونيِّ، الَّذي لم يأمر بمعارضته؛ فيستسلم للحكمين، فإنَّ ملاحظة عين الجمع تشهده أن الحكمين صدرا عن عزيزٍ حكيمٍ؛ فلا يعارض حكمه برأيٍ ولا عقلٍ ولا ذوقٍ ولا خاطرٍ. وأيضًا: فتخلِّص قلبه من معارضات السُّوئِ للأمر^(٣)؛ فإنَّ الأمر يعارض بالشَّهوة، والخبر يعارض بالشُّكِّ والشُّبهة، فملاحظة عين الجمع تخلِّص قلبه من هاتين المعارضتين، وهذا هو القلب السَّليم الَّذي لا يفلح إلا من لقي الله به؛ هذا تفسير أهل الحقِّ والاستقامة. وأمَّا أهل الإلحاد، فقالوا: المراد بالمعارضات هاهنا: الإنكار على الخلق فيما^(٤) يبدو منهم من أحكام البشريَّة؛ لأنَّ المشاهد لعين الجمع يعلم أن مراد الله من الخلق ما هم عليه؛ فإذا علم ذلك بحقيقة الشُّهود كانت المعارضات والإنكار عليهم^(٥) من رعونات الأنفس المحجوبة. وقال قذوتهم في ذلك: «الْعَارِفُ لَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، لِاسْتِبْصَارِهِ بِسِرِّ اللَّهِ فِي الْقَدْرِ».

(١) في «غ» والمنار: (المعنيين).

(٢) كلمة (كد): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (للأمر والخبر).

(٤) في «غ» والمنار: (بما).

(٥) كلمة (عليهم): ساقطة من «غ» والمنار.

وهذا عين الاتّحاد والإلحاد^(١) والانسلاخ من الدّين بالكليّة، وقد أعاد الله شيخ الإسلام من ذلك، وإذا كان الملحد يحمّل كلام الله ورسوله ما لا يحتمله؛ فما الظنُّ بكلام مخلوقٍ مثله؟ فيقال: إنّما بعث الله رسله، وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشريّة وغيرها؛ فبهذا أرسلت الرُّسل، وأنزلت الكتب، وانقسمت الدّار إلى دار سعادةٍ للمنكرين، ودار شقاوةٍ للمنكر عليهم؛ فالظنُّ في ذلك طعنٌ في الرُّسل والكتب، والتخلُّص من ذلك انحلالٌ من ربة الدّين. ومن تأمّل أحوال الرُّسل مع أممهم وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشدّ القيام؛ حتّى لقوا الله تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبيّ ﷺ أنّ المتخلّص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردلٍ.

وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشدّ المبالغة، حتّى قال: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا تَرَكَوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(٢). وأخبر أنّ تركه^(٣) يمنع إجابة دعاء الأختيار، ويوجب تسلُّط الأشرار. وأخبر أنّ تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه، ويحلُّ لعنة الله؛ كما لعن الله بني إسرائيل على تركه.

فكيف يكون الإنكار من رعونات النفوس، وهو مقصود الشريعة؟! وهل الجهاد إلّا على أنواع الإنكار، وهو جهادٌ باليد، وجهاد أهل العلم إنكارٌ باللسان. وأما قوله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا عَمِلُوا بِمَنْعٍ مِنْ عَمَلٍ أَوْ تَرْكٍ مِنْ تَرْكٍ أَوْ تَرْكٍ مِنْ تَرْكٍ أَوْ تَرْكٍ مِنْ تَرْكٍ»^(٤) أنّ مراد الله من الخلائق ما هم عليه. فيقال له: الرّبُّ تعالى له مرادان: كوني، وديني، فهب أنّ مراده الكوني منهم ما هم عليه، فمراده الدّينيّ الأمرىّ الشّرعيّ هو الإنكار على أصحاب المراد الكونيّ؛ فإذا عطّلت مراده الدّينيّ لم تكن واقفاً مع مراده الدّينيّ الذي يحبّه ويرضاه، ولا ينفك وقوفك مع مراده الكونيّ الذي قدره وقضاه؛ إذ لو نفعك ذلك لم يكن للشرائع معنى ألبتّة، ولا للحدود والزّواجر، ولا للعقوبات الدّنيويّة، ولا للأخذ على أيدي الظلمة والفجّار، وكفّ عدوانهم وفجورهم؛ فإنّ العارف عندك يشهد أنّ مراد الله منهم هو ذلك، وفي هذا فساد الدّنيا قبل الأديان.

فهذا المذهب الخبيث لا يصلح عليه دنيا ولا دين، ولكنّه رعونة نفسٍ قد أخذت إلى الإلحاد،

(١) كلمة (والإلحاد): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) رواه أحمد في (٢/١)، (٣٠٤/٦)، وأبو داود في «الملاحم»، باب: الأمر والنهي (٤٣٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٤٤).

(٣) في «غ» والمنار: (وأخبر أنه يمنع).

(٤) كلمة (يعلم): ساقطة من ط. الفقي، وهي موجود في «غ» والمنار.

وكفرت بدين ربّ العباد، واتخذت تعطيل الشرائع دينًا ومقامًا، ووساوس الشيطان مسامرةً وإلهامًا، وجعلت أقدار الربّ تعالى مبطلّةً لما بعث به رسله، ومعطلّةً لما (١) أنزل به كتبه، وجعلوا هذا الإلحاد غاية المعارف الإلهية، وأشرف المقامات العلية، ودعوا إلى ذلك النفوس المبطلّة الجاهلة بالله ودينه، فلبّوا دعوتهم مسرعين، واستخفّ الداعي منهم قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قومًا فاسقين (٢).

وأما قوله: «إِنَّ الْإِنكَارَ مِنْ مُعَارَضَاتِ النَّفُوسِ الْمَحْجُوبَةِ».

فلعمر الله إنهم لفي حجابٍ منيعٍ من (٣) هذا الكفر والإلحاد، ولكنهم يشرفون على أهله وهم في ضلالتهم يعمهون، وفي كفرهم يترددون، ولأتباع الرّسل يحاربون، وإلى خلاف طريقهم يدعون، وبغير هداهم يهتدون، وعن صراطهم المستقيم ناكبون، ولما جاء به يعارضون!

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (١٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿إِنَّمَا أَنْتُمْ مَبْذُورُونَ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ الْأَنْفُسَاءُ الَّتِي كَفَرْنَ مِنْكُمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٦) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٧) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿[البقرة: ٩ - ١٦].﴾

فصل

قوله: «وَتَفِيدُ مُطَالَعَةُ الْبِدَايَاتِ» يحتمل كلامه أمرين:

- أحدهما: أنّ ملاحظة عين الجمع تفيد صاحبها مطالعة السوابق التي ابتدأه الله بها، فتفيدة ملاحظة عين الجمع نظرة إلى أولية الربّ تعالى في كل شيء. ويحتمل أن يريد بالبدائيات: بدايات سلوكه، وحجّة طلبه؛ فإنّه في حال سلوكه لا يلتفت إلى ما وراءه، لشدة شغله بما بين يديه، وغلبة أحكام الهمة عليه؛ فلا يتفرّغ لمطالعة بداياته، فإذا لاحظ عين

(١) جملة (معطلّة لما): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) جزئى الله الشيخ الإمام ابن القيم عن هذا التحذير أفضل ما يجزي المؤمنين الصادقين الناصحين المخلصين. (الفتي).

(٣) في «غ» والمنار: (عن).

(٤) في «غ» والمنار: وقف النقل عند هذه الآية وقال بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا رَبِحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

الجمع قطع السلوك الأوّل، وبقي له سلوكٌ ثانٍ؛ فتنفّر حينئذٍ إلى مطالعة بداياته، ووجد اشتياقًا منه إليها.

كما قال الجنيد^(١): «وَأَشَوْقَاهُ إِلَى أَوْقَاتِ الْبِدَايَةِ».

يعني: لذّة أوقات البداية، وجمع الهمة على الطّلب، والسّير إلى الله؛ فإنّه كان مجموع الهمة على السّير والطّلب؛ فلمّا لاحظ عين الجمع فنية رسومه، وهو لا يمكنه الفناء عن بشريّته، وأحكام طبيعته، فتقاضت طباعه ما فيها، فلزمته الكلف، فارتاح إلى أوقات البدايات، لما كان فيها من لذّة الإعراض عن الخلق، واجتماع الهمة.

«وَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ^(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ عَلَى رَجُلٍ، وَهُوَ يَبْكِي مِنْ حَشِيَّةِ اللهِ؛ فَقَالَ: هَكَذَا كُنَّا حَتَّى قَسَتْ قُلُوبُنَا».

وقد أخبر النبي ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ»^(٣).

فالطّالِبُ الجادُّ لا بدّ أن تعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطّلب والاجتهاد. «وَلَمَّا فَتَرَ الْوَحْيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَغْدُو إِلَى شَوَاهِقِ الْجِبَالِ لِيُلْقِيَ نَفْسَهُ، فَيَبْدُو لَهُ جِبْرِيلُ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَطْمَئِنُّ نَفْسُهُ»^(٤).

فتخلّل الفترات للسّالِكين أمرٌ لازمٌ لا بدّ منه، فمن كانت فترته إلى مقاربةٍ وتسديدٍ، ولم تخرجه من فرضٍ، ولم تدخله في محرّمٍ رجي له أن يعود خيرًا ممّا كان.

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وأرضاه^(٥): «إِنَّ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ إِقْبَالَ وَإِدْبَارًا؛ فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَخَذُّوْهَا بِالنَّوْافِلِ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ فَالْزُمُوهَا الْفَرَائِضَ».

وفي هذه الفترات والغيوم والحجب، التي تعرض للسّالِكين من الحِكم ما لا يعلم تفصيله إلّا الله، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب.

فالكاذب: ينقلب على عقبيه، ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه.

والصّادق: ينتظر الفرج، ولا ييأس من روح الله، ويلقي نفسه بالباب طريحًا ذليلاً مسكينًا مستكينًا، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه ألبتة، ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد - وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب - لكن ليس هو منك، بل هو الذي منّ

(١) في «غ» والمنار: (رحمه الله).

(٢) لقب (الصدّيق) غير موجود في «غ» والمنار.

(٣) تقدم تخريجه (٢٦٢/١).

(٤) رواه البخاري في «التعبير»، باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة (٦٩٨٢)، وهو حديث طويل، ولكن هذه الزيادة المروية هنا من بلاغات البخاري عن الزهري وليست موصولة. انظر: «فتح الباري» (٣٧٦/١٢).

(٥) كلمة (وأرضاه): غير موجودة في «غ» والمنار.

عليك به، وجرّدك منك، وأخلاقك عنك، وهو الذي ﴿يَحْوُلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].
 فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام، فاعلم أنه يريد أن (١) يرحمك ويملاً إنياءك، فإن وضعت
 القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلبٌ مضيعٌ، فسل ربّه ومن هو بين أصابعه أن يرده عليك ويجمع
 شملك به، ولقد أحسن القائل:

إِذَا مَا وَضَعْتَ الْقَلْبَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ
 بَغَيْرِ إِنْئَاءٍ فَهُوَ قَلْبٌ مُضَيِّعٌ

فصل

ومنها الوقت

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ الْوَقْتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسِي﴾ ﴿١﴾

[طه: ٥٠] الْوَقْتُ: اسْمٌ لِيَطْرَفِ الْكَوْنِ، وَهُوَ اسْمٌ فِي هَذَا الْبَابِ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ، عَلَى
 ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

□ الْمَعْنَى الْأُولَى: حِينَ وَجِدَ صَادِقٍ لِإِيْنَابِ صِبْيَاءٍ فَضِلَّ جَذْبَهُ صَفَاءَ رَجَاءٍ، أَوْ لِعِصْمَةِ
 جَذْبِهَا صِدْقُ خَوْفٍ، أَوْ لِيَلْتَلِبُ شَوْقٍ جَذْبَهُ اشْتِعَالٍ (٢) مَحَبَّةٍ».

وجه استشهاده بالآية: أن الله سبحانه قدّر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت إليه؛ فإن العرب
 تقول: جاء فلانٌ على قدرٍ؛ إذا جاء وقت الحاجة إليه؛ قال جريرٌ:

نَالَ الْخِلَافَةَ إِذْ كَانَتْ عَلَيَّ قَدْرٌ
 كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَىٰ عَلَيَّ قَدْرٌ

وقال مجاهدٌ: «عَلَىٰ مَوْعِدٍ». وهذا فيه نظرٌ؛ لأنّه لم يسبق بين الله سبحانه وبين موسى موعداً
 للمجيء، حتّى يقال: إنّه أتى على ذلك الموعد.

ولكن وجه هذا: أنّ المعنى: جئت على الموعد الذي وعدنا (٣) أن ننجزه، والقدر الذي
 قدرنا (٤) أن يكون في وقته، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ

(١) جملة (يريد أن): ساقطة من «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (اشتغال).

(٣) في «غ» والمنار: (وعدنا).

(٤) في «غ» والمنار: (قدرناه).

سَجَدًا ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٧٨﴾ [الإسراء: ١٧٧، ١٧٨]؛ لَأَنَّ اللَّهَ بَرَسًا وَعَدَّ بِإِرْسَالِ نَبِيِّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ نُورًا وَهُدًى، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْجَزَ ذَلِكَ الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدَّ بِهِ.

واستشهاده بهذه الآية يدلُّ على محلِّه من العلم؛ لأنَّ الشَّيء إذا وقع في وقته الَّذي هو أليقُّ الأوقات بوقوعه فيه، كان أحسن وأنفع وأجدى، كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات إليه، وكما إذا وقع الفرج في الوقت الَّذي يليق به، ومن تأمَّل أقدار الرَّبِّ تعالَى وجريانها في الخلق علم أنَّها واقعةٌ في أليقِّ الأوقات بها.

فَبَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُوسَى أَحْوَجَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَى بَعْتِهِ، وَبَعَثَ عِيسَى كَذَلِكَ، وَبَعَثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَحْوَجَ مَا كَانَ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى إِرْسَالِهِ؛ فَهَكَذَا وَقْتُ الْعَبْدِ مَعَ اللَّهِ يَعْمُرُهُ بِأَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَى عِمَارَتِهِ.

قوله: «الْوَقْتُ: ظَرْفُ الْكَوْنِ» الوقت: عبارةٌ عن مقارنةٍ حادثٍ لحادثٍ عند المتكلمين، فهو نسبةٌ بين حادثين؛ فقوله: «ظَرْفُ الْكَوْنِ» أي: وعاء التَّكوين، فهو الوعاء الزمانيُّ الَّذي يقع فيه التَّكوين، كما أنَّ ظرف المكان هو الوعاء المكانيُّ الَّذي يحصل فيه الجسم، ولكنَّ الوقت في اصطلاح القوم أخصُّ من ذلك.

قال أبو عليٍّ الدَّقَاقِ: «الْوَقْتُ مَا أَنْتَ فِيهِ؛ فَإِنْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا فَوَقْتُكَ الدُّنْيَا، وَإِنْ كُنْتَ بِالْعُقْبَى فَوَقْتُكَ الْعُقْبَى، وَإِنْ كُنْتَ بِالسُّرُورِ فَوَقْتُكَ السُّرُورُ، وَإِنْ كُنْتَ بِالْحُزْنِ فَوَقْتُكَ الْحُزْنُ».

يريد: أنَّ الوقت ما كان الغالب على الإنسان من حاله.

وقد يريد: أنَّ الوقت ما بين الزَّمانين الماضي والمستقبل، وهو اصطلاح أكثر الطائفة؛ ولهذا يقول: الصُّوفِيُّ والفَقِيرُ ابن وقته.

يريدون: أنَّ هَمَّتَهُ لا تتعدَّى وظيفة عمارته بما هو أولى الأشياء به، وأنفعها له، فهو قائمٌ بما هو مطالبٌ به في الحين والسَّاعة الرَّاهنة؛ فهو لا يهتمُّ بماضي وقته وآتية، بل يهتمُّ^(١) بوقته الَّذي هو فيه؛ فَإِنَّ الاِشْتِغَالَ بِالْوَقْتِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ يَضِيعُ الْوَقْتُ الْحَاضِرَ، وَكَلَّمَا حَضَرَ وَقْتُ اشْتِغَالِ عَنْهُ بِالطَّرْفَيْنِ، فَتَصِيرُ أَوْقَاتُهُ كُلُّهَا فَوَاتٍ^(٢).

(١) كلمة (يهتم): غير موجودة «غ» والمنار.

(٢) لا يلد للمؤمن العاقل المتأمل في سنن الله في نفسه وفي الآفاق: ألا ينسى ماضيه بكل ما فيه، لأن له أكبر الأثر في حاضره من سيئات وحسنات؛ فإن الحسنات تولد حسنات، والسيئات تولد سيئات، ولا بد أن يضع المؤمن اليقظ نصب عينه دائماً الوقت الآخر، ليستعد له ويتهيأ بكل قواه: أن يكون صالحاً مرضياً، وهكذا من تفقه في سيرة الرسول ﷺ عرف ذلك جيداً، ولا يقتصر همه على وقته الحاضر إلا اللاهون المسرفون على أنفسهم الذين يظنون بالله الظنون السيئة، فلا يدينون بسؤال ولا حساب ولا جزاء بالعدل المطلق. (الفقي).

قال الشافعي رحمته الله: «صَحِبْتُ الصُّوفِيَّةَ، فَمَا انْتَفَعْتُ مِنْهُنَّ إِلَّا بِكَلِمَتَيْنِ، سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ: الْوَقْتُ سَيْفٌ فَإِنْ قَطَعْتَهُ وَإِلَّا قَطَعَكَ، وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ وَإِلَّا شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ».

قلت: يا لهما من كلمتين، ما أنفعهما وأجمعهما، وأدلّهما على علو همة قائلهما، ويقظته، ويكفي في (١) هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم (٢).

وقد يريدون بالوقت ما هو أخص من هذا كله، وهو ما يصادفهم في تصريف الحق لهم، دون ما يختارونه لأنفسهم، ويقولون: فلان بحكم الوقت؛ أي: مستسلم لما يأتي من عند الله من غير اختيار.

وهذا يحسن في حال، ويحرم في حال، وينقص صاحبه في حال؛ فيحسن في كل موضع ليس لله على العبد فيه أمر ولا نهى، بل في موضع جريان الحكم الكوني الذي لا يتعلق به أمر ولا نهى، كالفقر والمرض، والغربة والجوع، والألم والحر والبرد، ونحو ذلك.

ويحرم في الحال التي يجري عليه فيها الأمر والنهي والقيام بحقوق الشرع، فإن التضييع لذلك والاستسلام والاسترسال مع القدر انسلاخ من الدين بالكلية، وينقص صاحبه في حال تقتضي قياما بالنوافل وأنواع البر والطاعة.

وإذا أراد الله بالعبد خيرا أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعدا له، وإذا أراد به شرا جعل وقته عليه، وناكده وقته؛ فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول كلما همّت نفسه بالعود أقامه الوقت وساعده.

وقد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام: أصحاب السوابق، وأصحاب العواقب، وأصحاب الوقت، وأصحاب الحق.

قال: «فَأَمَّا أَصْحَابُ السَّوَابِقِ: فَقُلُوبُهُمْ أَبَدًا فِيمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الْحُكْمَ الْأَزَلِيَّ لَا يَتَغَيَّرُ بِاِكْتِسَابِ الْعَبْدِ.

وَيَقُولُونَ: مَنْ أَفْضَتْهُ السَّوَابِقُ لَمْ تُدْنِهِ الْوَسَائِلُ، فَفَكَرُهُمْ فِي هَذَا أَبَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يَجِدُونَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَوْامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرْبِ، غَيْرَ وَاثِقِينَ بِهَا، وَلَا مُلْتَفِتِينَ إِلَيْهَا، وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ:

مِنْ أَيْسَنِ أَرْضِيكَ إِلَّا أَنْ تُوَفَّقَنِي هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا التَّوَفِّيقُ مِنْ قِبَلِي

تعلیق: ويمكن أن يكون لكلام ابن القيم رحمه الله تعالى وجه، وهو أن العبد في سيره إلى الله ينبغي أن يصرف همه الأكبر إلى القيام بما يجب عليه الله تعالى في الساعة التي هو فيها، ولا ينشغل عنه بالنظر في الماضي أو المستقبل: ماذا فعل وماذا سيفعل، ولا يلزم من هذا نسيان ما لا يجوز نسيانه من ماضيه ولا ترك الاستعداد لمستقبل أيامه ولياليه.

(١) كلمة (في): غير موجودة (غ) والمنار.

(٢) ليس في قول الشافعي ما يدل على ثناء مطلقا عليهم. (الفتي).

إِنْ لَمْ يَكُنْ لِي فِي الْمَقْدُورِ سَابِقَةٌ
فَلَيْسَ يَنْفَعُ مَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلِي
وَأَمَّا أَصْحَابُ الْعَوَاقِبِ: فَهُمْ مُتَّفَكِّرُونَ فِيمَا يُخْتَمُ بِهِ أَمْرُهُمْ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ بِأَوَاخِرِهَا، وَالْأَعْمَالَ
بِخَوَاتِيمِهَا، وَالْعَاقِبَةَ مَسْتُورَةً، كَمَا قِيلَ:
لَا يَغُرَّتْكَ صَمًا الْأَوْقَاتِ فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الْأَقَاتِ

فَكَمْ مِنْ رَبِيعٍ نَوَّرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهُ، وَرَهَتْ ثِمَارُهُ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ
سَمَآوِيَّةٌ؛ فَصَارَ كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ
عَلَيْهَا﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [يونس: ٢٤].

فَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ كَبَّابِهِ جَوَادُ عَزْمِهِ
وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ - وَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُ خِلَافٌ مَا كَانَ يُعْهَدُ عَلَيْهِ -: مَا الَّذِي أَصَابَكَ؟ فَقَالَ: حِجَابٌ
وَقَعَ، وَأَنْشَدَ:

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَبَامِ إِذْ حَسَنْتَ
وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَّتْ بِهَا
وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ
وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ
لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ؟ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا؟
تَعْجَبِينَ مِنْ سَقَمِي صَحْتِي هِيَ الْعَجَبُ

النَّاكِصُونَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ مِنْ اقْتِحَمِ الْعَقَبَةَ:

خُذْ مِنَ الْأَلْفِ وَاحِدًا وَاطَّرِحِ الْكُلَّ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَمَّا أَصْحَابُ الْوَقْتِ: فَلَمْ يَشْتَعِلُوا بِالسَّوَابِقِ، وَلَا بِالْعَوَاقِبِ، بَلِ اشْتَعَلُوا بِمِرَاعَةِ الْوَقْتِ، وَمَا
يَلْزَمُهُمْ مِنْ أَحْكَامِهِ، وَقَالُوا: الْعَارِفُ ابْنُ وَقْتِهِ، لَا مَاضِي لَهُ وَلَا مُسْتَقْبَلٌ.
وَرَأَى بَعْضُهُمُ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَنَامِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: أَوْصِنِي، فَقَالَ لَهُ: كُنْ ابْنَ وَقْتِكَ.
وَأَمَّا أَصْحَابُ الْحَقِّ: فَهُمْ مَعَ صَاحِبِ الْوَقْتِ وَالزَّمَانِ، وَمَالِكِهِمَا وَمُدْبِرِهِمَا، مَاخُودُونَ بِشُهُودِهِ
عَنْ مُشَاهَدَةِ الْأَوْقَاتِ، لَا يَتَفَرَّغُونَ لِمِرَاعَةِ وَقْتٍ وَلَا زَمَانٍ، كَمَا قِيلَ:

لَسْتُ أَذْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَذْرِي بِذَاكَ مَنْ يَتَقَلَّلِي

(١) كلمة (لا): ساقطة من «غ» والمنار.

لَو تَفَرَّغْتُ لِاسْتِطَالَةِ لَيْلِي وَلِرَغِي النَّجُومِ كُنْتُ مُخَلِّي
 إِنَّ لِلْعَاشِقِينَ عَن قِصْرِ اللَّيْلِ لِعَن طُولِهِ مِنَ الْعُشْقِ شُغْلًا
 قَالَ الْجُنَيْدُ: «دَخَلْتُ عَلَى السَّرِيِّ يَوْمًا؛ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ أَصَبَحْتَ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:
 مَا فِي النَّهَارِ وَلَا فِي اللَّيْلِ لِي فَرَجٌ فَلَا أَبَالِي أَطَالَ اللَّيْلُ أَمْ قَصُرَا
 ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ.
 يُشِيرُ إِلَيَّ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَطَلِّعٍ إِلَى الْأَوْقَاتِ، بَلْ هُوَ مَعَ الَّذِي يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «الوقت: اسمٌ في هذا البابٍ لثلاثٍ معانٍ:

المعنى الأول: حينٌ وجدٍ صادقٍ».

أي: وقت وجدٍ صادقٍ؛ أي: زمنٌ من وجدٍ يقوم بقلبه، وهو صادقٌ فيه، غير متكلفٍ له، ولا متعمِّلٍ في تحصيله.

«يَكُونُ مُتَعَلِّقُهُ إِيْنَانُ ضِيَاءِ فَضْلِ». أي: رؤية ذلك، والإيناس الرؤية، قال الله تعالى: ﴿لَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] وليس هو مجرد الرؤية، بل رؤية ما يأنس به القلب، ويسكن إليه، ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفًا آنسه.

ومقصوده: أن هذا الوقت وقت وجدٍ، صاحبه صادقٌ فيه لرؤيته ضياء فضل الله ومثته عليه، والفضل هو العطاء الذي لا يستحقه المعطى، أو يعطى فوق استحقاقه؛ فإذا آنس هذا الفضل، وطالعه بقلبه أثار ذلك فيه وجدًا آخر، باعثًا على محبة صاحب الفضل والشوق إلى لقاءه، فإن النفوس مجبولة على حبٍّ من أحسن إليها.

ودخلت يومًا على بعض أصحابنا، وقد حصل له وجدٌ أبكاه، فسألته عنه؟ فقال: ذكرت ما منَّ الله به عليّ من السنّة ومعرفتها، والتخلُّص من شبه القوم وقواعدهم الباطلة، وموافقة العقل الصريح، والفترة السليمة لما جاء به الرسول ﷺ؛ فسرّني ذلك حتى أبكاني.

فهذا الوجد أثاره إيناس فضل الله ومثته.

قوله: «جَذَبَهُ صَفَاءُ رَجَاءٍ».

أي: جذب ذلك الوجد أو الإيناس، أو الفضل رجاءً صافٍ غير مكدرٍ، والرَّجَاءُ الصَّافِي هو الذي لا يشوبه كدر (١) توهم معاوضة منك (٢)، وأنَّ عملك هو الذي بعثك على الرَّجَاءِ، فصفاء الرَّجَاءِ يخرجُه عن ذلك، بل يكون رجاءً محضاً لمن هو مبتدئك بالنعم من غير استحقاقك، والفضل كلُّه له ومنه، وفي يده -أسبابه وغاياته، ووسائله، وشروطه، وصرف موانعه- كلُّها (٣) بيد الله، لا يستطيع العبد أن ينال منه شيئاً بدون توفيقه وإذنه ومشيتته.

وملخص (٤) ذلك: أنَّ الوقت في هذه الدرَّجة الأولى عبارة عن وجدٍ صادقٍ، سببه رؤية فضل الله على عبده؛ لأنَّ رجاءه كان صافياً من الأكدار.

قوله: «أَوْ لِعِصْمَةٍ جَذَبَهَا صِدْقُ خَوْفٍ» اللام في قوله: «أَوْ لِعِصْمَةٍ» معطوفٌ على اللام في قوله: «أَوْ لِإِينَاسٍ ضِيَاءٍ فَضْلٍ»؛ أي وجدٍ لعصمةٍ جذبها صدق خوفٍ؛ فاللام ليست للتعليل، بل هي على حدِّها في قولك: ذوقٌ لكذا، ورؤيةٌ لكذا؛ فمتعلِّق الوجد عصمةٌ وهي منعةٌ وحفظٌ ظاهرٌ وباطنٌ، جذبها صدق خوفٍ من الرَّبِّ سبحانه.

والفرق بين الوجد في هذه الدرَّجة والتي قبلها: أنَّ الوجد في الأولى جذبه صدق الرَّجاء، وفي الثانية جذبه صدق الخوف، وفي الثالثة -التي ستذكر- جذبه صدق الحبِّ؛ فهو معنى قوله: «أَوْ لِتَلَهُّبِ سَوْقٍ جَذَبَهُ اشْتِعَالٌ مَحَبَّةً».

وخدمته التَّورية في اللَّهيب والاشتعال، والمحبَّة متى قويت اشتعلت نارها في القلب، فحدث عنها لهيب الاشتياق إلى لقاء الحبيب.

وهذه الثلاثة، التي تضمَّنتها هذه الدرَّجة -وهي: الحبُّ والخوف والرَّجاء- هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له، وهي أساس السُّلوك والسَّير إلى الله؛ وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية، وعليها دارت رحى الأعمال، والله أعلم.

(١) كلمة (كدر): غير موجودة في «غ».

(٢) في المنار: (هو الذي لا كدر يشوبه بهم معاوضة منك).

(٣) في «غ» والمنار: (كل).

(٤) في «غ» والمنار: (ويلخص).

فصل

□ قال: «والمعنى الثاني: اسمٌ لطريق سالك، يسيرُ بينَ تمكّنٍ وتلَوْنٍ، لكنَّهُ إلى التَّمكّنِ ما هو يسلكُ الحالَ، ويَلْتَفِتُ إلى العِلْمِ، فالعِلْمُ يشغلهُ في حين، والحالُ يحملهُ في حين، فبِلاؤُهُ بينهما يُدَيِّقُهُ شُهودًا طَوْرًا، وَيَكْسُوهُ عِبْرَةً طَوْرًا، وَيُربِيهِ غَيْرَةً تَفَرِّقُ طَوْرًا».

هذا المعنى: هو المعنى الثاني من المعاني الثلاثة من معاني الوقت عنده.

قوله: «اسمٌ لطريق سالك» هو على الإضافة؛ أي: لطريق عبد سالك.

قوله: «يسيرُ بينَ تمكّنٍ وتلَوْنٍ» أي: ذلك العبد يسير بين تمكّنٍ وتلَوْنٍ، والتَّمكّنُ هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال، والتَّلَوْنُ في هذا الموضع خاصة: هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالعلم؛ فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينًا، والعلم يلوّنه بحسب متعلقاته وأحكامه.

قوله: «لكنَّهُ إلى التَّمكّنِ ما هو يسلكُ الحالَ، ويَلْتَفِتُ إلى العِلْمِ».

يعني: أن هذا العبد هو سالكٌ إلى التَّمكّنِ ما دام يسلكُ الحالَ ويلتفتُ إلى العلم، فأما إن سلك العلم والتفتُ إلى الحال لم يكن سالكًا إلى التَّمكّنِ.

فالسالكون ضربان:

- سالكون على الحال، ملتفتون إلى العلم، وهم إلى التَّمكّنِ أقرب.

- وسالكون على العلم، ملتفتون إلى الحال، وهم إلى التَّلَوْنِ أقرب، هذا حاصل كلامه.

وهذه الثلاثة: هي المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال، حتّى كأنّهما غيران وحزبان، وكلُّ فرقةٍ

منهما لا تأنس بالأخرى، ولا تعاشرها إلّا على إغماضٍ ونوع استكراهٍ.

وهذا من تقصير الفريقين؛ حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم، وضعف الآخر عن الحال

في العلم، فلم يتمكّن كلُّ منهما من الجمع بين الحال والعلم، فأخذ هؤلاء العلم وسعته ونوره،

ورجّحوه؛ وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ورجّحوه، وصار الصادق الضعيف من الفريقين يسير

بأحدهما ملتفتًا إلى الآخر.

فهذا مطيعٌ للحال، وهذا مطيعٌ للعلم، لكنّ المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعًا

محبوبًا، وإن كان له من الحال ما عساه أن يكون، والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان

مضيّعًا منقوصًا، مشتغلًا بالوسيلة عن الغاية.

وصاحب التمكنين: يتصرّف علمه في حاله، ويحكم عليه فينقاد لحكمه، ويتصرّف حاله في علمه، فلا يدعه أن يقف معه، بل يدعوه إلى غاية العلم، فيجيبه ويلبّي دعوته، فهذه حال الكمّل من هذه الأُمَّة، ومن استقرأ أحوال الصّحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك.

فلمّا فرّق المتأخّرون بين الحال والعلم دخل عليهم النقص والخلل، والله المستعان: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَبَهَبَ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۗ أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]؛ فكذلك يهب لمن يشاء علمًا، ولمن يشاء حالًا، ويجمع بينهما لمن يشاء، ويخلي منهما من يشاء (١).

قوله: «فَالْعِلْمُ يَشْغَلُهُ فِي حِينٍ».

أي: يشغله عن السلوك إلى تمكّن الحال؛ لأنّ العلم متنوّع التعلّقات فهو يفرّق، والحال يجمع؛ لأنّه يدعوه إلى الفناء، وهناك سلطان الحال.

قوله: «وَالْحَالُ يَحْمِلُهُ فِي حِينٍ».

أي: يغلب عليه الحال تارةً فيصير محمولًا بقوة الحال وسلطانه على السلوك، فيشتدّ سيره بحكم الحال؛ يعني: وإذا غلبه العلم شغله عن السلوك، وهذا هو المعهود من طريقة المتأخّرين: أنّ العلم عندهم (٢) يشغل عن السلوك؛ ولهذا يعدّون السالك من سلك على الحال ملتفتًا عن العلم.

وأما على ما قرّناه - من أنّ العلم يعين على السلوك، ويحمل عليه، ويكون صاحبه سالكًا به وفيه - فلا يشغله العلم عن سلوكه، وإن أضعف سيره على درب الفناء، فلا ريب أنّ العلم لا يجمع الفناء؛ فالفناء ليس هو غاية السالكين إلى الله، بل ولا هو لازمٌ من لوازم الطريق، وإن كان عارضًا من عوارضها، يعرض لغير الكمّل، كما تقدّم تقرير ذلك، فبيّن أنّ الفناء الكامل الذي هو الغاية المطلوبة هو الفناء عن محبّة ما سوى الله وإرادته، فيفنى بمحبّة الله عن محبّة ما سواه، وإرادته ورجائه، والخوف منه، والتوكّل عليه، والإنابة إليه عن إرادة ما سواه وخوفه ورجائه والتوكّل عليه.

وهذا الفناء لا ينافي العلم بحالٍ، [ولا يشغل عن العلم] (٣)، ولا يحول بين العبد وبينه، بل قد يكون في أغلب الأحوال من أعظم أعوانه، وهذا أمرٌ غفل عنه أكثر المتأخّرين؛ بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه، ولكن لم يخل الله الأرض من قائمٍ به داعٍ إليه.

قوله: «فَبَلَاؤُهُ بَيْنَهُمَا»؛ أي: عذابه وألمه بين داعي الحال وداعي العلم، فإيمانه يحمله على

(١) في «غ» والمنار: (ويخلي من يشاء منهما).

(٢) كلمة (عندهم): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي وقد أثبتناه من نسخة «غ» والمنار.

إجابة داعي العلم، ووارده يحمله على إجابة داعي الحال؛ فيصير كالغريم بين مطالبين، كل منهما يطالبه بحقه، وليس بيده إلا ما يقضي أحدهما.

وقد عرفت أن هذا من الضيق، وإلا فمع السعة يوفى كلاً منهما حقه.

قوله: «يُذِيْقُهُ شُهُودًا طَوْرًا» أي: ذلك البلاء الحاصل بين الداعين يذيقه شهودًا طورًا، وهو الطور الذي يكون الحاكم عليه فيه هو العلم.

قوله: «وَيَكْسُوهُ عِبْرَةً طَوْرًا» الظاهر: أنه عبرة بالبلاء الموحدة والعين؛ أي: اعتبارًا بأفعاله، واستدلالًا عليه بها؛ فإنه سبحانه دل على نفسه بأفعاله؛ فالعلم يكسو صاحبه اعتبارًا واستدلالًا على الرب بأفعاله، ويصح أن يكون غيرةً بالعين المعجمة^(١)، والياء المثناة من تحت، ومعناه: أن العلم يكسوه غيرة^(٢) من حجابته عن مقام صاحب الحال، فيغار^(٣) من احتجابه عن الحال بالعلم، وعن العيان بالاستدلال، وعن الشهود الذي هو مقام الإحسان بالإيمان، الذي هو إيمان بالغيب.

قوله: «وَيُزِيْرُهُ غَيْرَةً تَفَرِّقُ طَوْرًا» هذا بالعين المعجمة ليس إلا؛ أي: ويريه العلم غيرة تفرقة في أوديته، فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم، وهو حال صحو وتمييز.

وكأن الشيخ يشير إلى أن صاحب هذا المقام تغار تفرقته من جمعيته على الله، فنفسه تفر من الجمعية على الله إلى تفرق العلم؛ فإنه لا أشق على النفوس من جمعيتها على الله، فهي تهرب من الله إلى الحال تارة، وإلى العمل تارة، وإلى العلم تارة، هذه نفوس السالكين الصادقين^(٤).

وأما من ليس من أهل هذا الشأن: فنفسهم تفر من الله إلى الشهوات والراحات، فأشق ما على النفوس جمعيتها على الله، وهي تناشد صاحبها: ألا يوصلها إليه، وأن يشغلها بما دونه؛ فإن حبس النفس على الله شديد، وأشد منه حبسها على أوامره، وحبسها عن نواهيها؛ فهي دائمًا ترضيك بالعلم عن العمل، وبالعمل عن الحال، وبالحال عن الله ﷻ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد متزر سيره إلى الله، وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه.

وقد تضمن كلامه في هذه الدرجة ثلاث درجات - كما أشار إليه -: درجة الحال، ودرجة العلم، ودرجة التفرقة بين الحال والعلم، وهذه الثلاث الدرجات هي المختصة بالمعنى الثاني من معاني الوقت، والله أعلم.

(١) في «غ» والمنار: (عيرة) بالعين المهملة.

(٢) في «غ» والمنار: (عيرة).

(٣) في «غ» والمنار: (فيغار).

(٤) كيف يكون العلم نافعًا، والعمل صالحًا، والعامل صادقًا، ويفرقه علمه وعمله عن الله؟! هذا أمر عجيب جد العجب. (الفتي).

فصل

□ قال: «والمعنى الثالث، قالوا: الوقت الحق، أرادوا به: استغراق رسم الوقت في وجود الحق، وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندي، لكنه هو اسم في هذا المعنى الثالث، لحين تتلأسى فيه الرسوم كشفًا، لا وجودًا محضًا، وهو فوق البرق والوجد، وهو يُشارف^(١) مقام الجمع، لو دام وبقي، ولا يبلغ وادي الوجود، لكنه يكفي^(٢) مؤنة المعاملة، ويصفي عين المسامرة، ويشم روائح الوجود».

هذا المعنى الثالث من معاني الوقت أخص مآ قبله، وأصعب تصوّرًا وحصولًا، فإنّ الأوّل: وقت سلوك يتلّون، وهذا وقت كشف يتمكّن، ولذلك أطلقوا عليه اسم الحقّ لغلبة حكمه على قلب صاحبه، فلا يُحسُّ برسم الوقت، بل يتلأشى ذكر وقته من قلبه، لما قهر من نور الكشف.

فقوله: «قالوا: الوقت هو الحق».

يعني: أنّ بعضهم أطلق اسم الحقّ على الوقت، ثمّ فسّر مرادهم بذلك، وأنّهم عناه به استغراق رسم الوقت في وجود الحقّ، ومعنى هذا: أنّ السالك بهذا المعنى الثالث للحقّ^(٣): (إذا اشتدّ استغراقه في وقته)^(٤) يتلأشى عنه وقته بالكلية.

وتقريب هذا إلى الفهم: أنّه إذا شهد استغراق وقته الحاضر في ماهية الزّمان، فقد استغرق الزّمان رسم الوقت إلى ما هو جزءٌ يسيرٌ جدًّا من أجزائه، وانغمر فيه، كما تنغمر القطرة في البحر، ثمّ إنّ الزّمان - المحدود الطرفين - يستغرق رسمه في وجود الدّهر، وهو ما بين الأزل والأبد، ثمّ إنّ الدّهر يستغرق رسمه في دوام الرّبّ جلّ جلاله، وذلك الدّوام هو صفة الرّبّ، فهناك يضمحلّ الدّهر والزّمان والوقت، ولا يبقى له نسبةٌ إلى دوام الرّبّ جلّ جلاله ألبيته، فاضمحلّ الزّمان والدّهر والوقت في الدّوام الإلهي، كما تضمحلّ

(١) في «غ» والمنار: (يفارق).

(٢) في «غ» والمنار: (يلقى).

(٣) كلمة (للحق): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) في «غ» والمنار: (إذا شهد استغراق وقته في وجود الحق).

الأنوار المخلوقة في نوره، وكما يضمحل علم الخلق في علمه، وقدرتهم في قدرته، وجمالهم في جماله، وكلامهم في كلامه، بحيث لا يبقى للمخلوق نسبة ما إلى صفات الربّ جلّ جلاله.

والقوم إذا أطلق أهل الاستقامة منهم «مَا فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ» أو «مَا تَمَّ مَوْجُودٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهُ» أو «هُنَاكَ يَنْقُي مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ»، ونحو ذلك من العبارات، فهذا مرادهم، لاسيما إذا حصل هذا الاستغراق في الشهود كما هو في الوجود، وغلب سلطانه على سلطان العلم، وكان العلم مغمورًا بوارده، وفي قوة التمييز ضعف، وقد توارى العلم بالشهود وحكم الحال.

فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، وتزلّ أقدام كثيرة إلى الحضيض الأدنى، ولا ريب أنّ وجود الحقّ سبحانه ودوامه يستغرق وجود كل ما سواه ووقته وزمانه؛ بحيث يصير كأنه لا وجود له.

ومن هنا غلط القائلون بوحدة الوجود، وظنوا أنه ليس لغيره وجودًا ألبتة، وغرهم كلمات مشبهات جرت على ألسنة أهل الاستقامة من الطائفة؛ فجعلوها عمدة لكفرهم وضلالهم، وظنوا أنّ السالكين سيرجعون إليهم، وتصير طريقة الناس واحدة: ﴿وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَعَّرَ نُورُهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قوله: «وَهَذَا الْمَعْنَى يَسْبِقُ عَلَى هَذَا الْإِسْمِ عِنْدِي».

يريد: أنّ «الحقّ» سابق على الاسم الذي هو «الوقت» أي: منزّه^(١) عن أن يسمّى بالوقت؛ فلا ينبغي إطلاقه عليه، لأنّ الأوقات حادثّة.

قوله: «لَكِنَّهُ اسْمٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى الثَّالِثِ، لِجِنِّ تَتَلَشَّى فِيهِ الرُّسُومُ كَشْفًا لَا وُجُودًا مَحْضًا».

تلاشي الرُّسوم: اضمحلها وفناؤها، والرُّسوم عندهم: ما سوى الله.

وقد صرح الشيخ أنّها [إنّما تتلاشى في الكشف لا في الوجود العينيّ الخارجيّ؛ فإنّ تلاشيها في الوجود خلاف الحسّ والعيان و]^(٢) إنّما تتلاشى في وجود العبد الكشفيّ؛ بحيث لا يبقى فيه سعة للإحساس بها، لما استغرقه من الكشف؛ فهذه عقيدة أهل الاستقامة من القوم.

وأما الملاحظة، أهل وحدة الوجود، فعندهم: أنّها لم تزل متلاشيّة في عين وجود الحقّ، بل وجودها هو نفس وجوده، وإنّما كان الحسّ يفرّق بين الوجودين؛ فلمّا غاب عن حسّه بكشفه، تبين أنّ وجودها هو عين وجود الحقّ.

(١) في «غ» والمنار: (أي هو منزّه).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. الفقهي، ومثبت من نسخة «غ» والمنار.

ولكنَّ الشَّيخَ كَأَنَّهُ عَبَّرَ بالكشف والوجود عن المقامين اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا فِي كتابه، والكشف هو دون الوجود عنده؛ فَإِنَّ الكشف يكون مع بقاء بعض رسوم صاحبه؛ فليس معه استغراقٌ في الفناء، والوجود لا يكون معه رسمٌ باقٍ؛ ولذلك قال: «لَا وُجُودًا مَحْضًا»، فَإِنَّ الوجود المحض عنده يفني الرسوم؛ وبكُلِّ حالٍ فهو يفنيها من وجود الواجد، لا يفنيها في الخارج.

وسرُّ المسألة: أَنَّ الواصل إلى هذا المقام يصير له وجودٌ آخر غير وجوده الطَّبِيعِيِّ المشترك بين جميع الموجودات، ويصير له نشأةٌ أخرى لقلبه وروحه، نسبة النشأة الحيوانية إليها كنسبة النشأة في بطن الأمِّ إلى هذه النشأة المشاهدة في العالم، وكنسبة هذه النشأة إلى النشأة الأخرى.

فللعبد أربع نشآتٍ: نشأةٌ في الرَّحْمِ؛ حيث لا بصر يدركه ولا يد تناله، ونشأةٌ في الدُّنْيَا، ونشأةٌ في البرزخ، ونشأةٌ في المعاد الثاني^(١)، وكلُّ نشأةٍ أعظم من التي قبلها، وهذه النشأة للروح والقلب أصلاً، وللبدن تبعاً.

فللروح في هذا العالم نشأتان:

- إحداهما: النشأة الطَّبِيعِيَّةُ المشتركة.

- والثانية: نشأةٌ قَلْبِيَّةٌ روحانيَّةٌ، يولد بها قلبه، وينفصل عن^(٢) مشيمة طبعه، كما ولد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن.

ومن لم يصدِّق بهذا فليضرب عن هذا صفحاً، وليشتغل بغيره.

وفي كتاب «الزُّهْدِ» للإمام أحمد: «أَنَّ الْمَسِيحَ ﷺ قَالَ لِلْحَوَارِيِّينَ: إِنَّكُمْ لَنْ تَلْجُوا مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ حَتَّى تُوَلَّدُوا مَرَّتَيْنِ».

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «هِيَ وِلَادَةُ الْأَرْوَاحِ وَالْقُلُوبِ مِنَ الْأَبْدَانِ، وَخُرُوجُهَا مِنْ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ، كَمَا وُلِدَتْ الْأَبْدَانُ مِنَ الْبَدَنِ وَخَرَجَتْ مِنْهُ، وَالْوِلَادَةُ الْأُخْرَى: هِيَ الْوِلَادَةُ الْمَعْرُوفَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

قوله: «وَهُوَ فَوْقَ الْبَرْقِ وَالْوَجْدِ».

يعني: أَنَّ هذا الكشف الَّذِي تلاشت فيه الرسوم فوق منزلي البرق والوجد، فَإِنَّهُ أَثْبَتَ وَأَدْوَمَ، والوجود فوقه؛ لِأَنَّهُ يشعر بالدوام.

(١) كلمة (الثاني): غير موجودة في «غ».

(٢) في «غ» والمنار: (من).

قوله: «وَهُوَ يُشَارِفُ مَقَامَ الْجَمْعِ لَوْ دَامَ».

أي: لو دام هذا الوقت لشارف مقام الجمع وهو ذهاب شعور القلب بغير الحق ﷻ، شغلاً به عن غيره؛ فهو جمعٌ في الشُّهود.

وعند الملاحظة: هو جمعٌ في الوجود.

ومقصوده: أنه لو دام الوقت بهذا المعنى الثالث لشارف حضرة الجمع؛ لكنه لا يدوم.

قوله: «وَلَا يَبْلُغُ وَادِي الْوُجُودِ».

يعني: أن الوقت المذكور لا يبلغ السالك فيه وادي الوجود حتى يقطعه، ووادي الوجود: هو حضرة الجمع.

قوله: «لَكِنَّهُ يَلْقَى (١) مُؤَنَّةَ الْمُعَامَلَةِ».

يعني: أن الوقت المذكور - وهو الكشف المشارف لحضرة الجمع - يخفف عن العامل أثقال المعاملة مع قيامه بها أتم القيام، بحيث تصير هي الحاملة له؛ فإنه كان يعمل على الخبر، فصار يعمل على العيان، هذا مراد الشيخ.

وعند الملحد: أنه يفنى عن المعاملات الجسمائية، ويردُّ صاحبه إلى المعاملات القلبية، وقد تقدّم إشباع الكلام في هذا المعنى.

قوله: «وَيُصَفِّي عَنِ الْمَسَامَرَةِ».

المسامرة عند القوم: هي الخطاب القلبيُّ الرُّوحِي بين العبد وربِّه، وقد تقدّم أن تسميتها بالمناجاة أولى، فهذا الكشف يخلص عن المسامرة من ذكر غير الحقِّ سبحانه ومناجاته.

قوله: «وَيَسْمُ رَوَائِحِ (٢) الْوُجُودِ».

أي: صاحب مقام هذا الوقت الخاصَّ يشمُّ روائح الوجود، وهو حضرة الجمع، فإنَّهم يسمُّونها بالجمع والوجود، ويعنون بذلك: ظهور وجود الحقِّ سبحانه، وفناء وجود ما سواه.

وقد عرفت أن فناء وجود ما سواه بأحد اعتبارين: إمَّا فناؤه من شهود العبد فلا يشهده، وإمَّا اضمحلاله وتلاشيه بالنسبة إلى وجود الرّبِّ، ولا تلتفت إلى غير هذين المعنيين، فهو إلحادٌ وكفرٌ، والله المستعان.

(١) في «غ»: (يكفي).

(٢) في «غ» والمنار: (رائحة).

فصل ومنها منزلة الصِّفاء

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ الصِّفَاءِ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَيْتُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)﴾ [ص: ٤٧]، الصِّفَاءُ اسْمٌ لِلْبِرَاءَةِ مِنَ الْكَدْرِ، وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ سُقُوطُ التَّلْوِينِ».

أما الاستشهاد بالآية: فوجهه أَنَّ المصطفى مفتعلٌ من الصِّفوة، وهي خلاصة الشيء، وتصفيته ممَّا يشوبه، ومنه: اصطفى الشيء لنفسه؛ أي: خلَّصه من شوب شركة غيره له فيه، ومنه الصِّفِيُّ وهو السَّهم الَّذِي كان يصطفيه رسول الله ﷺ لنفسه من الغنيمة، ومنه: الشيء الصِّافي، وهو الخالص من كدر غيره.

قوله: «الصِّفَاءُ: اسْمٌ لِلْبِرَاءَةِ مِنَ الْكَدْرِ».

البراءة: هي الخلاص.

والكدر: امتزاج الطَّيِّبِ بالخبيث.

قوله: «وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ سُقُوطُ التَّلْوِينِ».

التَّلْوِين: هو التَّرْدُّدُ والتَّدْبِذُ، كما قيل:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنُ تَرُكُ هَذَا بِكَ أَجْمَلُ

□ قال: «وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: صِفَاءٌ عِلْمٍ يُهْدَبُ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ، وَيُبْصِرُ غَايَةَ الْجِدِّ، وَيُصَحِّحُ هِمَّةَ الْقَاصِدِ».

* ذكر الشيخ له في هذه الدَّرَجَةِ ثَلَاثَ فَوَائِدَ:

الفائدة الأولى: «عِلْمٌ يُهْدَبُ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ»، وهذا العلم الصِّافي - الَّذِي أشار إليه - هو

العلم الَّذِي [أوصى به القوم وحذروا من مفارقتة، وأخرجوا من فارقه من أهل الطَّرِيقِ بالكَلْبَةِ، وهو

العلم الذي^(١) جاء به رسول الله ﷺ.

وكان الجنيد يقول دائماً: «عِلْمُنَا هَذَا مُقَيَّدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ، وَيَكْتُبِ الْحَدِيثَ، وَلَمْ يَتَفَقَّهْ؛ لَا يُقْتَدَى بِهِ».

وقال غيره من العارفين: «كُلُّ حَقِيقَةٍ لَا تَتَّبِعُهَا شَرِيعَةٌ فَهِيَ كُفْرٌ».

وقال الجنيد: «عِلْمُنَا هَذَا مُتَسَبِّكٌ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

وقال أبو سليمان الداراني: «إِنَّهُ لَتَمْرٌ بِقَلْبِي النَّكْتَةُ مِنْ نَكْتِ الْقَوْمِ؛ فَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا بِشَاهِدِي عَدْلٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وقال النُّصْرَابَادِيُّ: «أَصْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ: مَلَازِمَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَرْكُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ، وَالْإِقْتِدَاءُ بِالسَّلَفِ، وَتَرْكُ مَا أَحَدَثَهُ الْأَخْرُونَ، وَالْإِقَامَةُ عَلَى مَا سَلَكَهَ الْأَوَّلُونَ».

وقد تقدّم ذكر بعض ذلك.

فهذا العلم الصّافي، المتلقّى من مشكاة الوحي والنُّبُوَّةِ، يهذّب صاحبه لسلك طريق العبوديّة. وحقيقتها: التّأدّب بأداب رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، وتحكيمة باطنًا وظاهرًا، والوقوف معه حيث وقف بك، والمسير معه حيث سار بك؛ بحيث تجعله بمنزلة شيخك الذي قد ألقى إليك أمرًا كلّ سرّه وظاهره، واقتديت به في جميع أحوالك، ووقفت مع ما يأمر بك به؛ فلا تخالفه البتّة، فتجعل رسول الله ﷺ لك شيخًا وإمامًا وقُدوةً وحاكمًا، وتعلّق قلبك بقلبه الكريم، وروحانيّتك بروحانيّته، كما يعلّق المرید بروحانيّته بروحانيّته شيخه، فتجيبه إذا دعاك، وتقف معه^(٢) إذا استوقفك، وتسير إذا سار بك، وتقبل إذا قال، وتنزل إذا نزل، وتغضب لغضبه، وترضى لرضاه، وإذا أخبرك عن شيء أنزلته منزلة ما تراه بعينك، وإذا أخبرك عن الله بخبر أنزلته منزلة ما تسمعه من الله بأذنك.

وبالجملة: فتجعل الرّسول شيخك وأستاذك، ومعلّمك ومرّيّك ومؤدّبك، وتسقط الوسائط بينك وبينه إلّا في التّبليغ، كما تسقط الوسائل بينك وبين المرسل في العبوديّة، ولا تثبت وساطةً إلّا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك.

وهذان التّجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، والله وحده هو المعبود المألوه، الذي لا يستحقّ العبادة سواه، ورسوله المطاع المتّبع، المهتدى به^(٣)، الذي

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. الفقي، وقد اثبتناه من نسخة «غ» والمنار.

(٢) كلمة (معه): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (المقتدى به).

لا يستحقُّ الطَّاعة سواه، ومن سواه فإنَّما (١) يطاع إذا أمر الرَّسول (٢) بطاعته؛ فيطاع تبعًا للأصل.

وبالجملة: فالطَّرِيق مسدودةٌ إلَّا على من اقتفى آثار الرَّسول ﷺ، واقتدى به في ظاهره وباطنه.

فلا يتعنَّى السَّالِك على غير هذا الطَّرِيق؛ فليس حظُّه من سلوكه إلَّا التَّعب، وأعماله: ﴿كَرَّابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ [النور: ٣٩]، ولا يتعنَّى السَّالِك على هذا الطَّرِيق؛ فإنَّه واصلٌ ولو زحف زحفاً؛ فأتباع الرَّسول ﷺ إذا قعدت بهم أعمالهم، قامت بهم عزائمهم وهمهم ومتابعتهم لنبيِّهم، كما قيل:

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

والمنحرفون عن طريقه، إذا قامت بهم أعمالهم واجتهاداتهم قعد بهم عدولهم عن طريقه.
فَهُمْ فِي السَّرَى لَمْ يَبْرُحُوا مِنْ مَكَانِهِمْ وَمَا ظَعَنُوا فِي السَّيْرِ عَنْهُ وَقَدْ كَلُّوا

قوله: «وَبُيِّضِرُ غَايَةَ الْجِدِّ» (٣).

الجدُّ: الاجتهاد والتَّشمير، والغاية: النِّهاية.

يريد: أن صفاء العلم يهدي صاحبه إلى الغاية المقصودة بالاجتهاد والتَّشمير؛ فإنَّ كثيرًا من

السَّالِكين - بل أكثرهم - سالكٌ بجدِّه واجتهاده، غير منتبهٍ إلى المقصود.

وأضرب لك في هذا مثلاً حسنًا جدًّا، وهو: أن قومًا قدموا من بلادٍ بعيدةٍ عليهم أثر النَّعيم والبهجة، والملابس السَّنيَّة، والهيئة العجيبة؛ فعجب النَّاس لهم؛ فسألوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادنا من أحسن البلاد، وأجمعها لسائر أنواع النَّعيم، وأرخاها، وأكثرها مياهاً، وأصحَّها هواءً، وأكثرها فاكهةً، وأعظمها اعتدالاً، وأهلها كذلك أحسن النَّاس صوراً وأبشاراً، ومع هذا، فملكها لا يناله الوصف جمالاً وكمالاً، وإحساناً، وعلماً وحلمًا، وجودًا، ورحمةً للرَّعيَّة، وقربًا منهم، وله الهيئة والسَّطوة على سائر ملوك الأطراف؛ فلا يطمع أحدٌ منهم في مقاومته ومحاربتة، فأهل بلده في أمانٍ من عدوِّهم، لا يحلُّ الخوف بساحتهم، ومع هذا فله أوقاتٌ يبرز فيها لرعيَّته، ويسهِّل لهم الدُّخول عليه، ويرفع الحجاب بينه وبينهم؛ فإذا وقعت أبصارهم عليه تلاشى عندهم كلُّ ما هم فيه من النَّعيم واضمحَلَّ، حتَّى لا يلتفتون إلى شيءٍ منه؛ فإذا أقبل على واحدٍ منهم أقبل عليه سائر أهل المملكة بالتَّعظيم والإجلال، ونحن رسله إلى أهل البلاد، ندعوهم إلى حضرته؛ وهذه كتبه إلى النَّاس، ومعنا

(١) في «غ» والمنار: (إنما).

(٢) كلمة (الرَّسول): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) هذه هي الفائدة الثانية من الفوائد الثلاث التي ذكرها المصنف من فوائد العلم.

من الشهود ما يزيل سوء الظن بنا، ويدفع (١) اتّهامنا بالكذب عليه.

فلمّا سمع النَّاسُ ذلك، وشاهدوا أحوال الرُّسل؛ انقسموا أقسامًا.

﴿ فطائفةٌ قالت: لا نفارِقُ أوطاننا، ولا نخرجُ من ديارنا، ولا (٢) نتجسّمُ مشقّةَ السَّفَرِ البعيد، ونتركُ ما ألفناه من عيشنا ومنازلنا، ومفارقةَ آبائنا وأبنائنا وإخواننا لأمرٍ وُعدنا به في غير هذه البلاد، ونحن لا نقدرُ على تحصيل ما نحن فيه إلّا بعد الجهد والمشقّة؛ فكيف نتقل عنه؟

ورأت هذه الفرقة مفارقتها لأوطانها وبلادها كمفارقة أنفسها لأبدانها؛ فإنَّ النَّفس - لشدّة إلفها للبدن - أكره ما إليها مفارقتها، ولو فارقتَه إلى النَّعيم المقيم.

فهذه الطّائفة غلب عليها داعي الحسّ والطّبع على داعي العقل والرُّشد (٣).

﴿ والطّائفة الثّانية: لمّا رأت حال الرُّسل، وما هم فيه من البهجة وحسن الحال، وعلموا صدقهم تأهبوا للسّير (٤) إلى بلاد الملك، فأخذوا في المسير، فعارضهم أهلهم (٥)، وأصحابهم، وعشائهم من القاعدين، وعارضهم إلفهم مساكنهم ودورهم وبساتينهم، فجعلوا يقدّمون رجلاً ويؤخّرون أخرى؛ فإذا تذكّروا طيب بلاد الملك وما فيها من سلوة العيش تقدّموا نحوها، وإذا عارضهم ما ألفوه واعتادوه من ظلال بلادهم وعيشها، وصحبة أهلهم وأصحابهم تأخّروا عن المسير، والتفتوا إليهم، فهم دائماً بين الدّاعيين والجاذبين، إلى أن يغلب أحدهما ويقوى على الآخر؛ فيصبرون إليه.

﴿ والطّائفة الثّالثة: ركبت ظهور عزائمها، ورأت أن بلاد الملك أولى بها، فوطّنت أنفسها على قصدها، ولم يشنها لوم اللّوأم، لكن في سيرها بطءٌ بحسب ضعف ما كشف لها من أحوال تلك البلاد وحال الملك.

﴿ والطّائفة الرّابعة: جدّت في السّير وواصلته؛ فسارت سيرًا حثيثًا، فهم كما قيل:

وَرَكِبِ سَرَوًا وَاللَّيْلَ مُرْخٍ سُدُولَهُ	عَلَى كُلِّ مُغَبَّرٍ الْمَطَالِعِ قَاتِمِ
حَدَوْا عَزَمَاتٍ ضَاعَتِ الْأَرْضُ بَيْنَهُمَا	فَصَارَ سَرَاهُمْ فِي ظُهُورِ الْعَزَائِمِ
نُورِيهِمْ نُجُومُ اللَّيْلِ مَا يَطْلُبُونَهُ	عَلَى عَاتِقِ الشُّعْرَى وَهَامِ النَّعَائِمِ

(١) كلمة (يدفع): ساقطة من «غ» والمنار.

(٢) كلمة (لا): ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) كلمة (والرُّشد): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) في المنار: (للمسير).

(٥) في «غ» والمنار: (أهلهم).

فهؤلاء همهم مصروفة إلى السير، وقواهم موقوفة عليه من غير تثنية^(١) منهم إلى المقصود الأعظم، والغاية العليا.

والطائفة الخامسة: أخذوا في الجد في المسير، وهمتهم متعلقة بالغاية، فهم في سيرهم ناظرون إلى المقصود بالمسير، فكأنهم يشاهدونه من بُعد، وهو يدعوهم إلى نفسه وإلى بلاده، فهم عاملون على هذا الشاهد الذي قام بقلوبهم.

وعمل كل أحد منهم على قدر شاهده؛ فمن شاهد المقصود بالعمل في علمه^(٢) كان نصحه فيه، وإخلاصه وتحسينه، وبذل الجهد فيه أتم ممن لم يشاهده ولم يلاحظه، ولم يجد من مس التعب والنصب ما يجده الغائب، والوجود شاهداً بذلك؛ فمن عمل عملاً لملك بحضرته، وهو يشاهده ليس حاله كحال من عمل في غيبته وبعده عنه، وهو غير متيقن وصوله إليه.

وقوله: «وَيُصَحِّحُ هِمَّةَ الْقَاصِدِ»^(٣).

أي: ويصحح له صفاء هذا العلم همته، ومتى صححت الهمة علت وارتفعت؛ فإن سقوطها ودناءتها من علتها وسقمها، وإلا فهي كالنار تطلب الصعود والارتفاع ما لم تمنع.

وأعلى الهمم: هممة اتصلت بالحق سبحانه طلباً وقصدًا، وأوصلت الخلق إليه دعوةً ونصحًا، وهذه هممة الرسل وأتباعهم، وصححتها بتمييزها من انقسام طلبها وانقسام مطلوبها وانقسام طريقها، بل توحد مطلوبها بالإخلاص، وطلبها بالصدق، وطريقها بالسُّلوك خلف الدليل الذي نصبه الله دليلاً، لا من نصبه هو دليلاً لنفسه^(٤).

ولله الهمم! ما أعجب شأنها، وأشدَّ تفاوتها، وهممة متعلقة بمن فوق العرش، وهممة حائمة حول الأنتان والحش، والعامّة تقول: قيمة كل امرئ ما يحسنه، والخاصة تقول: قيمة المرء ما يطلبه، وخاصة الخاصة تقول: هممة المرء إلى مطلوبه.

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم، فانظر إلى هممة ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ: «سألني»، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة^(٥). وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه، أو يوارى جلده.

وانظر إلى هممة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبأها، ومعلوم أنه

(١) في المنار: (تأنية).

(٢) في «غ»: (عمله).

(٣) هذه هي الفائدة الثالثة التي ذكرها المصنف من فوائد العلم.

(٤) في «غ» والمنار: (له).

(٥) تقدم تخريجه وهو حديث «أعني على نفسك بكثرة السجود» (٢/١٦٠).

لو أخذها لأنفقها في طاعة ربّه تعالى، فأبت له تلك الهمة العالية^(١) أن يتعلّق منها بشيءٍ ممّا سوى الله ومحابّه، وعرض عليه أن يتصرّف بالملك، فأباه، واختار التّصرّف بالعبوديّة المحضّة، فلا إله إلّا الله، خالق هذه الهمة، وخالق نفسٍ تحملها، وخالق هممٍ لا تعدو همم أحسّ الحيوانات.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: صَفَاءُ حَالٍ، يُشَاهَدُ بِهِ شَوَاهِدُ التَّحْقِيقِ، وَيُذَاقُ بِهِ حَلَاوَةُ الْمُنَاجَاةِ، وَيُنْسَى بِهِ الْكَوْنُ».

هذه الدّرجة إنّما كانت أعلى ممّا قبلها لأنّها همة حالٍ، والحال ثمرة العلم، ولا يصفو حالٌ إلّا بصفاء العلم المثمر له، وعلى حسب شوب العلم يكون شوب الحال، وإذا صفا الحال شاهد العبد بصفائه آثار الحقائق، وهي الشّواهد فيه وفي غيره، وعليه وعلى غيره، ووجد حلاوة المناجاة، وإذا تمكّن في هذه الدّرجة نسي الكون وما فيه من المكوّنات.

وهذه الدّرجة تختصّ بصفاء الحال، كما اختصّت الأولى بصفاء العلم.

والحال: هو تكيّف القلب وانصباغه بحكم الواردات على اختلافها، والحال يدعو صاحبه إلى المقام الّذي جاء منه الوارد، كما تدعوه رائحة البستان الطّيبة إلى دخوله والمقام فيه؛ فإذا كان الوارد من حضرةٍ صحيحةٍ - وهي حضرة الحقيقة الإلهية^(٢)، لا الحقيقة الخياليّة الدّهنيّة - شاهد السّالك بصفائه شواهد التّحقيق وهي علاماته، والتّحقيق: هو حكم الحقيقة، وتأثّر القلب والرّوح بها، والحقيقة: ما تعلّق بالحقّ المبين سبحانه؛ فالله هو الحقّ، والحقيقة ما نسب إليه وتعلّق به، والتّحقيق: تأثّر القلب بآثار الحقيقة، ولكلّ حقّ حقيقة، ولكلّ حقيقة تحقيقٌ يقوم بمشاهدة الحقيقة.

قوله: «وَيُذَاقُ بِهِ حَلَاوَةَ الْمُنَاجَاةِ».

المناجاة: مفاعلة من النّجوى، وهو الخطاب في سرّ العبد وباطنه، والشّيخ ذكر في هذه الدّرجة

ثلاثة أمورٍ.

- أحدها: مشاهدة شواهد التّحقيق.

(١) في «غ» والمنار: (العلية).

(٢) التعبير بالحضرة والحقيقة الإلهية من تعابير الصوفية، ويمكن الاعتذار عن ابن القيم رحمه الله تعالى باستعماله لهذه الألفاظ: «حضرة، وحقيقة» أنه في مقام مخاطبته الصوفية، فناسب أن يأتي في كلام هذه المصطلحات المعروفة لهم، فهو من جنس مخاطبة الناس بلغتهم مع تمييز الحق من الباطل فيما تستعمل فيه هذه الألفاظ.

- الثاني: ذوق حلاوة المناجاة.

فإنه متى صفا له حاله من الشوائب، خلصت له حلاوته من مرارة الأكدار؛ فذاق تلك الحلاوة في حال مناجاته، فلو كان الحال مشوباً مكدرًا لم يجد حلاوة المناجاة، والحال المستندة إلى واردٍ تذاق^(١) به حلاوة المناجاة هو من حضرة الأسماء والصفات، بحسب ما يصادف القلب من ظهورها وكشف معانيها.

فمن ظهر له اسم الودود مثلاً وكشف له عن معاني هذا الاسم، ولطفه، وتعلُّقه بظاهر العبد وباطنه كان الحال الحاصل له^(٢) من حضرة هذا الاسم مناسباً له؛ فكان حال اشتغال حبٍّ وشوقٍ، ولذة مناجاةٍ، لا أحلى منها ولا أطيب، بحسب استغراقه في شهود معنى هذا الاسم، وحظّه من أثره. فإن الودود، وإن كان بمعنى المودود، كما قال البخاري في «صحيحه»: الودود: الحبيب^(٣)، واستغراق^(٤) العبد في مطالعة صفات الكمال التي تدعو العبد إلى حبِّ الموصوف بها أثمر له صفاء علمه بها، وصفاء حاله في تعبده بمقتضاها ما ذكره الشيخ من هذه الأمور الثلاثة وغيرها.

وكذلك إن كان اسم فاعل^(٥) بمعنى الوادِّ وهو المحبُّ أثمرت له مطالعة ذلك حالاً تناسبه؛ فإنه إذا شاهد بقلبه غنيًّا كريماً جواداً، عزيزاً قادراً، كلُّ أحدٍ محتاجٍ إليه بالذات، وهو غنيٌّ بالذات عن كلِّ ما سواه، وهو مع ذلك يودُّ عباده ويحبُّهم، (ويتودّد إليهم بإحسانه إليهم وتفضُّله عليهم)^(٦)، كان له من هذا الشهود حالة صافية خالصة من الشوائب.

وكذلك سائر الأسماء والصفات؛ فصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بها، وخلوصها من دم التعطيل وفرث التمثيل، فتخرج المعرفة من بين ذلك فطرة خالصة سائغة للعارفين، كما يخرج اللبن من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

والأمر الثالث: قوله: «وَيُنْسَى بِهِ الْكُونُ»؛ أي: ينسى الكون بما يغلب على قلبه من اشتغاله بهذه الحال المذكورة، والمراد بالكون: المخلوقات؛ أي: يشتغل^(٧) بالحق عن الخلق.

(١) في «غ» والمنار: (يذاق).

(٢) كلمة (له): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) رواه البخاري في معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب «التفسير» تفسير سورة البروج.

(٤) في المنار: (واستغراق).

(٥) جملة (اسم فاعل): ساقطة من «غ» والمنار.

(٦) ما بين القوسين من «غ» والمنار.

(٧) في «غ» والمنار: (فيشتغل).

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: صَفَاءُ اتِّصَالٍ، يُدْرَجُ حَظُّ الْعُبُودِيَّةِ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُعْرَقُ نَهَايَاتِ الْخَبَرِ فِي بَدَايَاتِ الْعِيَانِ، وَيَطْوِي حِسَةَ التَّكَالِيفِ فِي عَيْنِ الْأَزَلِّ».

في هذا اللفظ قلُّ وسوء تعبير، يجبره حسن حال صاحبه وصدقه، وتعظيمه لله ورسوله، ولكن أبى الله أن يكون الكمال إلَّا له، ولا ريب أن بين أرباب الأحوال وبين أصحاب التَّمَكُّنِ تفاوتًا عظيمًا، وانظر إلى غلبة الحال على الكليم عليه السلام، لَمَّا شاهد آثار التَّجَلِّي الإلهي على الجبل، كيف خرَّ صعقًا؟! وصاحب التَّمَكُّنِ - صلوات الله وسلامه عليه - لَمَّا أسري به ورأى ما رأى لم يصعق ولم يخرَّ، بل ثبت فؤاده وبصره.

ومراد القوم بالاتِّصال والوصول: اتِّصال العبد برَّبِّه، ووصوله إليه، لا بمعنى اتِّصال ذات العبد (١) بذات الرَّبِّ، كما تتَّصل الذَّاتان إحداهما بالأخرى، ولا بمعنى (٢) انضمام إحدى الذَّاتين إلى الأخرى والتصاقها بها، وإنَّما مرادهم بالاتِّصال والوصول: إزالة النَّفس والخلق من طريق السَّير إلى الله، ولا تتوهَّم سوى ذلك؛ فإنَّه عين المحال (٣).

فإنَّ السَّالك لا يزال سائرًا إلى الله تعالى حتَّى يموت؛ فلا ينقطع سيره إلَّا بالموت، فليس في هذه الحياة وصولٌ يفرغ معه السَّير وينتهي، وليس ثمَّ اتِّصالٌ حسيٍّ بين ذات العبد وذات الرَّبِّ؛ فالأوَّل تعطيلٌ وإلحادٌ، والثَّاني حلولٌ واتِّحادٌ، وإنَّما حقيقة الأمر: تنحية النَّفس والخلق عن الطَّرِيق؛ فإنَّ الوقوف معهما هو الانقطاع، وتنحيتهما هو الاتِّصال.

وأما الملاحظة القائلون بوحدة الوجود، فإنَّهم قالوا: العبد من أفعال الله، وأفعاله من صفاته، وصفاته من ذاته، فأنتج لهم هذا التَّركيب: أنَّ العبد من ذات الرَّبِّ (٤)، تعالى الله وتقدَّس عمَّا

(١) كلمة (العبد): ساقطة من المنار.

(٢) في «غ» والمنار: (ولا معنى).

(٣) جملة (فإنَّه عين المحال): ساقطة من «غ» والمنار.

(٤) القائلون بوحدة الوجود - وهم شيوخ الصوفية المفصحون الموضحون لعقيدتهم - يقولون: إنه ليس ثمَّ رب قائم بذاته وصفاته، وإنما يسمونه «الحقيقة الإلهية» ويقولون: إنها النواة التي خرج منها جميع الوجودات، وجميع الموجودات هي أوصاف ومظاهر لها، فليس ثمَّ إلا التوالد، ليس ثمَّ فاعل ومفعول، وخالق ومخلوق، وينبغي دراسة الصوفية من كتب شيوخها - ك«الفصوص» و«الفتوحات» لابن عربي، وكتب السهروردي، وعبد الغني النابلسي -

يقولون علواً كبيراً.

وموضع الغلط: أن العبد من مفعولات الربّ تعالى، لا من أفعاله القائمة بذاته، ومفعولاته آثار أفعاله، وأفعاله من صفاته القائمة بذاته، فذاته سبحانه مستلزمة لصفاته وأفعاله، ومفعولاته منفصلة عنه، تلك مخلوقة محدثة، والربّ تعالى هو الخالق بذاته وصفاته وأفعاله.

فإيّاك ثمّ إيّاك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها؛ فإنّها أصل البلاء، وهي مورد الصّديق والرّنديق، فإذا سمع الضّعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ «اتّصالٍ وانّصالٍ، ومُسامرةٍ، ومُكالمةٍ، وأنّه لا وجود في الحقيقة إلّا وجود الله، وأنّ وجود الكائنات خيالٌ ووهمٌ، وهو بمنزلة وجود الظلّ القائم بغيره» فاسمع منه ما يملأ الأذان من حلولٍ واتّحادٍ وشطحاتٍ.

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها، وأرادوا بها معاني صحيحة في أنفسها، فغلط الغالطون في فهم ما أرادوه، ونسبوه إلى إلحادهم وكفرهم، واتّخذوا كلماتهم المتشابهة ترساً لهم وجنةً، حتّى قال قائلهم:

وَمِنْكَ بَدَا حُبٌّ بِعِزِّ تَمَازَجَا بِنَا وَوِصَالًا كُنْتَ أَنْتَ وَصَلْتُهُ
ظَهَرْتَ لِمَنْ أَبْقَيْتَ بَعْدَ فَنَائِهِ وَكَانَ بِلَا كَوْنٍ لِأَنَّكَ كُنْتَهُ

فيسمع الغرّ «التّمازج والوِصَال» فيظنّ أنّه سبحانه نفس كون العبد، فلا يشكّ أن هذا هو غاية التّحقيق، ونهاية الطّريق، ثمّ لنرجع إلى شرح كلامه.

قوله: «يُدْرِجُ حَظَّ الْعُبُودِيَّةِ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ».

المعنى الصّحيح الَّذي يحمل عليه هذا الكلام: أنّ من تمكّن في قلبه شهود الأسماء والصفّات، وصفا له علمه وحاله، اندرج عمله جميعه وأضعافه وأضعاف أضعافه في حقّ ربّه تعالى ورآه في جنب حقّه أقلّ من خردلية بالنسبة إلى جبال الدُّنيا، فسقط من قلبه اقتضاء حظّه من المجازاة عليه، لاحتقاره له، وقلّته عنده، وصغره في عينه.

قال الإمام أحمد: «حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ حَدَّثَنَا صَالِحٌ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ عَنْ أَبِي الْجَلْدِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ: يَا دَاوُدَ، أَنْذِرْ عِبَادِي الصَّادِقِينَ^(١)، فَلَا يُعْجِبَنَّ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَتَكَلَّنَ عَلَيَّ

فإن من درس الصوفية في مصادرها عرف ماذا تقصد؟ وماذا يريد أئمتها ودعاتها الذين واتتهم الفرصة - من ضعف المسلمين ودولتهم وسلطانهم، وقوة سلطانهم، وقوة سلطان ذوي الأهواء والجاهلية، الدخلاء، فصرحوا بما لمح وأشار ورمز إليه متقدموهم. (الفاقي).

(١) في «غ» والمنار: (الصديقين).

أَعْمَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِي (١) أَنْصَبُهُ لِلْحِسَابِ، وَأُقِيمُ عَلَيْهِ عَدْلِي إِلَّا عَذَّبْتُهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ أَظْلِمَهُ، وَيَسِّرُ عِبَادِي الْخَطَائِينَ: أَنَّهُ لَا يَتَعَاطَمُنِي ذَنْبٌ أَنْ أَغْفِرَهُ وَأَتَجَاوَزَ عَنْهُ» (٢).

وقال الإمام أحمد: «وَحَدَّثَنَا سَيَّارٌ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَائِي قَالَ: «تَعَبَّدَ رَجُلٌ سَبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: رَبِّ أَجْزِنِي بِعَمَلِي، فَمَاتَ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَكَانَ فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، فَلَمَّا فَرَغَ وَقُتُّهُ، قِيلَ لَهُ: اخْرُجْ، فَقَدِ اسْتَوْفَيْتَ عَمَلَكَ، فَقَلَّبَ أَمْرَهُ: أَيُّ شَيْءٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَوْتَقَى فِي نَفْسِهِ؟ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا أَوْتَقَى فِي نَفْسِهِ مِنْ دُعَاءِ اللَّهِ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: رَبِّ سَمِعْتِكَ - وَأَنَا فِي الدُّنْيَا - وَأَنْتَ تُقِيلُ الْعَثْرَاتِ، فَأَقِلْ الْيَوْمَ عَثْرَتِي، فَتُرِكَ فِي الْجَنَّةِ» (٣).

وقال أحمد بن حنبل: «حَدَّثَنَا هَاشِمٌ حَدَّثَنَا صَالِحٌ عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ عَنْ أَبِي الْجِلْدِ قَالَ: قَالَ مُوسَى: إِلَهِي، كَيْفَ أَشْكُرُكَ، وَأَصْغُرُ نِعْمَةً وَضَعْتَهَا عِنْدِي مِنْ نِعْمَتِكَ (٤) لَا يُجَازِيهَا عَمَلِي كُلُّهُ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: يَا مُوسَى، الْآنَ شَكَرْتَنِي» (٥).

فهذا المعنى الصحيح من اندراج حظ العبودية في حق الربوبية.

وله محمل آخر صحيح أيضًا: وهو أن ذات العبد وصفاته وأفعاله وقواه وحركاته كلها مفعولة للرب، مملوكة له، ليس يملك العبد منها شيئًا، بل هو محض ملك الله؛ فهو المالك لها، المنعم على عبده بإعطائه إياها، فالمال ماله، والعبد عبده، والخدمة مستحقة عليه بحق الربوبية، وهي من فضل الله عليه؛ فالفضل كله لله، ومن الله، وباللله.

قوله: «وَيَعْرِفُ نَهَايَاتِ الْخَبَرِ فِي بَدَايَاتِ الْعِيَانِ».

الخبر: متعلق الغيب، والعيان: متعلق الشهادة، وهو إدراك عين البصيرة لصحة الخبر، وثبوت

مخبره.

ومراده بـ«بَدَايَاتِ الْعِيَانِ» أوائل الكشف الحقيقي الذي يدخل منه إلى مقام الفناء.

ومقصوده: أن يرى الشاهد ما أخبر به الصادق بقلبه عيانًا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا

الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩].

(١) كلمة (عبادي): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) «الزهد» للإمام أحمد (ص ١١٦).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٨).

(٤) في «غ» والمنار: (نعمك).

(٥) «الزهد» للإمام أحمد (ص ١٠٩).

فقد قال: أفمن رأى بعين قلبه أنّ ما أنزل الله إلى رسوله هو الحقُّ كمن هو أعمى لا يبصر

ذلك؟! ^(١)

وقال النبي ﷺ في مقام الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» ^(١).

ولا ريب أنّ تصديق الخبر واليقين به يقوّي القلب، حتّى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين، فصاحب هذا المقام كأنّه يرى ربّه سبحانه فوق سمواته على عرشه، مطّلعاً على عبادته، ناظراً إليهم، يسمع كلامهم، ويرى ظواهرهم وبواطنهم.

وكأنّه يسمعه وهو يتكلّم بالوحي، ويكلّم به عبده جبريل، ويأمره وينهاه بما يريد، ويدبّر أمر المملكة، وأملاكه صاعدةً إليه بالأمر، نازلةً من عنده به.

وكأنّه يشاهده، وهو يرضى ويغضب، ويحبُّ ويغضب، ويعطي ويمنع، ويضحك ويفرح، ويثني على أوليائه بين ملائكته، ويذمُّ أعداءه.

وكأنّه يشاهده ويشاهد يديه الكريمتين، وقد قبضت إحداهما السّموات السّبع، والأخرى الأرضين السّبع، وقد طوى السّموات السّبع بيمينه ^(٢)، كما يطوى السّجل على أسطر الكتاب.

وكأنّه يشاهده، وقد جاء لفصل القضاء بين عبادته، فأشرقت الأرض بنوره، ونادى - وهو مستوٍ ^(٣) على عرشه - بصوتٍ يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمٌ ظَالِمٍ» ^(٤).

وكأنّه يسمع نداءه لآدم: «يَا آدَمُ، قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ» ^(٥) بأذنه الآن، وكذلك نداؤه لأهل

الموقف: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وماذا كنتم تعبدون؟

وبالجملة: فيشاهد بقلبه ربّاً عرّفت به الرُّسل، كما عرّفت به الكتب، ودينياً دعت إليه الرُّسل، وحقائق أخبرت بها الرُّسل، فقام شاهد ذلك بقلبه كما قام شاهد ما أخبر به أهل التّواتر وإن لم يره من البلاد والوقائع؛ فهذا إيمانه يجري مجرى العيان، وإيمان غيره فمحض تقليد العميان ^(٦).

(١) تقدم تخريجه (١٤٧/٢).

(٢) في «غ» والمنار: (بيده).

(٣) كلمة (مستو): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤٢٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٥٣/١٠) وفيه يزيد بن ربيعة وقد ضعفه جماعة وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه البخاري في «الأنبياء»، باب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُئِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ... الآية (٣٣٤٨)، ومسلم في «الإيمان»، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» (٢٢٢).

(٦) في «غ» والمنار: (فمحض التقليد).

قوله: «وَيَطْوِي خِصَّةَ التَّكْلِيفِ».

ليت الشيخ عبّر عن هذه اللفظة بغيرها، فوالله إنها لأقبح من شوكة في العين، وشجاً في الحلق، وحاشى التكليف أن توصف بخسّة، أو تلحقها خسّة، وإنما هي قرّة عين، وسرور قلب، وحياة روح، صدر التكليف بها عن حكيم حميد، فهي أشرف ما وصل إلى العبد من ربّه، وثوابه عليها أشرف ما أعطاه الله (١) للعبد.

نعم لو قال: يطوي ثقل التكليف ويخفف أعباءها ونحو ذلك؛ فلعله (٢) كان أولى، ولولا مقامه في الإيمان والمعرفة والقيام بالأوامر لكننا نسيء به الظنّ.

والذي يحتمل أن يصرف كلامه إليه وجهان:

كـ أحدهما: أن الصّفاء المذكور في هذه الدرّجة لمّا انطوت في حكمه الوسائط والأسباب، واندرج فيه حظّ العبوديّة في حقّ الرّبوبيّة انطوت (٣) فيه رؤية كون العبادة تكليفاً؛ فإنّ رؤيتها تكليفاً خسّة من الرّائي؛ لأنّه رآها بعين أنفته وقيامه بها، ولم يرها بعين الحقيقة؛ فإنّه لم يصل إلى مقام: «فِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي»، ولو وصل إلى ذلك لرآها بعين الحقيقة، ولا خسّة فيها هناك البتّة؛ فإنّ نظره قد تعدّى من قيامه بها إلى قيامها بالقيوم الذي قام به كلُّ شيء، فكان لها وجهان:

- أحدهما: هي به خسيسة، وهو وجه قيامها بالعبد، وصدورها منه.

- والثاني: هي به شريفة، وهو وجه كونها بالرّبّ تعالى وأوليّته، أمراً وتكويناً وإعانة، فالصّفاء يطويها من ذلك الوجه خاصّة.

كـ والمعنى الثاني الذي يحتمله كلامه: أن يكون مراده: أن الصّفاء يشهده عين الأزل، وسبق الرّبّ تعالى، وأوليّته لكلّ شيء؛ فتنطوي (٤) في هذا المشهد أعماله التي عملها، ويراها خسيسة جدّاً بالنسبة إلى عين الأزل؛ فكأنّه قال: تنطوي أعماله، وتصير - بالنسبة إلى هذه العين - خسيسة جدّاً لا تذكر، بل تكون في عين الأزل هباءً منثوراً، لا حاصل لها.

فإنّ الوقت الذي هو ظرف التكليف يتلاشى جدّاً بالنسبة إلى الأزل، وهو وقت خسيس حقيق، حتّى كأنّه لا حاصل له، ولا نسبة له إلى الأزل والأبد في مقدار الأعمال الواقعة فيه، وهي سيرة بالنسبة إلى مجموع ذلك الوقت الذي هو يسير جدّاً، بالنسبة إلى مجموع الزّمان الذي هو

(١) لفظ الجلالة غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة (فلعله): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (انطوى).

(٤) في «غ» والمنار: (فينطوي).

يسيرٌ جدًّا، بالنسبة إلى عين الأزل.

فهذا أقرب ما يحمل عليه كلامه مع قلقه، وقد اعتراه فيه سوء تعبير، وكأنَّه أطلق عليها الحسنة لقلتها وخفتها، بالنسبة إلى عظمة المكلف بها سبحانه، وما يستحقُّه، والله سبحانه أعلم.

فصل ومنها السُّرور

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ السُّرُورِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾
فَإِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٨].».

تصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن؛ فإنَّ الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضلِهِ ورحمته، وذلك تبعٌ للفرح والسُّرور بصاحب الفضل والرحمة؛ فإنَّ من فرح بما يصل إليه من جوادٍ كريمٍ، محسنٍ، برٍّ، يكون^(١) فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى.

ونذكر ما في هذه الآية من المعنى، ثمَّ نشرح كلام المصنّف.

قال ابن عباسٍ، وقتادة، ومجاهدٌ، والحسن، وغيرهم: «فُضِّلَ اللهُ: الإِسْلَامُ، وَرَحْمَتُهُ: الْقُرْآنُ». فجعلوا رحمته أخصَّ من فضله، فإنَّ فضله الخاصَّ عامٌّ على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعضٍ، فجعلهم مسلمين بفضلِهِ، وأنزل إليهم كتابه برحمته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه: «فُضِّلَ اللهُ: الْقُرْآنُ، وَرَحْمَتُهُ: أَنْ جَعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ».

قلت: يريد بذلك: أن هاهنا أمرين:

أحدهما: الفضل في نفسه.

والثاني: استعداد المحلِّ لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات، فيتَّمُّ المقصود

بالفضل، وقبول المحلِّ له، والله أعلم.

والفرح: لذَّةٌ تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهى؛ فيتولَّد من إدراكه حالةٌ تسمَّى:

الفرح والسُّرور، كما أنَّ الحزن والغمَّ من فقد المحبوب؛ فإذا فقدته تولَّد من فقدته حالةٌ تسمَّى: الحزن

(١) في «غ» والمنار: (كان).

والغمِّ، وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضلِهِ وبرحمته عقيب قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

ولا شيء أحقُّ أن يفرح العبد^(١) به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة وشفاء الصُّدور من أدوائها بالهدى والرَّحمة، فأخبر سبحانه: أن ما أتى عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي، المقرون بالتَّريغ والتَّرهيب، وشفاء الصُّدور المتضمَّن لعافيتها من داء الجهل، والظُّلْمَة، والغِيِّ، والسَّفه وهو أشدُّ ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحسَّ بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدُّنيا، فهناك يحضرها كلُّ مؤلمٍ محزونٍ، وما آتاها من ربِّها^(٢) الهدى الذي يتضمَّن ثلج الصُّدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النَّفس إليه، وحياة الرُّوح به، والرَّحمة التي تجلب لها كلَّ خيرٍ ولذَّةٍ، وتدفع عنها كلَّ شرٍّ ومؤلمٍ.

فذلك خيرٌ من كلِّ^(٣) ما يجمع النَّاس من أعراض الدُّنيا وزينتها؛ أي: هذا هو الذي ينبغي أن يُفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروحٍ به، لا ما يجمع أهل الدُّنيا منها؛ فإنَّه ليس بموضع للفرح؛ لأنَّه عُرْضَةٌ للآفات، ووشيك الزَّوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيالٍ زار الصَّبَّ في المنام، ثمَّ انقضى المنام، وولَّى الطَّيف، وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلقٌ ومقيَّدٌ.

فالمطلق: جاء في الدَّمِّ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ [الفصص: ٧٦].

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ﴿١٠﴾ [هود: ١٠].

والمقيَّد: نوعان أيضًا:

- مقيَّدٌ بالدُّنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته؛ فهو مذمومٌ، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم

بَغْتَةً فَيَذَأُهَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

- والثاني: مقيَّدٌ بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا:

- فضلٌ ورحمةٌ بالسَّبب، وفضلٌ بالمسبَّب.

فالأوَّل: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

والثَّاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسُّنَّة، وبالعلم، وبالقرآن؛ من أعلى مقامات العارفين،

(١) كلمة (العبد): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة (ربها): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٣) كلمة (كل): غير موجودة في «غ» والمنار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه؛ فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته؛ فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبيب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال؛ ولهذا يوصف الربُّ تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة (١) الواجد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب، ولذته وبهجته، والفرح والسُرور نعيمه، والهمُّ والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانسراح (٢)، والفرح لذة وبهجة وسرور، فكلُّ فرحٍ راضٍ، وليس كلُّ راضٍ فرحاً؛ ولهذا كان الفرح ضدَّ الحزن، والرضا ضدَّ السُّخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسُّخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم.

فصل

□ قال صاحب «المنازل»: «السُّرُورُ: اسمٌ لِاسْتِبْشَارِ جَامِعٍ، وَهُوَ أَصْفَى مِنَ الْفَرَحِ؛ لِأَنَّ الْأَفْرَاحَ رُبَّمَا شَهِبَا الْأَحْزَانَ؛ وَلِذَلِكَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِاسْمِهِ فِي أَفْرَاحِ الدُّنْيَا فِي مَوَاضِعَ، وَوَرَدَ السُّرُورُ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِي حَالِ الْآخِرَةِ».

السُّرُورُ وَالْمَسْرَّةُ: مصدر سَرَّه سرورًا ومسرَّةً، وكأنَّ معنى سَرَّه: أثار في أسارير وجهه؛ فإنه تبرق

(١) في «غ» والمنار: (فرح).

(٢) في «غ» والمنار: (طمأنينته وسكونه وانسراحه).

منه أسارير الوجه، كما قال شاعر العرب:

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهِهِ
بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

وهذا (١) كما يقال: رَأَسَهُ؛ إذا أصاب رَأْسَهُ، وَبَطَنَهُ وَظَهَرَهُ؛ إذا أصاب بَطْنَهُ وَظَهَرَهُ، وَأَمَّهُ؛ إذا أصاب أُمَّ رَأْسِهِ.

وَأَمَّا الاستبشار: فهو استفعالٌ من البشري.

والبشارة: هي أول خبر صادق سارٌّ.

و«البُشْرَى» يراد بها أمران:

- أحدهما: بشارة المخبر.

- والثاني: سرور المخبر.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

فسّرت البشري بهذا وهذا؛ ففي حديث عبادة بن الصّامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ» (٢).

وقال ابن عباس: «بُشْرَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: هِيَ عِنْدَ الْمَوْتِ تَأْتِيهِمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِالْبُشْرَى مِنْ اللَّهِ، وَفِي الْآخِرَةِ: عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ إِذَا خَرَجَتْ يَعْرُجُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ، تُزَفُّ كَمَا تُزَفُّ الْعُرُوسُ، تُبَشَّرُ بِرِضْوَانِ اللَّهِ».

وقال الحسن: «هِيَ الْجَنَّةُ»، واختاره الرَّجَّاجُ والفَرَّاءُ.

وفسّرت بشري الدنيا بالثناء الحسن يجري له على ألسنة النَّاسِ.

وكلُّ ذلك صحيحٌ؛ فالثناء من البشري، والرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ من البشري، وتبشير الملائكة له عند

الموت من البشري، والجنة من أعظم البشري، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [٢٠] [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه، ولذلك كانت نوعين: بشري سارةٌ تؤثر فيه

نضارةً وبهجةً، وبشري محزنةٌ تؤثر فيه بسورًا وعبوسًا، ولكن إذا أطلقت كانت للسُّرور، وإذا قيّدت

كانت بحسب ما تقيّد به.

(١) في «غ» والمنار: (وهذه).

(٢) رواه الترمذي في «الرؤيا»، باب: قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عن أبي الدرداء، وحسنه ورواه أحمد عن أبي

الدرداء (٤٤٧/٦)، وعن عبادة بن الصّامت (٣١٥/٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٤٤٨٢).

قوله: «وَهُوَ أَصْفَى مِنَ الْفَرَحِ» واحتجَّ على ذلك بأنَّ الأفراح ربَّما شابها أحزان، أي ربَّما مازجها ضدَّها؛ بخلاف السُرور.

فيقال: والمسرَّات ربَّما شابها أنكادٌ وأحزان؛ فلا فرق.

قوله: «وَلِذَلِكَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِاسْمِهِ فِي أَفْرَاحِ الدُّنْيَا فِي مَوَاضِعَ».

يريد: أنَّ الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ

بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [الفصص: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

فإنَّ الدُّنْيَا لا تتخلَّص أفراحها من أحزانها وأتراحها ألْبَتَّة، بل ما من فرحةٍ إلَّا ومعها ترحةٌ سابقةٌ، أو مقارئةٌ، أو لاحقةٌ، ولا تتجرَّد الفرحة، بل لا بدَّ من ترحةٍ تقارنها، ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن فينغمر حكمه وألمه مع وجودها، وبالعكس.

فيقال: ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا

آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿فِيذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فلا فرق بينهما من هذا الوجه الذي ذكره.

قوله: «وَوَرَدَ اسْمُ السُّرُورِ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعَيْنِ فِي حَالِ الْآخِرَةِ».

يريد بهما: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ، يَمِينَهُ﴾ [٧] ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [٨] وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ

أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

والموضع الثاني: قوله: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ [١١] ﴿[الإنسان: ١١].

فيقال: وورد السُرور في أحوال الدنيا في موضع على وجه الدَّم، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ،

رَوَّاءَ طَهْرٍ﴾ [١٠] ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [١١] وَيَصْلِي سَعِيرًا﴾ [١٢] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [١٣] [الانشقاق: ١٠ - ١٣].

فقد رأيت ورود كلِّ واحدٍ من الفرح والسُرور في القرآن بالنسبة إلى أحوال الدنيا وأحوال

الآخرة؛ فلا يظهر ما ذكره من التَّرجيح.

بل قد يقال: التَّرجيح للفرح؛ لأنَّ الرَّبَّ تبارك وتعالى يوصف به، ويطلق عليه اسمه دون

السُّرور، فدلَّ على أنَّ معناه أكمل من معنى السُّرور، وأمر الله^(١) به في قوله تعالى: ﴿فِيذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾،

وأثنى على السُّعداء به في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

(١) لفظ الجلالة غير موجود في «غ» والمنار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَهُمْ نَصْرٌ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] وقوله: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الأنشقاق: ٩]، فعدل إلى لفظ السُرور لاتِّفاق رءوس الآي، ولو أنه ترجم الباب بباب الفرح لكان أشدَّ مطابقةً للآية التي استشهد بها، والأمر في ذلك قريب؛ فالمقصود أمرٌ وراء ذلك.

□ قال: «وَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: سُرُورٌ ذَوْقِي، ذَهَبَ بِثَلَاثَةِ أَحْزَانٍ: حُزْنٌ أَوْرَثَهُ خَوْفُ الْإِنْقِطَاعِ، وَحُزْنٌ هَاجَتْهُ ظُلْمَةُ الْجَهْلِ، وَحُزْنٌ بَعَثَتْهُ وَخْشَةُ التَّفَرُّقِ».

لَمَّا كَانَ السُّرُورُ ضِدَّ الْحُزَنِ، وَالْحُزْنَ (١) لَا يَجَامِعُهُ؛ كَانَ مَذْهَبًا لَهُ، وَلَمَّا كَانَ سَبَبُهُ ذَوْقُ الشَّيْءِ السَّارِّ؛ فَإِنَّهُ (٢) كَلَّمَا كَانَ الذَّوْقُ أْتَمَّ، كَانَ السُّرُورُ بِهِ أَكْمَلَ.

* وَهَذَا السُّرُورُ يَذْهَبُ ثَلَاثَةَ أَحْزَانٍ:

الحزن الأول: «حُزْنٌ أَوْرَثَهُ خَوْفُ الْإِنْقِطَاعِ»، وَهَذَا حُزْنُ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ رُكْبِ الْمُحِبِّينَ، وَوَفْدِ الْمُحِبَّةِ، فَأَهْلُ الْإِنْقِطَاعِ هُمُ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ صَحْبَةِ هَذَا الرَّكْبِ وَهَذَا الْوَفْدِ، وَهُمُ الَّذِينَ ﴿كَرِهَ اللَّهُ أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦] فَثَبَّطَ عِزَائِمَهُمْ وَهَمَمَهُمْ أَنْ تَسِيرَ إِلَيْهِ وَإِلَى جَنَّتِهِ، وَأَمْرٌ قَلْبُهُمْ أَمْرًا كَوْنِيًّا قَدْرِيًّا أَنْ تَقْعُدَ مَعَ الْقَاعِدِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ السَّعْيِ إِلَىٰ مُحَابَّهِ فَلَوْ عَايَنَتْ قُلُوبَهُمْ حِينَ أَمَرَتْ بِالْقَعُودِ عَنِ مِرَافِقَةِ الْوَفْدِ، وَقَدْ غَمَرَتْهَا الْهَمُومُ، وَعَقَدَتْ عَلَيْهَا سَحَابَ الْبَلَاءِ، فَأَحْضَرَتْ كُلَّ حُزْنٍ وَغَمٍّ، وَأَمْوَاجَ الْقَلْقِ وَالْحَسْرَاتِ تَتَقَاذِفُ بِهَا، وَقَدْ غَابَتْ عَنْهَا الْمَسْرَاتُ، وَنَابَتْ عَنْهَا الْأَحْزَانُ؛ لَعَلِمَتْ أَنَّ الْأَبْرَارَ فِي هَذِهِ الدَّارِ فِي نَعِيمٍ، وَأَنَّ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ رِفْقَتِهِمْ فِي جَحِيمٍ.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان؛ فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به على لسان الرسول ﷺ؛ فلا يعقله ظنٌّ، ولا يقطعه أملٌ، ولا تعوقه أميةٌ كما تقدم؛ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَّ أَحْسَنَ فَهُوَ لَنَفِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾

[فاطر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وأمثال هذه الآيات.

(١) كلمة (والحزن): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) كلمة (فإنه): غير موجودة في المنار.

قوله: «وَحُزْنٌ هَاجَتْهُ ظُلْمَةُ الْجَهْلِ».

وهذا الحزن الثاني: الذي يذهب سرور الدُّوق، هو حزن ظلمة الجهل.

والجهل نوعان:

- جهل علمٍ ومعرفةٍ، وهو مراد الشيخ هاهنا.

- جهل عملٍ وغيٍّ.

وكلاهما له ظلمةٌ ووحشةٌ في القلب.

وكما أن العلم يوجب نورًا وأنسًا، فضدهُ يوجب ظلمةً ويوقع وحشةً، وقد سمى الله ﷻ العلم الذي بعث به رسوله نورًا وهديً وحياةً، وسمى (١) ضدهُ ظلمةً وموتًا وضلالًا، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].
وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعله روحًا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، ونورًا لما يحصل به من الهدى

والرَّشاد.

ومثل هذا النور في قلب المؤمن: ﴿كَمْشَكَوْهُ فِيهَا مَصْبَاحٌ أَيْصَاحٌ فِي نُجَاةٍ الرُّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَيَّ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

(١) كلمة (وسمى): ساقطة من «غ» والمنار.

ومثل حال من فقد هذا الثور: بمن (١) هو في ظلمات: ﴿فِي بَحْرِ لَيْجٍ يَغَشُّهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَكَابٌ ظَلَمَتْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِبَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

الحزن الثالث: «حُزْنٌ بَعَثَتْهُ وَحْشَةُ التَّفَرُّقِ»، وهو تفرُّق الهمِّ والقلب عن الله ﷻ؛ ولهذا التفرُّق حزنٌ مُّضُّضٌ على فوات جمعيَّة القلب على الله ولذاتها ونعيمها، فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلَةً لرجل، لم يك لها نسبةٌ إلى لذَّة جمعيَّة قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه، وهذا أمرٌ لا يصدِّق به إلَّا من ذاقه؛ فإنما يصدِّقك من أشرق فيه ما أشرق فيك، والله درُّ القائل:

أَيَا صَاحِبِي أَمَا تَرَى نَارَهُمْ (٢) فَقَالَ تُرِينِي مَا لَا أَرَى
سَقَاكَ الْغَرَامُ وَلَمْ يَسْقِنِي فَأَبْصَرْتَ مَا لَمْ أَكُنْ مُبْصِرًا

فلو لم يكن في التفرُّق المذكور إلَّا ألم الوحشة، ونكد التشتت، وغبار الشعث لكفى به عقوبة، فكيف وأقلُّ عقوبته أن يتلى بصحبة المنقطعين ومعاشرتهم وخدمتهم؟! فتصير أوقاته التي هي مادَّة حياته ولا قيمة لها، مستغرقة في قضاء حوائجهم، ونيل أغراضهم، وهذه عقوبة قلبٍ ذاق حلاوة الإقبال على الله والجمعيَّة عليه والأنس به، ثمَّ أثر على ذلك سواه، ورضي بطريقة بني جنسه، وما هم عليه، ومن له أدنى حياةٍ في قلبه ونور؛ فإنَّه (٣) يستغيث قلبه من وحشة هذا التفرُّق، كما تستغيث الحامل عند ولادتها!

ففي القلب شعثٌ، لا يلمُّه إلَّا الإقبال على الله. وفيه وحشةٌ، لا يزيلها إلَّا الأنس به (٤) في خلوته، وفيه حزنٌ لا يذهبه إلَّا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

وفيه قلقٌ، لا يسكِّنه إلَّا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه. وفيه نيران حسراتٍ، لا يطفئها إلَّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلبٌ شديدٌ، لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

(١) في «غ» والمنار: (كمن).

(٢) في «غ» والمنار: (ما ترى).

(٣) كلمة (فإنه): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٤) كلمة (به): غير موجودة في «غ» والمنار.

وفيه فاقَةٌ، لا يسدُّها إلَّا محبَّته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطي الدُّنيا وما فيها لم تسدَّ تلك الفاقة منه أبدًا. فالتَّفَرُّق يوقع وحشة الحجاب، وألمه أشدُّ من ألم العذاب، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ [المطففين: ١٥، ١٦]، فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم. و«الدُّوقُ» الَّذِي يذهب وحشة هذا التَّفَرُّق هو الدُّوق الَّذِي ذكره الشَّيْخ في قوله: «دُوقُ الإِرَادَةِ طَعْمُ الأَنْسِ، فَلَا يُعَلِّقُ بِهِ شَاغِلٌ، وَلَا يُفْسِدُهُ عَارِضٌ، وَلَا تُكَدِّرُهُ تَفَرُّقَةٌ».

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّانِيَّةُ: سُرُورُ شُهُودٍ، كَشَفَ حِجَابَ العِلْمِ، وَفَكَ رِقَّ التَّكْلِيفِ، وَنَفَى صَعَارَ الإِخْتِيَارِ».

يريد: أن العلم حجابٌ على المعرفة، فشهود كشف ذلك الحجاب، حتَّى يفضي القلب إلى المعرفة يوجب سرورًا.

و«العِلْمُ» عند هذه الطَّائفة: استدلالٌ، والمعرفة ضروريَّةٌ، فالعلم له الخبر، والمعرفة لها العيان، فالعلم عندهم حجابٌ على المعرفة، وإن كان لا يوصل إليها إلَّا بالعلم^(١)، والعلم لها^(٢) كالصَّوان لما تحته، فهو حجابٌ عليه، ولا يوصل إليه إلَّا منه.

ومثال هذا: أنك إذا رأيت في حومة ثلج ثقبًا خاليًا، استدلت به على أن تحته حيوانًا يتنفس؛ فهذا علمٌ، فإذا حفرتَه وشاهدت الحيوان؛ فهذه معرفةٌ.

قوله: «وَفَكَ رِقَّ التَّكْلِيفِ» عبارةٌ قلقَةٌ، غير سديدةٍ، و«رِقُّ التَّكْلِيفِ» لا يفكُ إلى الممات، وكلِّما تقدَّم العبد منزلاً شاهد من رِقِّ تكليفه ما لم يكن شاهده من قبل، فرقُ التَّكْلِيفِ أمرٌ لازمٌ للمكلَّف ما بقي في هذا العالم.

والَّذِي يتوجَّه عليه كلامه: أن السُّرور بالدُّوق الَّذِي أشار إليه يعتق العبد من رِقِّ التَّكْلِيفِ، بحيث لا يعدُّه تكليفًا، بل تبقى الطَّاعات غذاءً لقلبه، وسرورًا له، وقرَّة عينٍ في حقِّه، ونعيمًا لروحه،

(١) في «غ» والمنار: (إلا بالعلم إليه).

(٢) كلمة (والعلم لها): غير موجودة في «غ» والمنار، فيكون تمام الكلام في «غ» والمنار: (وإن كان لا يوصل إليها إلَّا بالعلم إليه كالصَّوان لما تحته).

يتلذذ بها، ويتنعم بملابستها أعظم مما يتنعم بملابسة الطعام والشراب واللذات الجسمانية؛ فإن اللذات الروحية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أورد العباد كلفة، ولا تصير تكليفاً في حقه؛ فإن ما يفعله المحب الصادق، ويأتي به في خدمة محبوبه هو أسر شيء إليه، وألذ عنده، ولا يرى ذلك تكليفاً، لما في التكليف من إلزام المكلف بما فيه كلفة ومشقة عليه، والله سبحانه إنما سمى أوامره ونواهيه وصيةً، وعهداً، وموعظةً، ورحمةً، ولم يطلق عليها اسم التكليف إلا في جانب النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ووقوع الوُسع بعد الاستثناء من التكليف لا يوجب وقوع الاسم عليه مطلقاً؛ فهذا أقرب ما يؤول به كلامه.

على أن للملحد هاهنا مجالاً: وهو أن هذه الحال إنما هي لأقوام انتقلت عباداتهم من ظواهرهم إلى بواطنهم، فانتقل حكم أوردتهم إلى وارداتهم؛ فاستغنوا بالواردات عن الأورد، وبالحقائق عن الرسوم، وبالمعاني عن الصور، فخلصوا من رِقِّ التكليف المختص بالعلم، وقاموا بالحقبة التي يقتضيها الحكم، وهكذا الألفاظ المجملة عرضة للمحقق والمبطل.

قوله: «وَنَفَى صَغَارَ الْإِخْتِيَارِ».

يريد به: أن العبد متى كان مربوطاً باختياراته، محبوساً في سجن إراداته، فهو في ذلٍّ وصغارٍ، فإذا وصل إلى هذه الدرجة انتفى عنه صغار الاختيار، وبقي من جملة الأحرار. فإيا لها من عبوديةٍ أوجبت حريةً، وحريةً كملت عبوديةً!

فيصير واقعاً مع ما يختار الله له، لا مع ما يختاره هو لنفسه، بل يصير مع الله بمنزلة من لا اختيار له ألبتة، فمن كان محجوباً بالعلم عن المعرفة نازعته اختياراته، ونازعها، فهو معها في ذلٍّ وصغارٍ، ومتى أفضى إلى المعرفة، وكشف له عن حجابها شاهد البلاء نعيماً، والمنع عطاءً، والذلُّ عزاً، والفقر غنىً، فانقاد باطنه لأحكام المعرفة، وظاهره لأحكام العلم.

على أن للملحد هاهنا مجالاً: قد جال فيه هو وطائفته؛ فقال: هذا يوجب الانقياد لأحكام المعرفة، والتخلُّص والراحة من أحكام العلم، وقد قيل: إنَّ العالم يُسْعِطُ الخَلَّ والخردل، والعارف ينشَقُّ المسك والعنبر.

قال: ومعنى هذا: أنك مع العالم في تعبٍ، ومع العارف في راحةٍ؛ لأنَّ العارف يبسط عذر العوالم والخلائق، والعالم يلوم، وقد قيل: مَنْ نَظَرَ إِلَى النَّاسِ بَعَيْنِ الْعِلْمِ مَقْتَهُمْ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ بَعَيْنِ الْحَقِيقَةِ عَذَرَهُمْ.

فانظر ما تضمَّنه هذا الكلام الذي ملمسه ناعمٌ، وسمُّه زعافٌ^(١) قاتلٌ، من الانحلال عن الدِّين

(١) كلمة (زعاف): ساقطة من «غ» والمنار.

ودعوى الرَّاحَة من حكم العبودية، والتماس (١) الأعدار لليهود (٢) والنصارى، وعُباد الأوثان والظلمة والفجرة، وأنَّ أحكام الأمر والنهي - الواردين على ألسن الرُّسل - للقلوب بمنزلة سعط الخلل والخردل، وأنَّ شهود الحقيقة الكونية الشاملة للخلائق، والوقوف معها، والانقياد لحكمها بمنزلة تشويق المسك والعنبر.

فليهن الكفار والفجار والفساق انتشاق هذا المسك والعنبر، إذا شهدوا هذه الحقيقة وانقادوا لحكمها.

ويا رحمةً للأبرار المحكَّمين لما جاء به الرسول ﷺ من كثرة سعوطنهم بالخل والخردل! فإنَّ قوله ﷺ: هذا يجوز وهذا لا يجوز، وهذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، وهذا يرضي الله وهذا يسخطه خلٌّ وخردلٌ، عند هؤلاء الملاحدة، وإلَّا فالحقيقة تُشهدك الأمر بخلاف ذلك؛ ولذلك إذا نظرت عندهم إلى الخلق (٣) بعين الحقيقة عذرت الجميع؛ فتعذر من توعدده الله ورسوله أعظم الوعيد، وتمدده أعظم التهديد.

ويا لله العجب! إذا كانوا معذورين في الحقيقة، فكيف يعذب الله سبحانه المعذور، ويذيقه أشدَّ العذاب؟ وهلاً كان الغنيُّ الرَّحيم أولى بعذره من هؤلاء!؟

نعم؛ العالم النَّاصح (٤) يلوم بأمر الله، والعارف الصَّادق (٥) يرحم بقدر الله، ولا يتنافى عنده اللوم والرَّحمة، ومن رحمته: عقوبة من أمر الله بعقوبته؛ فذلك (٦) رحمةٌ له وللأمة، وترك عقوبته زيادةً في أذاه وأذى غيره، وأنت مع العالم في تعبٍ يُعقب كلَّ الرَّاحة، ومع عارف هؤلاء الملاحدة (٧) في راحةٍ واهيةٍ تعقب كلَّ تعبٍ وخيبةٍ وألمٍ.

كما ذكر الإمام أحمد في كتاب «الزُّهد»: «أَنَّ الْمَسِيحَ ﷺ كَانَ يَقُولُ: عَلَيَّ قَدْرٌ مَا تَتَعَبُونَ هَاهُنَا تَسْتَرِيحُونَ هُنَالِكَ، وَعَلَيَّ قَدْرٌ مَا تَسْتَرِيحُونَ هَاهُنَا تَتَعَبُونَ هُنَالِكَ».

فالعالم يحذرك، ويمنعك الوقوف حتَّى تبلغ المأمَن، وعارف الملاحدة يوهمك الرَّاحة من كدِّ المسير ومؤنة السفر، حتَّى تؤخذ في الطَّريق.

(١) كلمة (التماس): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٢) في «غ» والمنار: (وعذر اليهود).

(٣) في «غ» والمنار: (العالم).

(٤) كلمة (الناصح): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٥) كلمة (الصادق): غير موجودة في «غ» والمنار.

(٦) في «غ» والمنار: (وذلك).

(٧) كلمة (الملاحدة): غير موجودة في «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ: سُرُورُ سَمَاعِ الْإِجَابَةِ، وَهُوَ سُرُورٌ يَمْحُو آثَارَ الْوَحْشَةِ، وَيَقْرَعُ بَابَ الْمَشَاهِدَةِ، وَيُضْحِكُ الرُّوحَ».

قَيَّدَ الشَّيْخُ السَّمَاعَ بِكَوْنِهِ سَمَاعٌ إِجَابِيٌّ؛ فَإِنَّهُ السَّمَاعُ الْمَتَّفَعُ بِهِ، لَا مَجْرَدَ سَمَاعِ الْإِدْرَاكِ؛ فَإِنَّهُ مَشْتَرِكٌ بَيْنَ الْمَجِيبِ وَالْمَعْرُضِ، وَبِهِ تَقُومُ الْحِجَّةُ وَيَنْقَطِعُ الْعُذْرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ (١): ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

وقال النبي ﷺ لليهودي الذي سأله عن أمور الغيب: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» (٢) قال: أسمع بأذني.

وأما سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]؛ أي مستجيبون لهم.

وفي قوله: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]؛ أي: مستجيبون له، وهو المراد. وهذا المراد بقول المصلي: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي: أجاب الله حمد من حمده. وهو السَّمْعُ الَّذِي نَفَاهُ اللَّهُ ﷻ عَمَّنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ خَيْرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ أي: لجعلهم (٣) يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم.

وعلى هذا يكون المعنى: لأسمع قلوبهم؛ فإنَّ سماع القلب يتضمَّن الفهم. والتَّحْقِيقُ: أَنْ كَلَا الْأَمْرَيْنِ مَرَادًا، فَلَوْ عَلِمَ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَفْهَمَهُمْ، وَلَجْعَلَهُمْ (٤) يَسْتَجِيبُونَ لِمَا سَمِعُوهُ وَفَهَمُوهُ.

والمقصود: أَنَّ سَمَاعَ الْإِجَابَةِ هُوَ سَمَاعُ انْقِيَادِ الْقَلْبِ، وَالرُّوحِ، وَالْجَوَارِحِ، لِمَا سَمِعْتَهُ الْأُذُنَانِ (٥).

(١) في «غ» والمنار: (ولهذا قال أصحابه).

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم في كتاب «الحيض»، باب: بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (٣١٥).

(٣) في «غ» والمنار: (يجعلهم).

(٤) في «غ» والمنار: (وجعلهم).

(٥) كلمة (الأذنان): غير موجودة في «غ» والمنار.

قوله: «وَيَمْحُو آثَارَ الْوَحْشَةِ».

يعني: يزيل بقايا الوحشة التي سببها ترك الانقياد التَّامَّ؛ فَإِنَّهُ عَلَى قَدْرٍ فَقَدَ ذَلِكَ تَكُونَ الْوَحْشَةِ، وزوالها إِنَّمَا يَكُونُ بِالْانْقِيَادِ التَّامِّ.

وأيضًا: فَإِنَّهُ يَبْقَى عَلَى أَهْلِ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ آثَارًا، وَهَمُ أَهْلُ كَشْفِ حِجَابِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا انْكَشَفَ^(١) عَنْهُمْ حِجَابُ الْعِلْمِ، وَأَفْضَوْا إِلَى الْمَعْرِفَةِ بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ بَقَايَا مِنْ آثَارِ الْحِجَابِ؛ إِذَا حَصَلُوا فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ زَالَتْ عَنْهُمْ^(٢) تِلْكَ الْبَقَايَا.

وقد يوجَّه كلامه على معنَى آخَرَ: وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا دَعَا رَبَّهُ سَبَّحَانَهُ فَسَمِعَ رَبُّهُ دَعَاءَهُ سَمَاعًا إِجَابِيَّةً، وَأَعْطَاهُ مَا سَأَلَهُ، عَلَى حَسَبِ مَرَادِهِ وَمَطْلَبِهِ، أَوْ أَعْطَاهُ خَيْرًا مِنْهُ؛ حَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ سُرُورٌ يَمْحُو مِنْ قَلْبِهِ آثَارَ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنْ وَحْشَةِ الْبَعْدِ، فَإِنَّ لِّلْعَطَاءِ وَالْإِجَابَةِ سُرُورًا وَأَنْسًا وَحَلَاوَةً، وَلِلْمَنْعِ وَحْشَةً وَمَرَارَةً؛ إِذَا تَكَرَّرَ مِنْهُ الدُّعَاءُ، وَتَكَرَّرَ مِنْ رَبِّهِ سَمَاعٌ وَإِجَابَةٌ^(٣) لِدَعَائِهِ؛ مَحَا عَنْهُ آثَارَ الْوَحْشَةِ، وَأَبْدَلَهُ بِهَا أَنْسًا وَحَلَاوَةً.

قوله: «وَيَقْرَعُ بَابَ الْمُشَاهَدَةِ».

يريد -والله أعلم-: مَشَاهِدَةَ حَضْرَةِ الْجَمْعِ الَّتِي يَشْمُرُ إِلَيْهَا السَّالِكُونَ عَنْدَهُ، وَإِلَّا فَمَشَاهِدَةَ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ قَدْ سَبَقَتْ فِي الدَّرَجَتَيْنِ الْأُولَتَيْنِ، وَانْتَقَلَ الْمَشَاهِدُ لِذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، وَهُوَ مَشَاهِدَةُ الْحَضْرَةِ الْمَذْكُورَةِ.

قوله: «وَيُضْحِكُ الرُّوحَ».

يعني: أَنْ سَمِعَ الْإِجَابَةَ يَضْحَكُ الرُّوحُ، لِسُرُورِهَا بِمَا حَصَلَ لَهَا مِنْ ذَلِكَ السَّمَاعِ، وَإِنَّمَا خَصَّ الرُّوحَ بِالضَّحِكِ لِخُرُوجِ بِهِ سُرُورًا يَضْحَكُ النَّفْسُ وَالْعَقْلُ وَالْقَلْبُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ قَبْلَ رَفْعِ الْحِجَابِ الَّذِي أُشَارَ إِلَيْهِ؛ إِذْ مَحَلُّهُ النَّفْسُ، إِذَا ارْتَفَعَ وَمَحَا الشُّهُودَ رَسَمَ النَّفْسَ بِالْكَلِّيَّةِ كَانَ الْإِدْرَاكُ حَيْثُئِذٍ بِالرُّوحِ؛ فَيَضْحَكُهَا بِالسُّرُورِ^(٤).

وهذا مبنيٌّ على قواعد القوم في الفرق بين أحكام النَّفْسِ وَالْقَلْبِ وَالرُّوحِ.

و«الْفَتْحُ» عندهم نوعان: فَتْحٌ قَلْبِيٌّ، وَفَتْحٌ رُوحِيٌّ، فَالْفَتْحُ الْقَلْبِيُّ يَجْمَعُهُ عَلَى اللَّهِ وَيَلْمُ شَعَثَهُ، وَالْفَتْحُ الرُّوحِيُّ يَغْنِيهِ عَنْهُ، وَيَجْرُدُهُ مِنْهُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(١) في «ع» والمنار: (فإنه إذا كشف).

(٢) كلمة (عنهم): غير موجودة في «ع» والمنار.

(٣) في «ع» والمنار: (سماع إجابهته).

(٤) في «ع» والمنار: (السرور).

فصل ومنها منزلة «السِّرِّ»

□ قال صاحب «المنازل»: «بَابُ السِّرِّ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] أَصْحَابُ السِّرِّ: هُمُ الْأَخْفِيَاءُ الَّذِينَ وَرَدَ فِيهِمُ الْخَبْرُ».

أما استشهاده بالآية فوجهه: أَنَّ أتباع الرُّسُل الَّذِينَ صَدَّقُوهُمْ، وَآثَرُوا اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ عَلَى قَوْمِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ قَدْ أَوْدَعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِيمَانَ بِهِ خَفِي عَلَى أَعْدَاءِ الرُّسُلِ، فَنَظَرُوا إِلَى ظَوَاهِرِهِمْ، وَعَمُوا عَنْ بَوَاطِنِهِمْ فَازْدَرَوْهُمْ وَاحْتَقَرَوْهُمْ، وَقَالُوا لِلرُّسُولِ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ عَنْكَ حَتَّى نَأْتِيكَ وَنَسْمَعُ مِنْكَ، وَقَالُوا: ﴿أَهْتَوُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

فَقَالَ نُوْحٌ ﷺ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].
قال الزَّجَّاجُ: «الْمَعْنَى: إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا اتَّبَعُونِي فِي بَادِي الرَّأْيِ وَظَاهِرِهِ، فَلَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَطَّلِعَ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يُوحِّدُ اللَّهَ عَمِلْتُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَرَدَدْتُ عِلْمَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ إِلَيَّ اللَّهُ». وهذا معنى حسنٌ.

والَّذِي يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ؛ إِذْ أَهْلَهُمْ لِقَبُولِ دِينِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَتَصَدِيقِ رُسُلِهِ، وَاللَّهُ ﷻ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، يَضَعُ الْعَطَاءَ فِي مَوَاضِعِهِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتَوُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أَهْلَهُمْ لِلْهُدَى وَالْحَقِّ، وَحَرَمَهُ رُؤُوسَ الْكُفَّارِ وَأَهْلَ الْعِزَّةِ وَالثَّرْوَةِ (١) مِنْهُمْ، كَأَنَّهُمْ اسْتَدَلُّوا بِعَطَاءِ الدُّنْيَا عَلَى عَطَاءِ الْآخِرَةِ؛ فَأَخْبَرَ اللَّهُ (٢) سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُوَهِّلُهُ لِذَلِكَ لَسَرَّ عِنْدَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ النِّعْمَةِ، وَرُؤْيَيْهَا مِنْ مَجْرَدِ فَضْلِ الْمُنْعَمِ، وَمَحَبَّتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَهُ هَذَا السِّرُّ؛ فَلَا يُؤَهِّلُ كُلُّ أَحَدٍ (٣) لِهَذَا الْعَطَاءِ.

(١) في «غ» والمنار: (وأهل العزة منهم والثروة).

(٢) لفظ الجلالة غير موجود في «غ» والمنار.

(٣) جملة (كل أحد): ساقطة من «غ» والمنار.

قوله: «أصحاب السر: هم الأخفياؤ الذين ورد فيهم الخبر».

قد يريد به: حديث سعد بن أبي وقاص، حيث قال له ابنه: أنت هاهنا والناس يتنازعون في الإمارة؟ فقال: إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الحفي» (١).
وقد يريد به قوله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يؤبه له، لو أئتم على الله لأبره» (٢).

وقوله في الحديث الآخر وقد مرَّ به رجلٌ فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: هذا حريٌّ إن شفع أن يشفع، وإن خطب أن ينكح، وإن قال أن يسمع لقوله، ثم مرَّ به آخر فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: هذا حريٌّ إن شفع ألا يشفع، وإن خطب ألا ينكح، وإن قال ألا يسمع لقوله؛ فقال النبي ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا» (٣).

فصل

□ قال: «وهم على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طائفة علت هممهم، وصفت فصدودهم، وصح سلوكهم، ولم يوقف لهم على رسم، ولم ينسبوا إلى اسم، ولم يشتر إليهم بالأصابع، أولئك ذخائر الله حيث كانوا».

* ذكر لهم ثلاث صفات ثبوتية، وثلاثا سلبية:

الأولى: علو همهم: وعلو الهمة: ألا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه (٤)، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تتبع حظها من الله وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم كالأطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلق إلى

(١) مسلم في «الزهد»، باب: الزهد والرقائق (٢٩٦٥)، وأحمد (١/ ١٦٨، ١٧٧).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة، باب: فضل الضعفاء والخاملين (٢٦٢٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب «المناقب»، باب: مناقب البراءة بن مالك رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في «النكاح»، باب: الأكفاء في الدين (٥٩١)، ورواه ابن ماجه في «الزهد»، باب: فضل الفقراء (٤١٢٠).

(٤) كلمة (سواه): غير موجودة في «غ» والمنار.

المكان العالي فتجذب منه، وإثما تجذب من المكان السافل، فعلو همة المرء عنوان فلاحه، وسفول همة عنوان حرمانه.

العلامة الثانية: صفاء القصد: وهو خلاصه من الشوائب التي تعوقه عن مقصوده، فصفاء القصد تجريده لطلب المقصود له لا لغيره، فهاتان آفتان في القصد:

- إحداهما: ألا يتجرد لمطلوبه.

- الثانية: أن يطلبه لغيره لا لذاته.

وصفاء القصد: يراد به العزم الجازم على اقتحام بحر الفناء عند الشيخ ومن وافقه على أن الفناء غاية.

ويراد به: خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى، بل يصير القصد مجرداً لمراده الديني الأمري، وهذه طريقة من يجعل الغاية هي الفناء عن إرادة السوء، وعلامته: اندراج حظ العبد في حق الرب تعالى؛ بحيث يصير حظه هو نفس حق ربه عليه، ولا يخفى على البصير الصادق علو هذه المنزلة، وفضلها على منزلة الفناء، وبالله التوفيق.

العلامة الثالثة: صحة السلوك: وهو سلامته من الآفات والعوائق والقواطع، وهو إنما يصح

بثلاثة أشياء:

- أحدها: أن يكون على الدرب الأعظم، الدرب النبوي المحمدي، لا على الجواد الوضعية، والرسوم الاصطلاحية، وإن زخرفوا لها القول ودققوا لها الإشارة، وحسنوا لها العبارة، فتلك من بقايا النفوس عليهم وهم لا يشعرون.

- الثاني: ألا يجيب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة.

- الثالث: أن يكون في سلوكه ناظرًا إلى المقصود، وقد تقدم بيان ذلك.

فهذه الثلاثة يصح السلوك، والعبارة الجامعة لها: أن يكون واحدًا لواحد، في طريق واحد، فلا ينقسم طلبه ولا مطلوبه، ولا يتلون مطلوبه^(١).

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ السَّلْبِيَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا:

كَلِمَةٌ فَأَوْلُهَا: قَوْلُهُ: «وَلَمْ يُوقَفْ لَهُمْ عَلَى رَسْمٍ».

يريد: أنهم قد انمحت رسومهم، فلم يبق منها ما يقف عليه واقف.

وهذا كلامٌ يحتاج إلى شرح: فإن الرّسم الظاهر المعين لا يمحي ما دام في هذا العالم، ولا

يرون محو هذا الرّسم وهم مختلفون فيما يعبر بالرّسم عنه.

(١) في «غ» والمنار: (طريقه).

- فطائفةٌ قالت: الرَّسْم ما سوى الحقِّ سبحانه، ومحوه هو ذهاب الوقوف معه والنظر إليه والرِّضا به والتعلُّق به.

- ومنهم: من يريد بالرَّسْم الظواهر والعلامات.

وهذا أقرب إلى وضع اللُّغة؛ فإنَّ رسم الدَّار هو الأثر الباقي منها الَّذي يدلُّ عليها، ولهذا يسمُّون الفقهاء وأهل الأثر ونحوهم علماء الرُّسوم؛ لأنَّهم عندهم لم يصلوا إلى الحقائق، بل اشتغلوا عن معرفتها بالظواهر والأدلة.

فهذه الطائفة التي أشار إليها لا رسم لهم^(١) يقفون عنده، بل قد اشتغلوا بالحقائق والمعاني عن الرُّسوم والظواهر.

وللملحد ها هنا مجال؛ إذ عنده أنَّ العبادات والأوامر والأوراد كلّها رسومٌ، وأنَّ العباد وقفوا على الرُّسوم، ووقفوا هم على الحقائق.

ولعمْرُ الله إنَّها لرُسومٌ إلهيةٌ أتت على أيدي رسله، ورسم لهم ألا يتعدَّوها، ولا يقصِّروا عنها، فالرُّسل قعدوا على هذه الرُّسوم يدعون الخلق إليها، ويمنعونهم من تجاوزها، ليصلوا إلى حقائقها ومقاصدها، فعطلت الملاحظة تلك الرُّسوم، وقالوا: إنَّما المراد الحقائق، ففاتتهم: الرُّسوم والحقائق معاً، ووصلوا ولكن إلى الحقائق الإلحادية الكفرية: ﴿وَعَرَّمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فأحسن ما حمل عليه قول الشيخ «وَلَمْ يَقِفُوا مَعَ رَسْمٍ»: أنَّهم لم ينقطعوا بشيءٍ سوى الله عنه، فكلُّ ما قطع عن الله لم يقفوا معه، وما أوصلهم إلى الله لم يفارقوه، وكان وقوفهم معه.

وقد يريد بقوله: «لَمْ يُوقِفْ لَهُمْ عَلَى رَسْمٍ»: أنَّهم لعلَّوهمهم سبقوا النَّاس في السَّير، فلم يقفوا معهم، فهم المفردون السَّابقون، فلسبقهم لم يوقف لهم على أثرٍ في الطَّريق، ولم يعلم المتأخِّر عنهم أين سلكوا؟ والمشمِّر بعدهم قد يرى آثار نيرانهم على بُعْدٍ عظيم، كما يرى الكوكب، ويستخبر ممَّن رآهم: أين رآهم؟ فحاله كما قيل:

أَسْأَلُ عَنْكُمْ كُلَّ غَادٍ وَرَائِحٍ وَأُوْمِي إِلَيَّ أَوْ طَائِنِكُمْ وَأُسَلِّمُ

العلامة الثانية: قوله: «وَلَمْ يُنْسَبُوا إِلَيَّ اسْمٍ»؛ أي: لم يشتهروا باسمٍ يعرفون به عند النَّاس من الأسماء التي صارت أعلاماً لأهل الطَّريق^(٢).

(١) في «غ» والمنار: (لها).

(٢) في «غ» والمنار: (الطرائق).

وأيضًا: فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال؛ فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة، وأما العبودية المطلقة، فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها؛ فإنه مجيبٌ لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيبٌ يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسوم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزِّي^(١)، ولا طريق وضعي اصطلاحِي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول، وعن طريقه؟ قال: الاتباع، وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة، وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] وعن رباطه وعن خانكاه؟^(٢) قال: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦]. وعن نسبه؟ قال:

أَبِي الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَحَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ

وعن مأكله ومشربه؟ قال: «مَا لَكَ وَلَهَا؟ مَعَهَا حِدَاؤُهَا وَسِقَاؤُهَا؛ تَرُدُّ الْمَاءَ وَتَرَعِي الشَّجَرَ حَتَّى تَلْقَى رَبَّهَا»^(٣).

وَاحْسَرَاتَاهُ تَقْضَى الْعُمْرُ وَأَنْصَرَمَتْ سَاعَاتُهُ بَيْنَ ذَلِكَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ

وَالْقَوْمُ قَدْ أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاةِ وَقَدْ سَارُوا إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى عَلَى مَهَلٍ

والعلامة الثالثة: قوله: «وَلَمْ يُشِرْ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ».

يريد: أنهم لخفائهم عن الناس لم يعرفوا بينهم، حتى يشيروا إليهم بالأصابع، وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: «لِكُلِّ عَامِلٍ شِرَّةٌ وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَإِنْ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوا لَهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّهُ شَيْئًا». فسئل راوي الحديث عن معنى: «أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ» فقال: هو المبتدع في دينه، الفاجر في دنياه^(٤).

وهذا موضعٌ يحتاج إلى تفصيل: فإنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَشِيرُونَ بِالْأَصَابِعِ إِلَى مَنْ يَأْتِيهِمْ بِشَيْءٍ، فبعضهم يعرفه وبعضهم لا يعرفه، فإذا مرَّ أشار مَنْ يعرفه إلى مَنْ لا يعرفه: هذا فلان، وهذا قد يكون ذمًّا له، وقد يكون مدحًا، فمن كان معروفًا باجتهادٍ وعبادةٍ وزهدٍ وانقطاعٍ عن الخلق، ثم انحطَّ عن ذلك، وعاد إلى حال أهل الدنيا والشهوات فإذا مرَّ بالناس أشاروا إليه، وقالوا: هذا كان على طريق كذا

(١) في «غ» والمنار: (زي).

(٢) في «غ» والمنار: (خانكاته).

(٣) قاله الرسول ﷺ للذي سأله عن ضالة الإبل، وقد أخرجه البخاري في «اللقطة»، باب: ضالة الإبل (٢٤٢٧)، ومسلم في

«اللقطة»، باب: في فاتحته (١٧٢٢، ١٧٢٣).

(٤) تقدم تخريجه بلفظ آخر (١٨٩/٢).

وكذا، ثم فتن وانقلب، فهذا الذي قال في الحديث عنه: «فَلَا تَعُدُّوهُ شَيْئًا» لَأَنَّهُ انْقَلَبَ عَلَى عَقْبِيهِ، وَرَجَعَ بَعْدَ الشَّرِّ إِلَى أَسْوَأِ فِتْرَةٍ.

وقد يكون الرَّجُلُ مِنْهُمْ كَمَا فِي الدُّنْيَا وَلِدَاتِهَا، ثُمَّ يَوْقُظُهُ اللهُ لِآخِرَتِهِ، فَيَتْرَكَ مَا هُوَ فِيهِ، وَيَقْبَلُ عَلَى شَأْنِهِ؛ فَإِذَا مَرَّ أَشَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ، وَقَالُوا: هَذَا كَانَ مَفْتُونًا، ثُمَّ تَدَارَكَهُ اللهُ، فَهَذَا كَانَتْ شَرَّتُهُ فِي الْمَعَاصِي ثُمَّ صَارَتْ فِي الطَّاعَاتِ، وَالْأَوَّلُ: كَانَتْ شَرَّتُهُ فِي الطَّاعَاتِ ثُمَّ فَتَرَتْ وَعَادَتْ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالْفَجُورِ.

وبالجملة: فالإشارة بالأصابع إلى الرَّجُلِ علامة خيرٍ وشرٍّ، ومورد هلاكه ونجاته، والله سبحانه الموفق.

قوله: «أُولَئِكَ ذَخَائِرُ اللهِ حَيْثُ كَانُوا» ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويذخره^(١) لمهماته، ولا يبذله لكلِّ أحدٍ، وكذلك ذخيرة الرَّجُلِ: ما يذخره لحوائجه ومهماته، وهؤلاء لَمَّا كَانُوا مُسْتَوْرِينَ عَنِ النَّاسِ بِأَسْبَابِهِمْ، غَيْرِ مُشَارٍ إِلَيْهِمْ وَلَا مَتَمِّيزِينَ بِرِسْمٍ دُونَ النَّاسِ، وَلَا مَتَسَيِّبِينَ إِلَى اسْمِ طَرِيقٍ أَوْ مَذْهَبٍ أَوْ شَيْخٍ أَوْ زِيٍّ كَانُوا بِمَنْزِلَةِ الذَّخَائِرِ الْمَخْبُوءَةِ، وَهَؤُلَاءِ أَعْبَدَ الْخَلْقَ عَنِ الْآفَاتِ، فَإِنَّ الْآفَاتِ كُلَّهَا تَحْتَ الرُّسُومِ وَالتَّقْيِيدِ بِهَا، وَلِزُومِ الطَّرِيقِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ، وَالْأَوْضَاعِ الْمَتَدَاوِلَةِ الْحَادِثَةِ؛ هَذِهِ هِيَ الَّتِي قَطَعَتْ أَكْثَرَ الْخَلْقِ عَنِ اللهِ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَالْعَجَبُ أَنَّ أَهْلَهَا هُمُ الْمَعْرُوفُونَ بِالطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ، وَالسَّيْرُ إِلَى اللهِ، وَهُمْ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ الْمَقْطُوعُونَ عَنِ اللهِ بِتِلْكَ الرُّسُومِ وَالْقِيُودِ.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنَّة؟ فقال: «مَا لَا اسْمَ لَهُ سِوَى السُّنَّةِ»، يعني: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لَيْسَ لَهُمْ اسْمٌ يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ سِوَاهَا.

فمن النَّاسِ: مَنْ يَتَّقِي بِلِبَاسٍ لَا يَلْبَسُ غَيْرَهُ، أَوْ بِالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ لَا يَجْلِسُ فِي غَيْرِهِ، أَوْ مَشِيَّةٍ لَا يَمْشِي غَيْرَهَا، أَوْ بَزِيٍّ وَهَيْئَةٍ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا، أَوْ عِبَادَةٍ مَعِيَّةٍ لَا يَتَعَبَّدُ بِغَيْرِهَا وَإِنْ كَانَتْ أَعْلَى مِنْهَا، أَوْ شَيْخٍ مَعِينٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْهُ، فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنِ الظَّفَرِ بِالْمَطْلُوبِ الْأَعْلَى مُصَدُّو دُونِ عَنِهِ، قَدْ قَيَّدَتْهُمُ الْعَوَائِدُ وَالرُّسُومُ وَالْأَوْضَاعُ وَالْإِصْطِلَاحَاتُ عَنِ تَجْرِيدِ الْمَتَابَعَةِ، فَأَضْحَوْا عَنْهَا بِمَعزَلٍ، وَمَنْزَلَتْهُمْ مِنْهَا أَبْعَدُ مَنْزَلٍ؛ فَتَرَى أَحَدَهُمْ يَتَعَبَّدُ بِالرِّيَاضَةِ وَالْخُلُوعِ، وَتَفْرِغُ الْقَلْبَ، وَيَعُدُّ الْعِلْمَ قَاطِعًا لَهُ عَنِ الطَّرِيقِ، [فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ الْجِهَادَ كَانَ أَشَدَّ نَفُورًا عَنْهُ]^(٢)، فَإِذَا ذَكَرَ لَهُ الْمَوَالَاةَ فِي اللهِ وَالْمَعَادَاةَ فِيهِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَدَّ ذَلِكَ فَضُولًا وَشَرًّا، وَإِذَا رَأَى بَيْنَهُمْ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَعَدُّهُ غَيْرًا عَلَيْهِمْ؛ فَهَؤُلَاءِ أَعْبَدَ النَّاسَ عَنِ اللهِ، وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ إِشَارَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(١) في «غ» والمنار: (ويذخره).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من ط. الفقي، وأثبتناه هنا من نسخة «غ» والمنار.

فصل

□ قال: «الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ: طَائِفَةٌ أَشَارُوا عَنْ مَنْزِلٍ وَهُمْ فِي غَيْرِهِ، وَوَزَّوْا بِأَمْرٍ وَهُمْ لِعَيْرِهِ، وَنَادَوْا عَلَى شَأْنٍ وَهُمْ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَهُمْ بَيْنَ غَيْرَةٍ عَلَيْهِمْ تَسْتُرُهُمْ وَأَدَبٍ فِيهِمْ يَصُورُهُمْ وَظَرْفٍ يُهْتَدِي بِهِمْ».

أهل هذه الطبقة استسروا اختياراً وإرادةً لذلك، صيانةً لأحوالهم، وكماًلاً في تمكُّنهم، فمقاماتهم عالية لا ترمقها العيون ولا تخالطها الظنون، يشيرون^(١) إلى ما يعرفه المخاطب من مقامات المريدين السالكين، وبدائيات السلوك، ويخفون ما مكنهم فيه الحق ﷻ من أحوال المحبة ومواجيدها، وآثار المعرفة وتوحيدها، فهذه هي التورية التي ذكرها.

فكأنهم يظهرون للمخاطب أنهم من أهل البدايات، وهم في أعلى المقامات، يتكلمون معهم في البداية والإرادة والسلوك، ومقامهم فوق ذلك، وهم محقون في الحالتين، لكنهم يسترون أشرف أحوالهم ومقاماتهم عن الناس.

وبالجملة: فهم مع الناس بظواهرهم، يخاطبونهم على قدر عقولهم، ولا يخاطبونهم بما لا تصل إليه عقولهم، فينكرون^(٢) عليهم فيحسبهم المخاطب مثله، فالتناس عندهم وليسوا هم عند أحد. قوله: «أَشَارُوا إِلَى مَنْزِلٍ، وَهُمْ فِي غَيْرِهِ».

يعني: يشيرون إلى منزل التوبة، والمحاسبة وهم في منزل المحبة، والوجد، والدُّوق ونحوها. وقد يريد: أنهم يشيرون إلى أنهم عامة، وهم خاصة الخاصة، وإلى أنهم جهال، وهم العارفون بالله، وأنهم مسيئون، وهم محسنون.

وعلى هذا؛ فيكونون من الطائفة الملامتية، الذين يظهرون ما لا يمدحون عليه، ويسرون ما يحمدهم الله عليه، عكس المرآتين المنافقين.

وهؤلاء طائفة معروفة، لهم طريقة معروفة، تسمى طريقة أهل الملامة وهم الطائفة الملامتية يزعمون: أنهم يحتملون ملام الناس لهم على ما يظهرونه من الأعمال، ليخلص لهم ما يطنونه من الأحوال، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) في «غ» والمنار: (يسيرون).

(٢) في «غ» والمنار: (فينكرون).

فهم عاملون على إسقاط جاههم ومنزلتهم في قلوب الناس، لمّا رأوا المغترّين المغترّ بهم من المنتسبين إلى السُّلوك يعملون على تركية^(١) نفوسهم، وتوفير جاههم في قلوب الناس، فعاكسهم هؤلاء وأظهروا بطالةً وأبطنوا أعمالاً، وكتموا أحوالهم جهدهم، وينشدون في هذه الحال:

فَلَيْتَكَ تَحُلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدِّيَا غَايَةَ الْمُنَى فَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

قال الإمام أحمد: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ قَالَ: كَانَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلْيُدْهِنْ لِحْيَتَهُ وَيَمْسَحْ شَفْتَيْهِ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: لَيْسَ بِصَائِمٍ».

ولهذا قال بعضهم: «التَّصَوُّفُ تَرُكُ الدَّعَاوِي، وَكَيْفَانُ الْمَعَانِي».

وسئل الحارث بن أسيد عن علامات الصادق؟ فقال: «أَلَّا يُبَالِي أَنْ يُخْرِجَ كُلُّ قَدْرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ مِنْ أَجْلِ صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَلَا يُحِبُّ اطَّلَاعَ النَّاسِ عَلَى الْيَسِيرِ مِنْ عَمَلِهِ»، وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل ويقبح من آخر، فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله؛ ليكنتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصِّحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية، فهذا كله من كنوز السُّر، وله في القلب تأثيرٌ عجيبٌ يعرفه من ذاقه.

وشكا رجلٌ إلى الأحنف بن قيسٍ شكاءةً فقال: «يا بن أخي قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنةً فما أخبرت به أحداً».

وأما الحال التي يذمُّ فيها: فإن يظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء به الناس الظنَّ، فلا يعظّموه كما يذكر عن بعضهم: أنه دخل الحمام ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشى رويداً حتى أدركوه، فأخذوها منه وسبّوه فهذا حرامٌ لا يحلُّ تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدئ به ذلك، بل وما هو دونه؛ لأنّه يغرُّ الناس، ويوقعهم في التَّأْسِي بما يظهره من سوء^(٢).

فالملامتيّة نوعان: ممدوحون أبرارٌ، ومذمومون جهالٌ، وإن كانوا في خفارة صدقهم.

فالأولون: الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فأحبُّ الناس إلى الله: من لا تأخذه في الله

(١) في «غ» والمنار: (تربية).

(٢) جملة (من سوء): ساقطة من «غ» والمنار.

لومة لائم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم...
والتَّوَعُّ الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعاً من محرّم أو مكروه؛ ليكتم بذلك حاله، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «لَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»^(١).

فلنرجع إلى شرح كلام الشيخ.

قوله: «أَشَارُوا إِلَيَّ مَنْزِلٍ وَهُمْ فِي غَيْرِهِ».

مثاله: أنهم يتكلمون في التوبة والمحاسبة وهم في منزل المحبة والفناء.

قوله: «وَوَرَّوْا بِأَمْرٍ، وَهُمْ لِعَيْرِهِ».

التورية: أن يذكر لفظاً يفهم به المخاطب معني وهو يريد غيره.

مثاله: أن يقول أحدهم: أنا غني، فيوهم المخاطب له أنه غني بالشيء، ومراده: غني بالله عنه،

كما قيل:

غَنَيْتُ بِلَا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَإِنَّ الْغِنَى الْعَالِي عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ

وأن يقول: ما صح لي مقام التوبة بعد. ويريد: ما صححت لي التوبة عن رؤية التوبة، ونحو ذلك.

قوله: «وَنَادَوْا عَلَيَّ شَأْنٍ وَهُمْ عَلَيَّ غَيْرِهِ»؛ أي: عظموا شأنًا من شئون القوم، ودعوا الناس إليه،

وهم في أعلى منه، وهذا قريب ممّا قبله.

وقوله: «فَهُمْ بَيْنَ غَيْرَةٍ عَلَيْهِمْ تَسْتُرُهُمْ»؛ أي: يغار الحق سبحانه عليهم، فيسترهم عن الخلق،

ويغارون على أحوالهم ومقاماتهم فيسترون أحوالهم عن رؤية الخلق^(٢) لها، كما قيل:

أَلِفَ الْخُمُولِ صَيَانَةً وَتَسْتُرًا فَكَأَنَّمَا تَعْرِيفُهُ أَنْ يُنْكَرَا

وَكَأَنَّهُ كَلِفُ الْفُؤَادِ بِنَفْسِهِ فَحَمَتُهُ غَيْرُتُهُ عَلَيْهَا أَنْ تَرَى

قوله: «وَأَدَبٌ فِيهِمْ يَصُونُهُمْ، بِهَذَا يَتِمُّ أَمْرُهُمْ».

وهو أن يقوم بهم أدب يصونهم عن ظنّ السوء بهم، ويصونهم عن دناءة الأخلاق والأعمال،

فأدبهم صواناً على أحوالهم، فهمته العلية ترتفع به، وأدبه يرسو به إلى التراب، كما قيل:

أَبْلَجُ سَهْلُ الْأَخْلَاقِ مُمْتَنِعٌ يُرْزُهُ الدَّهْرُ وَهُوَ يَحْتَجِبُ

إِذَا تَرَقَّتْ بِهِ عَزَائِمُهُ إِلَيَّ التُّرَيَّا رَسَابِ بِهِ الْأَدَبُ

(١) رواه أحمد (٥/٤٥٥)، والترمذي في «الفتن»، باب (٦٧)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في «الفتن»، باب: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ برقم (٤٠١٦)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤٣).

(٢) في «غ» والمنار: (فيسترون عن رؤية الخلق).

فأدب المريـد والسـالك صوان له، وتـأخ على رأسه.
قوله: «وظرف يهدبهم».

التهديب: هو التأديب والتصفية، و«الظرف في هذه الطائفة أحلى من كل حلو، وأزين من كل زين، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من ظرف إلى صدق وإخلاص، وسر مع الله وجمعية عليه، فإن أكثر من عني بهذا الشأن تضيق نفسه وأخلاقه عن سوى ما هو بصدده، فتثقل وطأته على أهله وجليسه، ويضن عليه ببشره، والتبسط إليه، ولين الجانب له، ولعمر الله إنه لمعدور، وإن لم يكن في ذلك بمشكور، فإن الخلق كلهم أغيار، إلا من أعانك على شأنك وساعدك على مطلوبك.

فإذا تمكّن العبد في حاله وصار له إقبال على الله وجمعية عليه ملكة ومقاماً راسخاً أنس بالخلق وأنسوا به، وانبسط إليهم وحملهم على صلعمهم وبطء سيرهم، فعكفت القلوب على محبته للطفه وظرفه، فإن الناس ينفرون من الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ، والله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب، ويدفع عن صاحبه من الشر، ويسهل له ما توغر على غيره، فليس الثقلاء بخواص الأولياء، وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك، وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة ولطافة وظرفاً، فترى الصادق فيها من أحلى الناس وألطفهم وأظرفهم، قد زالت عنه ثقاله النفس وكدورة الطبع، وصار روحانياً سمائياً بعد أن كان حيوانياً أرضياً، فتراه أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وألطفهم قلباً وروحاً، وهذه خاصة^(١) المحبة، فإنها تلطف وتظرف وتنظف.

ومن ظرف أهل هذه الطبقة: ألا يظهر أحدهم على جليسه بحال ولا مقام، ولا يواجهه إذا لقيه بالحال، بل بلين الجانب، وخفض الجناح، وطلاقة الوجه، فيفرش له بساط الأنس ويجلسه عليه، فهو أحب إليه من الفرش الوثيرة.

وسئل محمد بن علي القصاب أستاذ الجنيد عن التصوف؟ فقال: «أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم [من رجل كريم]^(٢) مع قوم كرام».

وبالجملة: فهذه الطريق لا تنافي اللطف والظرف، والصلف بل هي أصلف شيء لكن هاهنا دقيقة قاطعة، وهي الاسترسال مع هذه الأمور؛ فإنها أقطع شيء للمريد والسالك، فمن استرسل معها قطعت، ومن عاداها بالكليّة وعرت عليه طريق سلوكه، ومن استعان بها أراحت في طريقه، أو أراحت غيره به، وبالله التوفيق.

(١) في «غ» والمنار: (خاصية).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من طبعة الفقي ومثبت من نسخة «غ» والمنار.

فصل

وأهل هذه الطبقة، أثقل شيء عليهم: البحث عن ماجريات النَّاس، وطلب تعرُّف أحوالهم، وأثقل ما على قلوبهم سماعها، فهم مشغولون عنها بشأنهم، فإذا اشتغلوا بما لا يعينهم منها فاتهم ما هو أعظم عنايةً لهم، وإذا عدَّ غيرهم الاشتغال بذلك وسماعه من باب الظُّرف والأدب وستر الأحوال، كان هذا من خدع النفوس وتلبسها، فإنه يحطُّ الهمم العالية من أوجها إلى حضيضها، وربما يعزُّ عليه أن يحصل همَّةً أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه، فأهل الهمم والظنن الثاقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقاً إلى ذلك، إلا ما تقاضاه الأمر، وكانت مصلحته أرجح، وما عداه فبطالةٌ وحطُّ مرتبةٍ.

فصل

□ قال: «الطَّبَقَةُ الثَّلَاثَةُ: طَائِفَةٌ أَسْرَهُمُ الْحَقُّ عَنْهُمْ، فَأَلَّاحَ لَهُمْ لِأَيْحَا أَذْهَلَهُمْ عَنْ إِذْرَاكِ مَا هُمْ فِيهِ، وَهَيِّمَهُمْ عَنْ شُهُودِ مَا هُمْ لَهُ، وَضَنَّ بِحَالِهِمْ عَنْ عِلْمِهِمْ مَا هُمْ بِهِ، فَاسْتَسْرُوا عَنْهُمْ مَعَ شَوَاهِدٍ تَشْهَدُ لَهُمْ بِصِحَّةِ مَقَامِهِمْ، عَنْ قَصْدِ صَادِقٍ يَهَيِّجُهُ غَيْبٌ وَحُبُّ صَادِقٍ يَخْفَى عَلَيْهِ عِلْمُهُ، وَوَجْدُ غَرِيبٍ لَا يَنْكَشِفُ لَهُ مُوقِدُهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْوَلَايَةِ».

أهل هذه الطبقة أحقُّ باسم السِّرِّ من الذين قبلهم، فإنه إذا كانت أحوال القلب ومواهب الرَّبِّ التي وضعها فيه سرّاً عن صاحبه، بحيث لا يشعر هو بها، شغلاً عنها بالعزیز الوهَّاب سبحانه، فلا يتسع قلبه لاشتغاله به وبغيره، بل يشتغل بمجريها ومنشئها وواهبها عنها؛ فهذا أقوى وجوه السِّرِّ، بل ذلك أخفى من السِّرِّ، ومن أعظم السِّتر والإخفاء أن يستر الله ﷻ حال عبده ويخفيه عنه^(١)، رحمةً به ولطفًا، لئلا يساكنه وينقطع به عن ربِّه، فإن ذلك خلعةٌ من خلع الحقِّ تعالى، فإذا سترها صاحبها وملبسها عن عبده، فقد أراد به ألا يقف مع شيءٍ دونه، وقد يكون ذلك السِّتر ممَّا يشتغل به العبد عن مشاهدة جلال

(١) في «غ» والمنار: (عنه ويخفيه).

الرَّبُّ تعالى وكمالهِ وجمالهِ، أعني: مشاهدة القلب لمعاني تلك الصفات واستغراقه فيها. وعلامة هذا الشُّهود الصَّحيح: أن يكون باطنه معمورًا بالإحسان، وظاهره معمورًا بالإسلام؛ فيكون ظاهره عنوانًا لباطنه مصدقًا لما أتصف به، وباطنه مصححًا لظاهره، هذا هو الأكمل عند أصحاب الفناء.

وأكمل منه: أن يشاهد ما وهبه الله له ويلاحظه ويراه من محض المنَّة وعين الجود، فلا يفنى بالمعطي عن رؤية عطيته، ولا يشتغل بالعطية عن معطيها، وقد أمر الله سبحانه بالفرح بفضله ورحمته، وذلك لا يكون (إلا برؤية الفضل والرحمة وملاحظتهما)^(١)، وأمر بذكر نعمه وآلائه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُواْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].
وقال تعالى: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فلم يأمر الله سبحانه بالفناء عن شهود نعمته، فضلًا عن أن يكون مقام^(٢) الفناء أرفع من مقام شهودها من فضله ومنتته.

وقد أشبعنا القول في هذا فيما تقدّم، ولا تأخذنا فيه لومة لائم، ولا تأخذ أرباب الفناء في ترجيح الفناء عليه لومة لائم.

قوله: «أَسْرَهُمُ الْحَقُّ عَنْهُمْ»؛ أي: شغلهم به عن ذكر أنفسهم، فأنساهم بذكر نفوسهم، وهذا ضدّ حال الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فإن أولئك لما نسوا أنساهم مصالح أنفسهم التي لا صلاح لهم إلا بها فلا يطلبونها، وأنساهم عيوبهم^(٣) فلا يصلحونها، وهؤلاء أنساهم حظوظهم بحقوقه، وذكر ما سواه بذكره، والمقصود: أنه سبحانه أخذهم إليه وشغلهم به عنهم.
قوله: «وَأَلَا حَ لَّهُمْ لَائِحًا أَذْهَلُهُمْ عَنِّ إِدْرَاكِ مَا هُمْ فِيهِ».

ألاح؛ أي: أظهر، والمعنى: أظهر لهم من معرفة جماله وجلاله لائحًا ما لم تتسع قلوبهم بعده لإدراك شيء من أحوالهم ومقاماتهم، وهذا رقيقة من حال أهل الجنة، إذا تجلّى لهم سبحانه وأراهم نفسه، فإنهم لا يشعرون في تلك الحال بشيء من النعيم، ولا يلتفتون إلى سواه ألبتة، كما صرح به في

(١) في «غ» والمنار: (إلا برؤيته وملاحظته).

(٢) في «غ» والمنار: (مقامه)، وكلمة الفناء التي بعدها ساقطة من «غ» والمنار.

(٣) في «غ» والمنار: (عيوبها).

الحديث الصحيح في قوله: «فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»^(١).

والمعنى: أن هذا اللأئح الذي ألاحه سبحانه لهم أذهلهم عن الشعور بغيره.

قوله: «هَيِّمَهُمْ عَنْ شُهُودِ مَا هُمْ لَهُ».

يحتمل أن يكون مراده: أن هذا اللأئح هيئهم عن شهود ما خلقوا له؛ فلم يبق فيهم اتساع للجمع بين الأمرين، وهذا وإن كان لقوة الوارد فهو دليل على ضعف المحل، حيث لم يتسع القلب معه لذكر ما خلق له، والكمال: أن يجتمع له الأمران.

ويحتمل أن يريد به: أن هذا اللأئح غيَّبهم عن شهود أحوالهم التي هم لها في تلك الحال، فغابوا بمشهودهم عن شهودهم، وبمعروفهم عن معرفتهم، وبمعبودهم عن عبادتهم؛ فإنَّ الهائم لا يشعر بما هو فيه ولا بحال نفسه.

وفي «الصَّحاح»: «الْهَيِّمُ كَالْجُنُونِ مِنَ الْعَشْقِ».

قوله: «وَصَنَّ بِحَالِهِمْ عَنْ عِلْمِهِمْ»؛ أي: بخل به^(٢)، والمعنى لم يمكن^(٣) علمهم أن يدرك

حالهم وما هم عليه.

قوله: «فَاسْتَسْرُوا عَنْهُمْ»؛ أي: اختفوا حتى عن أنفسهم، فلم تعلم نفوسهم كيف هم؟ ولا تبادر

بإنكار هذا تكن ممن لا يصل إلى العنقود، فيقول: هو حامض.

قوله: «مَعَ شَوَاهِدَ تَشْهَدُ لَهُمْ بِصِحَّةِ مَقَامِهِمْ».

يريد: أنَّهم لم يعطلوا أحكام العبودية في هذه الحال، فيكون ذلك شاهداً عليهم بفساد أحوالهم،

بل لهم مع ذلك شواهد صحيحة، تشهد لهم بصحة مقاماتهم، وتلك الشواهد هي القيام بالأمر وآداب الشريعة ظاهراً وباطناً.

قوله: «عَنْ قَصْدٍ سَابِقٍ يَهَيِّجُهُ غَيْبٌ».

يجوز أن يتعلَّق^(٤) هذا الحرف وما بعده بمحذوف، دلَّ عليه الكلام؛ أي: حصل لهم ذلك عن

قصد صادق؛ أي: لازم ثابت، لا يلحقه تلونٌ «يَهَيِّجُهُ غَيْبٌ»؛ أي: أمرٌ غائبٌ عن إدراكهم هيَّج لهم ذلك القصد الصادق.

قوله: «وَحُبُّ صَادِقٍ يَخْفَى عَلَيْهِ مَبْدَأُ عِلْمِهِ»؛ أي: هم لا يعرفون مبدأ ما بهم، ولا يصل علمهم

إليه؛ لأنَّهم لما لاح لهم ذلك اللأئح استغرق قلوبهم، وشغل عقولهم عن غيره، فهم مأخوذون عن

(١) تقدم تخريجه (ص ٣١٨).

(٢) ما ينبغي أن يطلق هذا في جانب الله الكريم. (الفاقي).

(٣) في «غ» والمنار: (لم يكن).

(٤) في «غ» والمنار: (يجوز أن يكون يتعلَق).

أنفسهم مقهورون بواردهم.

قوله: «وَوَجَدُ غَرِيبٌ لَا يَنْكَشِفُ لِصَاحِبِهِ مُوقِدُهُ»؛ أي: لا ينكشف لصاحب هذا الوجد السبب الذي أهاجه له، وأوقده في قلبه، فهو لا يعرف السبب الذي أوجد نار وجدته.

قوله: «وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ مَقَامَاتِ أَهْلِ الْوِلَايَةِ». جعله دقيقاً لكون الحسّ مقهوراً مغلوباً عند صاحبه، والعلم والمعرفة لا يحكمان عليه، فضلاً عن الحسّ والعادة.

وحاصل هذا المقام: الاستغراق في الفناء، وهو الغاية عند الشيخ.

والصحيح: أنّ أهل الطبقة الثّانية أعلى من هؤلاء وأرفع مقاماً، وهم الكملّ؛ وهم أقوى

منهم، كما كان مقام رسول الله ﷺ ليلة الإسراء أرفع من مقام موسى ﷺ يوم التّجلي، ولم يحصل

لرسول الله ﷺ من الفناء ما حصل لموسى ﷺ، وكان حبّ امرأة العزيز ليوسف ﷺ أعظم من

حبّ النسوة، ولم يحصل لها من تقطيع الأيدي ونحوه ما حصل لهنّ، وكان حبّ أبي بكرٍ ﷺ

لرسول الله ﷺ أعظم من حبّ عمرٍ ﷺ وغيره، ولم يحصل له عند موته من الاضطراب والغشي

والإقعاد ما حصل لغيره.

فأهل البقاء والتّمكّن أقوى حالاً وأرفع مقاماً من أهل الفناء، وبالله التّوفيق.



[تم بحمد الله تعالى المجلد الثالث، يليه المجلد الرابع وأوله منزلة النفس]



فهرس الموضوعات

- ٥..... فصلٌ في منزلة الصدق، والآيات فيه
- ٦..... مدخل الصدق ومخرجه، ولسانه وقدمه وقصده
- ١٠..... فصلٌ: كلماتٍ في حقيقة الصدق.
- ١٢..... تفسير (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين).
- ١٤..... فصلٌ في حقيقة الصدق ومعناه.
- ١٥..... درجات الصدق، الأولى: صدق القصد.
- ١٦..... فصلٌ: الثانية: تمنى الحياة للحق.
- ١٨..... فصلٌ: الثالثة: الصدق يأتي بالصدق.
- ٢١..... لسان الأبرار والمقربين والعلم والحال
- ٢١..... تحكيم العلم في الحال دون العكس.
- ٤٠..... قرب الله من عبده، والمعية وما في ذلك من الشبهات المضلة
- ٢٥..... فصلٌ في منزلة الإيثار.
- ٢٦..... فصلٌ في مراتب الجود.
- ٣٠..... فصلٌ في تعريف الإيثار والأثرة.
- ٣١..... فصلٌ في درجات الإيثار، الأولى: إيثار الخلق.
- ٣٢..... فصلٌ في بواعث الإيثار.
- ٣٣..... فصلٌ: الثانية: في إيثار رضا الله على رضا غيره.
- ٣٥..... فصلٌ: الثالثة: في إيثار الله تعالى وترك شهود رؤية الإيثار.
- ٣٧..... فصلٌ في منزلة الخلق، وتفسير (وإنك لعلی خلق عظیم).
- ٤١..... فصلٌ في أركان حسن الخلق وأركان الأخلاق السافلة.
- ٤٤..... فصلٌ الإعراض عن المفاسد خير من مقاومتها.
- ٥٠..... هل الخلق كسبي أم فطري؟

- ٥٠..... فصلٌ في حقيقة الخلق
- ٥٢..... فصلٌ في درجات الخلق: الأولى أن تعرف مقام الخلق
- مشاهد العبد الأحد عشر فيما يصيبه من أذى الخلق: القدر، الصبر، العفو والصفح، الرضا، الإحسان، السلامة، الأمن، الجهاد، النعمة، الأسوة، التوحيد..... ٥٣
- ٥٨..... فصلٌ في معرفة أقدار الناس
- ٥٩..... فصلٌ: الدرجة الثانية في تحسين خلقك مع الحق
- ٦٠..... فصلٌ: الدرجة الثالثة التخلق بتصفية الخلق
- ٦١..... فصلٌ: مدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق
- ٦١..... فصلٌ في منزلة التواضع، وتفسير (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً)
- ٦٣..... تواضع النبي ﷺ وأخلاقه
- ٦٤..... فصلٌ في معنى التواضع عند القوم
- ٦٧..... فصلٌ في مفسد الكبر والحرص
- ٦٨..... فصلٌ في حقيقة التواضع ودرجاته
- ٦٨..... الدرجة الأولى: التواضع للدين
- ٧٠..... فصلٌ في مفتاح التواضع
- ٧١..... فصلٌ: الدرجة الثانية: في علامة التواضع
- ٧٢..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: التواضع للحق
- ٧٣..... عمل المرء لا يوجب له حقاً على الله تعالى
- ٧٤..... فصلٌ في منزلة الفتوة، معناها، وأصلها
- ٧٧..... فصلٌ في حقيقة الفتوة ودرجاتها، الأولى: ترك الخصومة
- ٧٩..... فصلٌ: الدرجة الثانية: مقابلة الإساءة بالإحسان
- ٨٠..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: طلب الدليل دليل على عدم اليقين
- ٨٣..... كمال الفتوة ألا تحوج المعتذر إلى شفيح
- ٨٤..... فصلٌ في منزلة المروءة: اشتقاقها وحقيقتها
- ٨٥..... مروءة المرء مع نفسه، ومع الخلق، ومع الحق
- ٨٧..... فصلٌ في منزلة البسط

- درجات الانبساط (مع الخلق، ومع الحق) ٨٨
- فصلٌ في منزلة العزم ٩١
- الدرجة الأولى إباء الحال على العلم ٩٢
- فصلٌ: الدرجة الثانية: الاستغراق في لوائح المشاهدة ٩٣
- فصلٌ: الدرجة الثالثة: في العزم على التخلص من العزم ٩٤
- فصلٌ في منزلة الإرادة عبارات القوم عنها ٩٥
- كلام الجنيد في صدق المرید، واستغناؤه عن العلم وحاجته إليه ٩٦
- الفقراء والصوفية، ومراتب التعبد، والتصوف والفقر ٩٨
- فصلٌ في حقيقة الإرادة ١٠٠
- الشريعة والحقيقة ١٠١
- فصلٌ: الدرجة الثانية: في صحبة الحال ١٠٣
- معنى القبض والبسط ١٠٣
- الدرجة الثالثة: ذهول مع صحبة الاستقامة ١٠٤
- فصلٌ في منزلة الأدب، وأنواع الثلاثة ١٠٥
- أدب الأنبياء عليهم السلام مع الله تعالى ١٠٧
- أدب النبي ﷺ مع الله وموافقة بصره لبصيرته ١١٠
- تفسير (ما زاع البصر وما طغى) ١١٠
- فصلٌ: الأدب هو الدين كله ١١٢
- فصلٌ: الأدب مع الرسول ﷺ ١١٤
- فصلٌ: الأدب مع الخلق ١١٦
- فصلٌ: الأدب بين التفريط والإفراط ١١٧
- فصلٌ: في درجات الأدب. الأولى منع الخوف ١١٩
- فصلٌ: الثانية: في السير بين القبض والبسط ١٢٠
- فصلٌ: الثالثة: في الفناء عن التأديب بتأديب الحق للخلق ١٢١
- فصلٌ في منزلة اليقين، وقول المصنف فيه ١٢٢
- أقوال في اليقين والحضور، وفي التفاضل بينهما ١٢٤

- ١٢٥..... فصلٌ في مركب السائرين ودرجات اليقين
- ١٢٥..... الدرجة الأولى: علم اليقين
- ١٢٦..... الدرجة الثانية: عين اليقين
- ١٢٧..... الدرجة الثالثة: حق اليقين
- ١٢٩..... فصلٌ في منزلة الأنس بالله
- ١٢٩..... درجات الثلاث: الأولى: الأنس بالشواهد
- ١٣٠..... الغذاء الروحاني تعلقه بالحواس
- ١٣١..... المفاضلة بين السمع والبصر
- ١٣٢..... وجه أفضلية السمع تأثير الإسماع
- ١٣٢..... تفاوت حظوظ السماع بتفاوت المستمعين
- ١٣٤..... فصلٌ: أقسام الناس في السماع
- ١٣٦..... قول ابن تيمية في معنى الإشارات والتمثيل بتفسير (لا يمسه إلا المطهرون)
- ١٣٨..... فصلٌ: الدرجة الثانية: الأنس بنور الكشف
- ١٤١..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: أنس اضمحلال في شهود الحضرة
- ١٤١..... فصلٌ في منزلة الذكر، قول المصنف فيه
- ١٤٢..... فصلٌ: الذكر في القرآن على عشرة أوجه
- ١٤٣..... فصلٌ في تفصيل ذلك
- ١٤٦..... فصلٌ في أهل السبق، والأحاديث فيه
- ١٤٩..... فصلٌ في نسيان الذكر
- ١٥١..... فصلٌ في تعريف الذكر ودرجاته الدرجة الأولى: الذكر الظاهر
- ١٥٣..... الدرجة الثانية
- ١٥٣..... الدرجة الثالثة
- ١٥٥..... فصلٌ في منزلة الفقر، وأنواع الفقر في القرآن
- ١٥٨..... تحقيق التفضيل بين الغنى والفقر
- ١٥٩..... فصلٌ: الفقر اسم للبراءة من الملكة
- ١٦٠..... فصلٌ في درجات الفقر: الأولى: فقر الزهاد

- ١٦٢ فصلٌ: الدرجة الثانية: مطالعة الفضل يورث شهود التقصير
- ١٦٣ فصلٌ: الدرجة الثالثة: فقر الصوفية شهود كمال الضرورة.
- ١٦٤ فصلٌ في منزلة الغنى العالي.
- ١٦٥ درجات الغنى (غنى القلب، غنى النفس، الغنى بالحق).
- ١٦٨ فصلٌ في منزلة المراد.
- ١٦٨ فصلٌ في معنى المرید والمراد.
- فصلٌ في درجات المرید: أن يعصم المعبود العبد، أن يضع عن العبد عوارض النقص، واجتباء الحق عبده.
- ١٦٩
- ١٧٤ فصلٌ في منزلة الإحسان.
- درجات الإحسان: الإحسان في القصد والإحسان في الأحوال، والإحسان في الوقت .. ١٧٥-١٧٧
- ١٧٨ فصلٌ في منزلة العلم.
- فصل في حقيقة العلم ودرجاته الجلي، والخفي، واللدني .. ١٨٤-١٨٧
- ١٨٩ فصلٌ منزلة الحكمة وتعريفها.
- درجات الحكمة الأولى: أن يعطي كل شيء حقه .. ١٩٠.
- ١٩٢ فصلٌ: الدرجة الثانية: في معرفة الحكمة في الوعد والوعيد.
- ١٩٣ فصلٌ: الدرجة الثالثة: في البصيرة والحقيقة والغاية.
- ١٩٤ فصلٌ في منزلة الفراسة.
- ١٩٦ فصلٌ في أنواع الفراسة أولها: الفراسة الإيمانية.
- ١٩٨ فصلٌ في فراسة الرياضة والجوع.
- ١٩٩ فصلٌ في الفراسة الخلقية.
- ٢٠٠ أسباب الفراسة، وفراسة ابن تيمية وإخباره بأمر التتار قبل وقوعه.
- ٢٠٢ فصلٌ: الفراسة استئناس حكم غيب.
- ٢٠٢ فصلٌ في درجات الفراسة، الأولى: فراسة طارئة نادرة.
- ٢٠٥ فصلٌ: الدرجة الثانية في فراسة تُجنى من غرس الإيمان.
- ٢٠٥ فصلٌ: الثالث: فراسة سرية.
- ٢٠٦ فصلٌ في منزلة التّعظيم، ودرجاته الأولى تعظيم الأمر والنهي.

- ٢٠٩..... فصلٌ: الدرجة الثانية في تعظيم الحكم الكوني، والفرق بين القضاء والمقضي
- ٢١٢..... فصلٌ: الدرجة الثالثة في تعظيم الحق سبحانه
- ٢١٣..... فصلٌ في منزلة الإلهام
- ٢١٣..... فصلٌ في منزلة السكينة، والآيات فيها
- ٢١٥..... فصلٌ: السكينة الأولى في سكينة بني إسرائيل
- ٢١٦..... فصلٌ: السكينة الثانية: السكينة التي تنطبق على لسان المحدثين
- ٢١٨..... فصلٌ: السكينة الثالثة في السكينة التي نزلت على قلب محمد ﷺ
- ٢١٩..... فصلٌ في حصول النور والحياة والروح بالسكينة
- ٢٢٠..... فصلٌ في سكينة الوقار، ودرجات السكينة: الأولى الخشوع عند القيام للخدمة
- ٢٢١..... فصلٌ: الدرجة الثانية: السكينة عند المعاملة
- ٢٢٢..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: السكينة التي تثبت الرضا بالقسم
- ٢٢٣..... فصلٌ في منزلة الطمأنينة
- ٢٢٤..... فصلٌ: الفرق بين الطمأنينة والسكينة
- ٢٢٦..... درجات الطمأنينة؛ الأولى: طمأنينة القلب بذكر الله
- ٢٢٧..... فصلٌ: الدرجة الثانية في طمأنينة الروح في القصد إلى الكشف
- ٢٢٨..... فصلٌ: الدرجة الثالثة في طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف
- ٢٣٠..... فصلٌ: طمأنينة الجمع إلى البقاء
- ٢٣٠..... فصلٌ: طمأنينة المقام إلى الأزل
- ٢٣١..... فصل في منزلة الهمة، ودرجاتها الثلاثة
- ٢٣٤..... فصلٌ في منزلة المحبة
- ٣٣٥..... شعر وكلام في المحبة وفيمن يستحقها
- ٢٣٨..... فصلٌ: الأصل اللغوي لمادة «المحبة»
- ٢٣٩..... فصلٌ في ذكر رسوم وحدود قيلت في المحبة، وهي ثلاثون
- ٢٤٤..... فصل في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، وهي عشرة
- ٢٤٥..... فصلٌ في محبة العبد لربه، والرب لعبده
- ٢٤٧..... الآيات في المحبة وتفسيرها

- ٢٥٠..... الأحاديث في حب الله
- ٢٥٢..... أسرار المحبة ولوازمها، وهي روح الإسلام
- ٢٥٤..... فصلٌ في مراتب المحبة العشر وأسمائها ومعانيها
- ٢٥٧..... شعر آخر في المحبة
- ٢٥٩..... فصلٌ في تعريف «الهروي» للمحبة
- ٢٦٢..... درجات المحبة، الأولى، محبة تقطع الوسوس
- ٢٦٣..... فصلٌ في منبت المحبة وما يثبتها وينميها
- ٢٦٥..... فصلٌ: الدرجة الثانية: في محبة الخواص تبعث على إثارة الحق على غيره
- ٢٦٦..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: محبة خاطفة تقطع العبارة
- ٢٦٧..... فصلٌ في أن المحبة الخاطفة هي قطب هذا الشأن
- ٢٦٨..... شعر في وجوب محبة الله تعالى
- ٢٦٩..... فصلٌ في منزلة الغيرة والأحاديث النبوية فيها
- ٢٧١..... الغيرة لله تعالى
- ٢٧١..... الغيرة على الله تعالى من شطحات القوم
- ٢٧٣..... فصلٌ: تعريف «الهروي» للغيرة
- ٢٧٤..... فصلٌ في درجاتها، الأولى: غيرة العابد على ضائع يستر ضياعه
- ٢٧٥..... فصلٌ: الدرجة الثانية: غيرة المرید
- ٢٧٧..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: غيرة العارف
- ٢٧٧..... فصلٌ منزلة الشوق
- ٢٧٨..... فصلٌ في تعريف الشوق
- ٢٧٩..... فصلٌ هل يزول الشوق باللقاء أم يزيد؟
- ٢٨٠..... فصلٌ: الشوق هبوب القلب إلى غائب
- ٢٨٢..... فصلٌ في درجات الثانية، الأولى: الشوق إلى الجنة
- ٢٨٢..... فصلٌ: الدرجة الثانية: الشوق إلى الله ﷻ
- ٢٨٤..... فصلٌ: الدرجة الثالثة: في نار الشوق
- ٢٨٤..... فصلٌ في باب القلق

- ٢٨٥ فصل في درجات القلق، الأولى: قلق يضيق الخلق
- ٢٨٦ فصلٌ: الثانية: قلق يغالب العقل
- ٢٨٦ فصلٌ: الثالثة: قلق لا يرحم أبداً
- ٢٨٧ فصلٌ في منزلة العطش
- ٢٨٨ فصل في درجاته الأولى: عطش المرید
- ٢٨٩ فصلٌ: الثانية: عطش السالك
- ٢٩٠ فصلٌ: الثالثة: عطش المحب
- ٢٩٢ فصلٌ في منزلة الوجد
- ٢٩٣ الفرق بين الوجد والمواجيد، والوجود والتواجد
- ٢٩٥ فصلٌ في تعريف الوجد
- ٢٩٥ فصل في درجات الوجد، الأولى: وجد عارض
- ٢٩٦ فصلٌ: الدرجة الثانية: وجد تستفيق له الروح
- ٢٩٨ فصلٌ: الدرجة الثالثة: وجد يخطف العبد من يد الكونين
- ٣٠٠ فصلٌ في منزلة الدهش
- ٣٠١ فصل: في درجات الدهشة، الأولى دهشة المرید
- ٣٠٢ فصلٌ: الدرجة الثانية: دهشة السالك
- ٣٠٣ فصل: الدرجة الثالثة: دهشة المحب
- ٣٠٤ فصلٌ في منزلة الهيمن وتعريفه
- ٣٠٥ فصل في درجاته، الأولى: هيمن في شيم أوائل برق اللطف
- ٣٠٦ فصلٌ: الدرجة الثانية: هيمن في تلاطم أمواج التحقيق
- ٣٠٦ فصلٌ: الدرجة الثانية: هيمن عند الوقوع في عين القدم
- ٣٠٧ فصلٌ في منزلة البرق، تعريفه
- ٣٠٨ درجات البرق، الأولى: برق يلمع من جانب العدة في عين الرجاء
- ٣٠٩ فصلٌ: الدرجة الثانية: برق يلمع من جانب الوعيد
- ٣١٠ فصلٌ: الدرجة الثالثة: برق يلمع من جانب اللطف
- ٣١٢ فصل في منزلة اللذوق، تعريفه، استعماله اللغوي

- ٣١٤..... فصل: تذكر يقود إلى الذوق
- ٣١٤..... فصل في تعريف الذوق
- ٣١٥..... فصل في درجاته، الأولى ذوق التصديق
- ٣١٩..... فصل: الثانية ذوق الإرادة طعم الأنس
- ٣٢٠..... فصل: الثالثة: ذوق الانقطاع
- ٣٢٣..... فصل في منزلة «اللحظ»
- ٣٢٤..... درجات اللحظ، الأولى ملاحظة الفضل سبقاً
- ٣٢٥..... الآيات والآثار في الدعاء
- ٣٢٧..... إجابة الدعاء والسبب والمسبب
- ٣٢٩..... فصل: لحظ ينبت السرور
- ٣٣١..... هل يسأل الأمن من مكر الله تعالى؟
- ٣٣٢..... فصل: الدرجة الثانية: لحظ يوجب الاستغراق في مشاهدة الأسماء
- ٣٣٤..... فصل: الدرجة الثالثة: ملاحظة عين الجمع
- ٣٣٥..... التحقيق في تعارض النوافل والجمعية على الله تعالى
- ٣٣٩..... كفر مدعي الاستغناء عن العبادة
- ٣٣٩..... أقوال في العبادة والسنة
- ٣٤٢..... فصل في عين الجمع ومعارضة أقدار الله
- ٣٤٢..... كفر تارك إنكار المنكر الديني بشبهة أنه مراد الله الكوني
- ٣٤٤..... فصل في مطالعة البدايات
- ٣٤٦..... فصل في منزلة الوقت
- ٣٤٧..... تعريف الوقت
- ٣٤٨..... أقسام الصوفية: أصحاب السوابق، والعواقب، والوقت، والحق
- ٣٥٠..... فصل في معاني الوقت الثلاثة، الأول وجد صادق
- ٣٥٢..... فصل الثاني: اسم لطريق السالك
- ٣٥٤..... التفريق بين أهل العلم والحال ودرجاتهما
- ٣٥٥..... فصل: الثالث: الوقت الحق

- نشآت العبد الأربعة..... ٣٥٧
- فصلٌ في منزلة الصِّفاء..... ٣٥٩
- فصل: في درجاتها، الأولى: صفاء علم يهذب السلوك..... ٣٥٩
- ضرب مثل لحال الناس مع الرسل، وافتراقهم إلى خمس طوائف..... ٣٦١
- فصلٌ الدرجة الثانية: صفاء الحال..... ٣٦٤
- فصلٌ: الدرجة الثالثة: صفاء الاتصال..... ٣٦٦
- شرح «أن تعبد الله كأنك تراه»..... ٣٦٩
- فصلٌ باب السُّرور..... ٣٧١
- تفسير (قل بفضل الله وبرحمته)..... ٣٧١
- الفرح في القرآن نوعان: محمود ومذموم..... ٣٧٢
- فصلٌ: معنى السُّرور والبشرى واستعمالهما في القرآن..... ٣٧٣
- درجات السُّرور الأولى: سرور ذوق ذهب بثلاثة أحزان..... ٣٧٦
- الدرجة الثانية: سرور شهود كشف حجاب العلم..... ٣٧٩
- الفرق بين العلم والمعرفة..... ٣٨٠
- فصلٌ: الدرجة الثالثة: سرور شمع الإجابة..... ٣٨٢
- فصلٌ ومنها منزلة «السِّرِّ»..... ٣٨٤
- فصلٌ في طبقات الأصحاب السر، الأولى: طائفة علَّتْ هممُهُم..... ٣٨٥
- فصلٌ الطبقة الثانية: الطائفة الملامتية وما فيها من القبائح..... ٣٩٠
- فصلٌ في الاشتغال بالنفس عن الغير..... ٣٩٤
- فصلٌ: الطبقة الثالثة: أسرهم الحق عنهم..... ٣٩٤
- تفضيل مقام البقاء على مقام الفناء..... ٣٩٦
- فهرس موضوعات المجلد الثالث..... ٣٩٩